أعمال خالدة

١

دون كيخوته

ثربانتس

(الجزء الأول)

ترجمه عن الاسبانية

د. عبد الرحمن بدوي





١

أعمال خالدة



اسم المــؤلف : ثربانتس

عنوان الكتـاب : دون كيخوته/١

ترجمـــة : د. عبد الرحمن بدوي

النـاشـــر : دار المدى للثقافة والنشر
المجمع الثقافي/ أبو ظبي

الطبـعـة الأولى : ١٩٩٨

Author : Miguel de Cervantes

Title : Don Quijote de la Mancha

Translator: Dr. Abdel-Rahman Badawi

Al- Mada : P. C.

Cultural Foundation

First Edition 1998

دار المدى للثقافة والنشر

سوريا - دمشق صندوق بريد : ٨٢٧٢ أو ٧٣٦٦

تلفون : ٧٧٧٢٠١٩ - ٧٧٧٦٨٦٤ - فاكس : ٧٧٧٣٩٩٢

بيروت - لبنان صندوق بريد : ٣١٨١ - ١١

فاكس : ٤٢٦٢٥٢ - ٩٦١١

المجمع الثقافي

الامارات العربية المتحدة - أبو ظبي

ص .ب : ٢٣٨٠

تلفون : ٢١٥٣٠٠

Al Mada : Publishing Company F.K.A.
Nicosia - Cyprus , P.O.Box . : 7025
Damascus - Syria , P.O.Box . : 8272 or
7366 . Tel: 7776864 , Fax: 7773992
P.O. Box : 11 - 3181 , Beirut - Lebanon,
Fax : 9611- 426252

Cultural Foundation
U.A.E. Abu Dhabi
P.O.Box: 2380
Tel. 215300

تصدير عام

ثربانتس ودون كيخوته

روائع الأدب العالمي أربع : «الإلياذة» لهوميروس ، و«الكوميديا الإلهية» لدانته ، و«دون كيخوته» لثربانتس ، و«فاوست» لجيته .

وها نحن أولاء نقدم الى القارئ العربي الثالثة من هذه الروائع .

والصفة السائدة في الأولى هي البطولة ، وفي الثانية القداسة ، وفي الثالثة التهكم ، وفي الرابعة الإنسانية .

ودون كيخوته تجسُّد للمثال ، وللقيم المجرّدة ؛ إنه الجانب المثالي من الوجود ، الذي يصرعه الجانب الواقعي ، ويظل الصراع بين كلا الجانبين متصلاً ، لا يفتُّ في عضده انتصار الواقع على المثال باستمرار . ومن هنا كان هذا الديالكتيك الحي الذي يمثل طرفيه كل من الفارس دون كيخوته وحامل السلاح سنشو پنثا . ولهذا كانت قصة «دون كيخوته» هي قصة الوجود نفسه بقطبيه المتنافرين المتصارعين المتنازعين ، ومن نزاعهما يتألف ديالكتيك الوجود ؛ وكانت شخصية دون كيخوته من النماذج الإنسانية العليا ، الى جانب پرومثيوس ، وفاوست ، وهاملت ، ودون جوان . إن دون كيخوته يمثل روح الإنسان ، أما رفيقه سنشو پنثا فيمثل بدن الإنسان ، هذا الرفيق الأصيل للروح .

- ١ -

حياة ثربانتس

أما المؤلف فهو ميجيل دي ثربانتس سابدرا Miguel De Cervantes Saavedra الذي ولد في قلعة هنارس ، وعمِّد في كنيسة القديسة مريم الكبرى في التاسع من شهر أكتوبر سنة ١٥٤٧ . وكان أبوه ، رودريجو دي ثربانتس ، جرّاحاً ، وأمه ، ليونور دي كورتيناس .

وأمضى طفولته في مدينة بلد الوليد حيث كان أبوه يمارس مهنته . ويقال إنه درس عند اليسوعيين في «مدرسة الجماعة» في إشبيلية . وربما يكون قد درس أيضاً في شلمنقة لأن في مؤلفاته إشارات غريبة إلى هذه المدينة المشهورة بجامعتها الدينية «والتي تسمى في كل العالم أم العلوم ، ويدرس فيها في العادة من عشرة إلى اثني عشر ألفاً من الطلاب ، وهم زمرة فتية ، يغلبها الهوى ، وفيها اندفاع ، وحرية ، وتصنع ، وإسراف ، وظرف ، وشيطنة ومزاج»[1] . كما أنه درس في مدريد لمدة قصيرة .

وسافر إلى إيطاليا لأسباب اختُلِف فيها ؛ فزعم البعض أنه هرب الى إيطاليا خوفاً من توقيع العقاب عليه بسبب مبارزة بينه وبين شخص يدعى أنطونيو دي سيجورا ، ويقال إنه حكم على من يدعى «ميجيل دي ثربانتس» Zerbantes بسبب ذلك بالنفي عشر سنوات وقطع يده اليمنى . ولكن هذه الدعوى لاتزال بمعزل عن كل تأكيد[2] . ـ وفي إيطاليا عمل في حاشية الكردينال جولو أكواڤيڤا Acquaviva . وتعلم اللغة الإيطالية ، واستطاع أن يقرأ كبار الكتاب الإيطاليين في الأصول ، وأعجبه منهم خاصة أريوستو ، وسيتأثر بملحمته «أورلندو الغاضب» في قصته هذه «دون كيخوته» . ولذَّت له الحياة الحرة في إيطاليا في ذلك العصر ، عصر النهضة بروحه الطلقة ، وحساسيته المرهفة المتفتحة للجمال والآداب والفنون ، وتأثره بروائع الفن والأدب اليونانيين . وقد قدّم لنا ثربانتس في قصة «المجاز ڤدرييرا» صورة جميلة لفيرنتسه (فلورانس) «ذات الموقع البديع... النظيفة ، ذات الأبنية الفخمة ، والنهر العذب والطرقات الهادئة» . ونعت روما بأنها «سيدة الدنيا» ، وقد أعجبه فيها مرمرها المتداعي ، وتماثيلها الكاملة والنصفية ، وأقواسها المقطوعة ، وحمّاماتها المتهدمة ، وبواباتها الرائعة ، ومدرجاتها الواسعة . وطالما تردد ذكر روما في قصصه وأشعاره ، وكأنها رؤيا ساحرة .

وانخرط في الجندية سنة ١٥٦٨ فتبدى عن جندي صعب المراس . واشترك في معركة الليپانتو Lepanto البحرية (٧ أكتوبر سنة ١٥٧١) ، وهي المعركة التي وقعت بين الأتراك من ناحية ، والبنادقة والإسبان وبعض الأوروبيين من ناحية أخرى ، وكان الأسطول التركي

---

(١) راجع عن دراسات ثربانتس :

a) Rodriguez Marin: Cervantes estudio en Sevilla (1905);

b) Rodriguez Marin: Cervantes y la Universidad de Osuna, in, Homenaje a Menandez y Pelayo, 1899;

c) Narciso A. Cortes. Cervantes en valladolid, Madrid, 1918;

d) Blanca de los Rios: "Estudio Cervantes an Salamanca"? in Espana Moderna, 1899.

(٢) Jeronimo Moran: Vida de Cervantes, Madrid 1867.

مؤلفاً من ٢٠٠ جاليره تتلوها سفن صغيرة أخرى ؛ بينما كان الأسطول المسيحي مؤلفاً من ٢٠٠ جاليره تتلوها سفن صغيرة عديدة ، عقد لواؤها لدون خوان النمساوي ، وانتهت بهزيمة الأتراك ، مما أوقف التوسع العثماني في البحر الأبيض المتوسط . وفي هذه المعركة فقد ثربانتس يده اليسرى كما قال ؛ ولكن ذراعه لم تُقطع ، بل فقد القدرة على استعمالها فقط .

وهذا الحادث ظل ثربانتس يتباهى به طوال حياته ، وينشد فيه القصائد .

كذلك اشترك في حملة كورفو (جزيرة يونانية) ، وفي مغامرات القرصان وغاراتهم على نوراين وتونس . واشتهر جندياً ممتازاً ، وهو في پالرمو مع فرقته .

وفي طريق عودته الى اسبانيا هاجمت سفينة الجاليرات التركية ، وأخذته أسيراً الى مدينة الجزائر . وهنا في الجزائر قضى خمس سنوات أسيراً سجيناً . وكانت الجزائر ، كما وصفها ، آنذاك مركزاً لأعمال البحرية التركية والإسلامية بعامة ؛ يأوي إليها القراصنة من كل أنحاء الدنيا . وحاول في أثناء أسره أن يهرب ، ودبّر خطة لذلك مع بعض الأسرى الاسبان ، ولكن الخطة فسدت ، وكاد أن يقتل . ولما لم تُجد خطة الهرب لم يجد غير الفدية بالمال وسيلة لإطلاق سراحه . وكتب الى كاتب الملك فيليب الثاني ، ملك إسبانيا ، يتوسل إليه أن يحث الملك على تحرير هؤلاء الأسرى النصارى في رسالة طويلة تفيض شكوى وأسى . ولكن فيليب لم يستطع إنقاذ هؤلاء . فلم يكن أمام ثربانتس من وسيلة غير الفدية بالمال . وقد تم ذلك في سنة ١٥٨٠ بتوسط من الأخ التثليثي خوان خيل .

وفترة الأسر هذه التي قضاها ثربانتس في مدينة الجزائر كان لها أعمق الأثر في نفسه وفي إنتاجه . وقصة «دون كيخوته» خير شاهد على هذا الأثر البالغ . ففيها فصول طوال تصف أحداثه في الجزائر ، واتخذ من هذه المدينة إطاراً لأحداث جميلة رواها ؛ كما أن معرفته بالقليل من العربية قد ظفر بها في أثناء هذا الأسر .

* * *

عاد ميجيل دي ثربانتس إذن الى وطنه في سنة ١٥٨٠ . ولكنه عاد ليلقى هنا العذاب والشقاء والإنكار والفقر والحرمان .

عاش في مدريد ، وبلد الوليد . وتزوج من السيدة كتالينا دي پلاثيوس ، وهي من اسكيباس Esquivias ، وكان زواجاً غير موفق .

وعاش في إشبيلية ، «ويا لها من مدينة! كم فيها من حياة وحركة ، وغدو ورواح ، وتنوع في الأزياء ، واختلاط في اللهجات كأنها برج بابل ، وتدافع العربات المحملة

بالثروات! ويا لنشاط التجارة في بيت العقود الخاصة بأمريكا ، ويا لضجة الميناء! وما أجمل وأرق حواشي شطآن الوادي الكبير! وما أفتن النساء الغاديات في الطرقات أو المتطلعات من النوافذ! أي وسط لذيذ! أي شمس رائعة! وأي سماء رافلة في الحبور...! » ـ كما قال رود ريجث مارين في مقدمة نشرته النقدية لقصة « رنكونيته وكورتاديّو »[1] . ويلوح أنه شارك في هذه الحياة الشهوانية القَرِمة الحاملة بالأحاسيس . وربما ترجع الى هذه الفترة حادثة غرامه مع أنا فرنكا دي روخاس Ana Franca de Rojas التي كانت ثمرتها بنتاً غير شرعية سميت إيزابلّ دي سابورا ، وقد تزوجت زواجاً عجيباً ، أثار الشائعات الغريبة حولها وحول أبيها غير الشرعي[2]!

وكان يغشى الأوساط الأدبية ، ولكنه لم يلق فيها غير الإنكار . وكان أشد الأدباء حملة عليه ـ غيرة منه وحسداً ـ لوبه دي بيجا المؤلف المسرحي الغزير وزعيم المسرح الإسباني .

وعلى الرغم من أن «دون كيخوته» طبعت عشر طبعات منذ ظهورها في مدريد سنة ١٦٠٥ فإنها لم تدر على صاحبها ما يكفل له الكفاف!

فعاش ثربانتس بائساً ، يتردد بين السجن وبين حياة أقرب ما تكون الى حياة السجن ، ويتعيش من الكتابة للفتيات اللواتي لا يستطعن الكتابة! بعد أن فقد وظيفته محصلاً للضرائب ، الى أن توفي في الثالث والعشرين من أبريل سنة ١٦١٦ .

ـ ٢ ـ
مؤلفاته

كان ثربانتس شاعراً ، ومؤلفاً مسرحياً ، وقصصياً يكتب الأقاصيص القصيرة والقصة الطويلة .

ولكن شعره ليس في مرتبة عالية ؛ بل هو أضعف جوانبه ، حتى لقد قال عنه لوبه دي بيجا : إنه أسوأ الشعراء الجُدد . ومعظم قصصه ومسرحياته يتخللها الشعر المتفاوت الجودة والطول . وأطول قصائده تلك التي بعنوان « رحلة البرناسو » (مدريد ، سنة ١٦١٤) ، وقد استلهم فيها الشاعر الإيطالي اتشزري كابورالي دي بروجيا (١٥٣١ ـ ١٦٠١) . وفيها عقد

(١) Rinconete y Cortadilla, novela de Migual de Cervantes Saavedra. Edicion critica de Francisco Rodriguez Marin. Sevilla, 1905.

(٢) راجع في هذا الموضوع Fitzmaurice-Kelly: Migual de Cervantes, 1917 صفحات ١٤٤–١٨٠ .

اجتماعاً بين الشعراء في حضرة أپولو ، لم يجد ثربانتس فيه مكاناً لنفسه فاضطر الى الجلوس على معطفه في هذا الحفل العالي ؛ ورمز بذلك الى السخرية من نفسه ، والى مكانته الفعلية في عالم الشعر .

ومسرحه لا يفضل كثيراً شعره . ومن أهم مسرحياته : «نومانثيا» ، «حمامات الجزائر» ، «الجلف السعيد» ، «أوردمالس» . وهي مسرحيات تمثل الإنفعالات والشخصيات ، ولا يهتم فيها بالعقد والحبكات ؛ وأحياناً تكون الشخصيات رمزية ، تعبر عن أحوال نفسيه معقدة أو مبادئ أخلاقية .

أما ميدانه الحقيقي فهو القصص : القصيرة والطويلة .

وقد بدأ بقصة رعوية هي «جالطيه» Galatea التي نشرها في سنة ١٥٨٥ ، وكان قد فرغ منها في سنة ١٥٨٣ وهو في سن السادسة والثلاثين . وهذا النوع من القصص قد انتشر في اسبانيا منذ منتصف القرن السادس عشر بعد أن استُورِد من إيطاليا ، وإن كان قد ظهر قبل ذلك ما يشبه النوع الرعوي عند غالسيا ورئيس الكهنة في هينا (المتوفي حوالي سنة ١٣٥٠م) ، والمركيز دي سنتيّانا وجرثيلاسو . ولكن القصة الرعوية بالمعنى الدقيق لم تظهر قبل سنة ١٥٤٩ حين نشرت أول ترجمة اسبانية «الأركاديا» تأليف يعقوب سنثارو (١٤٥٨ ـ ١٥٣٠) وهو من نابلي ولكن أصله من اسبانيا ، وقصة «أركاديا» هي النموذج لكل القصص الرعوية من بعد . ومن ثم انتشر هذا النوع في إسبانيا انتشاراً هائلاً في العصر الذهبي (القرن السادس عشر) . ويتميز هذا النوع بالخصائص التالية : الرعاة ليسوا غير فرصة للتمويه عن شخص حقيقي ، ليس من أفراد الشعب ، بل هو من رجال البلاط ، ولغته رفيعة ؛ والطبيعة التي يصفها هؤلاء القصاص طبيعة زائفة ، تعوزها الطراوة والنضرة ؛ وليس فيها أحداث ذات بال ، بل أمور عارضة أغلبها غير قابل للتصديق ؛ والأسلوب فيها يجمع بين النثر والشعر . ومن أبرع من كتبوا في هذا النوع في ذلك العصر من الاسبان : مونتمايور ، وخيل پولو ، ثم صاحبنا ثربانتس . وفي دون كيخوته آثار واضحة لهذا النوع ، كما يتبين للقارئ .

ولكن الفن القصصي تجلى أكثر في أقاصيصه التي دعاها باسم «أقاصيص نموذجية» Novelas ejemplares ، وهي : «النَّوَرية» ؛ «العاشق الحر» ؛ «رنكونيته وكورتاديّو» ؛ «الاسبانية الانجليزية» ؛ «المُجاز ڤدرييرا» ؛ «قوة الدم» ؛ «الغيور الاستريمادوراوي» ؛ «الغسالة الشهيرة» ؛ «الفتاتان» ؛ «السيدة كورنليا» ؛ «الزواج الخدّاع» ؛ «حديث الكلاب» . ويمكن تقسيمها الى طوائف : (١) الطائفة الأولى تسود فيها النبرة المثالية ،

والتأثير الإيطالي ، مثل «العاشق الحر» ؛ «الفتاتان» ؛ «السيدة كورنليا» ؛ «الإسبانية الإنجليزية» ؛ «قوة الدم» . (٢) والطائفة الثانية تجمع بين النزعة المثالية والنزعة الواقعية ، وتشمل : «النوّرية» ؛ «الغسالة الشهيرة» ؛ «الغيور الاستريمادوراوي» . (٣) والطائفة الثالثة تسودها النزعة الواقعية ، وتدخل فيها : «رنكونيته» ؛ «الزواج الخداع» ؛ «حديث الكلاب» ؛ «المُجاز ڤدرييرا» . وإلى الطائفة الأولى تنتسب حكاية «الأسير» في «دون كيخوته» ؛ والى الطائفة الثانية تنتسب حكاية «الوقح العجيب» في «دون كيخوته» .

ولما كان في عزمنا أن نترجم هذه «الأقاصيص النموذجية» فإننا نمسك هنا عن الخوض في تحديد خصائصها ، مرجئين الحديث عنها الى التصدير الذي سنستهل به هذه الترجمة . ولنمض الى القصة الطويلة ، الى رائعته الكبرى ، «دون كيخوته» .

ـ ٣ ـ
«دون كيخوته»

نشر ثربانتس الجزء الأول من هذه الرائعة تحت عنوان «النبيل البارع دون كيخوته دلامنتشا» El ingenioso hidalgo don Quijote de la Mancha ، في مدريد سنة ١٦٠٥ عند الطابع خوان دلاكوِستا . لكن بعض المعاصرين يشير الى أن هذا الكتاب قد تداولته المحافل الأدبية في القصر الملكي وهو مخطوط قبل أن يطبع . كذلك ذهب البعض الى الزعم بأن الكتاب هو توسع لأقصوصة قصيرة ، ولكن هذا الزعم على غير أساس .

وطريقة تأليف الكتاب تثير الكثير من المشاكل . فالجزء الأول قسّمه المؤلف نفسه الى أربعة أقسام ، ولكن المؤلف عند نهاية القسم الأول من هذا التقسيم الرباعي يذكر أن ختام حادثة دون كيخوته مع الفتوة البشكونشي لم يوجد ، ولكن ثربانتس «لم ييأس أبداً من أن يعثر على خاتمة هذه الحادثة الشائقة» . ثم عدل ثربانتس عن هذا التقسيم حين نشر الجزء الثاني . وصار يتألف من جزئين .

ومشكلة أخرى هي عدم الإحكام في التأليف ، إذ تخلله الكثير من الحكايات العارضة التي تقطع تسلسل الرواية .

وهنا نصل الى مشكلة التأثرات .

لقد رأى مننديث پيدال Menendez Pidal أن الفصول الأولى من «دون كيخوته» متأثرة بمسرحية قصيرة entremes صاحبها مجهول ؛ والدليل على ذلك أن البطل يرى نفسه في أبطال الأغاني الملحمية الشعبية ، بينما في سائر الكتاب لا يفقد الشعور بشخصيته . ومن

ناحية أخرى ذهب بعض النقاد الى الظن بأنه وجد في الواقع مجنون ، استوحى منه ثربانتس شخصية دون كيخوته . والواقع أنه منذ القرن السادس عشر وحوادث جنون من هذا النوع يذكر وقوعها ، جنون سببته قراءة كتب الفروسية . فقد ذكر ثاپاتا (١٥٢٦ ـ ١٥٩٥) Luis Zapata في كتابه «الأمشاج» Miscelanea ـ وهو كشكول جامع لحوادث ، وأقوال ومنازعات ـ حادثاً من هذا النوع فقال : «ولا شيء أعجب بين حوادث عصرنا العجيبة من فارس هادئ جداً ، عاقل جداً ، محترم جداً . ولكنه خرج مجنوناً من القصر بغير سبب ، وبدأ في ارتكاب حماقات أورلندو ، فانتزع ملابسه ، وصار عارياً ، وقتل حماراً بطعنات سكين ، وطارد العمال بالعصا ؛ ولما لم يعرفوا السبب في ذلك قالوا إنه ورث ذلك عن إحدى عماته ، وهكذا من المؤكد أن ثمة أحوالاً وصفات وراثية» .

ويقول مينندث پلايو Menendez Pelayo إن في «دون كيخوته» كل نماذج القصة السابقة على قصته . فالنوع الرعَوي يظهر في حكاية مرثيلا وخريستمو ؛ والنوع العاطفي يتجلى في أخبار كردنيو ولوسنده ودوروتيه . وثمة تشابه في بعض الحكايات مع قصة «ديانا» تأليف مونتمايور . والآثار الإيطالية ظاهرة في ثنايا الحكايات التي يحفل بها «دون كيخوته» .

وهناك أشباه ونظائر خصوصاً بين هذا وبين «أورلندو الغاضب» لأريوستو ، وقد ذكرنا من قبل أنه كان معجباً بهذا الكتاب أثناء مقامه في إيطاليا .

كذلك رأى أولڤر أسين[1] أن ثمة ما يدل على تأثير خوان دي ڤالدس (المتوفي سنة ١٥٤١) في ثربانتس ، وكان ڤالدس مصلحاً دينياً وناقداً أدبياً ، وعالماً باللغة الإسبانية .

وبالجملة فقد خضع ثربانتس في «دون كيخوته» لجملة تأثيرات أدبية : من حيث النوع الأدبي ، والتصوير للأشخاص ، حتى لكأن هذه القصة جماع لكل الفن القصصي كما عُرف حتى ذلك الحين .

(أ) الدوافع إلى تأليفه:

والدافع الظاهري الأول الى تأليف هذه القصة هو السخرية من قصص الفروسية التي انتشرت انتشاراً هائلاً في اسبانيا في ذلك العصر ـ القرن السادس عشر ـ وكان لها ضحاياها . إذ يصرح في «الاستهلال» بأن القصد من كتابه «ليس إلا كبح بل تحطيم ما

---

(١) Oliver Asin: Iniciacion al estudio de la Historia de la lengua Española, 1949, p. 120.

لكتب الفروسية من تأثير وسلطان عند عامة الناس» ، وصديقه المزعوم يقول له : «ولتتطلع ببصرك الى تحطيم هذه الآلة الفاسدة المؤلفة من كتب الفروسية ، مما يعافه الناس ، ويثني عليه أكثرهم» . كذلك يقول في ختام الكتاب : «وكان هدفي هو أن أجعل الناس يكرهون القصص المفتعلة الخيالية التي ترويها كتب الفروسية ، والتي بدأت ـ بفضل قصص «دون كيخوته» الحقيقي ـ تنهار ولابد أن تسقط في النهاية» .

ولو تساءلنا عن الأسباب التي من أجلها يهاجم ثربانتس كتب الفروسية ، لوجدناها ترجع الى الأسلوب ، والى المادة .

فالأسلوب مفتعل ، كله صناعة وتعقيد . وثربانتس يرى أن يكون الأسلوب بسيطاً ، وخالياً من الصنعة .

وأما من حيث المادة فهو يأخذ عليها الكذب الذي تحفل به . إنها كاذبة ، زائفة . ولهذا يقول شماس طليطلة إن هذه الكتب شديدة الضرر على المجتمع ؛ وكلها يشبه بعضها بعضاً ، وهي تشبه الخرافات التي لا يراد منها غير الإمتاع ، لا تلك التي يراد منها ضرب الأمثال والإمتاع معاً .

وعلى هذا فإن فساد كتب الفروسية يقوم أولاً على أساس أنها تخلو من الاحتمال ، فهي بالتالي يعوزها الصدق الأدبي . وثربانتس يهاجم الأدب القائم على الخيال الجامح ، الذي يتفنن في خلق مواقف غير معقولة ، وفي إيراد مخارج منها أشد إيغالاً في عدم المعقولية . أعني أن ثربانتس كان يشترط في الأدب أن يكون صادقاً معقولاً ، بعيداً عن الخوارق والتهاويل ، واقعياً قدر الإمكان ، يحسب حساباً للطبيعة الإنسانية بعيوبها ونقائصها ومحدود قدرتها .

والنقد الثاني يقوم على أساس نظرة كلاسيكية في تقدير الأعمال الأدبية ، نظرة تقول بالاعتدال والتوازن والتناسب ، وتنفر من التهويل والمبالغة .

والنقد الثالث يقوم على أساس افتقار كتب الفروسية الى الحقيقة التاريخية .

ولكن إذا كان ثربانتس قد هاجم كتب الفروسية من ناحية النقد الأدبي ، فإنه في الواقع تأثر بها ، كما كان عصره متأثراً بها .

وكما لاحظ سلفادور دي مدرياجا[1] في بحثه العميق عن «دون كيخوته» بأن كتب الفروسية كانت واسعة الانتشار في كل أوروبا الغربية ، وليس في اسبانيا وحدها . وهناك ثلاث حقائق ينبغي أن نحسب حسابها :

---

(١) Salvador de Madariaga: Don Quixote: an introductory essay in Psychology. Oxford, 1948, pp. 31 sqq.

الأولى : أن كل الناس كانوا يقرأون كتب الفروسية ، ولم يكن دون كيخوته هو الوحيد في معرفتها ، بدليل أن القسيس ، والحلاق ، وابنة أخي دون كيخوته ، وصاحب الفندق ، والخادمة ، والناس الذين لقيهم في الطريق ، والتلاميذ ، والدوق والدوقة ، والشماس ، كل أولئك كانوا على علم بكتب الفروسية ومغامرات أماديس وذريته . هذا كله يرد في «دون كيخوته» نفسه ؛ وفضلاً عن ذلك فإنه خلال المائة عام التي تلت نشر قصة «أماديس الغالي» ظهر حوالي خمسين قصة شعبية في اسبانيا والبرتغال ، وكانت تطبع بمعدل قصة كل عام بين سنة ١٥٠٨ وسنة ١٥٥٠ ؛ وأضيف إليها ٩ بين سنة ١٥٥٠ وسنة الأرمادا ؛ وثلاث أخرى قبل ظهور دون كيخوته[1] . ومثل هذا الرواج حدث في ايطاليا وفرنسا وألمانيا وهولنده وانجلتره ؛ وفي كل الأوساط ، وخصوصاً بين النساء وعامة الشعب .

والحقيقة الثانية : هي أن أصحاب الامتياز العقلي يعلنون استنكارهم لكتب الفروسية ، معترضين عليها من حيث الذوق الكلاسيكي . والذين يمثلون هذا الاتجاه في «دون كيخوته» نفسها : فارس المعطف الأخضر ، والقسيس ، وشماس طليطلة ، وثربانتس نفسه . وقام بالحملة عليها في إسبانيا من هذه الناحية لويس ڤيڤس (١٤٩٢ ـ ١٥٤٠) المفكر والمربي الكبير في عصر النهضة الاسبانية ؛ وفي إيطاليا هاجمها چيرولمو موتسيو ، وفي فرنسا مونتاني ، وفي ألمانيا يوستوس لپسيوس ، وفي هولنده ديرك كورنهرت ، وفي انجلتره بن جونسون .

والحقيقة الثالثة ، أن كتب الفروسية قد شجعها أمراء وبلاطاتهم ، وبعض رجال الدين القلائل ؛ فنحن نعلم أن كارسول الخامس ، وفرنسوا الأول ، ولويس الرابع عشر ، ووليم الصامت كانوا مولعين بها ؛ وبفضل رعاية هؤلاء انتشرت في فرنسا وإيطاليا وهولنده وألمانيا . والقديسة تريزه الآبلية كانت تدمن قراءتها في شبابها ، وكان القديس أغناطيوس دي لوايولا ، مؤسس الطريقة اليسوعية ، من المغرمين بها حتى في سنّه الناضجة . وكذلك أعجب بها كبار الكتاب والأدباء ، وعلى رأسهم لوپه دي ڤيجا الذي قال : «كثيرون يسخرون من كتب الفروسية... وهم على حق في ذلك إذا كانوا ينظرون فقط الى السطح الخارجي لها... ؛ لكن لو نفذوا الى الأعماق لوجدوا فيها كل أجزاء الفلسفة ، أي الطبيعية ، والعقلية ، والأخلاقية» . كذلك أعجب بها من بين كبار الأدباء في أوروبا : توركواتو تسّو ، وكورنيّ ،

(١) Henry Thomas: Spanish and Portuguese Romances of chirvalry. Cambridge University Press, 1920, pp. 147-148

ومدام دي سفنييه ، وجيته ، ووالتر اسكوت ، والدكتور جونسون ، وبيرك ، وكيتس ـ كل هؤلاء قرأوا كتب الفروسية وأعجبوا بها ، وأقرّوا بجمالها وفائدتها .

« وثمة شك ضئيل في أن من الواجب أن نضع ثربانتس بين هؤلاء ، من حيث هو عبقرية مبدعة . ولا نفتقر لتأييد ذلك الى برهان مباشر وغير مباشر . فالذين يمثلونه في القصة ـ القسيس وشماس طليطلة ـ يتكشفون لنا في الواقع أقل كراهية لكتب الفروسية مما جعلونا نتوقع . فالقسيس ، في فحصه ، يستثني ما لا يقل عن أربعة من التحطيم (« أماديس الغالي » ، « بليانس » ، « پلمارين من انجلتره » ، « تيرانته الأبيض ») ، ويشيد باثنين منها ، بتحفظ في حالة (« تيرانته ») وبمبالغة في حالة أخرى (« پلمارين من انجلتره ») . وفضلاً عن ذلك فإن هذا الفصل يبرهن بكل قوة على أن ثربانتس كان من المدمنين على قراءة كتب الفروسية على نحو عجيب ، وأنه كان يعزفها كلها تقريباً معرفة وثيقة ثابتة ، وهو أمر أقل ما يقال فيه أنه لا يوحي بأنه كان يكرهها كراهية لا يمكن التغلب عليها . ولهذا فنحن لا نعجب حين نجد ثربانتس ، في شخص شماس طليطلة ، بعد أن يعرض كل اعتراضاته ضد كتب الفروسية ، يمضي للإشادة بها في موضع ، وإن كان مختلطاً في معاييره الأدبية ، فإنه مع ذلك مدح واضح لها على أساس ما تهيؤه للعقل المبدع من مادة »[1] .

* * *

ولهذا فإن من الواجب أن نبحث عن سبب آخر أكثر وجاهة وعمقاً ، مع بقاء السبب الأول عاملاً من العوامل الدافعة الى تأليف « دون كيخوته » .

لقد رأينا أي حياة حيّها بعد عودته من الأسر : فقر ، ومآس أسرية ، وسجن . اشترك في حملة فيليب الثاني على الأثورس (جزر الخالدات) ، وكان في مايو سنة ١٥٨٢ في تومار في البرتغال ، وكلف بمهمة صغيرة في وفادة الى وهران ؛ ثم عاد الى قرطاجنة في اسبانيا في شهر يونيو ، ومنها الى مدريد . ولم يكن له عمل ثابت . فاشتغل بالكتابة ، وغشي محافل الأدباء ، ونظم الشعر للنشر في المختارات ، وكتب سونتات باسم الغير ، وألّف حتى سنة ١٥٨٧ من عشرين الى ثلاثين مسرحية . ولكنه ظل مع ذلك فقيراً . ووقعت أخته مجدلينا في مغامرات غرامية مع عكسريين ومدنيين ، خرجت منها مثلومة العرض مخدوعة ؛ فعاشت مع ابنة غير شرعية ، فقيرة تكسب قوتها من الخياطة . وكان أبواه في فقر مدقع كذلك . وأخوه

---

(١) سلفادور دي مدرياجا ، الكتاب المذكور ، ص٣٤ . وانظر هذا الفصل كله بعنوان « ثربانتس وكتب الفروسية » .

فقط ، رودريجو ، هو الذي كان ميسور الحال شيئاً ما ، إذ كوفئ على شجاعته في حملة الأثورس سنة ١٥٨٣ . وثربانتس وقع في غرام مع أنا فرنكا دي روخاس ، أنتج بنتاً غير شرعية كما قلت من قبل ، وتزوج في ١٤ ديسمبر سنة ١٥٨٤ من كتلينا دي بلاثيوس زواجاً غير موفق . وعيّن في سنة ١٥٨٨ موظفاً في حملات التفتيش والاستيلاء على البضائع ، ومحصلاً للمكوس والضرائب . ووقع في نزاع مع أصحاب البضائع أدت الى إصدار قرار بحرمانه دينياً ، إذ استولى على مخازن حبوب يملكها رجال الدين في اشبيلية . ونقل بعدها الى استجه Ecija للقيام بحملات الاستيلاء ، فوقع في مشاكل من جديد . وحاول الخلاص من هذه الوظيفة التي جلبت عليه السخط والمشاكل فتوجه بالتماس الى الملك يرجو تعيينه في إحدى الوظائف الخالية في أمريكا . ولكن التماسه قوبل بالرفض سنة ١٥٩٠ . وعاد الى وظيفة محصل الضرائب يمارسها في مدن كثيرة ومقاطعات عديدة : في صيف سنة ١٥٩٣ في استجه ومرشانه وأتريره ؛ وفي خلال سنة ١٥٩٤ في مقاطعة غرناطة ، وحتى نهاية السنة عمل أيضاً في قادس ، ورنده ، والمنكر ، وخموتريل ولوشه . ولكن كانت عليه متأخرات في التحصيل ، وكان دائماً يطالَب بها .

وتوفي أخوه في سنة ١٦٠٠ في معركة نيوپورت Nieuport حيث انتصر موريس دي نساو على ألبرت ابن أخي فيليب الثاني . وانهالت مطالبات الخزانة على ثربانتس بالمتأخرات التي عليه . وفي سنة ١٦٠٢ سجن في أشبيلية بسبب مخالفة بسيطة .

وهكذا أمضى حياته هذه بين قضايا ، وعمليات حسابية ، وعمليات استيلاء ، ومضايقات من كل الأنواع ، وسجن بين الحين والحين .

وانتقل ثربانتس الى بلد الوليد في سنة ١٦٠٤ . وفي يوم الاثنين ، السابع والعشرين من شهر يونيو سنة ١٦٠٥ ، استيقظ أهل مسكنه على صوت نداء استغاثة . فاستيقظ لويس واستيبان دي جاريباي ومعهما الشموع ليشاهدا ماذا جرى ، فوجدا عند مدخل البيت رجلاً نبيلاً ، مسلول السيف ، والدماء تتدفق من جروحه العديدة . فناديا على ثربانتس ، وقام الثلاثة بمساعدة الجريح ، ونودي على قسيس وجرّاح وشرطي . وهذا الجريح هو جسپار دي اثپليتا ، من بمپلونه في مقاطعة نبرّه ، وفارس من فرسان طريقة شنت يعقوب (سنتياجو) . ولكنه كان بائساً ، في بلد الوليد ؛ غير أنه كان صديقاً للمركيز دي فالثس de Falces ، وهو قائد فرقة البنادق الملكية . وتوفي اثپليتا في يوم ٢٩ دون أن يفصح عن اسم القاتل . ولكن التحقيق دل على أنه كان ثم مبارزة بينه وبين القاتل ، انتهت الى إصابته بجراحات بالغة . كما تبين أنه كان على صلات غرامية بإحدى السيدات المتزوجات اللواتي

تسكنّ في بيت ثربانتس . ولهذا لا يستبعد أن يكون زوجها هو الذي جرح اثپليتا بعد تبادل عبارات . ودارت الظنون حول ايزابلا بنت ثربانتس . ولهذا دارت الشكوك حول ثربانتس نفسه وأنه هو القاتل أو المتعارك مع اثپليتا ، فأمر القاضي باعتقال ثربانتس وبنته ، وأشخاص آخرين . وبعد تحقيق طويل تبين أنه لا شأن لثربانتس وسيدات بيته بمقتل اثپليتا ، وأن هذا إنما كان على علاقة مع زوجة أحد القضاة واسمه جلڤان ، وأن المعركة دارت بينه وبين جلڤان هذا . لكن على الرغم من إعلان براءة ثربانتس فقد جرّ هذا الحادث عليه الويلات ، ودارت الشائعات حول بنته .

ومثل هذه الحياة الحافلة بالشقاء والمشاكل والاتهامات الباطلة والدعاوى الظالمة كان من شأنها أن تملأ نفسه مرارة وأسى : جاهد فلم يلق جزاء عن جهاده ؛ وبرّز في الأدب ، فلم يكافأ المكافأة اللائقة ؛ واضطر الى العمل في وظائف هي بطبعها مصدر مصادمات ودعاوى كاذبة ومتاعب لا تنتهي ، وتوالت عليه المصائب في أهله وبيته وشرف ابنته ، واتهم كذباً بالقتل . كل هذا جعله ييأس من الإنسان والدنيا ، ويتجرع طعم الرماد في كل شيء .

لهذا لم يجد خيراً من السخرية والتهكم يستعين بهما على احتمال الحياة ، ولم يجد خيراً من عالم الفن القصصي ينتقم فيه لنفسه مما يلقاه من ظلم الناس ودنيا الناس .

ولهذا هاجم الناس جميعاً بسخرية لاذعة وتهكم قاتل في هذه الرائعة الكبرى : «دون كيخوته» . هاجم البلديات ، وعقليتها الضيقة ، وهاجم الأديرة وأنظمتها الزائفة الكاذبة ، وهاجم «التفتيش» Inquisicion بجبروته وطغيانه واستبداده ومظالمه التي لم تشهد لها الإنسانية مثيلاً في تاريخها الحافل مع ذلك بالمظالم ، وسخر من أدعياء الشجاعة ، وأدعياء الحكمة ، وأدعياء التقوى ، وتهكم على النقابات بسلوكها النفعي وسخر من الجماعات الأدبية وما يسودها من حسد ونفاسة ووضاعة ، وما يصدر عن الشعراء والكتاب الوضعاء من مهازل أدبية وتملّق ورياء وما يلجأون إليه من كسب وضيع عند أقدام الأقوياء ؛ وتغامز على رجال العدالة ، ورجال الدين ، ونبلاء الأقاليم . وبالجملة فإنه لم يدع طبقة ولا طائفة ولا جماعة إلا وسلقها بألسنة حداد من التهكم النافذ والسخرية الجارحة .

وهكذا جاء «دون كيخوته» سخرية من البطولة الزائفة ، والعدالة المموهة ، والحقارة الاجتماعية ، والنفاق الذي ساد في ذلك العصر فرفع أقدار العاجزين ، وأعطى المراتب الرفيعة للدساسين والغشاشين والمتملقين والزاحفين والوضعاء . ويكفي أن يعلم المرء أن أقوى شخصية في ذلك العصر ، عهد فيليب الثالث ، كان راهباً يتلقى الاعتراف من الملك ، ويدعى الأخ لويث ألياجا Luiz Aliaga ، الذي ولد حوالي سنة ١٥٦٠ وتوفي سنة ١٦٣٠ .

ولد من أسرة فقيرة ثم انخرط في الرهبنة الدومينيكية ، وصحب القديس فرنشسكو اكساڤيير مدة من الزمن . ثم عين متلقي اعتراف الملك حوالي سنة ١٦٠٠ ، ومنذ ذلك الوقت وتأثيره في الدولة في تزايد مستمر حتى صار بعد قليل الحاكم الحقيقي غير المتوج في كل اسبانيا ، وعُيّن القائم الأكبر على «التفتيش» في اسبانيا ، فأصدر قراراً بإرغام المسلمين على التنصر أو مغادرة اسبانيا ، ونفذ هذا القرار الإجرامي أبشع تنفيذ . وفي الوقت نفسه كان هذا الراهب الهزيل النحيل المعروق العظام مرتشياً فاحش الارتشاء ؛ يرتشي بالجواهر والمذابح الذهبية والبقايا المقدسة ، والمبالغ النقدية الطائلة ، وبكل ما يعرض عليه «من أجل تسيير ضمير الملك» كما قال . ودبّر قتل كبار القوم ، فاتهم بتدبير مقتل الكونت دي ڤلامديانا الذي كان يقف في وجه أطماعه ، وذلك بأن سلط عليه مجهولاً صرعه .

والى هذا الراهب السفاح الجامع لكل صفات الخساسة والحقارة ينسب تأليف الجزء الثاني الزائف من دون كيخوته الذي نُشِر سنة ١٦١٤ . ونمسك عن مزيد من الكلام في هذا الباب لأننا نتناول هذه المشكلة في مقدمة الجزء الثاني من «دون كيخوته» .

* * *

قصد إذن ثربانتس من «دون كيخوته» أن يكون مرآة للعصر ، بكل مخازيه الاجتماعية والسياسية والادارية ، وما يعج به من رذائل ونفاق ودعاوى زائفة في الآداب والأخلاق . وقد تناول هذا كله بسخرية ليس حزينة ، بل بَهِجة ، تنظر الى العيوب بأفق ، وتتردد بين البسمات والعبرات .

(ب) بناء «دون كيخوته»:

قلنا إن الجزء الأول من «دون كيخوته» حين ظهر سنة ١٦٠٥ كان مقسماً الى أربعة أقسام واستمر هذا التقسيم حتى ظهر الجزء الثاني من «دون كيخوته» سنة ١٦١٥ . وكانت الأقسام على النحو التالي :

١ـ القسم الأول : الفصول ١ ـ ٨ ؛ ٨ فصول
٢ـ القسم الثاني : الفصول ٩ ـ ١٤ ؛ ٦ فصول
٣ـ القسم الثالث : الفصول ١٥ ـ ٢٧ ؛ ١٣ فصلاً
٤ـ القسم الرابع : الفصول ٢٨ ـ ٥٢ ؛ ٢٥ فصلاً

والقسم الأول يروي الخرجة الأولى لدون كيخوته وبداية الخرجة الثانية ، وفيها مغامرة الطواحين ، وبداية مغامرة البشكوني .

والقسم الثاني يبدأ بختام مغامرة البشكوني ، ويحكي قصة مرثيلا وخريستمو .

والقسم الثالث يحكي لقاءه مع الينجواسيين الأشرار ، وما وقع له في الفندق الذي حسبه قصراً هو وحامل سلاحه ، والمغامرة مع قطعان الغنم ، ومع جثة الميّت ، ومع الطواحين ، وخوذة ممبرينو ، والمحكوم عليهم بالإعدام ، ومقامه في جبل الشارات (سيرّا مورينا) وقصة كردنيو . ـ وفي الفصلين الأخيرين من هذا القسم ـ ٢٦ ، ٢٧ ـ يعود القسيس والحلاق للظهور بقصد إعادة دون كيخوته الى قريته . وهذا الفصلان : ٢٦ ، ٢٧ يعدان المحور الذي تدور من حوله القصة في جزئها الأول ، فهما معقدا الصلة بين الخمسة وعشرين فصلاً الأولى ، والخمسة وعشرين فصلاً الأخيرة . وفي هذه تبلغ أوجهاً وكمال تحقيقها لفكرتها الأساسية . ومن هذا المحور المركزي يمكن إدراك الجزء الأول من دون كيخوته بوضوح ، إنه قلب القصة .

والقسم الرابع يروي أحاديث دوروتيه ، وقصة المستطلع الأخرق ، ومعركة دون كيخوته مع قِرَب النبيذ الأحمر ، وقصة ولية العهد ميكوميكونا ، ثم حكاية الأسير (ثربانتس) نفسه ، وما وقع من غرائب الحوادث في فندق ، ومغامرة دون كيخوته مع جنود الأخوة المقدسة ، وكيف سُحِر ، وحديث الشماس عن كتب الفروسية ، وما جرى من جدل بينه وبين دون كيخوته ، ونزاع دون كيخوته مع المعّاز ، ثم عودة دون كيخوته وسنشو پنثا الى قريتهما .

ومسار الحركة في القصة يتلخص في خروج دون كيخوته ، وهو نبيل من إقليم المنتشا ، من الطبقة المتوسطة بين النبالة الحقيقية وبين عامة الناس ، خروجه من بيته في قرية لم يشأ ثربانتس ذكر اسمها ، بحثاً عن المغامرات ، ثم عودته الى قريته بعد ما وقعت له عدة مغامرات تثير الضحك والإشفاق معاً . وقد خرج مرتين ، الأولى تتألف من ١ـ الخروج من بيته ، ٢ـ فندق ومغامرة ، ٣ـ عودة ومغامرتان . والخرجة الثانية تتألف من : ١ـ خرجة ، ومغامرات وأحداث عارضة ؛ ٢ـ فندق ؛ ٣ـ مغامرات وأحداث عارضة ؛ ٤ـ فندق ؛ ٥ـ عودة ، ومغامرة وحادث عارض . والخرجة الأولى مرتبطة بالثانية ؛ فالأولى تمثل الفكرة الأساسية العامة ؛ والثانية تعطي التفاصيل ؛ الأولى توضح المعنى العام ، والثانية تتعقد فيها الأحداث العارضة والمغامرات .

والموضوع الأساسي في القصة هو التعارض بين أحوال وأعمال الوسط الاجتماعي النبيل

من المنتشا ، وبين فكرة غريبة جداً هي أن يصبح فارساً جوالاً ، وأن يبعث بذلك العصر الوسيط . ومهمة الفارس الجوال هي حماية المستضعفين ، ومعاقبة المجرمين ، وتصحيح الأخطاء ، والقضاء على الجرائم ، والفصل بين المنازعات لصالح العدالة ، والانتصاف للمظلومين . وغلطته الوحيدة هي أنه ولد متأخراً عن العصر الذي كان يجب أن يولد فيه ، متأخراً بثلاثة قرون .

وهذه الفكرة الغريبة إنما تولدت في ذهنه من قراءة كتب الفروسية وتشبع نفسه كلها بها ، حتى تسلطت على عقله تسلطاً جنونياً .

ـ ٤ ـ

شخصية دون كيخوته

قلنا إن دون كيخوته من النماذج الإنسانية الكبرى .

وقد قال سلفادور دي مَدَرياجا «إن دون كيخوته ، وسنشو ، ودون خوان ، وهاملت ، وفاوست هم أعظم شخصيات أبدعها الإنسان ، وقد تدثرت صورهم ـ وهم في هذا يشبهون الرجال العظام الذين خلقهم الله مباشرة ـ في كل جيل بدثار متزايد من الأساطير والآراء والتفسيرات ، والرموز . وهذه ميزة للكائنات الحية التي أبدعها الفن والتي بحيويتها تفرض شخصيتها على العقل الكلي للإنسانية .

«في فاوست يتجلى الميل الى إبداع الأفكار جزءاً من خُلُق الشخصية كما انبثقت من عقل جيته (وربما حتى من عقل مارلو) . إن جيته شاعر من نوع خاص ، ألماني جداً في نزعته العقلية ، وفي اهتمامه بالثقافة والفلسفة على نحو من شأنه أن يضعه في جو نبيل سام من التصورات والرموز حتى حين يعبّر عن نفسه بوصفه فناناً مبدعاً . ومن هذه التصورات والرموز صنعت شخصية فاوست . فلا عجب إذن أن يضيف كل جيل من القراء جواً فكرياً جديداً الى الجو العقلي الفني الذي تُصُوِّرت فيه شخصيته .

«ولا شيء من هذا في شكسبير ، فهذا شاعر خالص ، يشعر أكثر مما يفكر ، كما كان يلذ لأونامونو أن يقول ، وفكره ، في حيويته ، يجري مثل العصارة أو الدم ، خلال البنية القوية لشعره . لكن هاملت يبعث نشاطنا العقلي بواسطة شعور السكون والخواء الذي يحملهما سرُّ شخصيته . إبداع عظيم! غامض ولا يمكن تفسيره للعقل ، حقيقي عينيٌّ بالنسبة الى الغريزة ، معروف قبل أن يفهم كالأشخاص وشؤونها في الحياة ، هاملت هو هذا كله! إنه تقعُّر ، وخواء إنساني يحاول العقل أن يملأه بأفكاره وتفسيراته . ومن هنا جاء

ذلك المحصول الوافر من الأفكار حول هاملت ، المحصول الذي يلقي به كل جيل في هوة شخصيته المتسلطة .

«ودون خوان يجذب النقاد لعدة أسباب ، من بينها تنوع نموذجه وتطوره من الصورة التي قدمها ترسو دي مولينا في ملهاته العظيمة غير المستوية ، حتى الصورة غير المعقولة ، ولكنها طريفة التي قدمها ثورياً ؛ وصفته البارزة بوصفه بطل الحب الطاغي ، والتنوع الحديث لشخصية أفروديت التي لا ترحم ؛ وثالثها ، وإن لم يكن أقلها ، الميل الطبيعي عند كل كاتب الى إغناء نفسانية دون خوان بتجاربه هو الدون خوانية .

«أما فيما يتصل بدون كيخوته وسنشو ، فإن محصول الأفكار والتفسيرات ، والرموز التي تنمو وتتجمع حولهما ـ إنما يرجع فقط الى عمق روحيهما ، وثراء التربة الإنسانية التي نقّب فيها دون كيخوته من خلالهما ، والى ذلك الإيقاع الدقيق للمغامرة المزدوجة التي تأسر الخيال وتطبعه منذ البداية ببساطتها الظاهرية ، ثم تغزو العقل بتعقُّدها المُذهِل .

«وعلى هذا النحو دُفِنَتْ شخصيتا دون كيخوته وسنشو تحت نماء من الأفكار والرموز ، وبعضها غير معقول ، وبعضها الآخر عميق نقّاد ، ومعظمها صادر عن تواز وتقابل لا يوجد في الكتاب ، وما هو إلا نتيجة لتعارض زائف سطحي بين الفارس وحامل سلاحه . فالزوج دون كيخوته ـ سنشو يفسران على أساس التضاد ، وخصائصهما تحولت الى سلسلتين من القيم المتعارضة . فإلى دون كيخوته تعزى سلسلة من : «الشجاعة ـ الإيمان ـ المثالية ـ اليوتوبيا ـ الحرية ـ التقدم» ، بينما تعزى الى سنشو سلسلة مضادة تماماً تتألف من : «الجبن ـ التردد ـ الواقعية ـ النزعة العملية ـ الإدراك الواقعي ـ الرجعية»(1) .

ويريد سلڤادور دي مدرياجا أن يعدّل من هذه النظرة التقليدية الى كلا البطلين :

فيقول إن حالة دون كيخوته هي حال خداع ذاتي . إنه حالم ، خجول في أمور الحب ، يقضي معظم أيامه في فراغ من العمل ؛ وكان مولعاً بكتب الفروسية ، ولكن لا عجب في هذا من أجل إزجاء أوقات فراغه وما أطولها! وكان يحب المسرح . وسخاؤه وأدبه كانا مضربا الأمثال . وعقله سليم في كل ما لا يتعلق بشؤون الفروسية الجوّالة . وروحه تنم عن الرحمة والإخاء ، وتشيع فيها روح دينية متحفظة في مظاهرها الخارجية .

وكان خداعه لنفسه في البدء خفياً ؛ ولكنه زاد كلما اصطدم بالوقائع في مغامراته ؛ فلم يكن على شعور واضح بشخصيته ، وبمدى قدرته .

---

(1) سلڤادور دي مدرياجا : «دون كيخوته» ص81-ص83 .

أما سنشو ، فهو في نظر سلڤادور دي مدرياجا «نغمة أخرى من دون كيخوته في مقام موسيقى آخر» (ص٩٦) . وكلاهما أخوان ، وصانعهما (ثربانتس) قصد أن يرسمهما وفقاً للنموذج نفسه . ويسعى دي مدرياجا جهده في بيان رأيه الغريب هذا ، بأن يبين أنه لم يكن جباناً ، بل كان شجاعاً عند الحاجة ؛ وأن الأساس في أخلاقه هو التعارض بين ثقته وسلامة رأيه حين يواجه الواقع العيني ، وبين عجزه وسذاجته حين يواجه الأمور المجردة ؛ «إن سنشو يعالج الأفكار المتجسدة في أجسام مادية بثقة ؛ ولكن عقله يصيبه الشلل حين يدخل عالم الأفكار المجردة والأشباح والتهاويل ، وهي أمور يضعها كلها عقلُه المختلط في باب واحد» (ص١٠٥) .

وعلى الرغم من طرافة رأي مدرياجا ومهارته في تحليل كلتا الشخصيتين ، فمن العسير أن نوافقه على هذه المفارقة ؛ أولاً لأنها تضرّ إضراراً بالغاً بشخصية دون كيخوته لصالح سنشو ، دون أن يفيد هذا التقريب بين كليهما في شيء ؛ لا من الناحية الإنسانية ، ولا من ناحية الفن . ولولا هذا التعارض المستمرّ بين كلتا الشخصيتين في رد فعلهما بإزاء المواقف التي تتبدى لهما ، لما سارت القصة على النحو الذي سارت عليه . ثم إن الهدف الأول ، وهو بيان ضرر كتب الفروسية ، سيضيع تماماً لو قرّبنا بين كليهما ؛ لأن سنشو لم يقرأ ، ولم يكن في وسعه أن يقرأ ، حرفاً واحداً من كتب الفروسية ؛ بينما لوثة دون كيخوته مردها - في بادي الرأي على الأقل - إلى إدمانه على قراءة كتب الفروسية . ثم إن سنشو لم يصدر في أعماله كلها عن أية نبالة أو سخاوة في الأخلاق ؛ بل كان دافعه الوحيد دائماً هو النهم المادي والجشع والرغبة في الامتلاك .

ألا إن هذا التقريب بين الشخصيتين ليفقد القصة أروع ما فيها ؛ إنه محاولة زائفة من أجل التباهي بالتجديد المنطوي على إثارة المفارقات ، مما برع فيه - مع الأسف الشديد - بعض الطامعين في الطرافة بأي ثمن ؛ على حساب الذوق الفني ، والحقائق التاريخية ، والتمييز العقلي السليم! ولا شيء أشد إفساداً لحكم الباحث أو الناقد من مثل هذه النزعة الضالّة المضلّلة ، بل هذه اللعبة السخيفة .

إن دون كيخوته رمز النبالة الساعية في خير الإنسانية ، ولكن وسائلها العاجزة لا تستطيع تحقيق أمانيها ؛ رمز للمثل الأعلى الإنساني ، الذي دائماً يصطدم بالواقع الكالح فينتهي بالإخفاق ، ولكنه إخفاق هو عندي أعظم من كل نجاح عملي مادي واقعي لاصق بالطين ؛ إنه القطب الهادي دائماً الى مزيد من السموّ الإنساني ، الداعي الى مزيد من العدالة والإنصاف وتقرير الحقوق ؛ إنه صوت العدالة العليا تصرخ في عالم حافل بالمظالم ،

ولا عليه إن ظل صوتاً «يصرخ في البرية» فإن هذا النداء ـ حتى لو كان خافتاً جداً تطغى عليه كل أصوات الظلم والنفاق والخديعة والوضاعة والملَق والدسّ والوصولية والإمعية ـ سيظل دائماً العلامة على نبل جوهر الإنسان ، رغم خساسة أفعاله ودناءة أطماعه . والإنسانية لم تتقدم على مدى الزمان إلا بفضل نماذج قليلة من دون كيخوته تألقت في سمائها الملبّدة بالغيوم في لحظات صحو وصفوٍ نادرة . وإذا كان النجاح في واقع الحياة من حظ من يسلكون مسلك سنشو پنثا ، فتبّاً لهذا النجاح الوضيع الدنيء ، بل تباً للإنسانية كلها إن صارت كلها من نوع سنشو پنثا وعدمت كل دون كيخوته!

مدريد ـ برن (سويسرة)

١٩٥٥ ـ ١٩٥٦

عبد الرحمن بدوي

النبيل البارع

دون كيخوته دلامَنْتشا

تأليف

ميجيل دي ثرينتس سابدرا

استهلال

أيها القارئ الخلي!

تستطيع أن تصدقني دون أن تستحلفني إذا قلتُ لك إني كنت أودّ لهذا الكتاب ، لأنه وليد عقلي ، أن يكون أجمل وأروع وأظرف ما يمكن تخيُّله . بيد أني لم أقوَ على مخالفة نظام الطبيعة الذي يقضي أن يلد الشيء شبهه . وماذا عسى إذاً أن تلد قريحة عقيم فاسدة التهذيب مثل قريحتي ، اللهمّ إلا تاريخ ولَدٍ جافّ هزيلٍ شاذّ مليء بالأفكار المتفاوتة لم يتخيّل مثله أحدٌ من قبل ، وكأنه إنما ولِد في سجنٍ فيه لكل المضايقات مقاعدها ، ولكل نأمة حزينة منزلها ؟ إن الراحة وسكون المقام وطيب المروج وسجُوّ السموات وخرير الينابيع ودَعة الروح ـ كل أولئك تردُ عقْم ربات الوَحْي خصباً بالغاً ، وتهب الدنيا ثماراً تملؤه رضى وإعجاباً . لكن لو حدث لوالد أن كان له ولدٌ دميم خلا من كل ملاحة ، إذاً لألقى حبُّه إياه على بصره غشاوةً فلا يرى معايبه ؛ كلا بل يراها آيات ذكاء ومفاتن يرويها لأصدقائه على أنها مخايل لطفٍ وحلاوة شمائل . وإني وإن لم أكن غير أبٍ زنيم لدون كيخوته ـ وإن بدا أني أبوه حقاً ـ فلستُ أريد أن أساير العُرْف الجاري ، ولا أن أضرع إليك ، أي قارئي العزيز جداً ، كما يفعل غيري فألتمس منك ، وكأن في عيني عَبْرة ، أن تغتفر أو تغضى عما عسى أن ترى في ابني هذا من أخطاء ، فما أنت له بقريب ولا صديق ، ونفسُك معه بين جنبيك حرّة مختارة كأنك أجمل من تحلّى بزينة ، وتقيم في بيتك سيداً مطاعاً سيادة السلطان على ما يُجبى من خَراج ، وتعلم المثَل المشهور : «تحت ردائي أقتل السلطان» . وكل هذا يعفيك من كل التزام قِبَلي واحترام ، وهكذا تستطيع أن تقول عن (هذا) التاريخ كل ما يحلو لك ، دون أن تخشى عقاباً عما تقول من سوء ، أو ترجو ثواباً لما نناله به من خير .

بيد أني كنت أود أن أقدّمه إليك مجرداً عارياً ، لا أزيّنه باستهلال ولا بقَبَتٍ لا ينتهي : من الأناشيد والأهاجي والمدائح المعتادة التي ألِفها الناسُ في مطالع الكتب . لأني أستطيع أن أقول إنه على الرغم مما كلفني تأليفه ، فإن أشقّ ما صادفته هو كتابة المقدمة التي تقرؤها الآن . فكأين من مرة أمسكت بالقلم ثم ألقيت به لأني لم أكن أدري ماذا أكتب . وكنتُ على حيرتي هذه ذات يوم : الورق أمامي والقلم على أذُني ومرفقي يستند الى المنضدة ، وكفيّ على خدي أفكر فيماذا أقول ، وإذا بصديق ذكيّ لطيف يدخل عليّ ، فلما رآني حالماً مفكراً سألني عن السبب . ولم أشأ إخفاءه عنه ، فأجبته أني إنما أفكر في الاستهلال الذي عليّ أن أدبّجه لتاريخ دون كيخوته ، وأن اليأس بلغ مني مبلغاً جعلني أقرر العدول عنه فلا ترى النور هذه الأعمالُ المجيدة التي قام بها ذلك الفارس النبيل .

قلتُ له : « كيف تريد مني ألاّ أحفل بما عسى أن يقوله ذلك المشرّع القديم المسمّى بـ« الجمهور » ، حينما يراني بعد أعوام طوال رقدت خلالها في صمت النسيان وقد جئتُ اليوم حاملاً أعوامي على عاتقي ، ومعي أسطورة جافة جفاف عود الغاب ، فقيرة من الإبداع ، هزيلة الأسلوب ، عارية من الأفكار ، يعوزها التحصيل العلمي والمذهب ، خالية من الحواشي على الهوامش ومن الشروح في الآخر ـ . بينا أرى كتباً أخرى ، وبعضها أيضاً خرافيّ قصد به العامة ، أراها حافلة بكلمات أرسطو وأفلاطون وزمرتهما من الفلاسفة على نحو يجعلها مصدر إعجاب القراء فيرون في مؤلّفيها علماء محققين وفُصّحاءَ مُحصّلين ؟ ولله درُّهم حينما يقتبسون من آيات الكتاب المقدس ؟! إذن لرأيتهم أنداداً للقديس توما وأضرابه من علماء الكنيسة الفحول! انظر الى مهارتهم الفائقة حينما يصوّرون في سطر عاشقاً فاسقاً ، إذا بهم في السطر التالي يدبّجون موعظة قصيرة مسيحية ما أمتع سماعها وقراءتها! ومن هذا كله خلا كتابي : إذ ليس لديّ ما أحشّي به في الهامش أو أشرحه في الآخر ، ولا أدري أي مؤلّفين اتبعت حتى أذكر أسماءهم في مطلع كتابي ، كما فعل غيري ، في ترتيب أبجدي يبدأ بـ« أرسطو » وينتهي بـ« كسينوفون » أو « زويلوس » و« زيوكسيس » ، وإن كان أحدهما ناقداً حاسداً والثاني رساماً . وينقص كتابي أيضاً الاستهلال بالأناشيد ، أو على الأقل بأناشيد مؤلفوها دوقات أو مركيزات أو كوندات أو أساقفة أو سيدات أو شعراء مفلقون ، وإن كنت واثقاً أني إذا طلبت بعضها من صديقين محترفين أو ثلاثة لأعطوني منها ما لا يضارعه أناشيد أشهرهم في بلادنا أسبانيا . » ـ وأردفت قائلاً : « وأخيراً ، أيْ سيدي وصديقي ، قد عقدتُ العزمَ على أن يبقى السيد دون كيخوته مقبوراً في أضابير محفوظات إقليم المانتشا ، حتى تأذن السماء فترسل من يزيّنه

بكل هذه الأشياء التي تنقصه ، لأني أشعر بعجزي عن تجهيزه بها ، نظراً الى قلة بضاعتي وضآلة تحصيلي ، ولأني بطبعي متكاسل عن السعي وراء مؤلفين يقولون لي ما أجيد قوله دونهم . وذلك مصدرُ ما وجدتّني فيه من حيرة وحُلم ، وهو سبب كاف كما سمعت لإغراقي في كليهما » .

وما سمع صديقي هذا الكلام حتى ضرب جبينه بكفّه واستغرب عليه الضحكُ وقال :

« أخي! بربك لقد انتشلتني من وهم كنت فيه منذ أن عرفتك! فلقد كنت أحسبك رجلاً عاقلاً ، حكيماً في كل أعمالك ؛ لكني أراك الآن بعيداً عن أن تكون كذلك بُعْد الأرض عن السماء . وأنى لمثل هذه التفاهات اليسيرة العلاج أن تعوق عقلاً ناضجاً مثل عقلك وأن تحيّره ، وهو الذي اعتاد أن يهاجم ويذلّل ما هو أشد وأصعب ؟ الحق أن هذا ليس منشؤه قلة المهارة ، بل إفراطاً في الكسل وفقراً في التفكير . أتريد مني إثبات صحة ما أقول ؟ إذن انتبه وسترى كيف أقضي ، ما بين غمضة عين وانتباهتها ، على كل هذه الصعوبات وأعالج كل هذه العيوب التي تقول عنها إنها تضايقك وتخيفك إلى حد يجعلك تعدل عن إذاعة تاريخ رجلك الشهير دون كيخوته ، نور الفروسية الجوالة كلها ومرآتها » .

فأجبته وقد سمعت كلامه : « على أي نحو ترى إذن أن تملأ فراغ خوفي وتكشف الغُمّة عن اضطرابي ؟ » .

فقال مجيباً : « أما عن أول شيء يضايقك ، وهو ما يتصل بالأناشيد والأهاجي والمدائح التي تنقص استهلال الكتاب ، فالعلاج عندي أن تبذل شيئاً من المجهود في نظمها بنفسك ثم تنسبها الى ما تشاء من أسماء ، وما عليك إذا نسبتها الى النجاشي إمبراطور الحبشة أو إمبراطور طرابزون ، فقد شاع عنهما أنهما شاعران فحلان ؛ فحتى لو لم يكونا كذلك ورأيت بعض المتحذلقين و« العلماء المدققين » يعضون ذيلك لمثل هذا القول ، فلا تحفل بهم مقدار مُرابطّين[1] ، إذ لو انكشف كذبك ، لن تقطع اليدُ التي كتبته .

« أما عن ذكر الكتب والمؤلفين في الهامش ممن نقلت عنهم الكلمات والأقوال التي وضعتها في تاريخك هذا ، فما عليك إلا أن تتصرف بحيث ترد بعض الجمل اللاتينية في موضعها المناسب ، من محفوظك أو مما لا يكلّفك البحث عنه جهداً كبيراً . فمثلاً حينما تتكلم عن الرق والحرية تستطيع أن تكتب :

---

(١) مرابطي Maravedi ، عملة اسبانية اختلفت قيمتها بحسب الأزمنة ، أشهرها كانت من النحاس وتساوي ١/ ٣٤ من الريال real ، (أي ٣/ ٤ سنتيم من البسيطة) .

«الحرية أغلى من أن تباع بكل الذهب»[١]

ثم تذكر في الهامش اسم هوراس أو مَن قال ذلك . فإن اتصل الأمر بقدرة الموت ، فعليك بقول القائل[٢] :

«يركلُ الموتُ صرح من أوتِي المُلْـ
ـكَ ، برجليه رَكْلَ كوخ الفقير»

وإذا عرض الحديث للحب الذي يأمر به الله نحو الأعداء ، فادخل من فورك الكتاب المقدس وهو أمرٌ لا يحتاج إلا الى قليل من الاهتمام ، واذكر على الأقل قوله تعالى : «أما أنا فأقول لكم : أحبّوا أعداءكم» . وإذا تطرّقت الى الأفكار السيئة ، فاذكر ما ورد في «الإنجيل» : «ولتطرد من قلبك خواطر السوء»[٣] ؛ أو إلى تغيّر الخلان ، فاستعن بمثنوي كاتو[٤] :

إن نِلْتَ سَعْدا ازددت وُدّا
فإن أغامَتْ أصبحت فَرْدا

فبمثل هذه الفتائت من اللاتيني وأشباهها ، سيقولون عنك إنك نحويٌّ ، وهذا أمرٌ ليس بالهيّن ولا الزهيد في هذه الأيام .

«أما عن وضع حواشٍ وشروح في نهاية الكتاب ، ففي وسعك أن تفعله بكل اطمئنان على النحو التالي : فإن كان عليك أن تذكر اسم مارد في كتابك ، فاجعله المارد جالوت[٥] ، تظفر بحاشية طويلة متهيئة لا تكلّفك شيئاً ، إذ تستطيع أن تقول : «وكان المارد جالوت من بني فلسطين ، قتله الراعي داود بحجر من مِقلاعه في وادي البُطْم ، كما رُوي في «سفر الملوك» في الإصحاح الذي يقصّ هذه الحكاية»[٦] . ولكي تبدو عالماً راسخاً في الآداب

---

(١) هذه العبارة ليست لهوراس ، بل وردت في «خرافات ايسوبوس» (خرافة الذئب والكلب ، الكتاب الثالث ، خرافة رقم ١٤) . وقد اعتذر كورتيخون Cortejon عن ثربانتس هنا فقال : «حينما تلقى ثربانتس زيارة الوحي ، لم يكن له أن يقطعها ويغلق الباب من أجل أن يذهب للبحث عن صاحب هذه الجملة التي انتزعتها ذكرى قراءة قديمة غامضة من ذاكرته» . ويرى رودريجث مارين أن يعتذر عن ثربانتس بأن يراعى أمران (الأول) أن ثربانتس ليس المتكلم هنا بل أحد أصدقائه ، و(الثاني) أن هذا الصديق لا يؤكد أن هذا القول لهوراس بل يقول : «ثم تذكر في الهامش اسم هوراس أو من قال ذلك» (راجع نشرة مارين ص٣١ تعليق ٥) .

(٢) هوراس ، الكتاب الأول ، اللحن الرابع Carmina, (, od. IV .

(٣) «إنجيل متى» ، الفصول ٥ ، ١٥ .

(٤) أوفيديوس : «الأحزان» Tristes ، المرثية رقم ٦ .

(٥) مارد من بني فلسطين طوله ستة أذرع ، ولد في جيث ، وتحدى جميع العبرانيين . ولكن (النبي) داوود برز له في مبارزة منفردة ولم يكن معه غير مقلاع ، فجندله بحصاة واحدة ، وانتزع منه سيفه ، واحتز به رأسه . قال الطبري : «فلما عاين جالوت قذفه بحجارة فصكه في رأسه ومات ، وانهزم بنو فلسطين وحصل النصر» .

(٦) «سفر الملوك ١» فصل ١٧ (= «صمويل» الأول ، إصحاح ١٧) .

الإنسانية والكونيات ، فاجعل نهر التاجُه مذكوراً في ثنايا كتابك ، تظفرْ بشرح آخر رائع ، وذلك بأن تكتب : «نهر التاجه : سُمّي بهذا الاسم لأنه مأخوذ من اسم ملك إسباني قديم ؛ ينبع من المكان الفلاني ، ويصب في الأوقيانوس بعد أن يغسل جدران مدينة لشبونه المشهورة . ويقال إنه يحمل في جريانه رمالاً من الذهب الخ[1]» . وإذا عرض لك الحديث عن اللصوص ، فسأمُدك بقصة كاكوس[2] التي أحفظها عن ظهر قلب ؛ أو عن غوانٍ ساقطات ، فها هو ذا أسقف موندونييدو[3] يُعيرك لميا ولَيْدا وفلورا ، ومادة لحاشية حافلة بالثقة ؛ أو عن نسوة قاسيات ، فسيقدم لك أوڤيديوس نموذج ميديا ؛ أو عن ساحرات ، فعند هوميروس تجد كالُفسو ، وعند فرجيليوس تجد كركيه ؛ أو عن قوّاد شجعان ، فسيعيدك يوليوس قيصر نفسه في «شروحه» ، وفلوطرخس يعطيك آلافاً من أضراب الإسكندر . وإن عنّ لك أن تتحدث عن الحب فببضع كلمات من اللغة الإيطالية ستجد عند ليون العبري ما يملأ جعبتك ويفيض عنها ؛ وإذا لم يلذ لك السياحة في بلاد الغربة (بحثاً عن كلمات الحب) ، فعندك في بلادك فونسيكا وكتابه «في الحب الإلهي» ، وهو يتضمن كل ما تصبو إليه أنت وأبرع الناس في الموضوع . وبالجملة ، فليس عليك إلا أن تذكر الأسماء التي أشرتُ إليها ، أو تذكر هذه القصص في ثنايا قصتك . وكِلْ إليَّ أن أضيف حواشي في الهامش وفي الختام : وهأنذا أعطيك عهداً وثيقاً أن أملأ هوامش كتابك وأربع ورقات في آخره .

«ولنصِلْ الآن الى النقل عن المؤلفين ، مما يرد في سائر الكتب ، وينقص كتابك . والعلاج لهذا بسيط جداً ، فما عليك إلا أن تبحث عن كتاب اقتبس عنهم جميعاً منذ الألف حتى الياء ، كما نقول ؛ وهذا الثَّبَت الأبجدي تضعه كما هو في كتابك . فإن انكشف هذا التزييف ، بالنظر الى قلة جدوى هؤلاء المؤلفين عندك ، فماذا يهمّك ؟ ومن يدري! لعل من المغفّلين من يحسب أنك انتفعت بهم جميعاً في قصتك الساذجة البسيطة . وحتى لو لم يفد هذا الثّبت في شيء آخر ، فإن هذا الثبت الطويل لابد أن يضفي على الكتاب شيئاً من المهابة والتأثير . وفضلاً عن هذا ، فمن هو الذي سيحفل ـ إذ لا مصلحة له في هذا ـ بالتحقق مما إذا

---

(١) يسخر ثربانتس هنا من لوپه دي بيجا الذي قال كلاماً كهذا في الشروح التي أوردها في ختام مسرحيته «أركاديا» .

(٢) الإشارة الى فرجيليوس : «الإنياذة» ، الكتاب الثامن ، البيت رقم ١٨٥ .

(٣) هو أنطونيو دي جباره (١٤٨٠ ؟ ـ ١٥٤٥) الذي اشتهر بتآليفه ، خصوصاً كتابه «رسائل شخصية» Episto as familiares ، وفي إحدى هذه الرسائل («مكتبة ريبادنيرا» ج١٣ ، ص١٧٧) يتحدث عن لميا وكيدا وفلورا وفي مطلعها ورد : «هذه رسالة لذيذة جداً في القراءة ، خصوصاً بالنسبة الى العشاق» . وثربانتس يتهكم ها هنا طبعاً على هذا «الأسقف» الذي يكتب عن بنات الهوى الساقطات! .

كنت قَفَوْت إثر هؤلاء المؤلفين أو لم تفعل ؟ وإن لم يخطئ ظني فإني أعتقد أن كتابك هذا ليس في حاجة مطلقاً الى شيء من هذه الأشياء التي تقول إنها تنقصه ، لأنه من أوله الى آخره ليس إلا هجاءً لكتب الفروسية ، وهي كتب لم يسمع بها أرسطوطاليس ، ولم يكن عند شيشرون أدنى فكرة عنها ، ولم يتناولها القديس باسيليوس بكلمة واحدة . ومن ناحية أخرى ما شأن ما فيه من غرائب وشواذ بمقتضيات الحقيقة أو أرصاد علم الفلك ؟ وماذا يهمه من الأقيسة الهندسية أو مراعاة قواعد الخطابة وبراهينها ؟ وهل من شأنه أن يعظ الناس ، فيخلط الأمور الإنسانية بالأمور الإلهية ، خلطاً يأباه عقل كل مسيحي ؟ ـ ليس لكتابك أن يفيد إلا من المحاكاة من أجل الأسلوب ، فكلما كانت المحاكاة أكمل اقترب الأسلوب من الكمال . وإذن : فمادام القصد من كتابك ليس إلا كبح بل تحطيم ما لكتب الفروسية من تأثير وسلطان عند عامة الناس ، فهل أنت في حاجة الى استجداء أقوال الفلاسفة ومواعظ الكتب المقدسة وأخيلة الشعراء وخُطَب الخطباء وكرامات الأولياء ؟ لكن اجتهد أن تكون ألفاظك بسيطة صافية أمينة حسنة السَبْك ، وأن تكون فواصلك رنّانةً وحكاياتك مُسليّة موشّاة وأن تكون معانيك مفهومة لا غامضة ولا مضطربة . واجعل قراءة قصتك تثير الضحك في الحزين ، وتزيد من بهجة الضاحك ، وتطرد الملل عن البُسطاء ، وتدعو الى إعجاب الحاذقين بإبداعها ؛ ولتكن بحيث لا تقتحمها عين أهل الجدّ ولا يرى الحكيم مندوحة من إطرائها . وتتطلّع ببصرك إلى تحطيم هذه الآلة الفاسدة المؤلفة من كتب الفروسية ، مما يعافه بعض الناس ويثني عليه أكثرهم . فإن وُفِّقت لمرادك ، لم تكن قد نِلْت قليلاً » .

وكنت أستمع الى ما يقوله صديقي في صمت بالغ ، وانطبعت كلماته في نفسي على نحو جعلني لا أماري فيها بل أراها سديدة تستوجب الثناء ، حتى رغبتُ في أن أؤلّف منها هذا الاستهلال الذي ترى فيه أيها القارئ الرقيق الحاشية ، فطنةَ صديقي ومهارته ، وحسن الحظ الذي قيّض لي أن أجد في الوقت المناسب مثل هذا الناصح الأمين ، وأخيراً ستستنشي نسيم الراحة حينما تجد قصة دون كيخوته دلامانتشا الشهير بكل بساطتها وبغير خلط ولا التواء . وإن جميع سكان إقليم سهل مونتيل ليعتقدون أنه كان أعف عاشق وأشجع فارس شوهد في هذه المنطقة طوال عدة سنوات . لا أودّ أن أبالغ في تمجيد الخدمة التي أصطنعها عندك بتعريفي إياك بفارس نبيل شريف كهذا ؛ غير أني أود أن تحمد لي تعريفي إياك بسنتشو پنثا ، حامل سلاحه ، وفيه سترى فيما أعتقد ، كل مناقب المهنة مجتمعة بعد أن كانت مشتتة في هذا الحشد الهائل الزائف من كتب الفروسية .

قَرَن الله عُمرَك بالعافية ، ولم ينسَني . والسلام!

القسم الأول

الفصل الأول

في أحوال وأعمال النبيل الشهير دون كيخوته دلامَنْتشا

في ناحية من نواحي إقليم المَنْتشا ، لا أريد أن أذكر لها اسماً[1] ، ومن زمن غير بعيد كان يعيش نبيل ممّن في مَسْلَحتهم رمح ، ولهم تُرسٌ عتيق وبرْذونٌ ضامر وكلبٌ سَلوقي . وكان ينفق ثلاثة أرباع دخله في قِدْرٍ يطهو فيه من لحم الضّأن أكثر من لحم الثور ، وشرائح لحم مخللة كل عشاء تقريباً ، ومزيج من البيض والوَدَك[2] ، وعدس في يوم الجمعة ، وزغلول حمام فوق الطعام المعتاد أيام الآحاد . وكان ينفق ما تبقى في شراء صدرية من الجوخ الرقيق ، وتُبّان من المخمل وخُفّين من نفس القماش ، من أجل أيام الأعياد ، وحُلة من أفخر العِهْن[3] كان يتباهى بها خلال أيام الأسبوع . وكانت تقيم معه جارية تجاوزت سن الأربعين ، وبنت أخ لم تبلغ العشرين ، وصبي للحقل والمدينة كان يُسرج البرذون ويستعمل المِنجل . وكان صاحبنا النبيل يشارف الخمسين ؛ مجدول الخَلْق ، ضامر البدن ، أعجف الوجه ، شديد البُكور ، مولعاً بالصيد . وكان يقال إنه يلقب « كيخادا » أو

(١) إما أن يكون هذا مجرد تعبير أدبي ، أو هو لا يريد فعلاً أن يذكر اسمها . فإن كان الأخير فيقال إنه يقصد أرجمسيا -Ar gamasilla . راجع مبحث مارين في الجزء ٩ من ص٧٦ - ص٨١ من نشرته الكبرى ، مدريد سنة ١٩٤٩ .

(٢) ترجمة للعبارة duelos y quebrantos التي حار الشراح في فهم معناها وهم يتتبعون دقائق أطعمة هذا النبيل الشهير! فمنهم من قال إن المقصود بها هو : « البيض والودك » (ترجمة أودان الفرنسية سنة ١٦١٤) ، ومن قال : « هي الجاسبون المقلي مع البيض » (الترجمة الايطالية عمل فرنتشيو زيني سنة ١٦٢٢) ، ومن قال : « يسمى بهذا الاسم في إقليم المنتشا عجة من البيض والمخ » (الطبعة الأولى من « معجم » الأكاديمية الاسبانية سنة ١٧٢٦ - ١٧٣٩) ، أو « قدر من لحم الطير والخنزير كان أكلها حلالا في مقاطعات قشتالة في أيام السبت إبان الأيام التي فيها صيام عن اللحم » (الطبعة الرابعة عشرة من نفس المعجم سنة ١٩١٤) ، وأخيراً « هي شيء مقلي يتألف من البيض وودك الحيوان ، خصوصاً المخ ؛ وكانت أكلة يحل تناولها في أيام الامتناع عن اللحوم حسبما تقضي به أوامر الكنيسة في أيام السبت في مقاطعات قشتالة » (الطبعة الخامسة عشرة من نفس « المعجم » سنة ١٩٢٥) . راجع في هذا بحث مارين في نشرته (جـ٩ ص٨٥ - ص١١٤) .

(٣) تبان : calzas سروال يغطي الجسم من الخاصرة حتى القدمين . صدرية sayo لباس يغطي من الرقبة حتى الخاصرة . عهن : نوع من الصوف serge jerga . في النص ورد vellori وهو نوع من الجوخ الرمادي متوسط الجودة .

« كيسادا » ، ففي هذه المسألة خلافٌ بين المؤلفين الذين تناولوه ، وإن كان أرجح الآراء يومئ الى أن لقبه هو « كيخانا » . بيد أن هذا أمر ليس بذي بال في قصتنا هذه ، والمهم هو ألا نحيد في رواية الوقائع عن الحقيقة قيد أنملة .

ويجب أن تعلم إذن أن هذا النبيل كان يقضي الأوقات التي لا عمل فيها ، أعني طوال العام تقريباً ، في الإنكباب على قراءة كتب الفروسية ، بلذة ونهم يبلغان حداً يجعله يكاد ينسى الخروج للصيد وإدارة أمواله . وقد حمله حبّ الاستطلاع والإفراط في هذه القراءة على بيع فنائق[1] كثيرة من أجود أراضي القمح من أجل شراء كتب في الفروسية يقرأها . ولهذا اقتنى في منزله منها كل ما استطاع اقتناءه . وكان يرى أن أروعها جميعاً تلك التي وضعها فلثيانو دي سلڤا الشهير[2] . ذلك أنه كان مأخوذاً بوضوح نثره ، وبدت كلماته المعقودة كأنها عقود اللؤلؤ ، خصوصاً حينما يبلغ من قراءته الى قوله في مواضع عدة من رسائل الغزل والتحدي : « إن علة علة العقل التي أصابت عقلي أضعفت عقلي حتى شكوت لعلة من جمالك »[3] ، أو قوله : « إن السموات العُلى التي تقوّي إلهيتك إلهياً بعون النجوم ، وتجعلك مستحقة للحقوق التي تستحقها عظمتك » .

بهذه العبارات وأمثالها فَقَد هذا السيدُ المسكين صوابه . فكان يقضي الليالي يعذب نفسه في فهمها وتعمقها واستخلاص المعنى من أحشائها ، على نحو ما كان أرسطوطاليس نفسه يفعله لو بعث حياً لهذا الغرض وحده . ولم يقنع بالجروح التي كان دون بليانيس يصيب بها أو يتلقاها ، لأنه تخيل أنه مهما يكن من مهارة الطبيب الذي يضمدها فلن يخلو الأمر من تغطية الجسم بالندوب والوجه بالأثور . ولكنه حمد للمؤلف طريقته الرشيقة في ختم كتابه بالوعد بهذه المغامرات التي لا تنتهي ، بل كثيراً ما راودته نفسه أن يمسك بالقلم وينجزه بالحرف الواحد ، كما وعد . وما من شك في أنه كان سيفعل هذا ويتمّه على خير وجه يشرّفه ، لولا أن صرفته عن

---

(١) الفنيقة : مكيال يسع ٥٥,٥ لتر ، والكلمة الاسبانية fanega عربية (راجع المقدسي ٢٤٠ : ٥ ، وراجع دوزي : تكملة المعاجم العربية جـ ص٢٨٥) ، وكانوا يقولون أيضاً « فنقة » ومنها الكلمة البرتغالية القديمة fonga (راجع البكري ١١٣ : ١١) .

(٢) فلثيانو دي سلڤا (سنة ١٤٩٢ ؟ ـ سنة ١٥٥٨ ؟) ولد في ثيودا ردريجو وعشق ابنة يهودي متنصر هي جراثيالي واقترن بها رغم معارضة أهله ، واتخذ من ذلك موضوعاً لكتابه « حلم فلثيانو دي سلڤا ، وفيه تصوير مزايا الحب » . واشتهر خصوصاً بتأليف كتب في الأنواع التي يتذوقها الجمهور ، وبخاصة القصص . وخير مؤلفاته « ثلستينا الثانية » وإن كانت خليطاً من الأشخاص المتفاوتين كل التفاوت ومن الأشعار المندسة في ثنايا الحديث . ويهمنا منها هنا قصته : « السفر التاسع من أسفار أماديس دي جولا (أماديس الغالي) ، وهو تاريخ أشجع أمير وفارس ذي سيف مسلول ، ألا وهو أماديس اليوناني ، ابن لسورتي اليوناني ، امبراطور القسطنطينية وطرابزون ، وملك رودس ، ويبحث في أعماله الحربية العظيمة ومغامراته العالية الجريئة في الحب » .

(٣) هنا يستخدم المؤلف جناساً وتورية بناهما على المعنى المشترك لكلمة razon التي تدل على « العلة أو السبب » وعلى « العقل » فأمكنه التلاعب هنا ببراعة لم نتمكن من أدائها في العربية حرصاً على المحافظة على الأصل .

ذلك شواغل أجلّ وأشدّ إلحاحاً . وكأين من مرة اختصم مع قسّ القرية - وكان عالماً ظفر بإجازته في شيغونسه[1] - حول مسألة من كان أفضل في الفروسية : پالمرين الانجليزي ، أو أماديس الغالي . وكان يؤكد للأسطى نقولاس ، حلاق القرية ، أن فارس فيبوس[2] لم يكن يدانيه أحد ، وإذا كان لأحد أن يقرن به فليس إلا دون جلاور ، أخا أماديس الغاليّ ، لأنه كان مستعداً لكل شيء ، ولم يكن متدلّلاً ، ولا هَرِعاً[3] كأخيه ، وفي الشجاعة لم يكن ليقل عنه في شيء .

وبالجملة ، لقد كان غارقاً في قراءاته الى حد أنه كان في الليل يقرأ من المساء الى الصباح ، وفي النهار من الصباح الى المساء . ولقلة نومه وكثرة قراءته جفّ دماغه حتى مسّه طيفُ جِنّة . وامتلأ خياله بكل ما قرأه في هذه الكتب ، عن ألوان السحر والخصومات والتحدي والمعارك والجروح ولفتات المجاملة ، والعشق والعذاب والغرائب المستحيلة ؛ وامتلأ وهمه يقيناً بأن هذا المخزن الهائل من التهاويل والأحلام هو الحقيقة بعينها ، ولم يكن ثمّ في الدنيا أصدق من هذا التاريخ . وكان يقول إن السيد روي دياث كان من غير شك فارساً حقاً ، ولكنه لم يكن أبداً من أنداد فارس السيف المسلول الذي فلق - بضربة واحدة بظهر سيفه - ماردين وحشين هائلين فشطرهما شطرين . وكان يفضل برنردو دل كارپيو لأنه قتل رولند المسحور في رونصسڤالس ، مستعيناً بحيلة هرقل لما أن خنق أنطايوس[4] ، ابن الأرض ، بين ذراعيه . وكان يثني كثيراً على المارد مورجانته لأنه وإن انحدر من أصلاب أولئك المردة العتاة المتوعّري الأخلاق ، فإنه كان وحده من بينهم دمِث الطبع محمود الشمائل . وكان آثرهم عنده غير مدافَع : رينالدوس دي مونتالبان ، خصوصاً حين يراه يخرج من قصره ويسلب كل من يلقى في طريقه من السابلة أو حين ذهب ليسرق تمثال محمد[5] ، في الناحية الأخرى ، وكان هذا التمثال من خالص الذهب ، فيما يقولون . وكان على استعداد للتنازل عن جاريته ، بل وعن بنت أخيه في سبيل أن يركل الخائن جلالون بضع ركَلات .

وأخيراً ، وقد فقد صوابه ، استبدّت به فكرة هي أغرب ما يتخيله مجنون في هذه

---

(١) شغونسه Siguenza بليدة صغيرة وجامعتها هزيلة - ولهذا فالمؤلف إنما يتهكم هنا بهذه الدرجة الدراسية! .

(٢) فيبوس ، وفي الاسبانية Febo الاسم الخرافي للشمس

(٣) الهرع : السريع البكاء .

(٤) أنطايوس : مارد من ليبيا ، ابن إلهة الأرض وإله البحر وكان من القوة في المصارعة بحيث كان يباهي بأنه يستطيع أن يبني معبداً لأبيه من جماجم خصومه بعد أن يصرعهم . وكان يستمد قوته طالما كان مستنداً بأقدامه الى الأرض . فاحتال هرقل حينما بارزه بأن رفعه في الهواء ثم عصره بين ذراعيه حتى مات .

(٥) كان هذا مدى إدراك القوم في ذلك العهد العامر بالحروب بين المسلمين والنصارى في اسبانيا ، للإسلام وللنبي محمد . وسترى شواهد هذه العقلية في ثنايا الكتاب كله مما يصور مشاعر التعصب المسيحي ضد الإسلام وما انطوى عليه من جهل وافتراء واختراع للأكاذيب .

الدنيا : فقد رأى من اللائق بل من الضروري ، سواء لتألُّق مجده ولخدمة وطنه ، أن يصبح فارساً جوالاً ، فيسعى في مناكبها ، ببرذونه وسلاحه ، وراء المغامرات ، وأن يمارس جميع ما قرأ أن الفرسان الجوالين يمارسونه : فيُصلح الأخطاء ، ويتعرض للأخطار في كل المناسبات حتى ينال بمجابهتها والتغلب عليها ذكرى لا تمحي أبداً . وكان يُخيّل إليه ، هذا المسكين ، أن قوة ساعده ستتوّج بتاج امبراطورية طرابزون على أقل تقدير . وراح ، نشوان بهذه الأفكار الحلوة وما فيها من إغراء لا يقاوَم ، راح يبادر الى وضع هذه الأمنية موضع التنفيذ . فكان أول شيء عمله هو أن ينظّف مِشكّاً[1] كان ملكاً لأجداده ثم ظل قابعاً في ركن من الأركان منذ قرون فريسة للصدأ والرطوبة : فغسله وحكّه وأصلحه بقدر ما تهيأ له . لكن تبيّن له أنه ينقص هذا المشكّ شيء مهم وهو أنه لم يكن فيه خوذة[2] كاملة بل بصلة فحسب . فعالج الأمر بمهارته : فأتى بورق مقوّى وصنع منه شبه نصف خوذة عشّقها مع البصلة فبدت على هيئة خوذة كاملة . صحيح أنه حين جرّب ليرى إن كانت تصمد لحد السيف ونصل السكين فجرّد سيفه وأهوى عليها بضربتين من حدّه كانت الأولى كافية لأن تحطم في برهة واحدة عمل أسبوع . فتضايق من سهولة تمزيقها ، ولكي يطمئن على هذا الخطر شرع في عملها من جديد ، وبطّنها بقضبان حديدية خفيفة ، حتى اطمأن الى صلابتها ؛ واعتقد أنها خوذة من أدق الأنواع ، دون أن يحاول تجربتها مرة أخرى .

ثم راح يفتّش عن برذونه ؛ وعلى الرغم من أنه كان فيه من الأوجاع أكثر مما فيه من الأعضاء[3] ومن العيوب أكثر مما كان في فرس جونيلا[4] ، فكان « جلداً على عظام »[5] ،

---

(١) مشك unas armas : مجموعة من الأسلحة .

(٢) الخوذة Celada غطاء حديدي للرأس يلبسه المحارب مستدير نصف كروي ؛ أما البصلة morrion فكانت بيضاً مرتفع الجوانب .

(٣) هنا يتلاعب ثربانتس باللفظ Cuarto : فهو يدل على نوع من العملة يساوي ٣ سنتيم ، بينما الريال يساوي ٢٥ سنتيم . وهو يقول حرفياً : « وبالرغم من أنه كان فيه من الأرباع Cuartos أكثر مما في الريال real » . وكلمة Cuarto تدل أيضاً على الجرذ في الفرس ، « أي ما يحدث في عرض عرقوبيه ظاهراً وباطناً من تزيد وانتفاخ عصب ويكون مع المفصلي طولاً كالموزة » (مبادئ اللغة للخطيب الإسكافي ، ص١٣٩ ، القاهرة سنة ١٣٢٥هـ) . ولم نستطع أن نأتي بالعبارة بحروفها ، فأثبتنا معناها كما فعل كارليزي في ترجمته الإيطالية وڤياردو في ترجمته الفرنسية .

(٤) كان بيترو جونيلا مهرجاً في قصر الدوق بورسو في فرارا بإيطاليا في القرن الخامس عشر ، وكان فرسه مصدراً لكثير من النوادر الأدبية والطرائف المضحكة . ومما يروى أن الدوق بورسو الفراري لما شاهد فرسه وكانت ملأى بالأوجاع عجوزاً سأل كانيلا ماذا هو فاعل ببرذونه . فراح كانيلا يمدح خصال فرسه وراهن الدوق على مائة دينار في مقابل زكيبة من القمح على أساس أن فرسه يقفز قفزة أكبر من أجود خيول الدوق . ثم أصعد برذونه على سلم القصر ووضعه عند نافذة ثم دفعه منها فوقع في الميدان . فضحك الدوق واعترف بأنه خسر الرهان!

(٥) باللاتينية في النص ، وهي مأخوذة ، مع شيء من التعديل من عبارة وردت في مسرحية هزلية تأليف پلوتوس الشاعر اللاتيني بعنوان « جرة ملأى بالذهب » Aulularia (٣ : ٦) .

فإنه تراءى له أنه لا فرس الإسكندر المدعو بوقفالس ولا فرس «السِّيد» المدعو بابييكا بقادر على أن يجاري برذونه هذا : وظل أربعة أيام يتخيل أي اسم يعطيه لهذا البرذون ، إذ رأى (بحسب ما قاله لنفسه) أنه ليس ثمة من سبب لأن يظل فرس مثل هذا الفارس الشهير ، وهو في ذاته فرس جواد ، بغير اسم يشتهر به . ولهذا حاول أن يجد له اسماً يتفق مع ما كان عليه من قبل أن ينخرط في سلك الفرسان الجوالين ، ومع ما صار إليه حينئذ . وكان العقل يقضي بأنه مادام سيده قد غيّر من أحواله ، فيجب أن يتغير اسمه فيصبح اسماً فخماً رناناً حسبما يقتضيه الوضع الجديد والمهنة الجديدة التي اتخذها . وهكذا ، وبعد أن استعرض أسماءً ألفها ثم محاها ، وقضمها ثم زادها ، وركبها وحلّها في ذاكرته وخياله ، توصل أخيراً الى تسميته باسم : «روثينانته»[1] ، وهو اسم بدا له فخماً رناناً يدل على ما كان عليه وما صار إليه ، إذ كان «فرساً سابقاً» فصار «سابق الأفراس» .

ولما أن أعطى فرسه هذا الاسم الذي وافق مزاجه ، ودّ أن يعطي لنفسه اسماً ، فأنفق ثمانية أيام أخرى في هذا الأمر ، في نهايتها توصل الى أن يسمي نفسه باسم : «دون كيخوته» ؛ ومن هنا وقع لبعض الناس الذين ألّفوا هذا التاريخ الحقيقي أن يقولوا إن اسمه الحقيقي يجب من غير شك أن يكون «كيخادا» ؛ لا «كيسادا»[2] كما حلا لآخرين أن يلقبوه . وهنالك تذكّر أن الشجاع أماديس لم يقنع بأن يُلَقّب باسم «أماديس» فحسب ، بل أضاف الى اسمه اسم بلده ليشتهر ، ولهذا تلقب بلقب : أماديس الغاليّ ؛ فشاء أيضاً ، شأنه شأن كل فارس حقيقي ، أن يضيف اسم بلده الى اسمه ، ولهذا تسمى «دون كيخوته دلامَنْتشا» وخُيّل إليه بهذا أنه دلّ بوضوح على جنسه ووطنه ، وأنه شرف وطنه بأن اتخذ نسبة إليه .

فلما نظف سلاحه ، وصنع من البصلة خوذة ، وأعطى لبرذونه اسماً ، ولنفسه التأييد[3] ، اقتنع بأنه لم يعد ينقصه شيء اللهم إلا البحث عن سيدة ليعشقها ، إذ كان يحسب أن الفارس الجوال بغير عشق مَثَله مَثَل الشجرة بغير أوراق ولا ثمار ، أو الجسم بلا

---

(١) هنا يتلاعب المؤلف أيضاً بهذا اللفظ ، إذ كلمة rocinante مؤلفة من rocin (= برذون) وante (= سابقاً) ـ أي الفرس الذي كان سابقاً برذوناً ؛ كما يمكن أن تركب هكذا ante (= أول) ثم rocin (=برذون ـ أي أول فرس بين أفراس الدنيا!) .

(٢) «كيخادا» معناه في الاسبانية : فك (في الحنك) ؛ و«كيسادا» معناها كعك بالجبن . و«كيخوته» معناها درع الفخذ . ويرى كلمنتين أن ثربانتس اختار هذا الاسم لبطل قصته لأن النهاية ote ـ في اللغة القشتالية تدل عادة على أشياء مضحكة حقيرة .

(٣) التأييد Confirmation : شعيرة من شعائر الكنيسة الكاثوليكية لتأييد المسيحي في إيمانه ، وهي من خواص عمل الأسقف ، ومن المعتاد في مثل هذه الأحوال أن يلقب المؤمن بلقب جديد . وهنا يقصد بالتأييد أنه أعطى نفسه هذا اللقب الجديد : «دون كيخوته دلامنتشا» .

روح . وقال في نفسه : «لو قدر لي بسبب خطاياي ، أو بالأحرى لحسن حظي ـ أن أصادف في تجوالي مارداً من المردة كما يقع عادة للفرسان الجوالين وأن أجندله من أول لقاء أو أشقه نصفين ، أو أنتصر عليه أخيراً واضطره الى التسليم ، أفلا يكون من الخير أن يكون لدي من أرسله إليه ليدخل ويركع أمام سيدتي الحلوة ويقول لها بصوت ضارع خفيض : «أنا المارد كَرَكوليمبرو ، سيد جزيرة مالندرانيا ، الذي انتصر عليه في مبارزة منفردة الفارس الذي لا يحيط بمعاني مدحه وصف : دون كيخوته دلامنتشا ، الذي أمرني بالمثول أمام حضرتك ، لكي تتصرف عظمتك فيّ كما يحلو لها ؟» أوه! كم غلبت على صاحبنا الفارس نشوة الطرب لما أن ألقى هذا الخطاب ، وخصوصاً لما وجد من سيعطيها اسم سيدته . إذ يقال إن هذه كانت فتاة فلاحة مليحة الوجه تسكن في قرية مجاورة لقريته ، وكان يتعشقها حيناً من الزمان ، وإن كانت هي لم تعرف عن هذا الأمر شيئاً ولم يكن يعنيها في قليل أو كثير . وكانت تدعى ألدونثا لورنثو ، فاستحسن أن يطلق عليها اسم السيدة التي سيطرت على أفكاره . فبحث لها عن اسم لا يبعُد كثيراً عن اسمها ، اسم يشتم منه ويمثل السيدة العظيمة والأميرة ، فلقبها بلقب : دُلْثِنْيا دل توبوسو ، لأنها كانت من قرية توبوسو ؛ وقد بدا له اسماً موسيقياً نادراً ممتازاً ، لا يقل عمقاً في التعبير عن سائر الأسماء التي أطلقها على نفسه وعلى أشيائه .

الفصل الثاني

في اول خرْجة للماهر دون كيخوته خرجها من وطنه

فلما تجهّز بجهازه ، لم يشأ أن ينتظر أكثر مما انتظر لتنفيذ ما انتواه . وحثه على الإسراع اعتقاده أن العالم سيفقد الكثير إذا تأخر ، فكم كان يرجو أن ينتقم من مظالم ، وأن يصلح من أخطاء وأن يعالج من إهانات ، وأن يصحح من إساءات ، وأن يسدد من ديون! ولهذا ، ودون أن يخبر أحداً بما طوى عليه كَشْحه ، ودون أن يراه أحد أفاق ذات يوم ملتهب القيظ من أيام تموز قبل أن يبزغ النهار وتسلح بكل سلاحه وركب متن روثينانته ، ولبس خوذته الغريبة واستلأم لامته البيضاوية ، وأمسك برمحه ، وخرج الى الحقول من باب خلفي ناحية حوش الدواجن وقد استطاره الفرح إذ شعر بالسهولة التي تم بها البدء في تنفيذ غرضه النبيل . لكنه لم يكد يخطو بضع خطوات حتى هاجمته فكرة مخيفة كانت على وشك أن تصرفه عن المضيّ في مشروعه . إذ تذكر أنه لم يسلح فارساً ، وقوانين الفروسية لا تخوّل له إذن أن يدخل في مبارزة مع أي فارس ، وحتى لو سُلّح فارساً فليس له أن يحمل إلا أسلحة بيضاء ، بوصفه فارساً مبتدئاً ، دون شارة على لامته حتى يستطيع أن يظفر بها بشجاعته . هذه الخواطر أوقعته في حيرة ؛ لكن جنونه أزرى بكل عقل فقرر أن يقوم بتسليحه فارساً أول من يلقاه ، وهو في هذا إنما يحاكي كثيراً غيره مما فعلوا فعلته كما تدل عليه قراءاته في الكتب التي أدت به الى هذه الحال . أما عن الأسلحة البيض فقد رأى أن يحكّ أسلحته ، في أول مناسبة تعرض له ، على نحو يجعلها أبيض من السَمّور . وهكذا اطمأنت نفسه ومضى لطِيّته يسلك سبيلاً لم تكن إلا تلك التي اختارها فرسه ، إذ رأى في ذلك سر المغامرات .

وبينا يسير كان صاحبنا المغامر الجديد يتحدث الى نفسه قائلاً : من ذا الذي سيشك ، في الأجيال المقبلة حينما تذاع قصةُ مغامراتي الحقيقية ، ، أن الحكيم الذي

سيكتبها لن يصف خرجتي الأولى هذه بقوله : «لم يكد أپولو الأشقر ينشر ذوائبه الذهبية من شعره الجميل على وجه البسيطة الفسيح ، ولم تكد الطيور الصغار ذوات الأصباغ الرائعة تحيي ، بقيثارات ألسنتها وبأنغام أعذب من الشهد ، مقدم الفجر الوردي وقد غادر فراشه الوثير حيث ترقد عروسه الغيور وتبدّى للأحياء من أطناف الأفق المنتشاوي ـ حتى غادر الفارس الشهير دون كيخوته دلامنتشا حشايا الكسل ، وامتطى صهوة فرسه الشهير روثينانته وسلك سبيله خلال سهل مونتييل القديم الذائع الصيت» ؟ . وهو كان يتجول فعلاً في هذا المكان . ثم أضاف قائلاً : «طوبى للعهد الذي ستذاع فيه أفعالي الجريئة الرائعة الخليقة بأن تنقش على البرنز ، وتحفر على المرمر ، وترسم على الخشب ، لتحيا أبداً في ذاكرة الأجيال المقبلة! وأنت أيها الحكيم الساحر ، أياً مَن كنت ، يا من قُدِّر لك أن تكون مؤرخاً لهذه الأحداث الرائعة ، أتوسل إليك ألا تنسى فرسي الطيب روثينانته ، رفيقي الدائم في جميع أسفاري» . ثم استأنف بلهجة العاشق الوامق حقاً : «أي أميرتي دُلثنيا ، سيدة هذا القلب الأسير! لقد أهنتِني إهانة بالغة بوداعي ، وبما أمرت به من حرماني القاسي من المثول في حضرة جمالك . فتفضلي يا سيدتي بتذكر هذا القلب ، قلب عبدك الذي برّحتْ به الآلام حباً فيك» . ثم أضاف الى هذه الترهات مئات أخرى كلها على غرار ما لقنته كتبه ، محاكياً لغتها قدر المستطاع .

وفي خلال ذلك كان يسلك سبيله رويداً رويداً ، بينما الشمس تصّاعد وتتقد أشعتها حتى كانت تكفي وحدها لصهر مُخّه لو كانت في مخه بعدُ بقية .

وسار اليوم كله دون أن يقع له ما يستحق أن يذكر . ولكم ساءه هذا ، لأنه كان يود لو التقى في التو بمن يبلو وإياه صلابة عضلاته . على أن من المؤلفين من يذكر أن أولى مغامراته كانت مغامرة ميناء لپثه ، وآخرون يقولون إنها كانت مغامرة طواحين الهواء . ولكن تحقيقي لهذا الموضوع وما وجدته مسجلاً في أخبار المنتشا دلاً على أنه ظل سائراً اليوم كله ، حتى إذا ما وافى المغيب كان هو وبرذونه يتساقطان إعياء ويموتان ظمأ . فراح ينفض المكان من كل ناحية عساه أن يبصر قصراً أو كوخاً للرعاة فيه يجد المأوى والعلاج لحاجته الملحّة ـ فلمح غير بعيد من الطريق الذي كان يسير فيه فندقاً ، فخُيِّل إليه كأنما رأى النجم الذي سيهديه الى أعتاب ، إن لم يكن الى قصر خلاصه . فحث الخطى حتى بلغه مسقطَ الليل .

وتصادف أن كان عند الباب امرأتان من اللواتي يطلق عليهن اسم «بنات الهوى» وكانتا في الطريق الى أشبيلية مع بعض البغّالين الذين قرروا النزول بهذا الفندق تلك الليلة .

ولما كان صاحبنا المغامر يظن أن كل ما يقع له وما يراه أو يفكر فيه إنما يقع على غرار ما قرأ ، فإنه لم يكد يبصر الفندق حتى خاله قصراً له أربعة أبراج وتيجان فضية لامعة ، ولا ينقصه الجسر المتحرك ولا الخنادق ولا أية تفصيلة من التفاصيل التي توصف بها أمثال تلك القصور . فاقترب من الفندق الذي خاله قصراً وتلبّث غير بعيد ممسكاً بعنان روثينانته ، في انتظار طلوع عفريت بين الأفاريز العليا المسننة ليعلن في بوقه عن وصول فارس الى القصر . لكنه لما استبطأ الأمر ورأى روثينانته تستعجل الوصول الى الاصطبل ، اقترب من الباب ، وشاهد البنتين الفاسقتين اللتين كانتا هناك ، فتبدتا له أنستين جميلتين أو سيدتين رشيقتين تسترفهان . ومن عجائب الصدف في هذه اللحظة أن راعي خنازير كان يجمع شمل قطيع من الخنازير (واعذرني ، فهذا هو اسمها) على أكوام التّبن ، فكان ينفخ في قرن فتتجمع على صوته هذه السوائم . هنالك خُيّل إلى دون كيخوته أن عفريتاً أعطى إشارة الوصول ، فكان له ما رام . وهزته النشوة فاقترب من الفندق والسيدتين ، اللتين لم تكادا تبصران هذا القادم المسلح على هذا النحو ومعه رمحه وترسه ، حتى عادتا مرتاعتين الى داخل الفندق . وفهم دون كيخوته أن السر في فرارهما هو الرهبة . فرفع حافة الخوذة الكرتونية ، وكشف عن وجهه الجاف الأغبر ، وقال لهما برقة ورزانة صوت : «لا تُراعا يا صاحبتي العصمة ، ولا تهربا ؛ فإن نظام الفروسية الذي أنتسب إليه يقضي بعدم إهانة أحد ، خصوصاً إن كان مثلكما آنستين من معدن الحسب الصميم كما تدل عليه سيما حضرتيكما » .

فحملقتا إليه بمجامع عيونهما بحثاً عن وجهه تحت حافة الخوذة الرديئة التي غطّته . لكنهما حينما سمعتاه يدعوهما باسم « آنستين » ، وهذا أمر بعيد جداً عن مهنتهما ، لم يتمالكا من الضحك على نحو جعل دون كيخوته يغضب . فقال لهما بلهجة جادة :

ـ الأدب من شيمة الجمال ، والضحك لسبب تافه حماقة ؛ غير أني لا أقول لكما هذا لأضايقكما أو أعكّر صفو سروركما ، فسروري إنما هو بخدمتكما» .

فزادت هذه اللهجة التي لم يفهماها وعبوس وجه صاحبنا الفارس من ضحكاتهما ومن غضبه حتى أوشك الأمر أن ينقلب سوءاً ، لولا أن ظهر صاحب الفندق في هذه اللحظة ، وكان رجلاً بديناً أحالته سمانته وديعاً ، ولما رأى هذا الوجه الغريب ، المسلح بهذه الأسلحة المتفاوتة : بعنانه ورمحه وترسه ودروعه أوشك أن يشارك الفتاتين في إظهار حبوره . لكنه تدارك نفسه وقد فزع من هذا الشبح الشاكي السلاح وعزم على مخاطبته بأدب فقال :

ـ أي سيدي الفارس! إن كنت تبحث عن مأوى ، دون فراش (إذ ليس في هذا الفندق كله سرير واحد) ، فستجد سائر ما تبغي موفوراً جداً .

فلما رأى دون كيخوته تواضع قائد الحصن ـ إذ هكذا بدا له صاحب الفندق والفندق ـ أجاب :

ـ أي شيء يكفيني يا صاحب القصر ، إذ :

السيفُ كلُّ عتادي   وراحتي في جهادي[١]

فلما سمعه يدعوه castellano[٢] (= صاحب القصر) حسبه إنما فعل ذلك لأنه بدا له شبه لصوص قشتاله (Castilla) ـ وهو في الحقيقة كان أندلسياً من أهل ساحل سان لوقار ، لا يقل شأناً في اللصوصية عن قاقوس[٣] ، ولا في الهُزء عن تلميذ أو خادم ـ فردّ عليه قائلاً :

ـ وعلى هذا فإن الصخر الصيخود هو كل سرير جنابك ، ونومك دائماً سهاد ؛ فإذا كان الأمر هكذا ، فتستطيع أن تترجل ، وأنت واثق أنك ستجد في هذا الكوخ كل فرصة وفرصة لاكتحال السهاد طوال العام كله ، لا ليلة واحدة فحسب .

وأمسك الركاب لدون كيخوته ، فنزل عن صهوة فرسه بكل عناء ومشقة ، ومثله مثل صائم يومه كله .

وقال لصاحب الفندق أن يعنى عناية خاصة بفرسه ، لأنه خير دابة في الدنيا . فرمقه صاحب الفندق ولم يجده فرساً جواداً كما زعم دون كيخوته ، بل ولا نصف جواد . بيد أنه ساقه الى الاصطبل وعاد يسأل الضيف عما يريد ، وكانت الفتاتان مشغولتين بخلع سلاحه من عليه ، بعد أن جنحتا للسلم معه . فجردتاه من دروع الصدر والأكتاف ؛ لكنهما لم تستطيعا أبداً تخليصه من بنيقة رقبته ، ولا من خوذته الغريبة التي ربطت بأشرطة خُضْر . وكان لا مندوحة عن قطع هذه الأشرطة التي استعصى حل عُقَدها ؛ غير أن دون كيخوته لم يوافق على هذا أبداً ، وفضل أن يظل الليل طوله وخوذته مثبتة على رأسه ، فكان أغرب

---

(١) اعتادت الطبعات (الرنيسية وغيرها) أن توردها على أنها نثر ، وهي في الحقيقة بيتان مأخوذان من قصيدة رومانثية قديمة أوردها أمبيريس (دون ذكر السنة ، ولكن يظهر أنها بين سنة ١٥٤٥ و١٥٤٩) في «مجموع القصائد الرومانثية» (ورقة ٢٥٢) ، وتقول :

السيف كل عتادي   وراحتي في جهادي
والصخر كل سريري   ورقدتي في سهادي

(٢) هنا يتلاعب المؤلف باللفظ ، إذ يمكن أن يفهم بمعنى صاحب القصر ، وبمعنى قشتالي ، نسبة الى إقليم قشتالة في قلب اسبانيا ، وفي الحالة الأولى يكون مأخوذاً من castillo (= قصر) وفي الثانية من النسبة الى castillo (= قشتالة) . وترجمة هذا التلاعب في اللغات اللاتينية سهل ، وفي العربية غير ميسور .

(٣) قاقوس Cacus : في الأساطير الرومانية ، كان مارداً وقاطع طريق يعيش في كهف على تل الأفنتين (التل الجنوبي وأحد تلال روما السبعة) . ولما كان هرقل يسوق قطعان جريون توقف للراحة في المكان الذي سيصبح روما . فسرق قاقوس بعض الماشية منه وساقها الى كهفه وأخفاها . وارتحل دون أن يكتشف السرقة ؛ لكن خوار ثيرانه جاوبته الثيران المساقة في الكهف . هنالك هاجم الكهف وذبح قاقوس واستعاد ثيرانه .

وأظرف منظر يمكن أن يتخيله إنسان . وخلال هذه المراسم ، وقد اعتقد تماماً أن العاهرتين اللتين قامتا بخلع سلاحه كانتا سيدتين عظيمتين في هذا القصر ، أنشدهما برشاقة جمّة هذه الأبيات[١] :

خَـــبّـــروني هل رأيتم فـارسـاً بالغِـيـد يُخدَم
مـــثل كـيـخـوتة لمـا من حِمى الضيعة أقدم ؟!
فـالأنيـسـات على الفـا رس يـغـدقن العـنايه
والأمـيـرات على البـزْ ذون يغـدقن الرعـايه

على البرذون أو على روثينانته ، لأن هذا ، يا سيداتي ، هو اسم فرسي كما أن دون كيخوته دلامنتشا هو اسمي . وعلى الرغم من كوني لم أشأ أن أكشف عن نفسي قبل أن يكشف عنها ما سأبذله في خدمتكما من أعمال ، فإن الحاجة الى جعل هذه القصيدة الرومانثية العتيقة ، التي تحمل اسم لانثاروته ، مراعية لمقتضى الحال قد كانت سبباً في أن تعرفا اسمي قبل الوقت المناسب . لكن سيأتي الزمن الذي تأمران سيادتكما فيه وأنا أطيع ، ويشهد ساعدي على رغبتي في خدمتكما .

فلم تُحر الفتاتان جواباً ، وهما لم تتعودا على سماع أمثال هذه البلاغات . ثم سألتاه هل يريد أن يأكل شيئاً . فأجاب دون كيخوته :

ـ أي شيء يكفيني ؛ إذ لو صدق ظني لجاء كل شيء على ما يرام .

ولحسن الحظ كان اليوم يوم جمعة ، ولم يكن في الفندق كله إلا شطائر من سمك يسمى في قشتالة باسم أباديخو ، وفي الأندلس : بكلاه ، وفي مناطق أخرى : كوراديو ، وفي غيرها : تروتشويله . فسُئل هل يريد سعادته أن يأكل تروتشويله ، إذ لم يكن ثم غيره حاضراً للأكل . فأجاب :

ـ إن وجدت تروتشويلات كثيرة فيمكن أن تكون بمثابة تروتشه ، إذ يستوي عندي أن أعطى ثمانية ريالات فردية أو قطعة من ذوات الثمانية ريالات . ومن يدري! فلعل هذه التروتشويلات أن يكون لحمها كلحم العجل ، وهو أرق من لحم الثور ، أو كلحم الماعز وهو أرق من لحم التيس . وأيا ما كان ، فعليّ به حالاً ؛ لأن التعب وعبء السلاح لا يحتملان دون معاونة الكرش .

---

(١) عدل كيخوته في هذه القصيدة لتطابق مقتضى اسمه وحاله . فإنها في الأصل باسم لنثاروته ، وبلده . وصيغتها الأصلية هكذا : «لم تخدم سيدات فارساً كما خدم لنثاروته ، حينما قدم من بريطانيا . كم من سيدات اعتنين به ، وكم من فتيات اعتنين بفرسه!» .

فأُعدّت له مائدة عند باب الفندق حيث الطقس أبرد ، وأحضر له صاحب الفندق قطعة من هذه البكلاه رديئة الطهي مسيخة مليخة وخبزاً أسود عفناً مثل سلاحه . وكما كان مثاراً للضحك الشديد أن يُرى وهو يأكل ، لأنه كان مغطى بالخوذة وحافتها مرفوعة فلم يكن ليتمكن من أن يحمل الى فمه شيئاً بيده ، بل كان لابد أن يناوله شخص آخر ، فقامت بذلك إحدى الفتاتين . ولم يكن ممكناً كذلك سقيه ، لولا أن صاحب الفندق اهتدى الى حيلة هي أنه خرق عوداً من الغاب وضع أحد طرفيه في فمه وصب في الطرف الآخر خمراً وإبان هذا كله كان الفارس المسكين متذرعاً بالصبر حتى لا يقطع أشرطة بصلته . وفي هذه الأثناء تصادف أن قدِم الفندق خاصي خنازير ، وشرع حين وصوله في النفخ خمس أو ست مرات في صفارة من غاب . وكان هذا كافياً ليلقي في روع دون كيخوته أنه كان في قصر شهير ، وأنه يتناول طعامه بمصاحبة موسيقى ، وأن الأباديخو كان تروتشه ، والخبز الأسود خبزاً من الحُوّارى ، والعاهرتين سيدتين جليلتين ، وصاحب الفندق أمين قصر . فحمد الله على فراره وخروجه . لكن الأمر الذي أقلقه هو أنه لم يُسلَّح فارساً ؛ إذ خُيّل إليه أنه لا حق له شرعاً في المغامرة قبل أن يتلقى مرسم الدخول في نظام الفروسية .

الفصل الثالث

في الطريقة الظريفة التي بها سُلّح دون كيخوته فارساً

وما أن أقلقه هذا الخاطر حتى عجّل بالفراغ من هذا العشاء الفندقي الهزيل . وما أتمه حتى دعا صاحب الخان واقتاده الى الاصطبل وأغلق الباب وجثا على ركبتيه أمامه قائلاً :

ـ لن أنهض من حيث أجثو ، أيها الفارس الشجاع ، إلا إذا تفضل أدبُك فتعطف عليَّ بنعمة أريدها منك ، ستُعلي من مجدك ، وتخدم الإنسانية .

فلما رأى صاحب الفندق ضيفه جاثياً عند قدميه وسمع منه هذه العبارات ، حدق فيه حائراً لا يعرف ما يفعل ولا ما يقول ، وألحّ عليه أن ينهض . فلم يشأ النهوض إلا بعد أن وعده بإجابته الى النعمة التي التمسها . فأجاب دون كيخوته :

ـ لم أكن أتوقع من كرمك غير هذا . وهأنذا أقول لك إن هذه النعمة التي أرجوها وكرمُك سيمنحنيها ، هي أن تسلحَني فارساً غداً صباحاً . وأنا من ناحيتي سأسهر هذه الليلة في هيكل قصرك سهرة السلاح ، وغداً تتحقق أقصى أمانيّ ، حتى أقدر ، حسبما يقتضيه الواجب ، أن أذرع أركان الدنيا الأربعة ، باحثاً عن المغامرات ابتغاء مرضاة المحتاجين ، مما هو واجب الفروسية والفرسان الجوّالين أمثالي الذين تدفعهم طباعهم الى أمثال هذه الأفعال الجليلة .

وكان صاحب الفندق خبيثاً الى حد ما ، كما كان يقال ؛ بدأ يغتمزه في عقله ، واقتنع تماماً بهوسه حينما سمعه يقول هذه العبارات . لكنه لكي يهيئ زاداً من الضحك تلك الليلة ، قرر أن يتابعه على هواه ، فأجابه بأنه على حق تام في هذه الأمنية ؛ وأن هذا القرار طبيعي ومن شأن ذوي الحسب اللُّباب الذين يتطاولون الى أعراف المجد ، كما يدل عليه سيماه . وأردف قائلاً : «وأنا أيضاً كنت في سني شبابي أزاول هذه المهمة الشريفة ،

فطوّفت بأرجاء الدنيا سعياً وراء المغامرات . لم أقعد عن زيارة رَبَض الأعواد(١) في مالقة ، وجزائر ريازان(٢) ، وفرجار أشبيلية(٣) ، وسويقة(٤) شقوبية ، وميدان(٥) الزيتون في بلنسية ، ودورية غرناطة(٦) ، وشاطئ سان لوقار(٧) ، وفرس قرطبة(٨) ، وفنادق طليطلة(٩) ، وأماكن أخرى كثيرة بلوت فيها سرعة أقدامي كما بلوتُ خفة يديّ ، وأوقعت آلاف ألوان الأذى ، وغازلت الأرامل وروّعت الكواعب وغررت باليتامى ، حتى ذاع صيتي في كل المحاكم الاسبانية تقريباً . وفي النهاية جئتُ الى قصري هذا أعيش معتزلاً ، آكل من مالي ومال غيري ، وأستقبل فيه سائر الفرسان الجوالين ، من أية طبقة ومنزلة كانوا ، لا لشيء إلا لأني أحبهم حباً جماً ، بشرط أن يشركوني في أموالهم لقاء نواياي الطيبة » . ثم قال له أيضاً إنه لا يوجد في القصر هيكل يقضي فيه سهرة السلاح ، إذ هدم القديم لبناء آخر

---

(١) كان هذا الربض حياً خارج المدينة ، سمي بهذا الاسم لما نصب فيه من أعواد تستخدم لتجفيف السمك وتعريضه للهواء بعد تمليحه ، وكان عددها قرابة الثلاثين عوداً تشغل المسافة من وادي المدينة (وهو نهر) حتى الجانب الآخر ناحية أبراج فونسيقه ، بين الطريق وساحل البحر . وكان يغشاه أهل الحظ واللهو يلعبون بالرماح ويملأون بطونهم .

(٢) كانت مجموعة من المنازل المنعزلة في مدينة مالقة أيضاً ، يملكها غرسي لوبث الأرياراني ، وفيها حانات وحوانيت يغشاها أهل البطالة والمرح . وسميت « جزائر » لأن كلمة « جزائر » تطلق على مجموعات المنازل المنعزلة . وكان غرسي لوبث هذا قبطاناً في أسطول فرديناند وإيزابيلا الملكين الكاثوليكيين كما يسميان .

(٣) فرجار أشبيلية : حي على طول الأسوار ، عن شمال الداخل من باب ارنال حيث شارع اللافونة . وفي هذا الحي كانت بيوت الدعارة العمومية ، وكانت في السور بوابة خلفية تفضي الى الحقول . وفي ثنايا بيوت الدعارة كانت توجد بيوت صغيرة بائسة تملكها مع ذلك الكنائس والأديرة والمستشفيات وبعضها لأفراد من الناس . وكان بيت الدعارة يسمى في لغة القوادين بعدة أسماء : « الجمرك ، الكمبيو ، حقل الصنوبر ، القفار ، الخ » . وكذلك كانت لنزيلاته أسماء لا تقل عدداً عن ذلك!

(٤) سويقة شقوبية : تصغير « سوق » nzoguejo العربية . وكان يطلق على ميدان صغير في ربض مدينة شقوبية ، تمر عليه القناة المرتفعة الرومانية Acueducto . وفي القرن السابع عشر كان يقال : « هو من شقوبية : كان في شقوبية ، أو خبيث من شقوبية » للدلالة على شخص ماكر داهية خبيث . وكان يتردد على هذه السويقة المحتالون والسحرة والمشعوذون .

(٥) هذا الميدان كان يقوم ناحية ميدان Olivereta الحالي ، وكان يغشاه المهرجون والمومسات والقوادون وأشباههم ، وكان مركزاً للدعارة .

(٦) تقع هذه الدورية (مكان دائري) حوالي باب التوابين Bibataubin ، والميدان الذي تشغله فيه أشجار رائعة . وكان يجتمع فيها الصعاليك والمتشردون .

(٧) يطلق على « مضربة » الزهراء و« مضربة » قوتل وكستلنولو ، وكلها متقاربة تقع على شاطئ قخر Vejer . و« المضربة » معناها « مصائد سمك التونة » (راجع ميجل اسين بالاثيوس : « بحث في الأسماء العربية لبعض الأماكن في اسبانيا » ص٦٦ ، مدريد سنة ١٩٤٤) . وكانت مرتاد الصعاليك الذين يأتون الى « المضارب » لسرقة سمك التونة .

(٨) ميدان وحي في جنوب مدينة قرطبة سمي ــ هو والشارع الذي يمر فيه والنافورة التي به ــ بهذا الاسم لفرس من الحجر كان في أعلى النافورة . وكان هذا الميدان مرتاد الظرفاء والخبثاء والماجنين . وكثيراً ما يرد ذكره في الأناشيد الرومانثية .

(٩) هذه الفنادق الصغيرة الشهيرة كانت تقع على نواحي مدينة طليطلة ، خصوصاً على الطريق الى مدريد . وكان يرتادها طلاب الطعام الشهي والشراب الفاخر والقمار . ولهذا ردد ذكرها ثربانتس في بعض قصصه ، خصوصاً في قصتي : « النسالة الشهيرة » و« القواد المحظوظ » .



الفصل الثالث : دون كيخوته يُرْسَم فارساً

جديد ؛ ولكنه يعلم أن هذه السهرة يمكن أن تمضي في أي مكان يشاؤه المرء ، وأن دون كيخوته يستطيع أن يسهر هذه الليلة في فناء القصر ؛ فإذا ما تنفس الصبحُ أقيمت كل المراسم والطقوس المطلوبة بمشيئة الله ، فيصبح فارساً مسلحاً ، فارساً لا كالفرسان .

ثم سأله هل يحمل معه نقوداً . فأجاب دون كيخوته قائلاً إنه لا يحمل مليماً واحداً ، لأنه لم يقرأ أبداً في قصص الفرسان الجوالين أن أحداً منهم كان يحمل نقداً معه . فرد عليه صاحب الفندق بأن هذا غير صحيح ؛ لأنه وإن لم تذكر القصص هذا الأمر ، فإن مؤلفيها لم يروا من الضروري ذكر هذا الأمر البسيط الطبيعي ، ألا وهو حمل النقود وارتداء القمصان البيض ، فليس معنى عدم ذكرها إذن أن الفرسان الجوالين لايحملون معهم منها ، وهو واثق ومتأكد أن أولئك الذين امتلأت بذكر أفعالهم الكتب كانوا يحملون دائماً وفي كل ظرف كيساً مليئاً بالنقود ، وقمصاناً وصندوقاً صغيراً مملوءاً بالمراهم لنث الجراح التي يصابون بها ، إذ لايصادف دائماً أن يوجد في الحقول والقفار التي تجري فيها المعارك وتتلقى فيها الجراحات من يقوم بتضميدها ، اللهم إلا إذا كان لهم صديق حكيم ساحر يهب لمعاونتهم ، فيرسل لهم على متن السحاب والهواء فتاة أو عفريتاً معه قنينة فيها شراب إذا ما شربوا منه بضع قطرات شفوا من جراحهم في الحال وكأنهم لم يصابوا أبداً . فإذا لم يتيسر هذا النوع من الاسعاف ، رأى الفرسان القدامى أن من سداد الرأي ـ في مثل هذه الأحوال ـ أن يتزود حاملو أسلحتهم بالنقود وبعض ألوان العتاد الأخرى الضرورية ، مثل الفتل والمراهم لدسم الجروح وتضميدها ، فلو حدث أن لم يكن لهم حاملو سلاح (وهذا أمر نادر جداً أن يكون) ، تولوا هم حملها كلها في خرج لطيف جداً حتى لا تبدو للناس ويضعونها على غرابى الفرس وكأنها شيء آخر أكبر أهمية ، ذلك أن عادة حمل الخرج ، اللهم إلا في مثل هذه الحالة الخاصة ، لم تكن متبعة عند الفرسان الجوالين . ثم نصحه بل أمره ، وكأنه إنما يأمر ابنه في السلاح ، أو من سيكون كذلك عما قليل ، ألا يسافر مرة أخرى بغير نقود ولا زاد من نوع ما ذكرناه ، وسيرى كم سيفيده هذا الاحتياط في اللحظات التي يكون أبعد عن أن يفكر فيه . فوعده دون كيخوته أن ينجز ما نصحه به بكل دقة .

ثم رتب كل شيء من أجل إجراء سهرة السلاح في فناء فسيح بجوار الفندق . فجمع دون كيخوته سلاحه ووضعه على حوض إلى جوار بئر ، ثم احتضن ترسه وأمسك برمحه ، وبحركة رشيقة أنشأ يغدو ويروح أمام الحوض ، ولما بدأ هذه العملية ، كان الليل قد عسعس . وكان صاحب الفندق قد قص على النزلاء جنون ضيفه هذا وسهرة السلاح التي

يقوم بها والاحتفال الذي سيقام لتسليحه فارساً . فتعجبوا من هذا الطائف الجنوني ، ومضوا يراقبونه من بعيد . وكان هو يتجول بخطوات بطيئة موزونة ، أحياناً ، وأحياناً أخرى كان يستند إلى رمحه ويتعهد بنظره أسلحته دون أن يتحول عنها طول ساعة كاملة . ثم أرخى الليل سدوله كلها ، بيد أن القمر كان يلقي ضوءاً وضاحاً ينافس من أعارته إياه (أي الشمس) ، حتى كان كل ما يفعله الفارس المريد تأخذه عيون الجميع .

وفي هذه اللحظة تراءى لأحد البغالين الذين نزلوا في الفندق أن يسقي دابته ، وكان لا بد لهذا من رفع أسلحة دون كيخوته عن الحوض . فلما رآه هذا مقبلاً صاح فيه بصوت عال :

ـ أنت ، أياً من كنت ، أيها الفارس الجسور الذي أتيت لتمس سلاح أشجع الفرسان الجوالين الذين تقلدوا السيوف ، حذار مما أنت فاعل ، ولا تمسسها إذا شئت ألا تدفع حياتك ثمناً لتهورك .

فلم يحفل البغّال بما قال ، ويالسوء ما فعل ، ولو حفل به لأبقى على صحته . بل أمسك بالسيور وألقى بالحزمة بعيداً . فما أن أبصر دون كيخوته ما فعل حتى ارتفع ببصره إلى السماء واتجه بأفكاره (فيما بدا) إلى سيدته دلثنيا وقال :

ـ أعينيني ، يا سيدتي ، في هذه الاهانة الأولى التي يعانيها هذا القلب الأسير لك ، ولا عدمت مساعدتك وفضلك في هذا الخطر الأول .

وبينا كان يتفوه بهذه الكلمات وأخرى تشبهها ، ألقى بترسه ورفع رمحه بيديه وأهوى بضربة محكمة على رأس البغّال ، جندلته على الأرض في أسوأ حال ، وكانت تكفي ضربة أخرى لاستدعاء جرّاح ، ولمّا تمّ له هذا ، جمع سلاحه واستأنف التجوال ذاهباً جائياً بنفس الهدوء الذي كان فيه قبل .

وبعد قليل اقترب أحد رفاق البغّال ودون أن يعلم ماحصل ـ لأن الآخر كان لا يزال مجندلاً فاقد الوعي ـ ابتغاء سقي بغاله . لكن في اللحظة التي رفع فيها السلاح عن الحوض ألقى دون كيخوته بترسه ورفع رمحه من جديد ، دون أن يقول كلمة أو يلتمس شيئاً من أحد ، ثم شج رأسه ، دون أن يفتّتها ، شجها الى أربع قطع . فهرع جميع من في الفندق على هذه الضجة ومعهم صاحب الفندق . فلما رآهم دون كيخوته احتضن ترسه وأمسك بسيفه وصاح :

ـ يا سيدة الجمال ، يامعوان قلبي الضعيف ، آن لك أن تلحظي بعيون عظمتك هذا الفارس ، عبدك ، الذي تنتظره هذه المغامرة المروعة!

وبهذه الكلمات أحس أن القوة كلها تجمعت فيه ، فلو هاجمه جميع البغالين في الدنيا لما تقهقر خطوة واحدة . وكان إخوان الجريحين لما شاهدوهما في هذا الحال قد بدأوا

يحصبون دون كيخوته بالأحجار التي انهالت عليه كالأمطار ، وراح هو يدرؤها عن نفسه بترسه ، ولم يجرؤ على الابتعاد عن الحوض لئلا يترك سلاحه . فصاح صاحب الفندق فيهم أن يدعوا الفارس وشأنه ، لأنه كما قال لهم من قبل رجل مجنون وما دام مجنوناً فسيخرج سليماً حتى لو قتلهم عن آخرهم ، وكان دون كيخوته من جانبه يصيح بأعلى صوته ناعتاً إياهم بأنهم خونة كفرة ، قائلاً إن سيد القصر فارس جبان دنيء ، إذ سمح بمعاملة الفرسان الجوالين على هذا النحو ، ولو كان هو تلقى رتبة الفروسية لكشف عن خيانته ، ثم وجه الخطاب الى الجمع قائلاً : أما أنتم أيها الأوغاد الأنجاس الأدنياء ، فلست أحفل بكم في شيء . ألقوا حجارتكم عليّ ، وأقبلوا وهلموا ، هاجموني بكل ماأوتيتم من قوة ، وسترون جزاء وقاحتكم المجنونة .

وكان يلقي هذه الكلمات برباطة جأش واستكبار ، أثارا الرعب فيمن هاجموه ، حتى إنهم توقفوا عن قذفه بالأحجار كما نصحهم صاحب الفندق . هنالك تركهم دون كيخوته يحملون الجريحين ، واستأنف سهرة السلاح بنفس الجد والهدوء .

لكن هذه المساخر لم تعد ترضى صاحب الفندق ، فقرر أن يقفها عند حد وأن يسرع فيمنحه رتبةفارس ، قبل أن يقع مكروه آخر ، فتقدم إليه بكل خضوع واستماحه العذر عما أبداه هؤلاء السفلة من وقاحة دون أن يعلم عنها شيئاً ، وهم قد لقوا عن استخفافهم هذا أبشع عقاب . وأعاد عليه ماقاله من قبل وهو أنه لا يوجد هيكل في هذا القصر ، على أن هذا الأمر غير ضروري فيما تبقى عمله ، فإن الأمر الجوهري لتسليح المرء فارساً هو الضرب ضربتين على القفا والكتف ، حسبما يعرف عن مراسم نظام الفروسية ، وأن هذا يمكن أن يتم في الخلاء . أما فيما يتصل بسهرة السلاح ، فالشرط قد توافر ، لأن ساعتين من السهرة كافيتان ، وهو قد أمضى أكثر من أربع . وصدّق دون كيخوته كل ماسمع وقال إنه على استعداد لطاعته ورجاه أن ينجز الأمر على أسرع وجه . لأنه لو هوجم مرة أخرى بعد أن يكون قد سلح فارساً ، فلن يدع شخصاً حيّاً في القصر ، اللهم إلا من يريده صاحبه فإنه سيبقي عليه احتراماً له .

وكان هذا إنذاراً أقلق صاحب القصر فراح يبحث عن دفتر سجّل فيه ماأعطاه من تبن وشعير للبغالين . ثم عاد مصحوباً بصبي يحمل شمعة صغيرة وبالفتاتين المذكورتين ، الى حيث ينتظره دون كيخوته ، وأمر هذا الأخير بأن يجثو على ركبتيه ، ثم أنشأ يتلو من دفتره كأنما يتلو صلوات ، وفي أثناء القراءة رفع يده وصفعه على قفاه صفعة قوية ، ثم ضربه بسيفه هو ضربة أخرى على كتفه ، كل هذا وهو يتمتم بكلمات كأنها صلوات . فلما تمّ هذا أمر إحدى السيدتين بأن تنطّقه بالسيف ففعلت ماأمرت به برشاقة وحشمة

بالغتين ، إذ كان لا غنى عن الحشمة للتمالك من الضحك في كل نقطة من نقط هذه المراسم ، بيد أن الشجاعة التي أبداها هذا الفارس المريد كانت كافية لأن تفرض الاحترام على الجميع .

وقالت له السيدة الطيبة وهي تنطّقه :

ـ جعل الله سيادتك فارساً سعيداً جداً ، وافر الحظ في المعارك .

فسألها دون كيخوته عن اسمها ليعرف من يدين لها بهذا الفضل ، لأنه فكر أن يشركها في الشرف الذي سيناله بقوة ساعده . فأجابته بكل تواضع قائلة إن اسمها « لاطولوسه » وإنها ابنة مرقع ثياب في طليطلة يسكن في حوانيت سانشو ـ بيينايا ، وإنها أينما كانت ستكون على أتم استعداد لخدمته وتعدّه سيّدها فرجاها دون كيخوته ـ حباً فيه ـ أن تضيف الى اسمها لقب « دونيا » ، وأن تسمى « دونيا طولوسه » ، فوعدته بأن تفعل مابه أمر ، أما الأخرى فوضعت في رجليه المهماز ، وكان بينها وبينه نفس الحوار تقريباً الذي كان بينه وبين من نطّقته بالسيف . فلما سألها عن اسمها ، قالت إن اسمها « لامولينيرا » وإنها ابنة طحان نبيل في أنتقيرة ، ورجاها دون كيخوته أيضاً أن تضيف لقب « دونيا » فتسمّى « دونيا مولينيرا » ، وعرض عليها خدماته وأفضاله .

فلما انتهت هذه المراسم بسرعة وركضٍ لم يشاهد نظيرهما من قبل ، كان دون كيخوته يتحرق شوقاً الى امتطاء صهوة جواده والارتحال بحثاً عن المغامرات . فشد السّرج على روثينانته بكل عجلة ووثب عليها وحضن صاحب القصر (الفندق) ، وقال له عبارات في غاية الغرابة يشكر له بها فضله عليه بأن سلّحه فارساً ، عبارات يستحيل إيرادها بحروفها . ولكي يراه خارج الفندق بأسرع مايمكن ، رد عليه صاحب الفندق بكلمات لا تقل بلاغة وإن كانت أوجز ، وتركه يرحل الى حيث ألقت ، دون أن يتقاضى منه أجراً .

الفصل الرابع

فيما جرى لصاحبنا الفارس حينما غادر الفندق

بدأت أسارير الفجر في الانبلاج حينما خرج دون كيخوته من الفندق راضياً جذلان ، نشوان إذ رأى نفسه قدسُلح فارساً ، حتى اهتزت من فرحه سيور السرج ، لكنه تذكر النصائح التي أسداها إليه مضيفه فيما يتصل بالزاد الضروري الذي يجب أن يتزود به ، خصوصاً النقود والقمصان ، فقرر أن يعود أدراجه الى بلده لكي يتزود بكل مايستطيع ، وليكون له أيضاً حامل سلاح ، على أن يكون فلاحاً جاره ، وكان فقيراً ذا عيال ، لكنه كان صالحاً تماماً لوظيفة حامل السلاح في الفروسية الجوالة ، فلما عقد نيته على إمضاء هذا الأمر ، حول روثينانته ناحية قريته ، فركض الفرس بنشاط ، وكأنه تعرف طريق مأواه ، وراح يركض وكأن أقدامه لا تمس الأرض .

ولم يكن دون كيخوته قد قطع مسافة طويلة حين خُيل إليه أنه تنبعث من أعماق الغابة التي كانت عن يمينه أنات كأنات الشاكي ، ولم يكد يسمعها حتى صاح :

ـ الحمد لله على ما حباني من نعمة ، إذ أرسل إليّ بهذه السرعة فرصة لأداء واجبي في مهنتي هذه ، واقتطاف ثمار نواياي الطيبة . فهذه الأصوات هي من غير شك أصوات محتاج أو محتاجة يحتاج الى مساعدتي وحمايتي .

ثم أدار العنان ووجه روثينانته في اتجاه المكان الذي خُيل إليه أن الصرخات كانت تنبعث منه . ولم يكد يخطو بضع خطوات في الغابة حتى شاهد فرساً مربوطة الى سنديانة ، وفتى صغيراً لا يتجاوز الخمسة عشر ربيعاً مربوطاً الى سنديانة أخرى ، عارياً من رأسه حتى خصره ، ومنه كانت تنبعث الصرخات ، ولسبب حقاً ، إذ كان ثمة فلاح غليظ الألواح يؤدبه بضربات قوية من حزام جلدي ، ويصاحب كل ضربة بزجرة ونصيحة . إذ كان يقول له :

ـ لسانك ، يخرس ، وعيونك تفتح .

والصبي يجيبه :

ـ لن أفعل هذا مرة أخرى ، ياسيدي ، بحق الله لن أفعله مرة أخرى ، وأعدك من الآن فصاعداً أن أعنى بالقطيع كل العناية .

فلما رأى دون كيخوته هذا المنظر ، قال بصوت مغضب :

ـ أيها الفارس القليل الأدب ، لا يليق بك أن تهاجم من لا يستطيع الدفاع عن نفسه . اركب فرسك وخذ رمحك (ـ إذ كان ثمة رمح أسند الى الشجرة التي ربطت إليها الفرس) ، وسأريك أن من الجبن أن يفعل المرء ماتفعل الآن .

فلما رأى الفلاح هذا الشبح المغطى بالسلاح ينقض عليه فجأة شاهراً رمحه في وجهه ، سرت فيه رعدة الموت وأجابه بكلمات رقيقة :

ـ سيدي الفارس! هذا الصبي الذي تراني أعاقبه إنما هو خادمي الذي يحرس قطيعاً من الغنم في هذه النواحي ، لكنه مهمل إلى حد أنه في كل يوم تفقد واحدة ، ولأني أعاقبه على كسله ، بل لعلي أعاقبه على لؤمه ، يدعي أني أفعل هذا عن بخل وخسة ولكيلا أدفع إليه ماعليّ له من أجر ، ويعلم الله وبشرفي إنه لكاذب .

ـ كاذب أمامي أيها الوغد الدانيء ؟ ـ هكذا قال دون كيخوته ـ بحق الشمس التي تضيء لنا ، لاأدري ماذا يمنعني من أن أولج رمحي في جسمك ليخترقه من الجانبين . إدفع له أجره في الحال ودون أن تنبس ببنت شفة ، وإلا أقسم بالله أن أقضي عليك قضاءً مبرماً في التو . حُل وثاقه .

فأنغض الفلاح رأسه ودون أن يجيب بكلمة واحدة حل وثاق خادمه ، وسأله دون كيخوته بكم يدين له سيده . فأجاب الغلام : تسعة أشهر ، وفي كل شهر سبعة ريالات . فحسب دون كيخوته الحساب ووجده ثلاثة وستين ريالاً ، فأمر الفلاح بدفعها في الحال ، إذا أراد النجاة بحياته . فأجاب الوغد الهيّابة قائلاً : بحق الجد العاثر الذي وقع فيه ، وبما أقسم به من قبل (وهو لم يكن قد أقسم بشيء في الحقيقة) ، إنه يؤكد أن المبلغ ليس كبيراً هكذا ، بل يجب أن يخصم منه ويدخل الحساب مقدار ثلاثة أزواج من الأحذية أعطاها لخادمه ، ومبلغ ريال دفع من أجل حجامتين أجريتا له حين كان مريضاً .

ـ هذا حسن كله ، هكذا أجاب دون كيخوته . ولكن لتكن الأحذية والحجامة في مقابل الضرب الذي نلته به بغير سبب ولا داع . لأنه إذا كان قد مزق جلد الأحذية التي دفعت أجرها له ، فأنت مزقت جلد بدنه ، وإذا كان الحلاق قد أخذ منه دماً وهو مريض ،

فقد أسلت أنت دمه وهو سليم معافى . وإذن فهو لايدين لك بشيء .

ـ المصيبة ، ياسيدي الفارس ، هي أني لا أملك الآن نقوداً هنا ، ألا فليأت أندريس معي الى المنزل ، وأنا أدفع له ريالاً فوق ريال .

ـ أنا أذهب معه مرة أخرى ؟ هكذا قال الصبي . كلا ، وألف مرة . كلا ، ياسيدي! أعوذ بالله من مجرد التفكير في هذا ، إنه لو انفرد بي لسلخني حياً مثلما وقع للقديس برثلميوس[1] .

ـ كلا ، كلا ، هكذا أجاب دون كيخوته . إنه لن يفعل شيئاً . يكفي أن آمره حتى يطيع ويحترم ، فإن أقسم على هذا بناموس الفروسية الذي تلقاه تركته حراً ، وأضمن الدفع .

فقال الصبي : انظر سيادتك فيما تقول . إن سيدي هذا ليس فارساً ولم يتلق أبداً رتبة الفروسية ،إنه خوان هلدودو الغنيّ ، من أهل قنطنار[2] .

فأجاب دون كيخوته : وماذا يهم ؟ ليس مايمنع من أن يكون أحد بني هلدودو فارساً ، وفضلاً عن هذا ، فكل امرئ ابن أعماله .

فقال أندريس : هذا حق . لكن : ابن أية أعمال يكون سيدي هذا الذي يرفض أن يدفع أجرتي ، ثمن عرقي وعملي ؟

فأجاب الفلاح : أنا لست ممتنعاً عن الدفع ، ياأندريس ، أي صديقي . أسعدني بأن تأتي معي ، وأنا أقسم لك بكل أنظمة الفروسية الموجودة في الدنيا أن أدفع لك ، كما قلت ، ريالاً فوق ريال ، بل ومع الأرباح والفوائد .

فقال دون كيخوته : إني أعفيك من الفوائد ، بل ادفع له عداً ونقداً ، فهذا كل ماأطالبك به . وحاذر ألا تنجز ماأقسمت عليه ، وإلا ، وبالقسم نفسه ، أقسم بأن أعود للبحث عنك وعقابك ، وسأعرف كيف أجدك ، حتى لو كنت أخفى من عظاية الحائط . وإذا أردت أن تعرف من ذا الذي يأمرك بهذا الأمر ، لكيما تكون ملزماً أكثر بإنجازه ، فاعلم أنني الشجاع دون كيخوته المنتشاوي ، مصلح الأخطاء ومنصف المظلومين . والآن ، فليباركك الله! لكن لاتنس ماوعدت به وأقسمت عليه ، وإلا فالويل لك .

قال هذا وشد بيديه عنان روثينانته واختفى في الحال .

---

(١) أحد الحواريين ، يقال إنه راح يبشر بالنصرانية حتى آخر حدود الهند ، وفي أثناء عودته كان يبشر بها في افريجيا ولوقاؤنيا ، واستشهد في أرمينية ، حيث سلخ حياً حوالي سنة ٧١ م . وقد نسب اليه إنجيل زائف .

(٢) قنطنار دلا أوردن ، مدينة في مقاطعة طليطلة ، وقضائياً ملحقة بناحية توبوسو ، مسقط رأس دلثنيا ، حبيبة دون كيخوته المزعومة .

وتتبعه الفلاح بنظراته . ولمارأى دون كيخوته قد إخترق الغابة واختفى عن الأنظار ، عاد الى خادمه أندريس ، وقال :

تعال يابني ، لأني أريد أن أدفع ماعليّ لك ، كما أمرني مصلح الأخطاء هذا . فقال أندريس :

ـ قسماً بالله! ومن الحكمة أن تفعل سيادتك ما أمر به هذا الفارس الطيب ، عمّره الله دهراً طويلاً جزاء شجاعته وعدالته ، وسيعود ، قسماً بحياة القديس روك ، إذا لم تدفع ، كي ينفذ ماقال . فعاد الفلاح يقول :

ـ وأنا أيضاً أقسم ، ولكن حبي الشديد لك يحملني على زيادة الدين لزيادة الدفع .

ثم أمسك بذراعه ، وعاد يوثقه الى نفس السنديانة ، ثم أهوى عليه بضربات تركه بعدها كالميت . ثم قال له :

ـ ناد الآن ، ياسيد أندريس ، ناد مصلح الأخطاء ، وسترى ماإذا كان في وسعه أن يصلح هذا ، وإن كنت لا أعتقد أنني ضربتك بمافيه الكفاية ، لأني أود أن أسلخك حياً ، وهو ما كنت تخاف منه .

وأخيراً حل وثاقه وأطلق سراحه ليبحث عن قاضيه لينفذ الحكم الذي أصدره . فمضى أندريس يرعف أنفه غضباً ، وهو يقسم أنه سيبحث عن الشهم دون كيخوته دلامنتشا ويقص عليه كل شيء مما جرى ، وسيضطر سيده للدفع أضعافاً مضاعفة . بيد أن هذا المسكين مضى لطريقه باكياً ، بينما ظل سيده يضحك . وهكذا أصلح الشهم دون كيخوته الضرر الذي وقع!

وارتحل هذا النشوان بمغامرته التي بدت له بداية سعيدة رائعة لأفعاله في الفروسية ، ميمماً قصد قريته ، هامساً :

ـ تستطيعين أن تعدي نفسك أسعد نساء الدنيا اليوم ، أيتها الحسناء . فوق ستائر الحسناوات ، دلثنيا دل توبوسو ، إذ شاء لك حسن الطالع أن يكون عبدك المستسلم لإرادتك فارساً شجاعاً شهيراًهو دون كيخوته دلامنتشا ، هكذا هو وهكذا سيكون أبداً ، وقد تلقى بالأمس ، والدنيا كلها تعلم ، رتبة الفروسية ، وها هو ذا منذ اليوم قد أصلح أكبر فساد أنشأه الظلم وارتكبته القساوة ، إذ انتزع السوط من كف هذا الجلاد القاسي الذي مزّق ، لسبب تافه ، جسم الفتى الرفيع .

وهنا وصل إلى طريق يتقاطع في أربعة اتجاهات ، فخطرت بباله ذكرى مفترقات الطرق التي عندها تلبث الفرسان الجوالة ليفكروا : أي طريق يختارون . وتقليداً لهم ، ظل برهة

ساكناً ، ولما أفكر وقدّر أرخى العنان لروثينانته ، مسلماً أمره لهوى برذونه الذي اتبع فكرته الأصلية وهي أن يسير في الطريق الى اسطبله . وبعد أن سار مسافة ميلين تقريباً ، اكتشف دون كيخوته حشداً كبيراً ، عرف الناس فيما بعد أنهم تجار من طليطلة كانوا في طريقهم الى مرسية لشراء حرير . وكانوا ستة يحملون مظلاتهم ، ،ومعهم أربعة خدم على خيول ، وثلاثة صبيان بغال يسيرون على أقدامهم . ولم يكد دون كيخوته يلمحهم حتى خيل إليه أنه بإزاء مغامرة جديدة ، ولكي يقلد ، ماوسعه ، كيفية الهجوم التي قرأ عنها في كتب الفروسية ، خيل إليه أن هذه هي الفرصة الفريدة للقيام بنوع منه طالما أفكر فيه . فاستوى على فرسه وامتطى ظهر التيه ومط حاجبيه وأمسك برمحه والتأم ووقف في وسط الطريق وانتظر مقدم هؤلاء الفرسان الجوالين ، إذ هكذا حسبهم . فلما وصلوا على مرمى السمع والبصر رفع دون كيخوته صوته ، وصاح بلهجة ملؤها العجرفة :

ـ فليقف كل في مكانه ، إذا لم يعترف بأنه لا يوجد في الدنيا بأسرها فتاة أجمل من إمبراطورة المنتشا العديمة النظير دلثنيا دل توبوسو!

فتوقف التجار عند سماع هذه الكلمات ليتأملوا الوجه الغريب الذي تفوه بها ، وسرعان ماتبينوا من وجهه وكلماته جنون صاحبه . لكنهم أرادوا أن يعرفوا الى أي مدى يذهب هذا الاعتراف الذي طالبهم به ، ولهذا أجابه أحدهم ، وكان ولوعاً بالهزل والطّنز :

ـ سيدي الفارس! نحن لا نعرف هذه السيدة الحسناء التي تتحدث عنها ، أرنا إياها ، فإذا كانت على حظ من الجمال بالقدر الذي تشير إليه ، فسنعترف ، عن طيب خاطر وبلا أدنى خوف ، بالحقيقة التي تطالب جنابكم بها .

فأجاب دون كيخوته :

ـ لو أني أريتكم إياها ، فأي فضل لكم في الاعتراف بحقيقة جلية كل الجلاء ؟ المهم أن تعتقدوا بها ، دون أن تروها : وتعترفوا تؤكدوا وتقسموا ، بل وتدافعوا عنها بحد السلاح ، وإلا ، فهيا استعدوا للمنازلة والمعركة ، أيها الأدعياء المتغطرسون! وسواء عليّ أبرزتم للقتال واحداً في إثر الآخر كما يقتضيه نظام الفروسية ، أم أقبلتم جماعة ، كما هو شأن الأوغاد الذين على شاكلتكم ، فأنا في انتظاركم هاهنا ، وأتحداكم ، وثقتي في الحق الذي بجانبي .

فرد عليه التاجر قائلاً :

ـ ياسيدي الفارس! باسمنا جميعاً نحن الأمراء الحاضرين هنا ، نلتمس من جانبكم ، حرصاً على ألا نحمّل ضمائرنا ما لا طاقة لها به بالاعتراف بشيء لم نره أبداً ولم نسمع

به ، ومن شأنه أيضاً أن تضار به إمبراطورات وملكات «القرية»[1] واستريميدورا ـ نقول إننا نلتمس أن تتفضلوا فترونا صورة لها ، حتى لو لم تكن أكبر من حبة الشعير ، فإننا نستطيع أن نحكم بالنموذج على الأصل ، فتستريح ضمائرنا ، ويرضى جنابكم . بل أعتقد أننا في صفها مقدماً ، فلو أظهرتها الصورة عوراء العين ، وأن العين الأخرى تقطر كبريتاً وزنجفراً ، فإننا رغم ذلك وحرصاً على إرضاء جنابكم سنقول في إطرائها كل ما تودون .

فصاح دون كيخوته مغضباً يتلظى :

ـ إنها لا تقطر شيئاً إنها لا تقطر شيئاً مما ذكرتم ، بل تقطر عنبراً ومسكاً بين أقطان ، وليست ملتوية ولا حدباء ، بل أشد استقامة من مغزل جواد راما (جبل الشارات)! وستدفعون ثمن الكفر الشديد الذي نطقتم به ضد هذا الجمال ، جمال سيدتي! .

واندفع وهو يقول هذه الكلمات ، مرخياً رمحه في وجه من تفوه بهذه العبارات ، اندفع بحماسة وجنون بلغا حداً لولا أن حسن الطالع قد جعل روثينانته قد هوت على الأرض وألقت بسيدها يدور بعيداً على التراب ، وحاول أن ينهض ، لكنه لم يستطع أبداً لأنه كان مثقلاً بالرمح والترس والمهمازين والبصلة وسلاحه العتيق . وفي خلال محاولاته الهائلة للنهوض سدىً ، كان يقول :

ـ لاتهربوا أيها الجبناء ، أيها العبيد الأنجاس ، انتظروا . فما بسببي ولكن بسبب فرسي وقعت .

لكن أحد خدم البغال من أتباع التجار لم يكن سمح النفس فلم يستطع سماع هذه الكلمات المليئة بالتحدي والغطرسة دون أن يقدم إليه الجواب عنها في جنبيه . فاقترب منه وانتزع رمحه وكسره ثلاث أو أربع قطع ، بإحداها هوى على صاحبنا دون كيخوته بشدة وقسوة حتى طحنه طحناً رغم سلاحه . وعبثاً صاح فيه أسياده ألا يسرف في الضرب وأن يدعه وشأنه ، فإن البغّال أخذته حُمّى الضرب فلم يشأ أن يخلّي عنه قبل أن يفرغ جام غضبه كله . ثم جمع سائر قطع الرمح . وكسرها الواحدة بعد الأخرى على جسم هذا الراقد

---

(١) القرية : ناحية من نواحي قشتالة الجديدة . ـ استريميدورا : منطقة شاسعة قسم منها يتبع أسبانيا ، والآخر يتبع البرتغال ، وهذا الاسم أطلق عليها في العصور الوسطى ، وهو مأخوذ من externa durli (أقصى الدويرو) . وفي العهد الروماني كان اسمها : لُتونيا . استولى عليها الآلانيون سنة ٤١١م ، والسواب سنة ٤٢٠ والقوط سنة ٤٢٧ ، والعرب سنة ٧١٢ ، وفي القرن الثاني عشر غزا ألفونس هنريكث ملك البرتغال القسم الذي استقر من بعد في حوزة البرتغال ، وغزا ألفونس الحادي عشر ، ملك ليون ، ثم فرديناند الثالث ملك قشتالة القسم الآخر الذي أصبح اسبانياً ، وذلك في القرن الثالث عشر . والمنطقة الاسبانية عاصمتها بطليوس ، وأشهر مدنها : ماردة ، والقنطرة ، وقورية ، وبلاسنثيه ، وترجاله .

المسكين الذي ظل طوال هذه العاصفة من الضرب المتهاوي عليه فاغراً فاه يهدد السماء والأرض وقطاع الطرق ،إذ خالهم كذلك .

وأخيراً تعب البغّال من الضرب ، وتابع التجار مسيرهم ، وهم يحملون في جعبتهم مايصلح للتندر به طوال الرحلة عن حادث هذا المجنون المسكين الذي شبع ضرباً . ولما رأى هذا نفسه وحده حاول النهوض من جديد ؛ لكن إذا كان لم يستطع القيام حينما كان سليما معافى ، فكيف يستطيعه بعد أن طُحن ومُزق ؟ ورغم هذا كله كان جذلان راضياً ، إذ رأى هذه المحنة أمراً شائعاً لدى الفرسان الجوالة ، ونسب الخطأ كلّه الى فرسه . أما النهوض فلم يكن ثم إليه سبيل ، لأن بدنه كله كان مفككاً مخروطاً .

الفصل الخامس

في تتمة حكاية محنة فارسنا هذا

وجد دون كيخوته إذن نفسه غير قادر على الحركة ، فقرر اللجوء الى دوائه المعتاد ، وأعني به التفكير في فقرة من فقرات كتبه ، فأدى به جنونه الى تذكر حادثة ڤالدوڤينوس ومركيز منتوا ، حينما ترك كارلوتو أولهما جريحاً في الجبل ، وهي حكاية يعرفها الأطفال ، ولا يجهلها الشباب ، ويثني عليها بل ويصدقها الشيوخ ، وفوق هذا وذاك ليست أصدق من بعض المعجزات[1] . فبدت له هذه الحكاية ملائمة كل الملاءمة لموقفه هذا . وهكذا أنشأ يتقلب على التراب بانفعال شديد ، ويقول بصوت فيه أنين ماقاله ذلك الفارس الجريح في الغابة ، حسبما يروون :

أين أنت الآن يا صاحبتي ؟   أفلا يضنيك ما يلقى الجريح ؟
أنت لا تدرين ما ألقاه أو   أنت زيفٌ مالها عهد صحيح ؟

واستمر يتلو الرومانثية على هذا النحو ، إلى أن بلغ الأبيات التي تقول :

أيها المركيز مولى منتوا   أنت عمي اللحّ والمولي معا

وشاء القدر في هذه اللحظة أن يمر فلاح من أبناء ضيعته وكان جارا له ، أقبل يحمل حملا من القمح الى الطاحونة . فلما شاهد هذا الرجل المنبطح اقترب منه وسأله من يكون وماذا دهاه حتى يتوجع وين هذا الأنين الحزين . ولم يشك دون كيخوته في أن هذا القادم هو عمه المركيز مولى منتوا ، لهذا لم يكن عنده من جواب غير أن يسترسل في تلاوة

---

(١) عدلنا في النص بحذف كلمة نابية .



٣ ـ الفصل الخامس : محنة دون كيخوته

قصيدته الرومانثية ، فقص عليه محنته وغرام ابن الامبراطور بزوجه ، على النحو الذي وردت عليه في الرومانثية .

وأصغى الفلاح مشدوهاً الى هذه الغرائب ، ثم خلع عنه حافة الخوذة وقد مزقتها ضربات العصا ، ومسح وجهه وقد علاه القتام . ولم يكد يتعرفه بعد أن نفض عنه الغبار حتى صاح :

ـ يا سيد كيخانا! ـ ولابد أن اسمه كان هكذا حينما كان لا يزال بعقله ولم يكن قد تحول من نبيل هادىء الى فارس جوال ـ من فعل بك هذا ؟

لكن دون كيخوته استمر يتلو رومانثيته رداً على كل سؤال ألقي عليه . فلما شاهد ذلك الرجل الطيب هذه الحال ، بذل وسعه في خلع صدريته وما على كتفيه ليرى ما إذا كان فيه جراح ، بيد أنه لم يشاهد للدم أثراً . هنالك حاول أن يرفعه من الأرض ، ثم استطاع بمشقة بالغة أن يركبه على حماره إذ بدا له ركوبه أكثر وداعة . وبعد ذلك جمع أسلحته حتى شظايا رمحه ، وحزمها ووضعها على روثينانته ، وأمسك هذه من عنانها وحماره من مقوده ، وسار في اتجاه قريته ، مشغولاً بالتفكير في الغرائب التي تفوه بها دون كيخوته ، كذلك سار دون كيخوته مفكراً هو الاخر ، محطماً مطحوناً لا يقوى على الاعتدال على الأتان ، وهو يزفر بين الحين والحين زفرات تصاعد الى عنان السماء ، حتى اضطر الفلاح أن يسأله عما يشعر به من وجع . لكن يبدو أن الشيطان ـ فيما يلوح ـ قد أصر على أن يذكره بكل الحكايات التي تلائم حاله تلك ؛ فسرعان ما نسي ڤالدوڤينوس وتذكر ابن إدريس المراكشي لما أن أسره رودريجو دي نرڤائث حاكم أنطقيره واقتاده الى صومعته ، حتى إنه لما سأله الفلاح مرة أخرى عن حاله وما يشعر به أجاب بنفس العبارات والكلمات التي قالها الأسير الذي من بني سراج لرودريجو دي نرڤائث ، حسبما قرأ قصته في كتاب « ديانا » تصنيف خورخه دي مونتمايور ، وطبقه على حاله تماماً حتى جن جنون الفلاح وهو يسمع هذا الخليط الهائل من الغرائب . فاستيقن من هذا أن جاره لابد مجنون ، وحث الخطى الى القرية ليتخلص مما أثاره دون كيخوته في نفسه من الحفيظة بخطبته المسترسلة ، التي ختمها بقوله :

ـ اعلموا جنابكم ، ياسيدي الدون رودريجو دي نرڤائث ، أن شريفة الجميلة هذه التي ذكرتها هي الان دلثنيا دل توبوسو الحسناء ، التي من أجلها فعلت وأفعل وسأفعل أشهر أفعال الفروسية التي شاهدها الناس في الدنيا ويشهدونها وسيشهدونها .

فأجاب الفلاح :

ـ يا لي أنا الخاطئ! انظر ياسيدي! فلست أنا دون رودريجو دي نرڤائث ، ولا مركيز منتوا ،

بل بدور ألونسو ، جارك ، ولست أنت ڤالدوڤينوس ولا ابن إدريس بل السيد النبيل كيخانا .

فرد عليه دون كيخوته قائلاً :

ـ أنا أعرف من أنا ، وأعرف أني أستطيع أن أكون ليس فقط من ذكرت ، بل أيضاً « أكفاء »[1] فرنسا الاثنى عشر ، وكذلك أبطال الشهرة[2] التسعة كلهم ، لأن أعمالهم جميعاً فرادى ومجتمعين ، لاتدانى أبداً أعمالي .

وظلوا في هذه الأحاديث وأشباهها حتى بلغوا الناحية ساعة المغيب . لكن الفلاح انتظر حتى يكتمل الظلام ، حتى لا يرى الناس هذا السيد المحطم على هذه الحال البائسة . فلما أرخى الليل سدوله دخل القرية ووصل منزل دون كيخوته فوجداه مضطرباً أيما اضطراب ، وكان فيه القسيس وحلاق الناحية ، وكانا صديقين حميمين لدون كيخوته ، ولهما كانت الخادمة تقول شاكية :

ـ ماذا ترى أيها السيد المجاز بيرو بيرث (وكان هذا اسم القسيس) ، ومارأيك في محنة سيدي ؟ لم يظهر منذ ستة أيام ، لاهو ولا برذونه ولا ترسه ولا رمحه وسلاحه . يالشقاوتي! أراهن برأسي ، وهذاحق كما أن الموت حق ، أن كتب الفروسية الملعونة هذه التي جمعها وكان يقرؤها أثناء الليل وأطراف النهار قد أحدثت في عقله اختلالاً . وإني لأذكر الآن أني سمعته مرات عديدة يتحدث الى نفسه قائلاً إنه يريد أن يصبح فارساً جوالاً ، وإنه سيسعى في مناكبها بحثاً عن المغامرات . ألا فليسحق إبليس والزبانية هذه الكتب التي أفسدت أذكى عقل في إقليم المنتشا كله!

وقالت ابنة أخيه الشيء نفسه ، وأضافت :

ـ اعلم يا أسطى نقولا (وكان هذا اسم الحلاق) أنه قد وقع مراراً لعمّي أن يقضي في قراءة هذه الكتب المنحوسة الرهيبة يومين متتاليين بلياليهما ، وعند نهايتهما يقذف بالكتاب فجأة ، ويمسك بسيفه ويبدأ في منازلة الجدران . فإذا غلبه التعب قال إنه قتل أربعة من المردة الكبار كأبراج أربعة ، وإن العرق الذي كان يتصبب منه تعباً إنما كان الدم المراق من الجراح التي أصيب بها في المعركة . ثم يشرب جرة كبيرة من الماء

(١) كان هذا الاسم يطلق على أكابر النبلاء في فرنسا ، ويسمون هكذا pares (=أكفاء) لأنهم كانو متساوين في الشجاعة والعنصر والقيمة . وكان ملوك فرنسا هم الذين يختارونهم ، ومن أشهرهم الأكفاء الاثنا عشر الذين اختارهم شارلمان ، ومنهم : أوليفييه ، ورولان ، ورينو دي مونتالبان ، وسيقت حول بطولتهم وسيدهم شرلمان أساطير عديدة .

(٢) هؤلاء يقصد بهم الأبطال التسعة الكبار المشهورون : ثلاثة يهود هم يوشع ، وداود ، ويوداس المكابي ، وثلاثة وثنيون هم الاسكندر المقدوني ، واقطور البطل الطروادي ، ويوليوس قيصر ، وثلاثة نصارى هم : الملك ارثر ، وشارلمان ، وجودفروا دي بوييون .

الفصل السابع والعشرون

في كيف أفلح القسيس والحلاق في خطتهما، وأمور أخرى خليقة بالذكر في هذه القصة العظيمة

لم ير الحلاّق بأساً فيما دبّره القسيس بل وجداه صالحاً حتّى إنهما قاما بالتنفيذ في الحال . فسألا صاحبة الفندق أن تعيرهما تنورة ونقاباً ، ورهنا في مقابل ذلك لديها كسوة القسّيس الجديدة . واصطنع الحلاّق لنفسه لحية طويلة عملها من ذنب ثور ، لحية شقراء أو حمراء ، علّق فيها صاحب الفندق مشطه(١) . وقد سألهما عن السبب في طلب هذه الأزياء التنكّرية فقصّ عليه القسّيس باختصار قصة جنون دون كيخوته وكيف أنهما في حاجة الى هذه الأزياء التنكّرية لإنقاذه من الجبل الذي اعتزل فيه . فأدرك صاحب الفندق وزوجته في الحال أن هذا المجنون إنّما هو نزيلهم منذ أيّام ، صانع البلسم ، ومولى حامل السلاح الذي عانى تقليبه على الغطاء ، ولهذا راحا يقصّان على القسّيس كل ماحدث في الفندق دون أن يخفيا ماأخفاه سنشو . وأخيراً ألبست صاحبة الفندق القسيس على أغرب نحو : فألبسته تنورة من القماش المفوّف بأشرطة من القطيفة السوداء سعتها شبر مفصلة قطعاً ، وصدرية من الفضّة الخضراء مزوّدة بإطار من الساتان الأبيض ، وكلتا التنورة والصدرية لابد أن تكون قد صنعت في زمان الملك ومبا(٢) . ولم يشأ القسيس أن يضع نقاباً ، وإنّما غطّى رأسه بطاقية صغيرة من التل المنقوط كان يلبسها في الليل أثناء النوم . ثم عصب جبهته بعصابة واسعة من التفتة السوداء ، واتخذ من عصابة أخرى نوعاً من النقاب يغطّي لحيته ووجهه كلّه . ووضع على رأسه قبعته الدينية وكانت كبيرة بحيث كانت بمثابة مظلّة ، وغطّى كتفيه بمعطفه ، وركب بغلته على نحو ماتركب النساء ، بينما ركب الحلاّق بغلته ولحيته نازلة

---

(١) كان من عادة الفقراء أن يضعوا مشطاً في ثنايا شعر ذنب الثور لتنظيفه .

(٢) ومبا Wamba ملك القوط الغربيين (في القرن السابع الميلادي) . وهذا الاصطلاح : « زمان الملك ومبا » يعبّر به الاسبان عن عصر بعيد جداً .

ففعلوا ماأمر به . وراح القسيس يسأل الفلاح تفصيلاً عن الكيفية التي وجد بها دون كيخوته . فقص عليه الفلاح القصة كلها دون أن يغفل ذكر الغرائب التي سمعها منه حين وجده وحين أتى به ، فزاد هذا من رغبة صاحب الإجازة (الليسانسييه) في أن يفعل مافعله في الغد ، أعني : أن يستدعي صديقه الحلاق الأسطى نقولا ويغدوا معاً الى منزل دون كيخوته .

الفصل السادس

في التفتيش الكبير الشائق الذي قام به القسيس والحلاّق
في مكتبة صاحبنا النبيل العبقري

كان لايزال يغط في نومه . وطلب القسيس من ابنة الأخ مفاتيح الغرفة التي بها الكتب سبب النكبة ، فأعطتها عن طيب خاطر . ودخلوا جميعاً ، والخادمة من خلفهم ، فوجدوا أكثر من مائة كتاب أنيقة التجليد وطائفة أخرى لطيفة الحجم . ولم تكد الخادمة تراها حتى أسرعت بالخروج من الغرفة ثم عادت تحمل طاساً من الماء ومِرَشّة وقالت :

ـ تفضل يا سيدي المجاز ،ورشّ هذه الغرفة ، خوفاً من أن يكون بهاساحر من نوع أولئك الذين تغص بهم هذه الكتب ، فيسحرنا عقاباً لنا على إيذائنا لهم بطردهم من هذا العالم .

فتبسم الكاهن من قولها ضاحكاً من سذاجتها ، وطلب من الحلاق أن يناوله هذه الكتب واحداً بعد الآخر حتى يرى مافيها ، إذ من يدري لعل فيها من لا يستحق عذاب النار .

فقالت ابنة الأخ :

ـ كلا! لاترحموا أحداً منها ، لأنها جميعاً اشتركت في الجريمة . والأفضل أن نلقي بها من النافذة في الفناء ثم نكومها ونضرم النار فيها ، أو نحملها الى الحوش وهناك نوقد النار ، فلا يضايق الدخان .

وكانت الخادمة من نفس الرأي ، لشدة شوق كلتهما الى القضاء على هؤلاء الأبرياء . بيد أن الكاهن لم يوافقهما على هذا الرأي ،قبل أن يقرأ على الأقل العنوانات . وكان أول كتاب ناوله إياه الأسطى نقولا هو « رابوع أماديس الغالي ، فقال القسيس :

ـ يظهر أن في هذا سراً ، فكما سمعت ، هذا أول كتاب في الفروسية . طبع في اسبانيا ، وسائرها منه نشأ وعنه صدر . لهذا أرى من الواجب الحكم عليه بالإحراق دون شفقة ، بوصفه مؤسس هذه الفرقة اللعينة .

فقال الحلاق :

من يمنع المجد ؟

الحظ

من رضي لي الشقاء ؟

السماء

إخال أنّي أموت

من دائي الممقوت

اتفقت على عذابي

الحظ والغرام ـ والسماء

من يصلح بختي ؟

موتي

ونعيم الحب ـ من ينال ؟

القلّب الأحوال

من شقاء الحب ـ من يعين ؟

الجنون

ليس ثمّ فطنة

في علاج محنة

دواؤها المضمون

الموت والجنون ـ وتقلّب الأحوال

وكان الوقت والزمان والوحدة وجمال الصوت وبراعة الغناء ـ كان لهذا كله أثره في إشاعة الدهشة واللذة معاً في نفوس السامعين . فأرعيا سمعيهما ساكنين على رجاء أن يزدادا سماعاً . فلمّا رأيا أن صمت المغنّي قد طال واستطال ، قرّرا السعي للبحث عنه ولمعرفة من صاحب هذا الصوت الرخيم . ومانهضا حتّى أمسك بهما الصوت نفسه في مكانيهما فراحا يستمعان فيه الى هذه المقطوعة :

أيّتها الصداقة المقدّسة ، يامن طرت بأجنحة رقيقة

تاركة مظهرك على الأرض

وصرت بين الأبرار في علّيين

تقيمين ناعمةً في منازل الخالدين

ومن هناك تبدين لنا ـ إن شئت ـ

وجهك الجميل منقّباً بنقاب
تشع من خلاله أحياناً
حميّة الفعال النبيلة التي تُضحي في النهاية دميمة
غادري السماء أيتها الصداقة ، ولا تسمحي
للخداع أن يرتدي ثيابك
ليقضي على النوايا الصادقة
فإنّك إن لم تنتزعي منه مظاهره
فسرعان مايقع العالم في معركة
خليط الكراهية الأولى

وانتهت المقطوعة بزفرة عميقة وأصغى السامعان بانتباه عساهما أن يسمعا مقطوعات أخرى .فلمّا رأيا الموسيقى قد استحالت شكايات وزفرات ، بادرا لمعرفة مَنْ المغنّي الحزين ذو الزفرات الأليمة والصوت البغوم . ولم يبحثا طويلاً ؛ إذ أبصرا عند منعطف سن صخرة رجلاً قامته ووجهه كما وصف سنشو حينما قصّ عليهما قصة كردنيو . فلمّا راهما هذا الرجل لم يضطرب ولم تستول عليه الدهشة ، بل توقف وألقى برأسه على صدره في وضع من يحلم حلماً عميقاً دون أن يرفع نظره اليهما اللهم إلا في اللحظة الأولى التي ظهرا له فيها . وتعرّفه القسّيس حسب الوصف الذي قام به سنشو ، وكان القسّيس مهذّب اللفظ أنيقه فاقترب منه ورجاه رجاءً ضارعاً حاراً بعبارات موجزة ملحفة أن يترك الحياة البائسة التي يحياها في هذه القفار وإلاّ فقد عمره وتلك مصيبة المصائب . وكان كردنيو حينئذ في تمام رشده بمعزل عن تلك النوبات العنيفة التي كانت تخرجه عن طوره . فلمّا رأى هذين الرجلين في لباس غير مألوف لدى من يردون هذه القفار انتابه نوع من الدهشة ، خصوصاً حين سمعهما يتحدّثان عن قصته حديث العارف العليم بها ، فإن كلمات القسّيس أكّدت له هذا المعنى بما لا مجال بعده لأي ارتياب . فأجابهما بهذه الكلمات :

ـ « إنّي أرى أي سيداي ـ أيّاً من كنتما ـ أنّ السماء ـ عناية منها بإغاثة الأخيار ، والأشرار أحياناً أيضاً ـ قد أرسلت اليّ في هذه الأماكن النائية عن البشر أشخاصاً يرسمون أمام عيني وبأجلى صورة جنوني في قضاء عمري بهذه النواحي ويحاولون انتزاعي من هذه الخلوة الحزينة وإعادتي الى مقام أحسن ، وهي نعمة لاأستحقها . ولكن لأنهم لايعرفون ماأعرف ؛ وهو أنّي إذا خرجت من محنتي الحاضرة فسأقع فيما هو أشدّ منها ـ فسيعتقدون أنني رجل ضعيف العقل بل لعلهم يحسبون أيضاً أنّي فقدت عقلي تماماً . ولن يكون هذا

وأخذ الحلاق كتاباً آخر وقال : هذه « مرآة الفروسية[1] » .

فقال الكاهن : آه! إني أعرف سيادته . ففيه نلقى السيد رينالدوس دي مونتالبان وأصدقاءه ورفاقه ، وكلهم أشد لصوصية من كاكوس وأكفاءه فرنسا الأثنى عشر والمؤرخ الحقيقي توربين ، والحق أني أرى ألا تحكم عليهم إلا بالنفي المؤبد ، وهذا لأنه كان لهم بعض الفضل في اختراع ماتيو بويردو[2] الشهير ، ومنه نسج الشاعر المسيحي لدوفيكو أريوستو بردته . وهذا الأخير لو وجد هنا وتحدث بلغة غير لغته المعهودة فلن أقيم له وزناً ، أما إذا تكلم بلهجته المألوفة ، فسأضعه فوق رأسي احتراماً .

فقال الحلاق : إنه عندي بالإيطالية ، بيد أني لا أفهمه .

فأجاب القسيس : ولن يكون من الخير أن تفهمه . وكان الأولى أيضاً ألا يفهمه القائد وألاّ يأتي به الى اسبانيا ليترجم الى اللغة الاسبانية ، إذ فقد بهذا كثيراً من قيمته الأصلية[3] . على أن هذا سيكون شأن جميع الذين يريدون أن يترجموا كتب الشعر من لغة أصيلة الى أخرى ، فمهما أوتوا من مهارة ومهما بذلوا من عناية ، فلن يستطيعوا أبداً أن يردوها الى أصلها . وعندي أن هذا الكتاب وكل ماسنجده متعلقاً بشؤون فرنسا يجب أن ننزله ونودعه في بئر جافة حتى نقرر ، بعد تفكير أعمق ، ماذا يجب أن نفعل به . على أني مع ذلك أستثني كتاب « برنردو دي كريبو[4] » ، ولا بد أنه هنا ، كما استثنى كتاباً آخر هو « رونثفالس[5] » ؛ فهذه لو وقعت في يدي ، لناولتها القهرمانة ، ومنها الى النار بلا رحمة .

---

(١) يتألف من ثلاثة أجزاء : الأول : يبحث في مغامرات الكونت رولدان ورينالدوس . ونشر في أشبيلية سنة ١٥٣٣ ، والثاني نشر سنة ١٥٣٦ ويتحدث عن « غراميات رولدان وانجليكا الجميلة » ، والثالث نشر سنة ١٥٥٠ ويروي « الوقائع الشهيرة التي جرت للأمير روسرين وخاتمة حبه للأميرة فلوريمينا » .

(٢) ألف ماتيو بويردو ، كونت اسكنديانو ، ملحمة شعرية بعنوان « أورلندو العاشق » ، نشرت في سنة ١٤٨٦ وسنة ١٤٩٥ . ثم تابع الموضوع نفسه في « أورلندو الغاضب » ـ هو ملحمة شبه هزلية تقع في ٤٦ نشيداً ـ الشاعر الايطالي الشهير لودفكو أريوستو الذي ولد في ١٤٧٤/٩/٨ في رجيومودينا ، وقد أمضى في تأليفها عشر سنوات ونشرها ، ماعدا الأناشيد الستة الأخيرة ، سنة ١٥١٦ . أما الباقي فنشره سنة ١٥٣٢ ، وتتضمن حوادث ثلاثاً رئيسية هي : الحرب التي تخيل وقوعها بين شارلمان والمسلمين ، وجنون أورلندو ، وغراميات وزواج روجيه وبرادامنته ، وقد حشى هذا كله بنوادر حزينة أو سارة ، خفيفة أو جادة ، بهجة أو مروعة . وما أكثر الاختلاف ما في القصيدة من أشخاص ومواقف وأوصاف! وقد مزج فيها كذلك بين الخرافات الشرقية والأساطير الأوربية .

(٣) الاشارة هنا الى القائد دون خيرونيمو دي أوريا الذي ترجم كتاب « أورلندو الغاضب » الى الاسبانية ونشره سنة ١٥٥٦ . وكانت ترجمته غير جيدة نظراً لركاكتها وإهمالها وماأغفلته وما أضافته من عندها حسبما شاء هوى المترجم .

(٤) عنوانه الكامل هو : « قصة مغامرات وأعمال الفارس الذي لا يقهر برنردودل كريبو » ألفها على هيئة مثمنات أجوستين ألونسو ، ونشر في طليطلة سنة ١٥٨٥ .

(٥) عنوانه الكامل هو : « الرواية الصحيحة عن معركة رونثفالس المشهورة ، وموت أكفاء فرنسا الاثنى عشر » ـ قصيدة ألفها فرنشكو جريدو دي فلينا ، ونشرت في بلنسية سنة ١٥٥٥ .

وأمن الحلاق على كل ماقاله القسيس ، ووجد حكمه عادلاً تماماً ، لأنه كان يعتقد في القسيس أنه مسيحي فاضل بنصر الحق فلايقول غيره ولو عرضت عليه الدنيا بأسرها . فلما فتح كتاباً آخر وجده «بلمارين دي أوليفا» ، والى جواره «بلمارين دي إنجلترا» . هنالك صاح صاحب الإجازة :

ـ أوليفا هذا اسحقوه واحرقوه ، ولا تبقوا منه حتى الرماد ، أما هذه البلما الانجليزية فاحتفظوا بها لأنها شيء فريد ، ولتصنعوا صندوقاً ثميناً مثل الصندوق الذي وجده الاسكندر فيما غنمه من دارا ، وخصصه لايداع مؤلفات الشاعر هوميروس فيه . إن الكتاب ، ياصديقي ، مهم لسببين : الأول أنه ممتاز في نفسه ، وثانياً لأنه يقال إنه من تأليف ملك برتغالي لوذعي عالم ، فكل مغامرات قصر ميراجواردا رائعة مليئة بالحيل ، والأقوال واضحة معقولة سليمة الذوق ، متفقة دائماً مع خلق من يتفوه بها ، مع فطنة واستقامة رأي ، لهذا أقول ، بعد استئذان رأيك السديد يا أسطى نقولا ، إن هذا الكتاب وكتاب «أماديس الغالي» ينقذان من حكم النار ، وما عداهما فيعدم دون أخذ ورد .

فأجاب الحلاق : لا يا سيدي الصديق ، فإن مامعي الآن هو «دون بليانيس[١]» الشهير .

فقال القسيس : أما هذا فالأجزاء الثاني والثالث والرابع منه في حاجة الى قليل من الراوند لاستفراغ مرارتها الغزيرة جداً ، ويجب أيضاً أن تحذف منه قصة قصر الشهرة وبعض السفاهات المشابهة . ومن أجل هذا يمكن أن نعطيها مهلة[٢] ماوراء البحار ، ووفقاً لما تفعله تجازى : فإن صلحت جوزي بالاحسان ، وإلا جرى عليها حكم العدالة . والى أن يحين الوقت احتفظ بها عندك ، ياأخي ، ولاتدع أحداً يقرأها .

ـ موافق ، هكذا أجاب الحلاق .

ولم يشأ القسيس أن يتعب نفسه أكثر من هذا في تصفح كتب الفروسية ، فقال للقهرمانة : تناولي جميع المجلدات الكبيرة وألقي بها في الحوش . وما كان خطابه لمغفل أو أصم ، بل كان الى من كان أكثر شوقاً الى إحراقها منه الى أن يعطي النساج ماينسج به قماشاً مهما يكن دقيقاً وعظيماً . لهذا تناولت القهرمانة سبعة أو ثمانية من المجلدات كتلةً

(١) عنوانه الكامل : «قصة الأمير دون بلبانيس الشجاع الذي لا يقهر ، ابن الامبراطور دون بلانيو والامبراطورة كلارنده ، منقول عن اليونانية بتأليف الحكيم فرسون ، وقام بنقله ابن البارون الفاضل توريبيو فرننديث» ، والطبعة الأولى منه ظهرت في برغش سنة ١٥٤٧ .

(٢) أي المهلة الكافية لاعلان الفاطنين في المستعمرات إعلاناً قضائياً ، وهي ستة أشهر على الأقل .

أنّها لم تتم هذه الكلمات حتّى امتلأت عيناها بالدموع واختنق صوتها ، ولاح كأنّ عقدة قد ربطت حلقها فلم تدعها تنطق بالكلمات التي حاولت أن تفصح عنها . فاعتراني ذهول لهذا الحادث الذي لم يقع لها من قبل أبداً . ففي كل مرة كانت الصدفة السعيدة أو مهارتي تجمعنا لنتحدث معاً ، كان يسود حديثنا البهجة والرضا ، دون أن يداخله بكاء أو زفرات أو حسد أو شكوك . وأنا من جانبي كنت في نعمة تامة وشكر دائم على أن وهبني إياها الله حبيبة ، وكنت دائم الإطراء لمفاتنها ومحاسنها . وكانت هي بدورها تبادلني إطراءً بإطراء ، مثنية على ما أظهره حبّها من شمائل عندي خليقة بالثناء . كما كنّا نتبادل آلاف الأحاديث الصبيانية ونروي مغامرات الجيران والمعارف ، ولم تتجاوز بي الجرأة حدّاً أبعد من تناول إحدى يديها البيضاوين ، في شيء من العنف ، وتقريبها من فمي بقدر ماكانت تسمح بذلك قضبان نافذة واطئة كانت تفصلنا عن بعضنا بعضاً . أمّا في الليلة السابقة على اليوم المشؤوم لرحيلي ، فقد كانت تبكي وتنوح ، ثمّ تركتني في اضطراب شديد ومخاوف . فقد أفزعني ما رأيته على لوسنده من شواهد جديدة حزينة من الأسف والتعاسة . وحتّى لا أقضي بنفسي على آمالي ، أرجعت كل شيء الى قوة الغرام الذي تشعر به نحوي والى الأمل الذي يسببه دائماً غرام أولئك المتحابين المولّهين . وأخيراً رحلت ، حزيناً مطرقاً ، ونفسي تساورها الشكوك والمخاوف ، دون أن أعلم على وجه التحقيق أسباب الشكوك والمخاوف ؛ وهي علامات بينات على الضربة الأليمة التي كانت تنتظرني .

بلغت الى حيث أرسل بي وسلّمت الرسائل لأخي دون فرنندو فأحسن استقبالي ولكنّ لم يعجّل إنجاز مهمّتي بل تركني أنتظر ـ على مضض بالغ ـ ثمانية أيام في مكان لم يكن الدوق يستطيع أن يراني فيه ، لأنّ دون فرنندو كتب طالباً أن يرسل اليه المال دون أن يعلم ذلك أبوه . وماكان ذلك إلا من حيل الغدر ، فإنّ المال لم يكن ليعوز أخاه فكان في وسعه أن ينجز مهمّتي في الحال . وكان هذا الوضع غير المنتظر يخوّل لي أن أعصاه ، إذ بدا لي من المستحيل أن أحتمل العيش هذه المدة الطويلة بعيداً عن لوسنده ، خصوصاً وقد تركتها على حال من الحزن وصفتها لك من قبل . ورغم ذلك فقد رضخت وأطعت ، شأن الخادم المخلص ، وإن كنت قد شاهدت أن ذلك سيكون على حساب راحتي وصحّتي . وبعد مضي أربعة أيّام وصل رجل بحث عنّي ليوصّل اليّ رسالة عرفت أنها من لوسنده حينما شاهدت خط العنوان ، ففضضتها وفي نفسي فزع بالغ إذ توقّعت أن يكون ثمة سبب هام قد حملها الى الكتابة اليّ خلال البعاد ، لأنّها نادراً ماكانت تكتب لي وأنا حاضر . لكن قبل أن أتلو الرسالة ، سألت الرجل عمّن أعطاه إيّاها وكم من الوقت استغرقت رحلته . فأجابني أنه كان

يمر صدفة في أحد شوارع المدينة عند الظهيرة وإذا بسيدة رائعة الجمال تدعوه الى النافذة ، وعيناها مغرورقتان بالدموع ، وقالت له بلهجة وسرعة : « أخي! إن كنت مسيحياً مؤمناً كما يبدو لي ، فإنّي أرجوك ، لله ، أن تحمل هذه الرسالة بسرعة ، بسرعة جداً ، الى المكان والشخص المذكورين على الرسالة ، جزاك الله خير الجزاء ، وحتّى أسهّل عليك هذه المهمّة ، خذ مايحتويه هذا المنديل » . وماقالت حتّى القت من النافذة منديل يحتوي على مائة ريال ، وهذا الخاتم الذهبي الذي أحمله ، وهذه الرسالة التي تمسك بها في يديك ، ودون أن تنتظر جوابي ، تركت النافذة بعد أن شاهدت أنّي التقطت المنديل والرسالة وبعد أن أخبرتها بالإشارات أنّي سأنفذ ماأمرت به . فلمّا رأيت أنّي سأكافأ هذه المكافأة على المهمة التي سأقوم بها ورأيت من عنوان الرسالة أنني موفد اليك يامولاي ، وأنا أعرفك جيداً والحمد لله ، ولما كنت خصوصاً قد تأثّرت بدموع هذه الحسناء ، فقد قرّرت ألاّ أوكل هذه المهمة لأحد غيري فحضرت بنفسي لتوصيل الرسالة إليك ، فأخذت سبيلي منذ أن أعطتني الرسالة فقطعت المسافة في ست عشر ساعة ، إذ طولها كما تعرف ١٨ فرسخاً » .

« وبينما كان هذا الرسول الشاكر للجميل يقص عليّ هذه التفصيلات كنت كأنّي معلق على كلماته ، وكانت فرائصي ترتعد بقوة لم أكد أحتمل معها الوقوف . وأخيراً فتحت الرسالة فوجدتها تتضمن هذه العبارات القليلة :

« إنّ ما تعهّد به دون فرنندو من التحدّث الى أبيك ليفاتح أبي ، قد وفى به لصالحه لا لصالحك . فلتعلم ياسيّدي أنّه التمس الزواج منّي ، وأبي ، وقد أعماه ماظن لفضل دون فرنندو عليك ، قد قبل . والأمر من الجدّ بحيث ستتم الخطبة في خلال يومين ، ولكن في الخفاء بحيث لايكون ثم شهود عليها سوى السماء وبعض أهل البيت . في أي حال أنا ، هذا ماأترك لك تصوّره ، فإن كان يهمّك التعجّل فالحكم لك ، وإذا كنت أحبّك أو لاأحبك ، فالحوادث ستشهد . وإنّي أسأل الله أن تصل رسالتي هذه الى يدك قبل أن تضطر يدي الى الإنضمام الى يد رجل لا يفي بعهده! » .

تلك كانت خلاصة كلماتها في رسالتها هذه . لم أكد أتم قراءتها حتّى رحلت من فوري دون انتظار لمال أو جواب عن مهمّتي ، إذ تبيّن لي حينئذ أن دون فرنندو لم يبعث بي الى أخيه من أجل شراء أفراس ، بل ليخلو الجو لتدبيره وأهوائه . واندفعت بقوة الحفيظة ضد هذا الصديق الغادر وبقوة الخوف من إضاعة قلب كسبته بعد سنوات من الغرام والخضوع ، فوصلت الغداة الى المدينة في الساعة المناسبة للتحدّث الى لوسنده . دخلت بيتها سرّاً ، وتركت البغلة التي ركبتها عند ذلك الرجل الفاضل الذي أتى إليّ برسالتها . وشاء الحظ

فقال القسيس : ليس هذا راعياً ، بل داهية ماهر حكيم . فلنحتفظ به لأنه كالجوهر النفيس .

وقال الحلاق : وهذا المجلد الذي يتلوه هو « كنز الأشعار[١] » .

فقال القسيس : لوكانت أقل ، لكانت أفضل . يجب أن نقتلع منهابعض الخساسات التي تضر بروعتها ونهذبها ونشذبها . وليحتفظ به مع ذلك ، لأن مؤلفه صديقي واحتراماً أيضاً لمؤلفاته الأخرى[٢] : ففيها سمو وبطولة .

واستمر الحلاق قائلاً : وهذا هو «ديوان أغاني لوپث مالدونادو[٣]» .

فقال القسيس : ومؤلف هذا الكتاب صديقي أيضاً ومن أعز الأصدقاء . وأشعاره إذا أنشدها بنفسه تسحر سامعيها ، ولصوته عذوبة تحيل إنشاده سحراً . إنه يطنب أحياناً في أشعاره الرعاة ، لكن الجيد لا يستكثر أبداً . فليوضع إذن مع التي احتفظنا بها . لكن ماهذا الكتاب الذي الى جواره ؟

فقال الحلاق : إنه « غلاطيه[٤] » تأليف ميجيل دي ثرفانتس .

فقال القسيس : منذ عدة سنوات وثرفانتس هذا من أصدقائي ، وأنا أعلمك أنه أعرف بالمصائب منه بالشعر . وكتابه لا يخلو من حسن الاختراع ، ولكنه يقترح ولا يستنتج شيئاً . لننتظر الجزء الثاني الذي وعدنا به ، فلعله لو أصلح من شأن نفسه لظفر بالشفقة التي يحرمونه منها اليوم . وإلى أن يتم هذا ، ياسيدي الصديق ، احتفظ به قابعاً في بيتك .

فأجاب الأسطى نقولا : بكل ارتياح . وها هي ذي ثلاثة أخرى تأتي معاً ، وهي : « الأوركانا » لألونسوا دي ارثيا ، و « الأوستريادا » لخوان روفو ، محلف قرطبة ، و« مونسرات » لكرستوبال دي فرويس ، الشاعر البلنسي[٥] .

---

(١) تأليف بدور دي باديا ، مدريد سنة ١٥٨٠ .

(٢) يشير ثرفانتس هنا الى « قصائد الرعاة » (إشبيلية سنة ١٥٨٢) و « الرومانثيرو » (مدريد ، سنة ١٥٨٣) ، و « فردوس الأرواح » (مدريد ، سنة ١٥٨٥) ، « مناقب وعظمة سيدتنا العذراء » في وزن الثماني ، وكان مؤلفها راهباً كرملياً (مدريد سنة ١٥٨٧) .

(٣) نشر في مدريد سنة ١٥٨٦ .

(٤) نشر ثرفانتس القسم الأول من « غلاطية » في القلعة سنة ١٥٨٥ ، ومات قبل أن يخرج القسم الثاني .

(٥) « الأوركانا » ملحمة شعرية فيها وصف غزو الأسبان لمقاطعة أوركانا في شيلي ، وقد ظهرت في مدريد سنة ١٥٦٩ وسنة ١٥٩٠ . و « الأوستريادا » تقص تاريخ أمجاد دون خوان النمساوي منذ ثورة العرب المتنصرة في غرناطة حتى معركة لپانته التي اشترك فيها ثرفانتس نفسه ، وظهرت في مدريد سنة ١٥٨٤ . ـ « المونسرات » تمجد إنشاء هذا الدير المشهور في قطالونيا في القرن التاسع ، وقد ظهرت سنة ١٥٨٨ .

فقال القسيس : هذه الكتب الثلاثة هي خير ماكتب من شعر ملحمي في اللغة الأسبانية ويمكن أن تنافس أشهر ما أبدعت إيطاليا . فليحتفظ بها أثمن قلائد شعر تملكها أسبانيا .

وأخيراً تعب القسيس من كثرة ما نظر فيه من كتب وأراد أن يلقى بالباقي كله في النار ، دون أن يسأله أحد عن شيء ، بيد أن الحلاق كان قد تناول كتاباً فتحه ووجد عنوانه «دموع أنجليكا»[1] .

فقال القسيس : سأذرف دموعي أنا إذا كنت أحرقت هذا الكتاب ، لأن مؤلفه كان من أشهر الشعراء لا في اسبانيا وحدها بل وفي العالم كله ، وقد وفق أيما توفيق في ترجمة بعض خرافات أوفيديوس .

(٢) قصيدة طويلة في أثنى عشر نشيداً ، تأليف لويس برهونا دي سوتو ، ظهرت في غرناطة سنة ١٥٨٦ ، وكان برهونا هذا صديقاً حميماً لثرفانتس ، ولد سنة ١٥٤٨ وتوفي سنة ١٥٩٥ وشعره الغنائي جيد ، وكان إرهاصاً بشعر جونجورا المغالي في الصنعة الشعرية ، ومن أشهره ترجمة خرافات أوفيديوس ، ثم رثاء الملك سباستيان ، ورثاء لجرثلاسو .

نفس العبارة ووضع في إصبعها خاتم الزواج ، وهكذا ارتبطا برباط لاإنفصام له . وتقدّم الزوج لتقبيل زوجته ، ولكنها وضعت كفّها على قلبها وسقطت بين ذراعي أمها مغشياً عليها .

«بقي أن أقص عليكم وصف حالتي حينما شاهدت في هذا «القبول» منها ضياع آمالي وزيف وعودها واستحالة رد مافقدته تلك اللحظة . فقدت وعي وشعرت أنّ السماء تخلّت عنّي وأنا على الأرض موضوع كراهية ، لأن الهواء لم يعد يمدّ زفراتي بالأنفاس ، والماء لم يعد يمدّني بالدموع ، إنّما تلظّت النار ، واحترق قلبي بالحسد والغضب . وكان إغماء لوسنده قد أثار الانفعال في كل الحاضرين ، وأبعدتها أمها عن ذراعيها لتستطيع استنشاق الهواء ، فوجد على صدرها ورقة مختومة سرعان ماالتقفها دون فرنندو وأنشأ يقرأها على ضوء أحد المشاعل . فلمّا فرغ من القراءة ، ارتمى على كرسي وأسند رأسه الى يده ، في وضع من يفكّر ، دون أن يسهم في مظاهر العناية التي وفّرت لزوجته لجعلها تفيق من إغمائها . أمّا أنا ، فحينما رأيت البيت كلّه على هذا الحال من الاضطراب ، تجاسرت على الخروج دون أن أهتم بأن يكتشفوا أمري ، وفي عزمي في هذه الحالة أن أثور ثورة دامية ليعرف الناس جميعاً غضبتي العادلة التي تدفعني الى عقاب الخائن ، بل وعقاب تلك التي تغيّرت عن عهدها وإن كانت لاتزال في حالة إغماء . ولكن شاء طالعي أن يحتفظ بي لشقاء أعظم ، إن كان ثمّ أعظم من شقائي ، فأمرني بالتعقّل ، ثمّ حرمني بعد هذا الحدث من كلّ تعقّل . فبدلاً من أن أنتقم من أعدائي الألدّاء ، وهو أمر كان حينئذ سهلاً ، لأنهم لم يكونوا منتبهين لي ، تخيّلت أن أنتقم من نفسي فأعاقبها بالعقاب الذي استحقّوه هم ، وبقسوة أشد مما كان عليّ أن أفعله ضدّهم لو أنّي قتلتهم ، لأن العقاب المفاجىء ينهي العذاب سريعاً ، أمّا العقاب الذي يطول أمده في ألوان من العذاب لاتنتهي فيقتل بموت بطيء . ــ وأخيراً غادرت البيت وذهبت الى الرجل الذي تركت عنده بغلتي . وسرعان ماأسرجتها وغادرت المدينة دون أن أودّع الرجل ، ولم أجرؤ على إدارة رأسي لرؤية المدينة شأني شأن لوط . فلمّا كنت وحدي وسط الحقول التي أرخى الليل عليها سدوله ، يدعوني هدوئها الساجي الى إطلاق العنان لنواحي دون خوف من أن يسمعني أو يتعرفني أحد ، أطلقت لساني وصرخت بلعناتي ضد لوسنده وفرنندو ، كما لو أنّي بهذا أنتقم لنفسي مما لحقني منها من إهانة . واتجهت لعناتي خصوصاً اليها ، ناعتاً إيّاها بالقاسية ، الجاحدة ، الزآئفة ، الحانثة باليمين ، وبالمستغلة الشرهة ، لأن ثروة عدوّي هي التي بهرت عينيها وجعلتها تفكّر بمن حباه الحظ بمالٍ أوفر ، وفي هذه الغضبة وتلك اللعنات كنت أحاول تلمّس عذر لها فأقول : «إنّ فتاة

نشأت في عزلة بين أهلها واعتادت دائماً الإذعان لأبويها ـ لاعجب في أن تنزل عند رغبتهما إذا زوجاها من سيّد نبيل غني وسيم ، فلو أنها رفضته لاتهمت بالجنون أو بحب شخص آخر ، وكلاهما يسيء الى سمعتها أبلغ إساءة »! ثمّ أعود بعد ذلك الى أفكاري الأولى فأقول : « ولماذا لم تقل أنني زوجها ؟ لقد كانوا سيرون حينئذ أنها لم تختر اختياراً سيئاً غير جدير بها لا تستطيع تبريره ، لأنه قبل أن يتقدّم دون فرنندو لخطبتها ، لما كانا أبواها قد طمعا في خير منّي لوأنهما قاسا رغبتهما بمقياس العقل . أفلم يكن في وسعها إذن ـ قبل أن تخطو هذه الخطوة المروعة الأخيرة ، وقبل أن تقبل ، أن تقول أنها وعدت من قبل بالزواج مني ، ففي هذه الحالة كنت سأعمل على الاستجابة لكل ماكانت ستتظاهر هنالك به ؟ » وأخيراً أقنعت نفسي بأن قليلاً من الحب ومن العقل ، وكثيراً من الطمع والشهوة للعظمة ، قد جعلاها تنسى الوعود التي ناغتني بها وخدعتني وغزّت أمالي النزيهة الشريفة . وكنت خلال هذه المناجيات والاضطرابات أسلك طريقي الليل كلّه ، حتّى وصلت عند مطلع النهار الى مدخل من مداخل هذه الجبال . فدخلت منه ومضيت قدماً ثلاثة أيّام كاملة دون أن أسلك طريقاً بعينه ، الى أن وصلت الى مرج لاأعرف مكانه بالدقة ، وسألت الرعاة الذين كانوا يرعون دوابهم فيه عن أوحش مكان في هذه الجبال وأشدّها وعورة ، فأشاروا عليّ بهذا المكان ، فغدوت اليه تواً وأنا موطّن العزم على أن أنهي حياتي فيه . ولمّا دخلت هذه الوحشة الموحشة كبت بغلتي وماتت من الجوع والاضطهاد ، أو بالأحرى ـ فيما يخيّل إلي ـ للتخلّص من حمل لافائدة فيه هو شخصي أنا . فوقفت على الأرض ثمّ انطرحت عليها وقد بلغ منّي الإعياء والشقاء ، دون أن أريد من أحد ـ ولم يكن ثمّ أحد ! ـ أن يهبّ لمساعدتي . وبعد أن بقيت مطروحاً على هذا النحو وقتاً لا أدري مداه ، نهضت ولم أعد أشعر بعد بالجوع ، فرأيت الى القرب منّي بعض رعاة الماعز وهم بلا شك أولئك الذين سدّوا حاجتي الملحّة العاجلة . فقد قصّوا عليّ بعد ذلك كيف عثروا عليّ ، وكيف أنّي رويت لهم من الخزعبلات والترّهات ما جعلهم يوقنون أنّي مذهوب العقل . ولقد أحسست بنفسي منذ تلك اللحظة أن عقلي لم يعد سليماً حرّاً دائماً ، بل بالعكس ، صار من الضعف والاختلال بحيث صرت أرتكب آلاف الحماقات وأمزّق ثيابي ، وأصرخ في هذه القفار ، لاعناً حظّي العاثر ، مكرّراً باستمرار اسم عدوّتي الحبيب ، دون أن يكون ثمّ غرض إلاّ أن أدع حياتي تنطلق مع صرخاتي . وحينما أعود لنفسي وأثوب لرشدي أراني على نحو من الإعياء والاستسلام بحيث لاأقوى على القيام بنفسي . وأغلب مسكني في تجويف شجرة فلّين تستر هذا البدن الناحل البائس . ورعاة الضأن والماعز اللذين يجوبون هذه الجبال بقطعانهم تأخذهم الشفقة

بها ، غير أنه رحل بعد لحظة طائراً على السقف ، وترك البيت كله مليئاً بالدخان ، ولما أردنا أن نشاهد ماخلف وراءه ، لم نجد كتباً ولا مكتبة . اللهم إلا أننا نذكر جيداً ، القهرمانة وأنا ، أنه في اللحظة التي طار فيها ، صاح هذا اليفن الشرير قائلاً : إنه فعل ما فعل بهذا البيت مما سيشاهد بعد بسبب عداوة مستترة يحملها ضد صاحب الكتب والمكتبة . وأضاف أن اسمه منياتون الحكيم .

ـ بل قال : فرستون ، بهذا أجاب دون كيخوته .

فقالت القهرمانة : لا أدري ما إذا كان اسمه فرستون أو فريتون ، لكنه على كل حال ينتهي بالمقطع : «تون» .

فقال دون كيخوته : هو كذلك ، وإنه لساحر حكيم وعدوي اللدود ، وهو يعاديني لأنه يعلم ، بفنونه وحروفه ، أني لا بد أن أنازل ذات يوم فارساً يعطف هوعليه ، وأني لابد ظافر به دون أن يتمكن علمه من أن يحول بيني وبين ذلك . ولهذا السبب يسعى جهده ليوقع بي كل ما يستطيع من أضرار ، لكني أخبره أنه لن يستطيع أن يعترض ولا أن يتجنب ما قضت به السماء .

فقالت ابنة الأخ : ومن يشك في هذا ؟ لكن ياعمي لماذا تشغل نفسك بكل هذه المنازعات ؟ أفليس الأفضل أن تبقى هادئاًفي بيتك بدلاً من أن تذرع الدنيا بحثاً عن خبز أحسن من خبز البر ، مع العلم بأن كثيراً من الناس يذهبون للبحث عن الصوف فيعودون مجزورين ؟

فأجاب دون كيخوته : ياابنة أخ ، كم أنت جاهلة بمجرى الأمور! قبل أن أجز أنا أكون قد حلقت وانتزعت لحى كل أولئك الذين قد يتخيلون أنهم يقدرون على مس طرف شعرة مني .

فلزمت كلتاهما الصمت ولم تشأ الإجابة ، إذ وجدتا الغضب قد علت نزوته إلى رأسه .

والواقع أنه ظل ملازماً بيته خمسة عشر يوماً ساكن الجأش ، دون أن تبدر منه بادرة تدل على أنه يريد أن يستأنف هروبه الأول . وفي خلال هذه الفترة كانت له أحاديث طلية وأسمار رقيقة مع صاحبيه : القسيس والحلاق ، تدور حول دعواه أن أحوج ما يحتاجه العالم هو الفرسان الجوالة وأنه لا بد من بعث الفروسية الجوالة . وكان القسيس يعارضه حيناً ، ويسلم له حيناً آخر ، إذ بدون هذه الحيلة كان من المستحيل رده إلى الصواب .



الفصل السابع : دون كيخوته وسنشو پنثا في خرجة دون كيخوته الثانية
(عن جوستاڤ دوريه)

لم تخلقا لتطأ الطين خلف المحراث والثيران كما دلّت على ذلك ملابسه . فلمّا رأوا أنه لم يحس بهم ، أشار القس وكان في مقدّمتهم الى زميله بأن يستترا خلف الصخور القائمة هناك . واستتر ثلاثتهم هناك ليراقبوا ما يفعله الفتى . وكان الفتى يلبس معطفاً صغيراً شدّه الى وسطه بحزام غليظ أبيض ، وجوارب طويلة من الصوف الأسمر ، وعلى رأسه قلنسوة من القماش نفسه . فلمّا فرغ من غسل قدميه ، ورفع قلنسوته ورفع رأسه ، هنالك شاهد الذين يراقبونه جمالاً منقطع النظير ، حتّى قال كردينو بصوت خفيض للقسّ : «مادام هذا ليس لوسنده ، فليس أيضاً بشراً!» وخلع الفتى قلنسوته وهزّ رأسه يمنة ويسرة فانتشر من تحتها شعر يحسده عليه شعاع الشمس نفسه . هناك أدرك الثلاثة الطلعة أن هذا الذي حسبوه فلاّحاً كان فتاة شابة رقيقة ، أجمل ماوقعت عليه أعين صديقيّ دون كيخوته بل وعينا كردنيو نفسه لو لم يعرف لوسنده لأنّه أكد بعد ذلك أن جمال لوسنده هو وحده الذي يمكن أن يقارن بهذا الجمال . وكان هذا الشعر الأشقر الطويل يغطي كتفيها ، بل يغطّيها كلها تحت غدائره الكثيفة ، حتّى لم يكن المرء يرى منها غير قدميها . والتسريحة لم يكن لها من مشط غير أناملها التي بدت في الشعر كأنّها كرات من الثلج ، كما بدا القدمان في الجدول كأنهما قطعتان من البلّور . كل هذا زاد من إعجاب المشاهدين الثلاثة ومن شوقهم لمعرفة حقيقة أمرها ، فقرّروا الخروج من مختبأهم . لكنّ حركة نهوضهم جعلت الشابة الحسناء تدير رأسها وتفصل بيديها شعرها الذي يغطّي وجهها ، ثمّ نظرت من أين جاءت الضوضاء . ولم تكد ترى هؤلاء الرجال الثلاثة حتّى نهضت بلهفة ودون أن تتمهّل للبس حذائها وضم شعرها ، ثمّ أمسكت بحزمة صغيرة من الخرق المهلهلة كانت بالقرب منها ، ثمّ هربت في ذعر واضطراب . بيد أنّها لم تكد تخطو بضع خطوات حتّى عجزت قدماها الرقيقتان عن احتمال وعورة الصخور فارتمت على الأرض . هنالك أسرع اليها الأصدقاء الثلاثة ، وبدأ القس في الكلام فقال : «قفي يا سيدّتي! أيّاً من كنت فاعلمي أننا لا نبغي إلاّ خدمتك . فلا تحاولي الفرار ، فقدماك لن تتحمّلان ، ونحن أيضاً لن نسمح لك بذلك» .

فلم تحر جواباً وغلبتها الدهشة والاضطراب . فاقتربوا منها ، وأخذ القس بيدها واستمر يقول :

«إن ماأخفته ثيابك ياسيّدتي قد نمّ عنه شعرك ، وهي دلائل واضحة على أن الدوافع التي حملتك على تمويه جمالك تحت هذا القناع غير اللائق به ودفعتك الى اللجوء الى أعماق هذه القفارالتي يسعدنا أن نلقاك فيها لا نجد دواء لإدوائك ولكن على الأقل لنبذل لك محض النصيحة . نقول هي دلائل واضحة على أنّ هذه الدوافع ليست هيّنة . وأيّة مصيبة لا يمكن ،

وفي تلك الأثناء استدعى دون كيخوته سراً أحد جيرانه ، وكان فلاحاً طيباً (إن جاز أن نصف فقيراً بهذا الوصف) ، لكنه كان قليل الملح في المخ[1] . وراح يقص عليه ويحاول إقناعه ويبذل له الوعود المعسولة حتى قرر الرجل المسكين أخيراً أن يرحل معه وأن يعمل حاملاً لسلاحه .

ومن بين ما قاله له أن يستعد لمصاحبته بقلب سليم ، إذ قد تقع له مغامرة فيستولي في لحظة على جزيرة ، يعينه حاكماً لها مدة حياته . فأغرت هذه الوعود وأمثالها سنشو پنثا (وهذا هو اسم الفلاح) فترك زوجه وأولاده وعمل حامل سلاح لجاره . هنالك احتال دون كيخوته في الحصول على المال فباع أشياء ورهن أخرى وبدد كل ما يملك حتى جمع من هذا كله مبلغاً معقولاً . وتجهز بترس من حديد اقترضه من أحد أصدقائه ، وأصلح ما استطاع خوذته المحطمة . ثم أخبر حامل سلاحه سنشو باليوم والساعة اللذين قرر فيهما الرحيل حتى يتزود هذا بما يراه ضرورياً . وأوصاه خصوصاً أن يحمل معه خرجاً ، فوعد سنشو بذلك وأضاف أنه يفكر في أن يأخذ معه حماراً فارهاً يملكه ، لأنه لا يأنس في نفسه القدرة على المشي طويلاً على قدميه . وبمناسبة الحمار راح دون كيخوته يفكر ليتذكر ما إذا كان أحد الفرسان الجوالة قد اصطحب معه حامل سلاح يركب حماراً . لكن ذاكرته لم تستطع أن تقدم له مثلاً واحداً على هذا . ورغم ذلك وافق على السماح له بأن يأخذ معه الحمار ، مقترحاً في نفسه أن يزوده بركوبة أشرف متى واتت الفرصة ، وذلك بأن ينتزع الفرس من أول فارس قليل الأدب يعترض طريقه . وتزود أيضاً بقمصان وأشياء أخرى قدر الحصول عليها ، عملاً بالنصيحة التي أسداها إليه صاحب الفندق . وتم كل هذا ونجز ، ولم يودع پنثا أهله وأولاده ، ولا دون كيخوته قهرمانته وابنة أخيه بل خرجا فجأة ذات مساء من القرية دون أن يراهما أحد ، وحثوا المسير طوال الليل حتى إذا ما تنفس الصبح كانا على يقين من أن أحداً لن يكتشف أمرهما ويلحق بهما حتى لو عدا في إثرهما .

سار سنشو پنثا ممتطياً حماره كأنه بطريرك ، ومعه خرجه وراويته ، ومعه أيضاً رغبة حارة في أن يرى نفسه حاكماً على الجزيرة التي وعده بها سيده . واتخذ دون كيخوته نفس الطريق ونفس الاتجاه اللذين اتخذهما في خروجه الأول ، أعني خلال سهل مونتيل ، وكان سيره هذه المرة أقل متاعب منه في المرة الأولى لأن الوقت كان في متوع الصبح ولم تكن أشعة الشمس لتضايقه بعد لأنها لم تكن إلا عن ميل . هنالك قال سنشو پنثا لسيده :

(١) أي طائش ، خفيف ، نزق .

ـ لاحظ جنابك ، أي سيدي الفارس الجوال ، ألا تنسى أبداً ما وعدتني به من جزيرة ، إذ مهما تكن كبيرة فإن في وسعي إدارة شؤونها جيداً .

فأجابه دون كيخوته قائلاً :

ـ يجب أن تعلم ، أي صديقي سنشو پنثا ، أن العرف الجاري لدى الفرسان الجوالة القدماء أن ينصبوا حملة أسلحتهم حكاماً على الجزر أو الممالك التي يستولون عليها ، وإني لذو عزم وطيد على ألاّ يذهب هذا العرف الحميد بخطأي . بل على العكس من هذا أفكر في أن أفوق غيري في هذا المضمار ، إذ كثيراً ، بل غالباً ماينتظر أولئك الفرسان أن يصير حملة أسلحتهم طاعنين في السن ، فإذا صاروا شباعى من الخدمة متعبين من قضاء الأيام المضنية والليالي الكئيبة ، أعطوا لقب كونت ، أو مركيز على الأكثر ، مع واد أو مقاطعة صغرت أو كبرت ، لكن إذا عشت وعشت أنا فيمكن أن أستولي على مملكة قبل ستة أيام ، مملكةتتبعها ممالك أخرى توابع لها ، تناسب تماماً لتتويجك ملكاً على إحداها . ولا يأخذك العجب لهذا ، إذ تقع لهؤلاء الفرسان مغامرات عجيبة لم ير مثلها ولم يتوقعها أحد ، إلى درجة أني قد أستطيع بسهولة أن أعطيك أكثر مما به وعدتك .

فأجاب سنشو پنثا قائلاً : على هذا لوأصبحت ملكاً بمعجزة من تلك المعجزات التي رواها سيادتك فإن حُرمتي ، خوانا جوتيرث ، ستصير على الأقل ملكة وأولادي أمراء .

فقال دون كيخوته : وهل ثمّ من يشك في هذا ؟

فأجاب سنشو پنثا : أنا أشك في هذا ، لأني أتصور أنه لو قدر وأنزل الله على الأرض ممالك كالأمطار الغزيرة ، فليس من بينها ما يناسب رأس ماري جوتيرث . إذ يجب أن تعلم ياسيدي أنها لا تساوي كملكة فلسين اثنين . وأنسب من هذا أن تصبح كونتيسة ، على أن هذا أيضاً لن يكون إلا إذا أعانها الله .

فأجاب دون كيخوته : سلّم الأمر لله ياسنشو ، فسيعطيها مايناسبها ، لكن لا تحقّر من شأن نفسك الي حد أن تقنع بأقل من حاكم مقاطعة .

فقال سنشو : لا ، أبداً يا سيدي ، خصوصاً ولي في جنابك سيد جواد يعرف كيف يعطيني مايناسبني وما يستطيع عاتقي حمله .

الفصل الثامن

في النجاح الرائع الذي ناله الشجاع دون كيخوته
في المغامرة المروّعة العجيبة
مغامرة الطواحين الهوائية وحوادث أخرى خليقة بأجمل الذكر

وفي هذه اللحظة اكتشفوا ثلاثين أو أربعين طاحونة هوائية في هذا السهل ، فلم يكد دون كيخوته يراها حتى قال لحامل سلاحه :

ـ إن الحظ يسوق أمورنا خيراً مما تستطيعه رغبتنا ، أنظر ياصديقي سنشو پنثا : أمامنا على الأقل ثلاثون من المردة العتاة أو يزيدون ، أرى أن أنازلهم وأسلبهم الحياة جميعاً بلا استثناء . وبأسلابهم نبدأ ثروتنا ، لأن هذا جهاد نبيل ، وفي سبيل الله إبادة هذه العصابة الشريرة من وجه الأرض .

فسأله سنشو پنثا : أي مردة ؟

فأجابه سيده : أولئك الذين تبصرهم هناك بأذرعتهم الطوال ، إذ منهم من يبلغ طول ذراعه قرابة فرسخين[١] .

فقال سنشو : إنتبه جانبك ، فتلك التي ترى هناك ليست مردة ، بل طواحين هوائية ، وما يبدو أنه أذرع ليس إلاّ أجنحتها التي تديرها الريح فتدير بدورها حجر الطاحونة .

فأجابه دون كيخوته : هذا يدل تماماً على أنك لست خبيراً بشؤون المغامرات ، هذه مردة ، أقول لك . وإذا كنت خائفاً فاذهب عني وأقيم الصلاة بينا أنازلها في معركة رهيبة غير متكافئة .

وضرب فرسه روثينانته وهو يقول هذه العبارة ، دون أن يحفل بأقوال حامل سلاحه سنشو الذي صرخ يؤكد أن هذه طواحين هوائية وليست مردة تلك التي راح يهاجمها . أما هو فقد رسخ في ذهنه أنها مردة الى حد جعله لا يسمع صرخات حامل سلاحه سنشو ، بل

---

(١) الفرسخ legun (وباللاتيني leuca) يساوي ٥٧٧٢ متراً . أما فرسخ البريد فيساوي ٤ كم والفرسخ البحري يساوي ٥٥٥٥ متراً ، أي ثلاثة أميال .

ولا أن يتعرف الحقيقة حينما اقترب منها كل القرب . على عكس هذا راح يعدو وهو بصوت مدو :

ـ لا تهربي ، أيتها المخلوقات الجبانة الخسيسة ، فإن من يهاجمك ليس إلا فارساً واحداً .

وتصادف في تلك الأثناء أن هبت ريح خفيفة فابتدأت الأجنحة الكبيرة في التحرك . فلم يكد دون كيخوته يبصر هذا الأمر حتى صاح :

ـ حتى لو حركتم من الأذرع أكثر مما فعل المارد برياريو ، فستدفعون الثمن غالياً .

وكان وهو يتفوه بهذه الكلمات يتوجه من أعماق قلبه الى سيدته دلثنيا ، داعياً إياها أن تعينه في هذا الخطر ، ثم اندفع ، مغطى بترسه ومشرعاً رمحه ، يركض بأقصى ماتستطيعه روثينانته في وجه أول طاحونة صادفته ، لكن في اللحظة التي خرق فيها الجناح بضربة قاصمة من رمحه ، دفعته الريح بعنف حطم الرمح وساقت معه الفرس والفارس فراح هذا يتدحرج على التراب في أسوأ حال ، فأسرع سنشو پنثا لنجدته بأسرع مايستطيعه حماره ، فلما بلغه وجده لا يستطيع حراكاً ، لأن السقطة كانت شديدة : فصاح سنشو :

ـ يا لله! ألم أقل لجنابك خذ حذرك مما أنت فاعل ، فما هي إلا طواحين هوائية ، ولا يجهل هذا إلا من امتلأت رأسه بأمثالها ؟!

ـ صه يا صديقي سنشو ، بهذا أجابه دون كيخوته : إن أمور الحرب أشد من غيرها تأثراً بالتقلبات ، خصوصاً وأنا أحسب ، وهذا هو الحق الذي لا مرية فيه ، أن ذلك الحكيم فرستون ، الذي سرق مني الكتب والمكتبة ، قد حول هؤلاء المردة الى طواحين ليحرمني شرف الانتصار عليها ، ،ذلك لشدة حقده عليّ . لكن صنعته اللعينة لن تقهر في نهاية الأمر طيبة سيفي .

فأجابه سنشو پنثا : ليفعل الله ما يريد!

ثم أعان سيده على إمتطاء صهوة روثينانته وكان كتفاها شبه متكسرين . وظلا يتحدثان عن هذه الحادثة وهما يسلكان طريق پورتو لاپثه ، لأن هذا الطريق كثير الحركة فلن يخلو الأمر من لقاء كل أنواع المغامرات ، كما قال دون كيخوته ، بيد أنه كان حزيناً ساهماً لأنه فقد رمحه ، وصرح لحامل سلاحه بأسفه هذا قائلاً :

ـ أذكر أني قرأت أن فارساً أسبانياً يدعى دييجو پيرث دي فرجاس كسر سيفه في معركة فانتزع من سنديانة غصناً متيناً ، أو لعله الجذع ، وبهذا السلاح قام بمغامرات

وخنق من المسلمين قدراً جعل الناس يطلقون عليه اسم «الخنّاق» («متشوكا») ، فأضيف الى اسم فرجاس في لقبه ولقب نسله . وقد قلت لك هذا لأني أفكر في أن أنتزع من أول سنديانة أصادفها غصناً متيناً كذلك الغصن ، به أحسب أني سأقوم بأعمال مجيدة تجعلك تشعر بالسعادة إذ حزت شرف مشاهدتها وكنت شاهداً على عجائب لا يكاد يصدقها أحد .

ـ على بركة الله ، هكذا قال سنشو ، أعتقد أن الأمر هو كما تقول تماماً . لكن يحسن بجنابك أن تعتدل قليلاً ، إذ يلوح لي أنك مائل الجنب ، ولابد أن يكون ذلك من أثر طحن السقطة .

ـ هذا صحيح ، بهذا أجاب دون كيخوته ، وإذا كنت لا أشكو الآلام التي أعانيها ، فذلك لأنه ممنوع على الفرسان الجوالة أن يشكوا من أي جراح ، حتى لوخرجت منها أحشاؤهم .

ـ إذا كان الأمر كذلك ، هكذا قال سنشو ، فليس عندي ماأجيب به . لكن الله يعلم ما إذا كنت أسر من سماعك تشكو ، إذا آلمك شيء . أما عن نفسي فأستطيع أن أقول إنني سأصرخ من أقل ألم يصيبني ، اللهم إلا إذا كان منع التشكي هذا ينسحب أيضاً الى حملة أسلحة الفرسان الجوالة .

فلم يتمالك دون كيخوته من الضحك من سذاجة حامل سلاحه ، وقال له إنه يستطيع أن يشكو ماوسعته الشكوى متى شاء وعلى أي نحو شاء ، برغبة أو دون رغبة ، لأنه لم يقرأ حتى ذلك التاريخ مايدل على عكس هذا في قوانين الفروسية .

وهنا لفت سنشو نظره الى أن الوقت قد حان للطعام . فأجاب دون كيخوته إنه لا يشتهي شيئاً الآن ، أما هو فيستطيع أن يأكل كما يشاء . وبهذه الرخصة تمكن ما استطاع على حماره وسحب من الخرج ما وضع فيه من زاد ، ومضى يأكل ويسير الهوينى خلف سيده . وبين الفينة والفينة كان يرفع الراوية الى فمه بلطف يحسده عليه أظرف خمّارٍ في مالقة . وبينما سار على هذا النحو ، يلتهم لقمة إثر لقمة ، لم يذكر شيئاً مما وعده به سيده ، ونظر الى أمر الذهاب سعياً وراء المغامرات مهما يكن خطرها ، نظر إليه لا على أنه مهنة قاسية ، بل تسلية حقيقية .

وأخيراً أمضوا تلك الليلة تحت أيكة ، انتزع منها دون كيخوته غصناً جاسياً يمكن استخدامه رمحاً عند الحاجة ، وزوّده بحديد الرمح المكسور . لم ينم دون كيخوته ليلته ، مفكراً في سيدته دلثنيا ، ليعمل حسبما قرأ في كتبه ، وهو أن الفرسان الجوالة كانوا

يمضون الليالي الطوال في الغابات والقفار دون أن يغمض لهم جفن ، وهم يتسلون بذكريات سيداتهم . أما سنشو پنثا فلم يقض ليلته على هذا النحو ، لأن معدته كانت ملأى ، وليست ملأى بماء الهندبا ، فقضى الليلة في حلم واحد ، وفي الصباح كان لا بد من صوت سيده لإيقاظه وهو أمر لم تستطعه أشعة الشمس التي تسلطت على وجهه ولا غناء آلاف الأطيار وهي تحيي مطلع النهار بصوتها الطروب . وراح سنشو يلاطف راويته وهو يفرك عينيه ، فلما وجدها أنحف من الليلة السابقة امتلأ قلبه غماً ، إذ لاح له أنهما لا يسلكان السبيل التي يمكن فيها سد هذا النقص في الحال . أما دون كيخوته فلم يحفل أبداً بالفطور ، مفضلاً كما قال أن يتغذى بذكرياته الشهية .

واستأنفا السير في طريق پورتو لاپثه ، وقرب الثالثة بعد الظهر اكتشفوه . فلما رآه دون كيخوته قال :

ـ هنا يا أخي سنشو پنثا نستطيع أن نغوص بأيدينا حتى المرافق فيما يسمى باسم المغامرات ، لكن حذار أن تتناول السيف للدفاع عني حتى لوشاهدتني في أشد المخاطر ، اللهم إلا إذا وجدت المهاجمين من السفلة الرعاع ، ففي هذه الحالة تستطيع معاونتي ، أما لوكانوا فرساناً فلا تسمح لك مطلقاً ولا تعترف قوانين الفروسية بأن تهب لنجدتي ، طالما لم تُسلَّح فارساً .

ـ قطعاً يا سيدي ، هكذا قال سنشو ، إن جنابك ستطاع في هذا كل الطاعة ، خصوصاً وأنا بطبعي أميل الى المسالمة ، وأعدى أعدائي الزجّ بنفسي في الغلبة والمنازعات . لكن إذا اتصل الأمر بالدفاع عن شخصي ، فالحق أني لن أحفل آنئذ بهذه القوانين ، لأن قوانين الله والناس تبيح لكل امرىء أن يدافع عن نفسه ضد كل من تسول له نفسه الاعتداء عليه .

ـ لا أقول عكس هذا ، بهذا أجاب دون كيخوته . لكن فيما يتعلق بنجدتي ضد الفرسان ، اكبح جماح حركاتك الطبيعية .

ـ أعود فأقول ، بهذا أجاب سنشو ، إنني سأعمل بما تقول ، وسأحرص على هذا الأمر حرصي على التعبيد أيام الآحاد .

وكانا يتقارضان هذا الحديث وإذا بهما يبصران راهبين من طريقة القديس بندكتوس وهما يركبان هجينين ، لأن البغلين اللذين ركباهما كانا في حجم الهجين ، ويحملان مناظير السفر والمظلات . وخلفهما سارت عربة يحيط بها أربعة أو خمسة من الخيالة ، يتبعهم بغّالان مترجلان . وكان في هذه العربة ـ كما عرف فيما بعد ـ

سيدة من البشكونش[1] في طريقها الى إشبيلية حيث كان زوجها على أهبة الرحيل الى الهند (الغربية) ليتولى منصباً رفيعاً . ولم يكن الراهبان في رفقتها ، ولكنهما كانا يسلكان نفس الطريق . فلم يكد دون كيخوته يلمح هذا الركب حتى قال لحامل سلاحه :

ـ إما أن أكون مخدوعاً ، أو نكون بصدد أروع مغامرة شهدها إنسان . لأن تلك الكتل السوداء هناك يجب أن تكون ، وهي فعلاً من غير شك ، سحرة يسوقون في هذه العربة أميرة من الأميرات سبوها ، ويجب على أن أرد هذا الاعتداء بكل قوتي ، مهما يكن في ذلك من خطر .

فأجاب سنشو : يبدو لي أن هذا أسوأ من الطواحين الهوائية . خذ حذرك ياسيدي . أولئك رهبان من طريقة القديس بندكتس ، والعربة لا بد أن تكون لناس في رحلة . أعود فأحذرك مما أنت فاعل ، ولا يغرنك الشيطان .

فقال دون كيخوته : لقد قلت لك من قبل ياسنشو إنك لاتدري فتيلاً في أمور المغامرات . وما أقوله هو عين الحق ، وسترى مصداق قولي في الحال .

وكان ، وهو يقول هذا ، يتقدم ويقف في وسط الطريق الذي منه جاء الراهبان . فلما وصلا الى مسافة اعتقد أنهما يسمعانه منها ، صاح فيهما بأعلى صوته :

ـ أيها العفاريت الجبابرة ، هيا أطلقوا في الحال سراح الأميرات الجليلات اللواتي سبيتموهن وحملتموهن بقسوة في هذه العربة . وإلا فاستعدوا لموت سريع جزاء وفاقاً بما اقترفتم من شر الاعمال! .

فأمسك الراهبان بالعنان وتوقفا ، مدهوشين من منظر دون كيخوته ومن أقواله ، ثم أجاباه :

ـ سيدنا الفارس! لسنا عفاريت ولا جبابرة ، بل راهبان بندكتيان نسلك سبيلنا ، ولا ندري ماإذا كان في هذه العربة أميرات سبايا أو ليس فيها .

فقال دون كيخوته : أنا لا آكل من هذه الكلمات المعسولة ، وأنا أعرفكم من قبل ، أيها الغدرة اللئام!

ودون أن ينتظر جوباً آخر همز روثينانته واندفع خفيض الرمح في وجه الراهب الأول

---

(١) إقليم البشكونش Vizcaya ، مقاطعة في شمال اسبانيا ، عاصمتها بلباو ، مساحتها ٢١٠٦ كم٢ ، منطاة بجبال البرانس ، مشهورة بالحديد ، وظلت مدة طويلة يستقل بها أمراؤها عن ملوك اشتوريا وقشتالة ، حتى تولى خون ابن هنري الثاني دي ترنستماره ملك قشتالة سنة ١٣٧٩ باسم خوان الأول ، فضمت نهائياً الى مملكة قشتالة .

بجنون حتى أنه لولا أن ترك الراهب نفسه يسقط من فوق بغله لجندله دون كيخوته على الأرض إما جريحاً بالغ الجراح أو ميتاً . أما الراهب الثاني فإنه لما رأى رفيقه وما وقع له ، وضع ركبته في قصر بغله الفاره[١] ، وولى هارباً في السهل المنبسط ، خفيفاً بل أخف من الريح ، أما سنشو پنثا فإنه لما شاهد الراهب الآخر طريح التراب قفز من على ظهر دابته وانقض عليه وأنشأ في انتزاع برنسه وطرطوره . هنالك هرع الخادمان اللذان كانا يرافقان الراهبين وسألا سنشو لماذا يجرد سيدهما من ثيابه . فأجابهما سنشو قائلاً إن ملابس الراهب من حقه شرعاً ، لأنها أسلاب المعركة التي انتصر فيها سيده دون كيخوته ، فانقضا على سنشو ، وكانا لا يسمحان بمزاح ولا يفهمان شيئاً في مسألة هذه الأسلاب والمعركة ، وقد شاهدا دون كيخوت قد مضى بعيداً ليحادث من في العربة ، انقضا عليه وطرحاه على بطنه ولم يدعا شعرة في لحيته وانهالا عليه بضرب مبرح حتى تركاه طريحاً على الأرض لا يتنفس ولا يعي شيئاً . أما الراهب فلم يضيع لحظة بل ركب بغله ، خائفاً مرتجفاً ووجهه شاحب فرقاً . ولم يكد يركب حتى عدا صوب رفيقه الذي كان ينتظره بعيداً ، وهو يشاهد كيف ينتهي هذا الذعر . وقبل أن ينتظرا نهاية هذه المغامرة تابعا المسير بسرعة وهما يرسمان من علامات الصليب أكثر مما لوكان الشيطان نفسه في أثرهما .

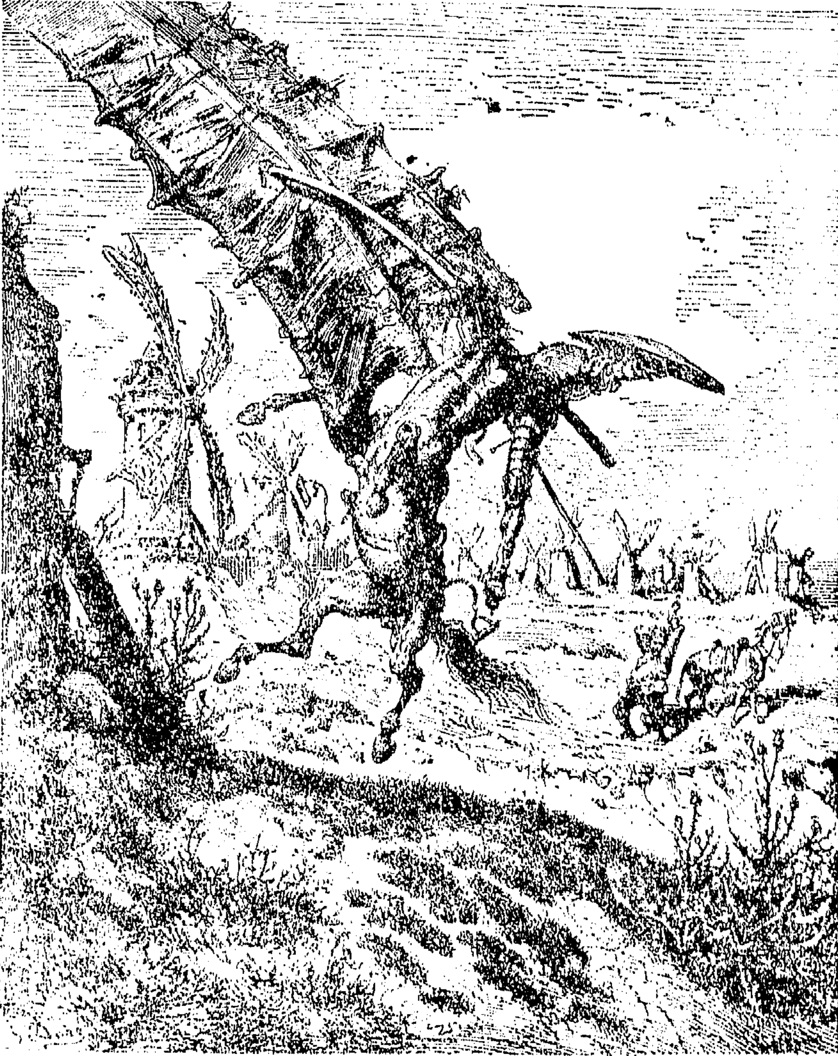
أما دون كيخوته فقد ذهب ، كما رأينا ، للتحدث مع سيدة العربة ، فقال لها :

ـ إن جمالك ، يا سيدتي ، يستطيع أن يعمل في نفسه مايهواه ، لأن وقاحة من سبوك ترقد الآن طريحة الأرض ، وقد جندلته هذه الذراع المخيفة . وحتى لا تتعبي نفسك بالاستفهام عن اسم من أنقذك ، أقول إن اسمي دون كيخوته دلامنتشا ، الفارس الجوال ، وأسير جمال العديمة النظير السيدة دلثنيا دل توبوسو ، وثمناً للنعمة التي تلقيتها مني لا أطلب منك غير شيء واحد : هو أن تعودي الى توبوسو وتمثلي باسمي أمام تلك السيدة ، وتروي لها ما فعلته من أجل رد الحرية إليك .

وكل ما قاله دون كيخوته كان يسمعه أحد حملة السلاح المرافقين للعربة ، وكان بشكونشياً ، فلما رأى دون كيخوته يحول بين العربة وبين السير زاعماً أن يجعلها تعود الى توبوسو ، اقترب من دون كيخوته وأمسك برمحه وتحدث إليه قائلاً بلهجة لم تكن اسبانية ولا بشكونشية :

---

(١) عبارة بمعنى همز بغله بركبتيه (لأنه بوصفه راهباً لم يكن في رجليه مهماز) ليسرع في الركض .



الفصل الثامن : دون كيخوته يصارع مراوح الطواحين
لما تخيلها مرَدة

ـ اذهب أيها الفارس ، قبح الله سيرك ، قسماً بالله الذي خلقني اذا لم تدع العربة لكان موتك مؤكداً تأكيداً أني من البشكونش!

ففهم دون كيخوته جيداً ماقال ، وأجابه بهدوء عجيب :

ـ لو كنت فارساً ، وأنت لست كذلك ، لكنت عاقبت وقاحتك وتبجحك ، أيها المخلوق الحقير!

فأجابه البشكونشي قائلاً :

ـ أنا لست فارساً ، أنا ؟ قسماً بالله أنك كاذب برىء من المسيحية! لو مددت الرمح واستللت السيف لرأيت الى الماء قطك سريعاً يذهب . بشكونشي على الأرض ، نبيل في البحر ، نبيل عند الشيطان ، وسترى كذبك إذا نطقت بكلمة أخرى .

فأجاب دون كيخوته قائلاً : سنرى! ثم ألقى برمحه على الأرض واستل سيفه واتخذ لأمته ووثب بجنون على البشكونشي وهو مصمم على أن يقضي على حياته .

ولما رآه قادماً كان البشكونشي يود لو نزل من فوق بغله لأنه دابة مأجورة لم يكن في وسعه الاعتماد عليها ، لكن لم يكن لديه من وقت إلا أن يستل سيفه ، وتصادف أن كان آنذاك بالقرب من العربة فانتزع منها وسادة جعل منها ترساً . وسرعان ماانقض كل منهما على الآخر وكأنهما كانا خصمين لدودين . وود الحاضرون لو فصلوا بينهما ، لكنهم لم يستطيعوا شيئاً ، لأن البشكونشي أقسم بلهجته الخسيسة إن لم يتركوا المعركة تأخذ مجراها لقتل بنفسه سيدته وكل من يعترض سبيله في ذلك ، فأشارت سيدة العربة ، مدهوشة فزعة مما ترى ، الى السائق بأن يميل قليلاً ، ومن مسافة أنشأت تراقب هذا المشهد الرهيب ، وقد ضرب البشكونشي في اندفاعه كتف دون كيخوته أعلى الترس ضربة لولا الترس لشجه السيف حتى الخاصرة . فلما أحس دون كيخوته بوطء هذه الضربة الخارقة صاح بأعلى صوته قائلاً :

ـ أي سيدة نفسي ، دلثنيا ، زهرة الجمال ، أعيني فارسك الذي وقع في هذا المأزق الحرج وهو بسبيل إرضاء كرم قبلك!

قال هذه الكلمات وسل سيفه والتأم وهاجم البشكونشي ـ كل هذا في لحظة واحدة ، ثم وثب وهو عازم على المخاطرة بكل شيء في سبيل ضربة واحدة قاضية . فلما شاهده البشكونشي قادماً للالتحام به وأدرك من ملامحه عنف هجمته ، قرر أن يفعل مافعل دون كيخوته . فانتظره بثبات متدرعاً بوسادته ، لكن دون أن يستطيع تحريك بغله ولا توجيهه ، وكان البغل قد أنهكه التعب ولم يتعود على مثل هذه الألاعيب الصبيانية فلم يرد أن يتقدم

خطوة أو يتأخر . وكما قلنا ، وثب دون كيخوته شاهراً سيفه على البشكونشي الحذر ، طمعاً في أن يشقه الى نصفين ، وانتظره البشكونشي كذلك شاهراً سيفه محتمياً بالوسادة . وانتظر النظارة المروعون بجزع لهيف نتائج الضربات الرهيبة التي هدد كل بها . وراحت سيدة العربة والنسوة اللواتي كن معها ينذرن آلاف النذور لسائر القديسين في الجنة وآلاف الشموع لكل هياكل الكنائس في اسبانيا ، من أجل أن ينقذ الله حامل سلاحهم وينقذهن من الخطر الداهم الذي حاق بالجميع . لكن آفة هذا كله هي أن المؤلف عند هذا الموضع ترك المعركة غامضة معلقة ، معتذراً بأنه لم يجد شيئاً مكتوباً يتصل بأعمال دون كيخوته المجيدة أكثر مما رواه ، صحيح أن المؤلف الثاني لهذا الكتاب لم يشأ اعتقاد أن تاريخاً عجيباً كهذا قد طواه النسيان ، وأن أذكياء المنتشا كانوا من قلة الرغبة في الاستطلاع بحيث لم يحتفظوا في دور محفوظاتهم أو مكتباتهم ببعض المخطوطات التي تتناول هذا الفارس الذي سار ذكره في الآفاق . ولهذا ، ووفقاً لهذا الافتراض ، لم ييأس أبداً من أن يعثر على خاتمة هذه الحادثة الشائقة . وها هوذا بفضل من رب السماء وجدها على هذا النحو الذي سيرويه في القسم الثاني من هذا الكتاب(١) .

(١) ليفهم القارئ هذه الكلمات الأخيرة ، والكلمات الأولى في الفصل التالي ، عليه أن يذكر أن عند هذا الموضع ينتهي القسم الأول من الأقسام الأربعة التي قسم اليها ثرفانتس ما نسميه اليوم باسم «القسم الأول من دون كيخوته» الذي ظهر سنة ١٦٠٥ . لكن هذا التقسيم الرباعي للقسم الأول قد عدل عنه المؤلف حينما نشر القسم الثاني من الكتاب كله في سنة ١٦١٥ ، وأصبح الكتاب مقسماً الى فصول على النحو الذي تراه الآن .

الفصل التاسع

في خاتمة المعركة الرهيبة التي نشبت بين الفُتُوَّة[1] البشكونشي وبين الشجاع المَنْتشاوي

تركنا ، في القسم الأول من هذه القصة ، الشجاع البشكونشي والشهير دون كيخوته وسيفاهما مسلولان مشهوران ، على أهبة الضرب ضربتين غاضبتين بحد السيف ، بحيث لو طعن كل منهما في الصميم لشق الآخر من أعلى الى أسفل الى نصفين كالرمانة . لكنا رأينا ، في اللحظة الحرجة ، أن هذه القصة اللذيذة قد بترت عند هذا الموضع وصارت معلقة في الهواء ، دون أن يدلنا المؤلف أين يمكن أن نجد ختامها . فاستوقد هذا الأمر غضبي ، لأن اللذة التي ظفرت بها من قراءة هذه القطعة اليسيرة تحولت الى مضايقة ، حينما فكرت في قلة الأمل في العثور على مابدا لي ناقصاً في هذه القصة الشائقة . لكن بدا لي من المستحيل حقاً ، ومن غير المألوف أبداً ، ألا يظفر مثل هذا الفارس الطيب بحكيم يحتسب لنفسه العناية بكتابة أفعاله المجيدة التي لم يسمع بمثلها في البلاد ، فهذا أمر لم يقع أبداً لواحدٍ من أولئك الفرسان الجوالة « الذين يقول عنهم الناس إنهم يذهبون سعياً وراء المغامرات[2] » ، لأن كل واحد منهم قد عين خصيصاً لهذا الغرض حكيماً أو حكيمين لا يكتفيان بكتابة أعمالهم وفعالهم ، بل يسجلان أيضاً أدق دقائق أفكارهم حتى الصبيانية منها ، مهما خبأتها الضمائر ، وهذا الفارس الكريم لا يستحق الشقاء الى هذا الحد فيحرم مما لم يحرم منه پلاتير وأمثاله ، لهذا لم أقوَ أبداً على اعتقاد أن تاريخاً ظريفاً كهذا قد ظل ناقصاً مبتوراً ، وأرجعت الذنب في هذا الى خبث الزمان الذي يلتهم كل شيء ، مفترضاً أنه خبأه إن صحّ أنه لم يقض عليه . وكذلك قلت لنفسي ، مادام يوجد بين الكتب التي اقتناها بطلنا هذا كتب حديثة مثل « دواء الغيرة » و« حوريات هينارس » ، فإن تاريخه لا يمكن أن يكون قديماً ، وإذا لم يكن كتب

---

(١) مصدر بمعنى الصفة .

(٢) مابين الهلالين بيتان من الشعر في الأصل ، من التفاهة بحيث لا يحتاجان الى أن يترجما نظماً .

فهو لابد موجود في ذاكرة أهل قريته والنواحي المجاورة . وهذا التصور بلبلني وملأني رغبة حارة في أن أعرف كل حياة وكرامات مواطننا الاسباني الشهير دون كيخوته دلامنتشا ، نور الفروسية المنتشاوية ومرآتها ، وأول من امتهن حرفة الأسلحة الجوالة في أيام عصرنا العصيبة ، وأول من أخذ على عاتقه مهمة رد الاهانات وإغاثة الأيامي وحماية الآنسات ، أولئك اللواتي يغدن بسياطهن على أفراسهنّ المزركشة عبر الجبال والأدوية حاملات عبء بكارتهن بغير اكتراث ، فلو أن فارساً خسيساً أو شريراً مسلحاً أو مارداً جباراً لم يكرههن على البغاء ، لوجد من هؤلاء الآنسات ، في الأزمنة الخالية ، من تذهب بعد ثمانين عاماً الى القبر لم تنم خلالها ليلة واحدة تحت سقف بيتها ، تذهب الى القبر وهي عذراء كأمها التي ولدتها! ولهذا أقول إن صاحبنا دون كيخوته ، من هذه الناحية ومن نواح أخرى ، خليق باطراء دائم يبقى ذكره أبداً وأنا أيضاً خليق بألا أحرم من هذا الإطراء نفسه ، من أجل ماتحملته من مشقة وبذلته من جهد مثابر للعثور على خاتمة هذه القصة . بيد أني أعلم جيداً أنه لولا معاونة السماء والحظ والبخت لي في هذا ، لبقي العالم محروماً من المتعة التي يمكن أن يتذوقها خلال ساعتين تقريباً من يحرص على قراءتها . وها أنذا كيف اكتشفتها :

كنت ذات يوم في درب القناة في طليطلة ، فشاهدت صبياً أتى تاجر أقمشة حريرية ليبيعه كراسات قديمة . وأنا شديد الولع بالقراءة ، وحتى بقراءة قصاصات الورق التي يقذف بها في الشارع ، فدفعني هذا الميل الطبيعي الى تناول احدى الكراسات التي كان الصبي يعرضها للبيع ، فوجدتها مكتوبة بحروف عربية ، ولما كنت لا أعرف قراءتها وإن استطعت تمييز ما هي ، ففكرت فيما إذا كنت أستطيع العثور على عربي[١] متنصر أصبح من الأعاجم[٢] (= الأسبان) يمكن أن يقرأها لي ولم أجد مشقة في العثور على هذا الترجمان ، لأني لو بحثت عن مترجم من لغة أقدس وأقدم لأمكنني العثور عليه أيضاً ، وأخيراً ساق لي القدر مترجماً أعربت له عن رغبتي وناولته الكراسة بين يديه ، ففتحها في الوسط ، ولم يكد يقرأ منها بضعة أسطر حتى استغرق في الضحك . فسألته السبب في هذا الضحك فقال إنه يضحك من حاشية وضعت على هامش هذا الكتاب ، فالتمست منه أن يقول لي مافيها ، فقال وهو لا يزال يضحك :

---

(١) عربي متنصر : morisco ، وهو المسلم الذي بقي في دار الحرب بعد جلاء المسلمين ، ثم تنصر بالقوة القاهرة للسلطان المسيحي .

(٢) أصبح من الأعاجم = aljamisdo ، وهي من الكلمة aljamin = الأعجمية ، وكان العرب في اسبانيا يطلقون ذلك على اللغة الاسبانية ، والكلمة اليوم تطلق على كتب المتنصرة الذين ألفوا كتبهم باللغة الاسبانية ، ولكن كتبوها بحروف عربية .

ـ هذا هو المكتوب في الهامش : «دلثنيا دل توبوسو هذه ، التي يرد ذكرها كثيراً في هذه القصة ، يقال إنها تملك ، لتمليح الخنازير ، أحسن يد في إقليم المنتشا كلّه»

فلما سمعته يقول «دلثنيا دل توبوسو» بقيت حيران مدهوشاً ، إذ تصورت في التو أن هذه الأوراق تتضمن تاريخ دون كيخوته . وتحت تأثير هذه الفكرة حثثته على قراءة العنوان ، فقام هذا العربي المتنصر يترجم من العربية الى الاسبانية قائلاً إن العنوان معناه هكذا : «تاريخ دون كيخوته دلامنتشا ، تأليف سيدي حامد بن الأيلي[1] ، المؤرخ العربي» . فتذرعت بالكثير من الحذر حتى أخفي ماأحسست به من غبطة لما أن قرع سمعي عنوان الكتاب . فانتزعته من بين يدي بائع الحرير ، واشتريت من الغلام كل هذه الكراسات القديمة بنصف ريال . ولوكان من الفطنة بحيث يحزر رغبتي فيها ، لكان في وسعه أن يرجو منها ثمناً أكثر من ستة ريالات .

وسرعان ما ابتعدت ومعي العربي المتنصر ، واقتدته الى رواق الكاتدرائية ودعوته الى أن يترجم هذه الكراسات كلها الى الاسبانية ، أو على الأقل ما يتعلق منها بدون كيخوته دون أن يضيف أو ينقص شيئاً ، ونقدته مقدماً الثمن الذي اقتضاه ، وكان هذا الثمن عبارة عن خمسين رطلاً من الزبيب وأربع كيلات من الدقيق ، ووعدني بترجمتها بأسرع وآمن ما يستطيع . لكن لهفتي لاستنجاز العمل وحرصي ألا تفلت هذه اللقطة النفسية من يدي ، جعلتاني أقتاد هذا العربي المنتصر الى بيتي ، فأتم ترجمة هذا التاريخ كله على النحو الذي أوردناه هنا ، واستغرق في هذه الترجمة ستة أسابيع أو يزيد قليلاً .

في الكراسة الأولى صورت معركة دون كيخوته مع البشكونشي تصويراً طبيعياً ، وكلاهما في الموقف الذي تركتهما عليه القصة : السيفان مشهوران . وأحدهما مغطى بلأمته المروعة ، والآخر بوسادته . وكان بغل البشكوتشي يلفت النظر فيدرك في الحال أنه دابة للكراء من مسافة[2] واسعة . وعند قدمي البشكونشي بطاقة ورد فيها : «دون سنشودي أثبيتيا» ، ولا

---

(١) في النص cide hamete benengeli ولا صعوبة في الكلمتين الأوليين : «سيدي حامد» وإنما في الكلمة الأخير benengeli وخير تفسير لها ماقاله المستشرق خوسيه أنطونيو كونده وأورده كلمنثين في شرحه وهو أن الكلمة معناها «ابن الأيل» وهي ترجمة عربية لاسم ثرفانتس نفسه إذ cervantes من ciervo = أيل ، وعل ، ولابد أن يكون ثرفانتس قد تعلم بضع كلمات عربية أثناء إقامته في مدينة الجزائر أسيراً طوال خمس سنوات . أما تفسير ليوبولدو أجيلات أي ينجواس (في «السفر التذكاري لميننديث اي بلايو» ، ج٢ ص٢١) وهو أن هذا الاسم إنما أخذ من «برنجاني» نسبة الى الباذنجاني ، وأصله العربي إذن هو «باذنجاني» ، وأن هذا يتصل بالنكتة التي تقال بتلقيب أهل طليطلة بـ«البرنجانيين» كما ذكر ثرفانتس نفسه ذلك في الفصل ٢٧ من القسم الثاني من «دون كيخوته» ـ نقول إن هذا تفسير متكلف مبتذل لا مبرر له .

(٢) في النص حرفياً : من مسافة مرمى القوس .

شك أن هذا هو اسمه ، وعند حوافر روثينانته بطاقة أخرى فيها : «دون كيخوته» ، وقد رسم روثينانته رسماً رائعاً : طويلاً مشدوداً ، ضامراًنحيلاً ، ذا قردودة بارزة وجسم مسلول ، وكل هذا شاهد صادق على مناسبة اسم روثينانة له وانطباقه عليه كل الانطباق . وبالقرب منه وقف سنشو پنثا ممسكاً حماره بخطامه ، وعند قدمه ورد في بطاقة أخرى : «سنشو ثنكاس[١]» . وقد جاءه هذا الاسم ، كما يدل الرسم ، من كونه عظيم البطن قصير القامة دقيق الساقين منفرج القدمين . ولابد أن يكون هذا هو الأصل يسمى بالواحد ، والأخرى بالآخر .

وثمة تفاصيل أخرى يمكن ملاحظتها ، لكنها ليست ذات شأن يذكر ولا تضيف شيئاً الى صدق هذه القصة ، ولا قصة رديئة مادامت صادقة . والاعتراض الذي يمكن أن يوجه من حيث صدق قصتنا هذه هو أن مؤلفها من العرب ، والكذب شائع جداً بينهم . لكن عداوتهم الشديدة لنا تجعلنا بالأحرى نتهمه بأنه قصر في قول الحق ، لأنه بالغ وتجاوز الحد . هذا رأيي : لأنه حين يستطيع بل يجب عليه أن يطنب في الثناء على هذا الفارس الجواد ، نراه يكاد يخفيه عمداً وهذا أمر ينطوي على سوء عمل وسوء نية معاً ، لأن المؤرخ يجب أن يكون أميناً صادقاً لا يلتفت لفت هوى أو عصبية ولا يحيد به الغرض أو الخوف ، الحقد أو الرضا عن طريق الحق ، والحق أمه التاريخ ، والتاريخ منافس الزمان ومستودع الأعمال الانسانية وشاهد الماضي ، ومثال الحاضر ، والمنذر بالمستقبل . وفي تاريخنا هذا سيجد القارىء كل ما يمكن أن يقدمه أشوق التواريخ ، وإذا كان ينقصه شيء حسن ، فاعتقادي أنا أن الغلطة في ذلك ليست غلطة الموضوع ، بل غلطة هذا المؤلف الكلب[٢] وبالجملة ، فإن القسم الثاني ، وفقاً للترجمة ، يبدأ هكذا :

كان منظر السيفين المسلولين المشهورين في أيدي المحاربين البطلين الغاضبين منظر من يهدد السماء والأرض والهاوية ، يشهد بهذا تصميمها وسيماؤهما . وأول من بادر بالنزال كان البشكونشي الغضبي المزاج ، فضرب ضربة غاضبة عنيفة كانت كافية وحدها لإنهاء هذه المعركة الرهيبة وسائر مغامرات صاحبنا الفارس ، لولا أن السيف التوى في يده وهو يهوي به عليه . لكن طالعه السعيد الذي ادخره لأعمال أعظم شاء أن يلوي سيف خصمه . فعلى الرغم من أنه ضربه على كتفه الأيسر ، فإنه لم يكن له من أثر إلا أن ينزع سلاحه في هذا الجانب حاملاً مع ما انتزعه نصف البصلة ونصف الأذن ، ووقع كل هذا على الأرض محدثاً ضجة مروعة .

---

(١) المعنى الحرفي لكلمة zancas هو : قوائم بنات الماء (أرجل أبي قردان وما أشبهه) .

(٢) يشير ثرفانتس هنا الى الشتيمة التي كان يتبادلها المسلمون والنصارى في أسبانيا في تلك العهود .

ياالله! من ذا يستطيع الآن أن يصف بهدوء مااستولي على قلب صاحبنا المنتشاوي من غضب شديد ، وقد شاهد ما جرى له! لا نستطيع أن نقول أكثر من أنه اعتدل من جديد في ركابه وأمسك سيفه بيديه وانقض على البشكونشي وأهوى على وسادته وأم رأسه ، حتى إن البشكونشي بدأ ينزف من أنفه وفمه وأذنيه ، على الرغم مما تدرع به وكأن جبلاً انقض عليه ، وبدأ يتهاوى من البغل الى أسفله ، وكاد أن يسقط على الأرض لولا أنه أمسك بذراعيه عنق البغل . ولكن قدميه زلاّ عن الركاب وسرعان ماانبسط ذراعه ، وروع البغل من هذه الضربة المخيفة فانطلق يركض في السهل وبعد وثبات ثلاث أو أربع ألقى براكبه على الأرض .

ووقف دون كيخوته يتأمله رابط الجأش ، ولم يكد يراه يسقط حتى نزل من فرسه وعدا قليلاً ووضع سن السيف بين عينيه وصاح فيه أن يستسلم وإلا حزّ بالسيف رأسه ، وكان البشكونشي من الذهول بحيث لم يقو على النطق بكلمة واحدة ، وكان أمره مقضياً ، لأن الغضب أعمى دون كيخوته ، لولا أن هرعت سيدات العربة وكن قد شاهدن المعركة حتى ذلك الوقت دون اهتمام ، ورحن يستعطفن دون كيخوته ليتفضل بالإبقاء على حياة حامل سلاحهن . فأجابهن دون كيخوته بجد واستعلاء قائلاً :

ـ بكل تأكيد ياسيداتي الجميلات ، أود أن ألبي رجاءكن ، ولكن بشرط الترتيب التالي : وهو أن يعدني هذا الفارس بالذهاب الى قرية توبوسو وأن يمثل بالنيابة عني أمام دلثنيا العديمة النظير ، لتتصرف في أمره كما تشاء .

فوعدنه ما طلب وهن مرتجفات جازعات ، دون أن يستفهمن عن معنى طلبه ، بل دون أن يستَنْبِئْنَهُ من تكون دلثنيا هذه ، أعني وعدنه أن ينفذ حامل سلاحهن بالدقة والتمام كل ما أمر به دون كيخوته .

فقال دون كيخوته : « بحق هذه الكلمات ، لن أمسه بأذى بعد ، وإن كان في الواقع يستحق الكثير » .

الفصل العاشر

في الحوار الشائق الذي جرى بين دون كيخوته وسنشو پنثا حاملِ سلاحه

كان سنشو پنثا قد نهض بعد أن ساء إليه خدم الراهبين ، ووقف يشهد المعركة الناشبة بين سيده دون كيخوته والآخر ، وهو يدعو الله أن يتم النصر لسيده حتى يكسب من ورائه جزيرة من الجزر ينصبه حاكماً عليها حسبما وعده عدة صادقة صريحة . فلما رأى المعركة قد انتهت ورأى سيده يهم بالركوب على روثينانته ، هرع ليمسك له الركاب ، لكن قبل أن يدعه يركب جثا على ركبته أمامه وتناول يده وقبلها وقال :

ـ فليتفضل سيدي ومولاي دون كيخوته ويهبني حكم الجزيرة التي كسبها في هذه المعركة الهائلة . فمهما يكن من اتساع هذه الجزيرة فإني آنس في نفسي القدرة على حكمها ولا أقل في هذا أبداً عن أي شخص مارس حكم الجزائر في هذا العالم .

فأجابه دون كيخوته قائلاً :

ـ انتبه ياأخي سنشو ، فهذه المغامرة ومايشبهها ليست مغامرة جزائر ، بل حملات في الطرق العامة ، لا يكسب المرء من ورائها إلا أن يخرج منها مكسور الرأس أو مقطوع الأذن ، لكن صبراً! فستعترضنا مغامرات أخرى أستطيع عن طريقها أن أنصبك لا حاكماً فحسب ، بل خيراً من هذا .

فنهض سنشو وقضاه حق الشكر على إنعامه ، وبعد أن عاد قبل دون كيخوته وزرده ، أعانه على ركوب روثينانته ، ثم قفز على حماره ، وراح يتبع سيده وهو يركض بسرعة ، دون أن يودع سيدات العربة ، حتى دخل غابة كانت قريبة من هناك .

وتبعه سنشو على دابته وهي تُكدف ، ولكن روثينانته كانت وافرة النشاط حتى إنه رأى نفسه في المؤخرة فصاح يدعو سيده للإنتظار والتمهل . فجذب دون كيخوته عنان فرسه وتوقف الى أن لحق به حامل سلاحه البطيء . فقال له هذا :

ـ سيدي! يبدو لي من الصواب أن نلجأ الى إحدى الكنائس ، لأن أولئك الذين قاتلتهم قد أصابهم من سوء الحال ماقد يجعل أمرهم يرفع الى «الأخوة المقدسة»(١) فتمسك بمخنقينا ، ولو حدث هذا ، لنزفنا العرق والدماء قبل أن يقدر لنا الخروج من السجن .

ـ اخرس! ، بهذا أجابه دون كيخوته . قل لي إذن أين رأيت أو قرأت أن فارساً جوالاً قد قدم للمحاكمة ، مهما ارتكب من جرائم قتل ؟

فأجاب سنشو قائلاً : أنا لا أدري شيئاً في مسائل «الختل»(٢) ، ولم أحاوله في أحد من الناس طول عمري . لكنني أعلم حق العلم أن الذين يتقاتلون في وسط البراري يوكل أمرهم إلى «الأخوة المقدسة» ، ولا شأن لي بهذا أبداً .

فقال دون كيخوته : يا صديقي لا تهتم! وسأخلصك ، لو اقتضى الأمر ، من بين أيدي بني فلسطين ، بالأحرى من بين أيدي «الأخوة المقدسة» . لكن قل لي بربك هل شاهدت على وجه الأرض فارساً أشجع وأقوى مني ؟ وهل قرأت في التواريخ أنه يوجد من هو أجرأ مني في الهجوم ، وأشد عزماً مني في الدفاع ، وأمهر في تسديد الضربات ، وأسرع في جندلة الخصم ؟

ـ الحق أني لم أقرأ أي تاريخ ، بهذا أجاب سنشو ، لأني لا أعرف القراءة ولا الكتابة . لكني أستطيع أن أراهن أني لم أخدم في حياتي سيداً أشد جسارة من جنابكم ، وأسأل الله ألا يجعل جزاء هذه الجسارة ماقلت . أما ماألتمسه من مولاي الآن فهو أن يضمد جرحه لأن الدم يسيل غزيراً من هذه الأذن . وعندي في الخرج بعض الشاش والمرهم الأبيض .

فأجاب دون كيخوته قائلاً :

ـ كل هذا كان سيكون بغير فائدة ، لو أنني كنت تذكرت أن أحضر زجاجة من بلسم فييرابراس ، إذ كانت تكفي قطرة منه لتوفر علينا الوقت والأدوية . فسأله سنشو : أية زجاجة وأي بلسم هذا ؟

فأجابه دون كيخوته : هذابلسم أعرف طريقة تحضيره عن ظهر قلب ، بفضله لا يخاف المرء الموت من أي جرح . ولهذا فإذا حضرته وأعطيته لك لتحتفظ به ، فخير شيء تفعله إذا

---

(١) الأخوة المقدسة santa hermandad سلطة لها محاكمها وشرطتها ، وتختص باقتفاء آثار المجرمين ومعاقبتهم . وكان في اسبانيا نوعان منها : «الأخوة القديمة» في طليطلة ، «والأخوة الجديدة العامة» وقد أنشأها الملوك الكاثوليك (فرديناند وايزابلا) سنة ١٤٧٦ لتعقب ومعاقبة الجرائم التي ترتكب في الأماكن القفرة .

(٢) كذا سمع سنشو كلمة «قتل» ، وفي الأصل : التبس عليه اللفظ homicidio باللفظ omecillo ، والأول بمعنى قتل إنسان ، والثاني اختلف الشرائح في تأويله : فإن كلمنثين يقول أن كليهما بمعنى واحد ، بينما كالدرون يرى أنها بمعنى : حقد ، بغض ، فاستعملنا نحن كلمة «ختل» للدلالة على المعنى العام المقصود ولتكون قريبة من أحداث الالتباس بينها وبين «قتل» .

وجدتهم قد شقوني الى نصفين في معركة من المعارك ـ وهو أمر كثيراً جداً مايقع لنا ـ هو أن تلتقط بعناية الجزء من جسمي الذي وقع على الأرض ، ثم بكل احتياط ، وقبل أن يتجمد الدم ، على النصف الآخر الذي بقي على السرج ، على أن تحرص كل الحرص على أن تُحكم وضعه وتعشيقه في النصف الآخر ، ثم تعطيني جرعتين فقط من البلسم ، هنالك تراني أصح وأنضر من التفاحة .

فقال سنشو : إذا كان الأمر كذلك ، فإني متنازل منذ الآن عن حكومة الجزيرة الموعودة ولاأريد ثمناً لخدماتي الجليلة العديدة إلا أن يتفضل مولاي فيعطيني طريقة تحضير هذا الشراب العجيب . لأني أتخيل أن الأوقية منه في أي مكان تساوي على الأقل ريالين ، وهذا كل ماأحتاج إليه لأقضي حياتي هذه في راحة ورفاهية . لكن بقي أن أعرف ماإذا كانت طريقة تحضيره تكلف كثيراً .

فأجابه دون كيخوته : بأقل من ثلاثة ريالات يمكن عمل ثلاثة أكيال[1] .

فصاح سنشو : يا لله! وماذا ينتظر مولاي لتحضيره وتعليمي كيفية ذلك ؟!

فأجاب دون كيخوته : صبراً ياعزيزي! فسأعلمك أسراراً مدهشة أكبر من ذلك ، وأتحفك بنعمٍ سوابغ ، لكن لنضمد الآن أذني ، لأنها تؤلمني أكثر مماأود .

فأخرج سنشو من الخرج شاشاً ومرهماً . لكن حين تبيّن لدون كيخوته أن خوذته قد كسرت كاد أن يفقد صوابه . فوضع يده على سيفه ورفع عينيه للسماء وصاح :

ـ أقسم بخالق الأشياء كلها ، وبحق الأناجيل الأربعة المقدسة ، بنصها الكامل[2] ، أن أعيش عيشة شبيهة بعيشة مركيز منتوا الكبير ، لما أن أقسم بالانتقام لموت ابن أخيه ڤالدوڤينوس : وذلك بألا يأكل خبزاً على مائدة ، ولا يقرب إمرأته[3] ، ويمتنع من الأشياء الأخرى ، التي وإن كنت لا أذكرها الآن فإني أضمنها قسمي هذا ، حتى أنتقم انتقاماً كاملاً ممن أهانني هذه الاهانة .

فلما سمعه سنشو ، قال : لينتبه مولاى السيد دون كيخوته الى أنه إذا كان الفارس المقهور قد نفذ الأمر الذي تلقاه بالمثول أمام السيدة دلثنيا دل توبوسو ، فإنه يكون أوفى

---

(١) كيل azumbre : مكيال للسوائل يسع ٢ لتر و١٦ ميليلتر .

(٢) بنصها الكامل : كان القسم على الأناجيل يتم بوضع اليد عليها . لكن حينما لا تكون في متناول اليد جرت العادة بأن يتم القسم شفاهاً مع الاشارة الى نصها الكامل ، فتضاف تلك العبارة : « حيث توجد مكتوبة بنصها الأوسع » . الأصل في هذه العبارة هو أن القسم كان يجري في المجامع الدينيةوالجامعات الخ على ورقتين أو أربع إطارها مزوق تزويقاً جميلاً ، وكل منها تتضمن الأربع أو الخمس آيات الأولى من أحد الأناجيل .

(٣) يرى مارين أن هذه الجزئية غير مأخوذة من رومانثة مركيز منتوا ، بل من « رومانثة السيد » (رقم ٦) .



الفصل العاشر : دون كيخوته مع رفيقه سنشو پنثا
يتحاوران في الطريق

بعهده وصار بريء الساحة ، ولا يستحق أدنى عقاب إلا إذا ارتكب جرماً آخر .

فقال دون كيخوته : تكلمت فأصبت شاكلة الحق! لهذا أفسخ يميني فيما يتصل بالانتقام من الجاني ، لكني أستأنفه وأكرره وأوكده من جديد فيما يتصل بالعيشة التي ذكرتها ، حتى أستولي بالقوة من أحد الفرسان على خوذة جيدة جميلة كهذه . ولا تحسبن ياسنشو أن أتكلم دون أن أعني ماأقول ، لأني في هذا لست بغير قرين ، إذ هذا ما وقع تماماً فيما يتعلق بخوذة ممبرينو التي كلفت سكريبنته[1] ثمناً فادحاً .

فأجابه سنشو : إقذف بها الى الشيطان ، يامولاي ، هذه الأيمان التي تضر بالصحة بقدر ما يضطرب لها الضمير . وإلا فقل لي بربك ماذا نحن فاعلون لوتصادف أن تمضي عدة أيام دون أن نلتقي برجل مسلح على رأسه خوذة ؟ هل تنفذ هذا القسم رغم ما يجر إليه من متاعب ومضايقات مثل النوم بكامل الملبس وعدم المبيت في مكان آهل وآلاف من ألوان الزهد والتقشف الأخرى حسبما ورد في قسم هذا العجوز المجنون ، مركيز منتوا الذي يريد مولاي الآن أن يؤيده وينفذه ؟ وليكن في علمك أنه لا يمر في هذه الدروب رجال مسلحون ، بل بغّالون وسائقو عربات ، وهؤلاء لا يلبسون خوذات ، بل ولم يسمعوا باسمها طوال حياتهم .

فقال دون كيخوته : أنت في هذا مخدوع ، فلن تمضي ساعتان على السير في هذه الدروب المتقاطعة حتى تجد من الرجال المسلحين أكثر ممن قدموا الى قلعة البراق[2] لسبي أنجليكا الجميلة .

فأجابه سنشو : على رسلك ، وليكن الأمر هكذا . ولعل الله يجري الأمور على ما نهوى ، ويأتي الوقت الذي أظفر فيه بهذه الجزيرة التي كلفتني غالياً ، ولو مُتّ من الفرح!

فقال دون كيخوته : قلت لك ياسنشو لا تعذب نفسك بالتفكير في هذا الأمر . فحتى لو لم نجد جزراً ، فعندنا مملكة الدينمارك أو مملكة سوبراديا[3] وكلتاهما تناسبك مناسبة الخاتم للإصبع ، خصوصاً وهي على أرض صلبة ثابته فتكون لك أنسب . لكن لندع كل شيء لأوانه ، وانظر في هذا الخرج لعل فيه طعاماً ، حتى نستطيع بعد ذلك أن نتابع السير سعياً وراء قصر يمكن أن ننام فيه هذه الليلة ونحضر البلسم الذي حدثتك عنه ، لأني أقسم بالله أن أذني تؤلمني كثيراً .

---

(١) راجع « أورلندو الغاضب » ف ١٨ . ولكن دون كيخوته يغلط هنا ، فليس سكريبنته هو الذي أخذ خوذة ممبرينو ، بل دردنيل دي إلمونته .

(٢) البراق albraca ، قصر صخري ورد ذكره في « أورلندو العاشق » تأليف بويردو ، وقد احتشد عليه أكثر من مليوني من الجنود في مساحة قدرها أربعمائة فرسخ ، وذلك لسبي أنجليكا الجميلة .

(٣) مملكة خيالية ورد ذكرها في قصة « أماديس الغالي » .

فقال سنشو : عندي هنا بصلة وقليل من الجبن ، وشوايا خبز قديمة ، وهذا ليس طعاماً يليق بفارس شجاع مثل مولاي .

فأجابه دون كيخوته : كم تسيء فهم الأمور! اعلم إذن ياسنشو أن مجد الفرسان الجوالة في كونهم لا يأكلون طوال شهر كامل ، وإذا أكلوا طعموا من أي شيء في متناول أيديهم . ولن يساورك في هذا أدنى شك لوأنك كنت قرأت من القصص بقدر ما قرأت . فبرغم وفرة ماقرأت منها لم أجد فيها أدنى ذكر لأكل الفرسان الجوالة ، اللهم إلا عرضاً وفي مآدب حافلة تقام لهم ، أما سائر الوقت فيعيشون من الهواء على الطّوى . لكن يجب ألا تفهم من هذا أنهم كانوا يقضون عمرهم دون طعام ولا إشباع لسائر الحاجيات الضرورية ، لأنهم كانوا بشراً مثلنا ، بل لأنهم كانوا يمضون معظم حياتهم في القفار والغابات ، وبغير طباخ طبعاً ، فإن وجباتهم العادية كانت تتألف من طعام خشن مثل الذي تقدمه لي الآن . ولهذا لا تحزن ياصديقي سنشو ، من أمر فيه مايجلب لي السرور ، ولا تحاول أن تجدد العالم ولا أن تحول الفروسية الجوالة عن طباعها .

فقال سنشو : أستميحك عذراً ، إذ لا أعرف القراءة ولا الكتابة ، كما قلت لمولاي ، ولهذا لاأعرف قواعد مهنة الفروسية . ولكن من الآن فصاعداً سأزود الخرج بكل أنواع الثمار الجافة من أجل سيدي الفارس ، أمّا لي أنا ، ولست فارساً ، فسأزوده بأشياء من ذوات الأجنحة أكثر دسماً .

فعاد دون كيخوته يقول : لاأقول إنه يتحتم على الفرسان الجوالة ألا يأكلوا إلا الثمار التي تحدثت عنها ، وإنماأقول إن مآكلهم المعتادة من هذه الثمار وبعض الأعشاب التي يصادفونها في طريقهم وسط الحقول والبراري ، وهذه الأعشاب يعرفونها ، وأناأيضاًأعرفها وأميزها مثلهم تماماً .

فأجاب سنشو : هذه ميزة كبيرة أن يستطيع المرء تمييز هذه الأعشاب ، لأني أتخيل أننا سنحتاج ذات يوم الى الانتفاع بهذا التمييز!

ثم أخرج من الخرج ماقال عنه إن فيه ، وراحا يأكلان معاً بهدوء وجميل صحبة . لكنهم سرعان ما أتموا أكلتهم هذه الجافة الهزيلة ، لرغبتهم في أن يجدوا مكاناً للمبيت تلك الليلة . وركبا دابتهما وأسرعا للوصول الى مكان مأهول قبل أن يوافي المساء . لكن غابت الشمس وغاب معها أملهما في أن يجدا ما يطلبان ، قرب بعض أكواخ رعاة الماعز ، فقررا قضاء الليل هناك . وبقدر ما تحزّن سنشو على عدم المبيت في منزل ، اغتبط سيده للنوم في الهواء الطلق إذ في كل مرة يقع له شيء من هذا كان يبدو له أنه ظفر بوثيقة تثبِّت مقامه في طريقة الفروسية الجوالة .

الفصل الحادي عشر

في المغامرة التي جرت بين دون كيخوته ورعاة الماعز

استقبل بطلنا من رعاة الماعز بالترحاب . ولما أن هيأ سنشو لروثينانته وحماره مبيتهما قدر المستطاع ، استروح واكتشف ، بواسطة الدخان الذي انبعث ، شرائح من لحم الماعز تُسلق في قدر على النار . فود لو استطاع أن يعرف في الحال ما إذا كانت ناضجة حتى يصبها من القدر في كرشه ، غير أن الرعاة أعفوه من مؤونة ذلك ، بأن استخرجوها هم من النار ثم فرشوا على الأرض أنطاعاً من جلد الضأن وهيأوا مائدتهم الريفية بنشاط واهتمام ، ودعوا الضيفين الغريبين الى مشاركتهم في الطعام وسط مظاهر الحفاوة وطيب الخاطر . وأقعى ستة منهم ، كانوا في الزريبة ، حول الانطاع بعد أن التمسوا من دون كيخوته ، بتحيات فطرية ، أن يتفضل بالجلوس على مدود من الخشب قلبوه ليستخدمه كرسياً . وجلس دون كيخوته ، وبقي سنشو واقفاً ليصب له الشراب في كأس لم تكن من البلور ، بل من القرن . فلما رآه سيده واقفاً قال له :

ـ لكي ترى ، يا سنشو ، ما تنطوي عليه الفروسية الجوالة من خير ، وأن أولئك الذين يشاركون فيها على أي نحو هم دائماً موضع التجلة والتكريم في كل الدنيا ، أريد أن تجلس هنا الى جانبي بصحبة هذه الزمرة الطيبة ، وتصبح أنت وأنا سواء ، مع أني سيدك ومولاك الطبيعي ، وأن تأكل من صَحْفتي وتشرب من كأسي ، وإذ يمكن أن يقال عن الفروسية الجوالة مايقال عن الحب من أنه يسوي بين الناس جميعاً .

ـ أستغفر الله! بهذا أجاب سنشو . لكنني أستطيع أن أقول لمولاي إنه مادمت أظفر بأكلة جيدة ، فأنا قانع ، واقفاً وحدي ، كأني جالس مع إمبراطور جلوس الند للند ، بل هذا عندي أفضل . بل إذا كان لي أن أصارح بالحقيقة كلها لقلت إني أفضل أن آكل زاويتي ، بغير ضغط ولا مراسم ، حتى لوكان بصلة على كسرة خبز ، على أن آكل ديوكاً رومية سمينة

على موائد الآخرين حيث اضطر الى المضغ بهدوء والشرب جرعة صغيرة بجرعة والمسح في كل لحظة ، وحيث لا أستطيع أن أسعل ولا أن أعطس حينما أريد ، ولا أستبيح لنفسي أي شيء مما تبيحه الوحدة والحرية . وإذن فهذه اللفتات التكريمية التي يريد مولاي أن يغدقها عليّ بوصفي عضواً في الفروسية الجوالة ، أستعطفه من فضله ومنّه أن يحيلها الى أشياء أخرى أجدى لي وأنفع ، فهذا التكريم ، وإن شرفني قبوله ، أنا متنازل عنه من هذه الساعة حتى قيام الساعة .

فقال دون كيخوته : ورغم هذا كله يجب أن تجلس ، لأن من تواضع رفعه الله .

ثم أمسك به من ذراعه وأجلسه بالقوة الى جواره .

ولم يفهم رعاة الماعز شيئاً من هذه الرطانة التي تبادلها الفارس الجوال مع حامل سلاحه ، ولم يفعلوا أكثر من أنهم صمتوا وأكلوا ونظروا الى ضيفهم وهما يلتهمان بشهية ولطف قطعاً كبيرة بقدر قبضات اليد . ولماانتهى أكل اللحم ، بسطوا على مفارش من الجلد كمية وافرة من ثمار البلوط الحلوة ، ووضعوا في الوسط قطعة من الجبن قاسية كأنها صنعت من الملاط ، وطوال هذا الوقت لم يكن القرن متبطلاً ، بل كان يدور عليهم بسرعة ،مرة مليئاً وأخرى فارغاً كأنه قادوس في ترس ساقية ذات قواديس ، حتى فرغت إحدى الخابيتين اللتين كانتا ظاهرتين هناك .

وبعد أن أشبع دون كيخوته بطنه حتى الامتلاء ، أخذ قبضة من ثمار البلوط في كفه وراح يتأملها بعناية وأنشأ يقول :

ـ ما أسعد العصر وما أهنأ القرون التي أطلق عليها الأوائل اسم العصر الذهبي ، لا لأن هذا المعدن ، الغالي القيمة في عصرنا الحديدي هذا ، كان من السهل الحصول عليه في ذلك العهد المحظوظ ، بل لأن الذين عاشوا فيه كانوا يجهلون هذين اللفظين : «لك»و «لي »! ففي ذلك العصر المقدس كانت الأشياء كلها مِلكاً مشاعاً للجميع . ولم يكن الذين يريدون الحصول على قوتهم العادي بحاجة الى جهد أكثر من أن يمدوا أكفهم ويقتطفوا غذاءهم من أغصان أشجار البلوط السامقة وهي تدعوهم بكل ترحاب الى مأدبة ثمارها العذبةالناضجة . وكانت العيون الصافية والأنهار السريعة تقدم لهم مياهاً دافقة رائقة حلوة ، وفي شقوق الصخور وأجواف الأشجار ، كان النحل المثابر يقيم جمهورياته ، ويقدم لليد التي تمتد إليه المحصول الوفير الذي جمعه من مجهوده اللذيذ ، دون أن ينتظر جزاءً ولا شكورا . وأشجار الفلين الضخمة كانت تتعرى بنفسها ، فضلاً وكرماً منها ، عن لحاءاتها التي راح الناس يغطون بها أكواخهم المرفوعة على أعمدة خشنة ليتحصنوا بها من قسوة

الإقليم فحسب . وحديدة المحراث الحادة لم تكن قد جرؤت بعد على أن تشق وتمزق أو أحد ، وفي كل ناحية من نواحي صدرها الخصب الفسيح ، كل ما يغذي ويشبع ويلذ أولادها الذين كانت تحملهم آنذاك . وكانت الراعيات البسيطات المرحات يغدُنّ من واد الى واد ومن رابية الى رابية ، عاريات الرؤوس معقوصات الشعور ، لايستر أجسامهن إلا ما يكفي لستر ماشاء الحياء ويشاء أبداً أن يستره ، ولم تكن زيناتهن من نوع ما يستخدم اليوم ، حيث يزوّق الحريري المعذّب ، بكل أنواع العذاب ، وينمّق بواسطة أرجوان صُور ، بل كانت أوراقاً معشقة من الأرقطيون واللبلاب ، كانت تبديهن على نحوٍ من الفخامة والزينة لعلّه لا يقل عما عليه سيدات القصور اليوم ببدائعهم الغربية المغرية التي أوحى بها إليهن حب استطلاعهن الفارغ . هنالك كانت خلجات النفس العاشقة تتبدى بلطافة وبساطة كما أحسسن بها ، دون أن يلجأن في سبيل إظهارها الى الحيل الكلامية والمداورات اللفظية المعسولة . ولم يكن ثم خداع ولا رياء ولا مداهنة تمتزج بالصراحة ونقاء الضمير . وكانت العدالة وحدها صاحبة الكلمة دون أن يأتي لتعكير صفائها صوت المحسوبية أو المنفعة الذي يخنقها اليوم ويعذبها . ولم يكن ناموس الهوى قد سيطر على نفوس القضاة ، إذ لم يكن ثمَّ أشخاص أو أشياء للتقاضي عليها أو بينها . وكانت الفتيات يغدنّ في صحبة البراءة والعفاف ، كما قلت آنفاً ، دون مرشد أو حارس ، ودون خوفٍ من أن تذلهن ألسنة وقحة أو نوايا خبيثة ، فإن سقطن سقطن بمحض إرادتهن . أما الآن في هذه العصور اللعينة فليس منهن واحدة بمأمن ومنجاة ، حتى لو حبست وأخفيت في تيه شبيه بتيه[1] أقريطش إذ من أضيق الشقوق يدخل الإغراء والغزل ، ومع الهواء يدخل طاعون الحب ، فتولى مبادىء الخير كلها فراراً . فلدرء هذه الآفة التي ازداد شرها على تطاول الأيام أنشئت طريقة الفرسان الجوالة لحماية الفتيات ووقاية الأيامى ومساعدة اليتامى وإغاثة الملهوفين . وأنا من أعضاء هذه الطريقة ، يأخوتي الرعاة ، وإني لأشكر لكم جميل لقائكم لي ولحامل سلاحي ، فلئن كان القانون الطبيعي يقضي على جميع ساكني المعمورة بمعاونة الفرسان الجوالة ، فإنه واجب عليّ وقد رأيت حسن ضيافتكم وكريم معاملتكم دون أن تكونوا عالمين بهذا القانون ، أن أرد جميلكم بمثله قدر المستطاع .

وهذه الخطبة الطويلة (التي كان يستطيع إعفاءهم منها) قد ألقاها فارسنا هذا لأن ثمار

(١) تيه أقريطش : أقامه ديدالوس ، كما تقول الاساطير اليونانية ، لحبس مينوتورس وكان مارداً نصفه بشر ونصفه ثور .

البلوط التي قدمت إليه قد أعادت في نفسه ذكرى العصر الذهبي وحركت قريحته لتوجيه هذا الخطاب الجميل الى رعاة الماعز الذين استمعوا اليه مدهوشين دون أن ينبسوا بكلمة . وبقي سنشو صامتاً هو الآخر ، لكنه كان يلتهم ثماراً طيبة من ثمار البلوط ويكثر التردد على خابية أخرى كانت معلقة بشجرة فلين ليظل النبيذ بارداً .

وكانت خطبة دون كيخوته أطول من العشاء ، فلما فرغ منها قال له أحد الرعاة :

ـ لكي يستطيع مولاي الفارس الجوال أن يقول عن حق أوفى إننا أكرمناه قدر مااستطعنا ، نود أن نزيده لذة وحبورا ، بأن نجعل أحد رفاقنا يغني ، ولن يتأخر حضوره إلينا . إنه فتى مفرط الذكاء ولهان الفؤاد ، ،وهو فوق هذا كله يعرف القراءة والكتابة ، ويتقن العزف على الربابة[1] ، بما لا زيادة بعده لمستزيد .

ولم يكد الراعي يتم عبارته حتى سمع صوت الربابة ، ثم ظهر من كان يعزف عليها ، وكان فتى في الثانية والعشرين وضيء الطلعة سبط القوام . سأله رفاقه هل تعشى ؟ فأجاب : نعم . فقال له من دلّ عليه :

ـ تستطيع إذن يا أنطونيو أن تشنّف آذاننا بالغناء حتى يرى هذا السيد ، ضيفنا الليلة ، إن في الجبال والغابات قوماً يحسنون الموسيقى . لقد ذكرنا له مهارتك ، ونود أن تظهرها أمامه حتى لايظن بنا الكذب . فاجلس اذن ، من فضلك ، وغننا أنشودة غرامك التي نظمها عمك المستفيد[2] وقد سرّ بها أهل القرية .

فأجاب الفتى : بكل سرور!

ودون أن ينتظر مزيداً من الالتماس ، جلس على جذع سنديانية وهيأ الربابة ، ثم راح يغني بلطف زائد ، هذه الأغنية :

ياأليا! أناأعلم أنك تعبديني وإن لم تفصحي ، ولا بعينيك ، لساني الحب الصامتين . ولأني أعلم أنك فهمتني ، أيقنت أن : تعشقيني ، لأن الحب الذائع لا يمكن أن يظل شقياً ، كم من مرة ياأليا جعلتني أعتقد حقاً أن روحك من البرنز وأن صدرك الناصع يضم قلباً من الصخر .

لكن من خلال صدق رفضك وعذلك أطلعني الرجاء على جانب من غلالته .

فإن كان الحب أدباً ، فما أبديته منه يجعلني أعتقد أن خاتمة آمالي ستكون كما أتخيلها . ولو كانت الوساطة قادرة على أن تجعل القلب يرقّ ، فما بذلته من أجلك يقوي

(١) الكلمة الاسبانية rabel أصلها عربي هو : رباب ، ربابة .

(٢) المستفيد : صاحب الفائدة في الأمور الدينية ، وهو لقب ديني .

عندي الأمل . فلو انتهيت قليلاً لشاهدت أكثر من مرة ، أني تزينت يوم الاثنين بما شرفني يوم الأحد ، ولما كان الحب والزينة يسلكان نفس السبيل ، أردت دائماً أن أبدو في عينيك لطيفاً .

هجرت الرقص من أجلك ، وما بي حاجة الى تذكيرك بالموسيقى التي سمعتها ، عندما المساء يأتي أو يصيح الديك .

ولست أحصي مدائحي في جمالك ، تلك المدائح التي برغم صدقها قد أوقعت بيني وبين بعض صواحبك .

قالت لي تريزا دل بروكال ذات يوم إني بالغت في إطرائك : « يحسب أنه يعشق حورية الجنة وهي شبيهة أبي زنّة[1] فبفضل الحلي العديدة والشعور المستعارة والتجميلات الزائفة تخدع حتى الحب نفسه » ـ فكذبتها ، فغضبت ، فتطوع ابن عمها للدفاع ، وتحداني وكان ما كان مما تعرفينه .

لست أحبك حتى الجنون ، ولا أتمسح على أعتابك ، لتصبحي خليلتي ، لأن نيتي أنزه .

للكنيسة حبائل هي خيوط من حرير ، فضعي رقبتك في معنقة النِّير ، وسترين كيف أضع أنا رقبتي كذلك .

فإن رفضت ، فإني أقسم هنا بحق القديسين ، ألا أخرج من هذه الجبال إلا لأسلك طريق الرهبنة الكبوشية » .

* * *

وهنا أمسك الراعي عن الغناء . وعلى الرغم من أن دون كيخوته توسل إليه أن يواصل الغناء ، لم يشأ سنشو پنثا بذلك ، لأنه كان يفضل النوم على سماع الأغاني . ولهذا قال لسيده :

ـ يمكن مولاي أن يهيئ لنفسه مرقده هذه الليلة ، لأن العمل الذي يمارسه هؤلاء القوم الأخيار لا يسمح لهم بقضاء الليل وهم ساهرون يغنون .

فأجابه دون كيخوته قائلاً : إني أفهم حالك ياسنشو ، وأدرك جيداً أن زياراتك لخابية النبيذ تقتضي بعدها مزيداً من النوم لا من الموسيقى .

فقال سنشو : الحمد لله! لم يتأفف أحد من هذا!

---

(١) أبو زنة : كنية القرد .

فقال دون كيخوته : لا أنكر هذا ، ولك أن تهيء نفسك كما تهوى ، لكن الأنسب لأهل صناعتي أن يسهروا لا أن يناموا . غير أنه يحسن بك ياسنشو أن تضمد أذني مرة أخرى ، لأنها تؤلمني أكثر مما يجب .

فامتثل سنشو للأمر ؛ غير أن أحد الرعاة قال لدون كيخوته حينما رأى الجرح ألا يهتم ، وسيستخدم له علاجاً يشفى في الحال . ثم قطف بعض أوراق إكليل الجبل وكان وفيراً في هذه المنطقة ، ومضغها ومزجها بقليل من الملح ولصق هذه اللصقة على أذنه وربطها جيداً ، وأكد له أنه لم يعد في حاجة الى طبيب آخر . وكان حقاً ما قال .

الفصل الثاني عشر

فيما رواه أحد الرعاة لمن كانوا مع دون كيخوته

وفي هذه الأثناء أقبل فتى آخر من أولئك الذين كانوا يحضرون الزاد من الضيعة ، وقال :

ـ اخواني ، هل تعلمون مايجري في القرية ؟

ـ وكيف نستطيع أن نعرف ذلك ؟ ـ هكذا أجابه أحدهم .

فأردف الفتى يقول :

ـ إذن اعلموا أنه قد مات هذا الصباح ذلك التلميذ الراعي خريسوستمو ، ويتهامس القوم أنه مات من فرط حبه لتلك الشيطانة التي تدعى مرثيلا بنت جيرمو الغني التي تتجول في السهول المعشبة مرتدية ثياب الرعاة .

فقاطعه أحد الرعاة قائلاً : من أجل مرثيلا ، هكذا تقول ؟

ـ نعم من أجلها ، هكذا أقول لك ، وأعجب من هذا أنه أمر في وصيته أن يدفن وسط البراري ، كأنه مراكشي ، وفي موضع عند الصخرة التي يفيض منها ينبوع الفلين ، إذ يروى أنه رآها لأول مرة في ذلك المكان . كما أوصى بعدة أشياء أخرى ينصح القسس بعدم تنفيذها وإلا كانت شراً مستطيراً لأنها تنم عن وثنية . لكن صديقه الحميم أمبروزيو ، وهو تلميذ آخر تزياً بزي الرعاة مثله ، رد عليهم قائلاً بوجوب تنفيذ كل ماأوصى به خريسوستمو دون نقص شيء ، فأثار هذا الخلاف ضجة في القرية . ولكن يجب على كل حال ، هكذا قيل ، أن ينفذ ماأراده أمبروزيو وسائر الرعاة أصدقاؤه . وغداً سيحضر الناس في احتفال مهيب لدفنه في الموضع الذي أخبرتكم به . ورأيي أن ذلك سيكون خليقاً بالمشاهدة ، وأنا عن نفسي ما كنت أتخلف عن الذهاب للتمتع بهذا المشهد ، لولا أنّي في حاجة الى العودة الى بلدي غداً .

ـ وسنفعل نحن أيضاً كذلك ، بهذا أجاب الرعاة ، وسنقترع على من يبقى لحراسة الماعز .

ـ لك الحق يا پدرو ، قال أحدهم ، لكن لا حاجة الى هذا الجهد ، لأني سأبقى هنا من أجلكم جميعاً ، ولا أعتقد هذا فضلاً مني أو خلواً من حب الاستطلاع ، وكل ما في الأمر أن الشوكة التي غرزت في قدمي منذ أيام لا تدعني أخطو خطوة .

ـ ولا يقلل هذا من فضلك علينا فيه ، بهذا أجاب پدرو .

هنالك التمس دون كيخوته من پدرو أن يقصّ عليه نبأ هذا الميت وتلك الراعية . فأجابه پدرو إن كل مايعرفه هو أن هذا الميت كان ابن نبيل غني جداً يسكن قرية من قرى هذا الجبل ، وأنه قضى عدة سنوات يدرس في سلمنقة ، عاد بعدها الى بلده ، وذاع عنه أنه عالم راسخ كثير القراءة في الكتب . وكان يقال إنه كان يتقن خصوصاً العلم بالنجوم وكل مايجري هناك في السماء من فعل الشمس والقمر ، لأنه كان يتنبأ لنا بـ« خصوف » الشمس والقمر .

فقاطعه دون كيخوته قائلاً : « خسوف » يا صديقي لا « خصوف » ، هكذا يسمى الاستتار الوقتي الذي يقع لهذين النيرين العظيمين . ـ ولكن پدرو الذي لم يحفل بهذه الهنّات واصل قصته قائلاً :

ـ وكان يتنبأ أيضاً فيخبر هل يكون العام عام خصبٍ أو « كحت » .

فقاطعه دون كيخوته مرة أخرى : تريد أن تقول « قحط » يا عزيزي .

فاستأنف پدرو حديثه قائلاً : كحت أو قحط كله واحد . وأقول إذن إن أهله وأصدقائه أثروا مما كان يقوله ، على الأقل أولئك الذين كانوا يثقون به ويتبعون نصائحه . فكان يقول لهم : « هذه السنة ابذروا شعيراً لا قمحاً ، هذه السنة الأخرى يمكن أن تبذروا حمصاً ، لا شعيراً ، في السنة القادمة يكثر الزيت ، وفي السنوات الثلاث التالية عليها لن تحصّل قطرة منه » .

ـ هذا العلم يسمى علم النجوم (« اسطرولوخيا ») ، قال دون كيخوته .

ـ لست أعرف ما اسمه ، أجاب پدرو ، لكني أعرف أنه كان يعرف هذا كله وأشياء أخرى كثيرة . وبالجملة ، لم يكن قد مضى على عودته من شلمنقة أشهر عديدة حينما استيقظ ذات صباح مرتدياً ثوب راعٍ معه عصاه وعليه صدريته الجلدية ، تاركاً ثيابه الفضفاضة التي كان يلبسها بوصفه عالماً . وشاركه في هذه الفعلة في الوقت نفسه صديقه الحميم أمبروزيو الذي كان رفيقه في الدراسة ، فلبس ثوب الراعي . وقد فاتني أن أذكر أن خريسوستمو الراحل كان مشهوراً في نظم الأغاني ، حتى إنه كان يؤلف الأناشيد التي ترتل

في ليالي عيد ميلاد السيد (المسيح) ، والمسرحيات[1] التي يمثلها في «عيد الله» الفتيان في قريتنا ، وكان الناس جميعاً يقولون إنها رائعة الجمال . وفجأة رأى أهل القرية هذين الطالبين في زي الرعاة فاستولت عليهم الدهشة ولم يقدر أحد منهم أن يحزر لماذا تحوّلا هذا التحول العجيب . وفي ذلك الحين توفي والد خريسوستمو ، فصار وارثاً لتركة عظيمة منها العقار ومنها المنقول ، فضلاً عن رؤوس من الماشية السمينة والدقيقة كثيرة العدد وكمية وافرة من الفضة نقداً ، وكان هذا الشاب هو الوارث الوحيد لهذا المال كله ، والحق أنه كان يستحق ذلك ، لأنه كان رفيقاً جواداً محسناً يصاحب الكرام ، وتفيض من وجهه علائم الخير والبركة . وأخيراً تبين أن هذا التحول في الملبس لم يكن إلا ليجري في قفار هذه الجبال وراء تلك الراعية مارثيلا التي ذكرها رفيقنا منذ قليل ، وكان قد عشقها المرحوم خريسوستمو المسكين . وأود أن أقص عليكم الآن نبأ هذه المخلوقة ، لتعرفوا أمرها ، ولعلكم ، أو بغير لعلكم ، لم تسمعوا بمثل هذا في عمركم كله ، حتى لو طال ليبلغ عمر «متّى صالح» .

ـ قل : «متوشالح» ، هكذا قاطعه دون كيخوته بعد أن لم يقو على احتمال تحريفات الراعي .

ـ صالح أو شالح ، المسافة ليست كبيرة ، هكذا أجابه پدرو . وإذا استمر مولاي في سلخ كل ألفاظي فلن ننتهي قبل عام!

ـ عفواً ياسيدي ، هكذا قال دون كيخوته ، إن المسافة أكبر مما تظن ، لكن استمر في روايتك ، ولن أقاطعك بعد .

فقال الراعي : قلت إذن ياسيد نفسي ، إنه كان في قريتنا مزارع أغنى من والد خريسوستمو ، يدعى جيرمو ، أعطاه الله فوق ثروته العريضة ، بنتاً ماتت أمها وهي تلدها . وكانت الأم أخلق النسوة بالاحترام في كل الناحية . ويخيل الي أني أراها الآن بمحياها الذي كان نصفه من الشمس والآخر من القمر ، وامتازت برعايتها لشئون بيتها وصداقتها للفقراء ، حتى إني أعتقد أنها اليوم بروحها تنعم بالحضرة الالهية . ومات زوجها جيرمو كمداً وحزناً على موت المرأة الكريمة ، تاركاً ابنته ، مرثيلا ، في طراوة السن وفي وفرة من

(١) في النص autos ، ويطلق على أنواع مختلفة من التمثيل المسرحي منذ فجر الأدب الاسباني ، وكان بعضها ذا طابع ديني ، والآخر دنيوي . وكانت تسمى في العصور الوسطى أيضاً باسم «الأسرار» misterios أو «الأخلاقيات» morialdades ، خصوصاً إذ كان الموضوع دينياً . وفي القرن ١٧ كانت «المسرحيات المقدسة» autos sacramentales ، ومن أبرز من كتبوا في هذا النوع كالدورن ، الشاعر المسرحي العظيم ، إذ ألف روايات ذوات فصل واحد ، فيها أشخاص رمزيون ، تتركز موضوعاتها حول عقيدة الأفخارستيا (ذكرى العشاء الرباني ، وهو مرسم تحول الخمر الى دم المسيح والخبز الى جسده) .

الغني لكفالة أحد أعمامها (أو أخوالها) وكان قسيساً مستفيداً في الاقليم . ونمت سن الفتاة ونما جمالها الذي ذكّرنا كثيراً بأمها لأنها ورثت عنها منه الكثير ، حتى حسب الناس أن البنت ستفوق أمها ذات يوم . وكان الأمر كذلك حقاً ، إذ لم تناهز الرابعة عشرة الى الخامسة عشرة حتى كان كل من يراها لا يستطيع إلا أن يحمد الله على أن خلقها جميلة كل هذا الجمال ، وكم أولع بها بعض من رأوها ، حتى جنوا بها جنوناً . وصانها عمها عن العيون في خلوة واعتكاف ، ولكن صيت جمالها ذاع حتى إن شباب الناحية بل وشباب الأصقاع النائية من ذوي الحسب الناصع قد ألحوا والحفوا في سؤال العم للاقتران بها . ولكن العم كان رجلاً مستقيماً ديناً طيباً ، لم يشأ أن يرغمها على قبول أحدٍ وإن كان يود أن يعجل بزواجها بمجرد بلوغها سن الزواج ، دون أن يحفل بالمنفعة التي تعود عليه من الوصاية عليها وعلى أموالها طالما لم تتزوج . وقسماً بالله هذا ما كان يتردد في ندوات القرية إطراء للقسيس الصالح . وأود أن تعلم يا سيدي الجوال أن الناس في هذه القرى الصغيرة يتحدثون عن كل شيء ويتعرضون الى كل شيء ، وتستطيع أن تستيقن تماماً ، كما أيقنت أنا ، أنه لابد أن يكون القسيس صالحاً الى درجة خارقة للعادة حتى يضطر أهل رعيته الى التحدث عنه بخير ، خصوصاً في القرى .

فصاح دون كيخوته : هذا حق فعلاً ، لكن استرسل ، أرجوك لأن القصة جميلة ، وأنت ترويها يا پدرو أيها الرجل الطيب ، بلطف زائد .

فأجابه پدرو : لطف مولاي هو الذي يهمني فلا يحرمني منه! ـ وأنت تعلم كذلك أن العم أفضى الى ابنة أخيه بكل العروض التي تقدمت للاقتران بها ، مشيداً بمناقب كل متقدم ، داعياً إياها الى التعجيل باختيار زوج على هواها . ولم يكن لها من جواب إلا أن تقول إنها لا تريد الزواج ، وإنها من فتاء السن بحيث لا تقوى على احتمال أعباء البيت .

وكانت هذه الأعذار ، المقبولة في نظر العم ، كافية ليكف عن اللحاح عليها ، منتظراً أن ترتفع عن سن الحداثة وأن تعرف كيف تختار رفيق العمر حسب ذوقها . وكان يقول ، وحقاً ما كان يقول : « يجب ألا يلزم الآباء أبناءهم رغماً عنهم » ، ـ لكن مرثيلا المستهزئة بالخطاب تبدو ذات يوم في زي الرعاة ، دون أن يتوقع أحد ، وها هي ذى ، رغم محاولات عمها وأهل بلدها إقناعها بالعدول عن خطتها ، ترحل الى المراعي بصحبة فتيات القرية ، ترعى قطيعها بنفسها ، ولم تكد تظهر للناس ويسطع نور جمالها على الملأ حتى هرع ما لا يحصى من الشباب الأغنياء النبلاء أو المزارعين ، يلبسون ملابس الرعاة ويسعون لنيل مرضاتها خلال البراري ، ومن بين هؤلاء كان المرحوم الذي كان يقال إنه لم يكن يعشقها ،

بل كان يعبدها ، ولا يحسبن أحد أن اتخاذها هذه الحياة الحرة المنطلقة قد أحدث ، ولو في الظاهر ، أمراً يتنافى مع عفافها ، بل على العكس ، صانت شرفها بكل حرص وعناية حتى إن أحداً ممن راح يخدمها ويسعى لنيل رضاها لم يستطع ولن يستطيع أن يباهي بأنها تركت له أدنى أمل في إرضاء أمانيه ، وعلى الرغم من أنها لم تكن تتحاشى صحبة الرعاة ولا أحاديثهم وتعاملهم خير معاملة ، فإن من يعزم منهم على الكشف عن نواياه لها ، وإن كانت نوايا عادلة طاهرة طهر الزواج ، تطرده بعيداً عنها كما يقذف اللهب من بارودة ذات فتيل . حتى إنها بهذا المزاج وهذا النحو من السلوك قد أحدثت من الضرر في الاقليم أكثر مما يحدثه طاعون ينتشر ، لأن جمالها وعذوبتها يجذبان قلوب من يرونها : فيحتفلون بخدمتها وحبها ، وعما قليل يجرهم عدم اكتراثها وقسوة فؤادها الى اليأس ، فلا يملكون إلا أن ينعتوها بالقسوة ونكران الجميل ، ويلقبوها بألقاب مشابهة تصور جيداً طباعها . ولو بقيت هنا بضعة أيام أخرى ، لسمعت يا سيدي هذه الجبال وهذه الأودية تردد شكوى المحبين المطرودين الذين يقتفون آثارها وبالقرب من هذه الأكواخ مكان يضم قرابة أربعة وعشرين من شجر الفيقس ، ليس منها إلا وعلى لحائه الأملس قد نقش اسم مرثيلا ، وأحياناً ينقش تاج فوق الاسم ، وكأن عاشقها يريد أن يقول إنها تستحق بل تحمل تاج الجمال . هنا يزفر راع ، وهناك ينوح آخر ، في هذه الناحية تسمع أناشيد الغرام ، وفي تلك مقطوعات الحزن واليأس . وهذا عاشق يمضي الليل طوله جالساً تحت سنديانة أو عند صخرة ، والشمس تلقاه في الصباح غارقاً في أفكاره ، دون أن يكون قد غمض له جفن بليل بالدموع . وهذا عاشق آخر يظل ، في وهج الهاجرة ، ممدوداً على التراب الممتد يبث شكواه للسماء الرحيمة . ومن هذا وذاك ومنهم جميعاً تسخر مرثيلا الجميلة وعليهم تتعالى ، ونحن الذين نعرفها ، نود أن نرى الى أين ستفضي بها كبرياؤها ومن هو الخاطب السعيد الذي سيقدر له أن يظفر بهذا المزاج الوحشي وينال هذا الجمال المنقطع النظير . ولما كان كل ماقلته هو الحق عين الحق ، فيخيل إليّ أن ما رواه رفيقنا ذاك عن موت خريسوستمو يجب أن يكون حقاً كذلك . لهذا أنصحك ياسيدي ألا تتخلف عن حضور دفنه ، فهذا أمر يستحق أن يشاهد ، لأن لخريسوستمو أصدقاء ، وليس بيننا وبين المكان الذي أمر بأن يدفن فيه إلا مسافة نصف فرسخ .

فأجابه دون كيخوته : سأنظر في الأمر بعناية ، وأشكر لك ماأتحته لي من متعة بحكايتك هذه القصة الشائقة .

فقال الراعي : أوه! إني أجهل أكثر من نصف المغامرات التي وقعت لعشاق مرثيلا .

لكن قد يتصادف أن نلتقي في طريقنا غداً راعياً يقص علينا باقي القصة . أما الآن فيحسن بك أن تذهب للنوم في مكان مسقوف ، لأن الهواء الطلق يمكن أن يضر بجرحك ، وإن كان الدواء الذي وضع من شأنه ألا يثير مخاوف من هذه الناحية .

أما سنشو پنثا ، الذي جعل ثرثرة الراعي دبر أذنه ، فقد حث سيده على الذهاب للنوم في كوخ پدرو . ففعل ، لكن ليقضي بقية الليل في ذكر حبيبته السيدة دلثنيا ، اقتداء بما فعله عشاق مرثيلا . أما سنشو فهيأ لنفسه مرقداً على القش ، بين روثينانته وحماره ، ونام ، لا كعاشق مهجور ، ولكن كرجل امتلأ كرشه واحمر ظهره من الضرب .

الفصل الثالث عشر

في تتمة قصة الراعية مرثيلا، وحوادث أخرى

ولم يكد الفجر يبدأ في الظهور في طنف المشرق ، كما يقول الشعراء ، حتى استيقظ خمسة من رعاة الماعز ونادوا دون كيخوته وسألوه هل لا يزال عاقد النية على الذهاب لمشاهدة دفن خريسوستمو ، وقالوا إنهم على استعداد لمرافقته . ولم يكن دون كيخوته ليود غير هذا ، فنهض وأمر سنشو بوضع السرج والبرذعة على دابتهما ، فامتثل سنشو بكل نشاط ، وسرعان مابدأت القافلة المسير .

وما سارت ربع فرسخ حتى رأوا عند تقاطع الطريق ستة أو سبعة من الرعاة قادمين ناحيتهم ولابسين سترات من الجلد الأسود ، وعلى رؤوسهم أكاليل من السرو والدفلى ، وفي يد كل منهم عصا قوية من شرابة الراعي . وفي إثرهم سيدان فاضلان راكبان على فرسين ، مزودان أفضل الزاد ، يصحبهما ثلاثة من الخدم مترجلون . فلما التقى الجمعان تبادلا التحية بكل أدب وتساءلا عن قصدهما ، فعرف كلاهما أنهم ذاهبون جميعاً لتشييع الجنازة . وقال أحد الراكبين لصاحبه :

ـ يخيل إلي ، يا سيد ڤيڤلدو ، أننا لن نأسف أبداً على التأخير الذي سيحدثه لنا منظر هذا الاحتفال الذي سيكون رائعاً ، إن صح مايقوله هؤلاء الناس الأخيار من أخبار غريبة سواء عن الراعي الراحل وعن الراعية القاتلة .

فأجاب ڤيڤلدو : وهذا ما أحسبه أيضاً ، وأنا على استعداد لتأخير رحلتي أربعة أيام لا يوماً واحداً ، حتى أشهده .

هنالك سأل دون كيخوته عما لديهما من أنباء مرثيلا وخريسوستمو ، فقال أحد هذين المسافرين إنهما التقيا هذا الصباح بأولئك الرعاة ، فلما رأياهم في هذا الزي الحزين سألاهم السبب في ذهابهم بهذا الزي . فقص عليهما أحدهم نبأ جمال راعية تدعى مرثيلا وغريب أطوارها ، وكثرة

عشاقها الذين خطبوها وسعوا الى كسب رضاها ، وموت خريسوستمو هذا الذي الى شهود جنازته هم ذاهبون . وبالجملة ، فقد أعاد على مسامعه ما سبق أن رواه پدرو لدون كيخوته .

ولما فرغ هذا الحديث بدأ حديث آخر ، ذلك أن الراكب المدعو ڤيڤلدو سأل دون كيخوته عن الدافع له الى السفر مسلحاً على هذا النحو ، والدنيا في سلام والهدوء يخيم على البلاد . فأجابه دون كيخوته قائلاً :

ـ إن المهنة التي أمارسها والنذور التي عاهدت عليها لا تسمح لي بالسير على نحو آخر . إذ الراحة والطعام الفاخر والملاهي إنما اخترعت للمخنثين من رجال القصور ، أما المتاعب والسهر والسلاح فلأولئك الذين يسميهم الناس «الفرسان الجوالة» ، وأنا واحد من هؤلاء وإن كنت أدناهم منزلة وأقلهم استحقاقاً .

وما سمعوا جوابه هذا حتى ظنوا جميعاً أنه مجنون . لكن ليتأكدوا من الأمر وليروا الى أي مدى يذهب جنونه ، عاد ڤيڤلدو الهجوم ، فسأله مامعنى الفرسان الجوالة .

فأجاب دون كيخوته :

ـ أولم تقرأوا يا سادة أخبار إنجلترا وتاريخها ، حيث تروى مغامرات الملك آرثر الشهيرة الذي نسميه في لغتنا الاسبانية باسم أرتوس ، وما يقال عنه في السنّة القديمة المروية في مملكة بريطانيا العظمى كلها من أنه لم يمت أبداً ، وإنما تحول بفعل السحر ، الى غراب ، وأنه سيأتي ذات يوم بعد مرور أزمان فيسترد تاجه وصولجانه . وهذا هو السبب في أنه منذ ذلك العهد حتى اليوم لا يستطيع أحد أن يثبت أن إنجليزياً واحداً قتل غراباً[1] ؟ نعم! في عهد هذا الملك الطيب أنشئت طريقة الفرسان الشهيرة هذه المسماة «المائدة المستديرة[2]» ، وجرت الوقائع الغرامية بين دون لانصلوت صاحب البحيرة وبين الملكة جينڤيرا[3] ، وهي غراميات لعبت فيها كنتانيونا السيدة الجليلة دور كاتمة السر

(١) ليس هذا الكلام من اختراع خيال ثرفانتس ، بل كان اعتقاداً شائعاً في ذلك العصر كما يدل على ذلك ماروراه تيخادا وجريجوريو مدريو في قصائد نشرت في « أزهار الأشعار » flores de poetas ilustres التي جمعها پدرو اسبينورا ونشرها سنة ١٦٠٥ . وقد أشار إليها ثرفانتس في موضع آخر في قصة « پرسيلس وسجموندا » (جـ١ ف ١٨) . ومن ناحية أخرى يلاحظ أنه توجد أوامر قديمة في اقليم ويلز تحرم قتل الغربان ، نظراً لفائدتها في قتل الحشرات المؤذية .

(٢) طريقة فروسية « المائدة المستديرة » أنشأها الملك آرثر . وكان أعضاؤها أربعة وعشرين فارساً يرأسهم الملك آرثر . وكان يسمح للأجانب بالإنخراط فيها . فانخرط فيها بعض أكفاء فرنسا مثل رولان .

(٣) جنيڤيرا Guinevere وفي الاسبانية Ginebra ، زوجة الملك آرثر في الأساطير التي تدور حوله . وتسمى على أنحاء عدة في الرومانثات القديمة : فعند جوفروا من مونموث تدعى جوانهمارا Guanhamara ، وكانت من أسرة رومانية نبيلة ، ونشأت في بيت كادور ، دون كورنوول . وفي Brut تأليف ليامون تدعى ونهاڤر Wenhaver وقريبة لكادور الكورنوولي . وفي « آرثر ومرلان » (القرن ١٣) تدعى جڤنر Gvenour إبنة ليودجران ، ملك كاروهيز . وتغنى بها الشاعر تنيسون في قصيدته « جنيڤيرا » (سنة ١٨٥٩) .

والرسولة ، ولها نظمت هذه الرومانثة المشهورة التي تتردد كثيراً في وطننا أسپانيا :

ليس في الكون فارس   حيط بالغيد والحشم
مثل لنصل حينما   من بريتاني قد قدم

مع التطور الرقيق العذب في غرامياته ومغامراته العنيفة . ومنذ ذلك التاريخ وهذه الطريقة للفروسية تنتقل من يد الى يد ، وتنمو وتنتشر في شتى أصقاع الدنيا . ففي أحضانها نشأ وترعرع وذاع صيت الشجاع أماديس الغالي بفضل مغامراته ، هو وأبناؤه جميعاً وأحفاده حتى الجيل الخامس ، ثم الشجاع فليكسمارته الهركاني ، وذلك الآخر الذي لن يبالغ المرء مهما أطنب في مديحه ونعني به تيرانته الأبيض ، وأخيراً وفي عصرنا هذا تقريباً ، رأينا وسمعنا وعرفنا الفارس الذي لا يقهر دون بليناس الرومي . هذا ياسيدي معنى أن يكون المرء فارساً جوالاً ، وتلك هي طريقة الفرسان التي حدثتك عنها ، وإليها انتسبت وإن كنت محملاً بالخطايا ، مؤمناً بكل ماآمن به أولئك الفرسان الذين أتيت على ذكرهم ، ومن أجل هذا أسعى في هذه القفار الموحشة ، باحثاً عن المغامرات ، عاقداً العزم على المخاطرة بذراعي وحياتي في أخطر ما عسى أن يلقيني فيه المصير ، مادام في سبيل إغاثة الملهوفين وإسعاف المحتاجين .

ولم يكونوا في حاجة الى المزيد ليوقنوا أن دون كيخوته مختلط العقل مألوس ، أو ليعرفوا نوع الجنون الذي استولى عليه ، فغلبهم من الدهشة مايغلب على كل من يلتقي به لأول مرة ، وكان ڤيڤلدو حاد الذكاء لطيف المزاج ، وقد شاء أن ينفي عن نفسه وصاحبه الملل خلال ماتبقى من الطريق المؤدي الى الرابية التي سيتم فيها الدفن ، فراح يهيئ له الفرصة ليتابع خواطره الشاذة ، فقال :

ـ يبدو لي يامولاي أنك انتسبت الى طريقة الفروسية من أقسى الطرق في الدنيا وإذا صدق ظني يخيل اليّ أن قاعدة السلوك عند الإخوان الكرتوزيين[1] ليست ضيّقة الى هذا الحد .

ـ أن تكون هذه الطريقة شبيهة بها في القسوة والتضييق ، هذا ممكن ـ بهذا أجاب دون كيخوته ، أما أن تكون لها نفس الأهمية للعالم ، فهذا ماأكاد أقطع بأنه مشكوك فيه فإن

(١) الإخوان الكرتوزيون cartujos ، طريقة رهبانية أسسها القديس برونو سنة ١٠٨٤ في إقليم الدوفينيه في الجنوب الشرقي لفرنسا . وكان القديس هوج ، أسقف جرينوبل ، هو الذي أقام القديس برونو في مكان موحش بالقرب من قرية سان بيير دي شارتريز ، ومن هنا اسم الطريقة ، نسبة الى شارتريز (كرتوزيا) ، إذ فيها يقيم المرشد العام للطريقة ، وتقع على ٢٢ كم شمال جرينوبل ، وفيها دير وسط البرية في داخل واد ضيق مغطى بالغابات والمراعي والصخور المستعصية . وهي طريقة رهبانية شديدة القسوة عنيفة المجاهدات ، إذ تأمر بالصوم والصمت المتواصلين والزهد الكامل في اللحوم ، والانحباس في الدير باستمرار . والرهبان ينامون على القش ويحلقون رؤوسهم حلقاً كاملاً ، ولباسهم رداء من الصوف الأبيض وزنار من الجلد الأبيض أو من الكتان .

أردت الحق ، فإن الجندي الذي ينفذ ما يأمر به القائد لا يقل فعله عن فعل القائدالذي أمر . أعني أن الرهبان يطلبون من السماء خير الأرض ، وهم هادئون وادعون مستريحون ، أما نحن الجنود والفرسان فإننا نضع موضع التنفيذ الفعلي مايضعونه هم موضع الدعاء والصلاة ، فنحقق هذا الخير بقوة سواعدنا وحدّ سيوفنا ، لافي مأمن من إهانات الدنيا ، بل مكشوفين معرضين لقيظ الشمس الشديد في الصيف ، والثلج القارس في الشتاء . فنحن إذن وزراء الله على الأرض والأدوات التي يمارس بواسطتها عدالته . ولما كانت شئون الحرب وما يتصل بها لا تنجز إلا بالعمل المتواصل والعرق والدم ، فإن أولئك الذين يمارسونها يقومون بعمل أعظم ـ هذا لا ريب فيه ـ من أولئك الذين يقتصرون على دعوة الله في هدوء وأمان ـ كي يغيث المحتاجين . ولا أعني بهذا (فما أبعد هذا عن فكري!) أن حال الفارس الجوال لها من القداسة ما لحال الراهب الديراني ، وإنما أريد أن أستنتج من المتاعب وألوان التقشف التي احتملها أنها أقسى وأشق وأبأس وأكثر تعرضاً للجوع والعطش والتعري والهوام . ولا شك في أن الفرسان الجوالة في العصور الماضية قد احتملوا كثيراً من الآلام في مجرى حياتهم ، وإذا كان البعض منهم قد وصلوا ، بفضل قوة سواعدهم ، الى مراتب الأباطرة ، فأيم الله لقد كلفهم هذا ثمناً غالياً دفعوه عرقاً ودماءً ، ولو أن الذين بلغوا هذه المراتب العليا كانوا بغير سحرة وحكماء يقومون على حمايتهم ، لبقوا في يأسٍ من آمالهم وقنوطٍ من أمانيهم .

فأجاب المسافر : وهذا أيضاً رأيي بلا ريب . لكن الأمر الذي يزعجني ـ الى جانب أمور أخرى عديدة لست أذكرها ـ من ناحية الفرسان الجوالة هو أنهم إذا سنحت لهم الفرصة لمواجهة مغامرة عظيمة حافلة بالمخاطر على حياتهم ، لايتذكرون أبداً في هذه اللحظة الحرجة أن يسلموا أمرهم إلى الله كما هو واجب كل مسيحي ورع في مثل هذا الخطر . على العكس ، هم يسلمون أمرهم إلى سيداتهم المعشوقات بحرارة وعبادة كأنهن عندهم الله . وهذا فيما يبدو لي ضرب من الوثنية .

فقال دون كيخوته : ليس ثم من سبيل آخر ، والفارس الذي يفعل غير هذا يقع في أسوأ حال . فقد جرى العرف والعادة في الفروسية الجوالة أن الفارس الجوال ـ وهو في حضرة السيدة في اللحظة التي يغامر فيها مغامرة حربية كبرى ـ يتجه إليها بعينه في عشق ، وكأنه يطلب منها بنظرته أن تكون في عونه إبان الخطر المحدق به ، وحتى لولم يسمعه أحد فإنه ملزم بأن يهمس بضع كلمات بين أسنانه حتى يسلم إليها أمره من كل قلبه . وعندنا في قصص الفروسية شواهد عديدة على ما أقول . لكن يجب ألا نعتقد رغم ذلك أن الفرسان يمتنعون من إسلام نفوسهم لله ، إذ سيجدون الوقت والفرصة لذلك أثناء العمل .

فأجابه المسافر : بقي عندي مع هذا كله شك يساورني . فكثيراً ما قرأت أنه يقع أن يتبادل فارسان جوالان الشتائم ، ومن كلمة إلى كلمة من الطرفين يستطير الغضب ويدور كلاهما بفرسه ليتخذ مسافة كافية ، وفي الحال يصطدمان دون سابق إنذار والعنان مرخى ويسلم كلاهما أمره إلى سيدته في وسط الحلبة . وما يحدث عادة في مثل هذه الالتحامات هو أن يسقط أحدهما من على ظهر فرسه وقد نفذ رمح عدوه في بدنه من الجنبين ، بينما الآخر ينزل إلى الأرض ، اللهم إلا إذا استمسك بالعرف . فكيف يتسنى للميت أن يكون له من الوقت ما يسمح له بإسلام أمره إلى الله ، في خلال عملية تتم بهذه السرعة ؟ أوليس من الأفضل ، بدلاً من الكلمات التي ينطق بها في الحلبة وهو يهب نفسه لسيدته ، أن يعمل ما يجب عليه بوصفه مسيحياً تقياً ؟ خصوصاً ويخيل اليّ - عن نفسي - أنه ليس لدى الفرسان الجوالين سيدات لهن يهبون أنفسهم ، إذ ليسوا جميعاً عشاقاً .

فصاح دون كيخوته : هذا غير ممكن ، فمن المستحيل وجود فارس جوال بغير سيدة : فمن طبيعتهم جميعاً أن يكونوا عشاقاً كما أن من طبيعة السماء أن يكون فيها نجوم ، ومن المؤكد أنك لم تر أبداً تواريخ فيها فارس جوال بغير غراميات ، إذ مجرد كونه بغير غراميات يجعله غير أهلٍ لأن يعد فارساً بالمعنى القانوني ، بل سيعد نغلاً ، وسيقال إنه دخل في قلعة النظام ، لا من بابها الواسع الكبير ، بل متسلقاً الأسوار ، شأنه شأن اللص والصعلوك .

فاستأنف المسافر حديثه قائلاً : لكن يبدو لي ، إن صدقت ذاكرتي ، أني قرأت أن دون جَلاوَر ، أخا الشجاع أماديس الغالي ، لم تكن له سيدة معروفة ، يمكنه أن يستصرخها إبان المخاطر ، ورغم ذلك كان يعد فارساً شجاعاً نابه الذكر .

فأجابه دون كيخوته : إن السنونو لا يصنع الربيع ، على أني أعلم من مصدر وثيق أن هذا الفارس كان عاشقاً في السر . فضلاً عن أن ولعه الشديد بالاعجاب بكل من يستلطفها كان مزاجاً طبيعياً فيه ولا سبيل له الى دفعه وكبحه ، لكن من المحقق تماماً أنه لم يكن يملك عليه أفكاره ويأسر لبه غير سيدة واحدة ، كان يسلم نفسه إليها مرات ومرات ، لكن في خبايا صدره ، لأنه كان يباهي بأنه عاشق شديد التكتم .

فعاد المسافر يقول : إذا كان من طبيعة الفارس الجوال أن يكون عاشقاً ، فيمكن الظن أن سيادتك لم تخالف عن هذه القاعدة اللازمة لمهنتك . فإن كان سيادتك لا يباهي بأن يكون من التكتم كما كان دون جلاور ، فإني أرجو رجاءً حاراً ، باسم زملائي هؤلاء وباسمي ، أن تخبرنا باسم سيدتك وبلدها ولقبها ومفاتنها . ومما يسعدها من غير شك أن يعرف الناس جميعاً أنه يحبها ويخدمها فارس من طراز سيادتك .

فزفر دون كيخوته لدى سماعه هذا زفرة حارة وقال :

ـ لا أستطيع أن أؤكد ما إذا كانت عدوتي الحلوة تريد أو تخشى أن يعلم الناس أني خادمها ، لكني أستطيع أن أقول ، استجابة للالتماس الموجه الي بكل هذا الأدب ، إن اسمها «دُلثنيا» ، وبلدها : «توبوسو» ، إحدى قرى سهل المنتشا ، ولقبها : «أميرة» على الأقل ، لأنها ملكتي وسيدتي ، ومفاتنها : فوق مفاتن البشر ، إذ فيها تتحقق وتجتمع كل الصفات السحرية للجمال كما يصفها الشعراء في معشوقاتهم . شعرها جدائل من الذهب ، وجبينها جناتٍ عليين ، وحواجبها أقواس قزح ، وعيونها شموس ، وخدودها ورود ، وشفاهها من المرجان ، وأسنانها لؤلؤ منضود ، وجيدها من الالبستر ، وصدرها من المرمر ، وأكفها من العاج ، وبياضها كالثلوج ، وما يحجبه الحياء عن عيون الناس أتخيله شيئاً لا يدرك قدره إلا الفحص العادل الدقيق ، لكنه يتجاوز كل تشبيه .

فقال ڤيڤلدو : ونريد أيضاً أن نعرف أصلها وفصلها ونسبها .

فأجاب دون كيخوته : إنها ليست من سلالة كورتيوس أو كايوس أو شپيون في روما القديمة ، ولا من سلالة كولونا وأورسيني في روما الحديثة ، ولا مونكادا وريكسين في قطالونية ، أو ربيا وڤيانوڤا في بلنسة ، أو پالافوكس ونثا ورروكابرتي وكوريا ولونا وألاغون وأوربا وفوث وجوريه في أرغون ، ولاثردا ومنريكه ومندوثا وقزمان في قشتالة ، أو ألنكاسترو وباليا ومنيسيس في البرتغال ، وإنما هي من أن تكون توبوسو دلامنتشا ، وهي أسرة إن تكن حديثة فإن في وسعها أن تكون مبدءاً خصباً لأشهر الأسر في القرون المقبلة . ولا يعترض على هذا أحد اللهم إلا إذا استوفى في الشروط التي سجلها ثرفينو في أسفل المسلحة التذكارية لأسلحة رولان[1] :

لا يجرؤنْ متهور فيمسَّها   كيلا يواجه غاضباً رولانا

فقال المسافر : أسرتي وإن كانت من سلالة كاتشوبين في لاريدو[2] ، لا أجرؤ على مقارنتها بأسرة توبوسو دلامنتشا . بيد أني ، والحق يقال ، لم يبلغ مسامعي هذا الاسم ولاهذا اللقب حتى الآن .

---

(١) نذكره باسمه في صورته الفرنسية ، بدلاً من الاسبانية أورلندو ، لأنه فرنسي الأصل ، وثوفينو هو ابن ملك اسكتلندة ، أطلق سراحه رولان ، فوفاءً له واعترافاً بجميله صنع منها مسلحة (مجموعة أسلحة) تذكارية (راجع «أورلند الغاضب» ، النشيد رقم ٢٤) .

(٢) لاريدو : مدينة في اسبانيا ومقاطعة ، تقع على مسافة ٢٧ كم في الجنوب الشرقي من سانتندو ، لها مرفأ على المحيط الأطلسي . ولفظ «كاتشوبين» لقب كان يطلقه الشعب على الاسباني الذي يهاجر الى أمريكا ، وأصبح التعبير : «كاتشوبين من لاريدو» مثلا أطلقه الناس ، قبل ثرفانتس ، على أولئك المهاجرين الأغنياء .

فأجاب دون كيخوته : واعجباً! كيف لم يبلغ مسامعك!

وكان سائر الجماعة يصغي الى حديثهما باهتمام شديد ، حتى إن الرعاة أدركوا مافي عقل صاحبنا دون كيخوته من اختلاط وخبال وسنشو بنثا وحده الذي تخيل أن كل ماقاله مولاه هو الحق كل الحق ، وذلك لأنه كان يعرف من هو ، وقد عرفه منذ نعومة أظفاره . فإن حاك في صدره شيء من الشك وبدا له الأمر عسير الاعتقاد ، فلم يكن ذلك إلا اختراع دلثنيا دل توبوسو الفاتنة ، لأنه ، وقد كان يقيم قريباً من هذه القرية ، قرية توبوسو ، لم يسمع أبداً بهذا الاسم ولا بتلك الأميرة .

وكانت القافلة في سيرها حينما أبصروا قرابة عشرين راعياً يلبسون جميعاً سترات طويلة من الصوف الأسود وعليهم أكاليل وهم ينحدرون في أخدود مشقوق بين جبلين عاليين . وقد تبينوا هذه الأكاليل : بعضها من الزرنب (شجر الموت) ، والآخر من السرو الحزين . وكان ستة منهم يحملون محفة غطيت بآلاف الأزهار والأغصان الخضر . فلما شاهدهم أحد رعاة الماعز صاح :

ـ هؤلاء القادمون يحملون جثمان خروسستمو ، وعند حضيض هذا الجبل أوصى بأن يدفن .

لهذا أسرعوا في المسير ، ووصلت القافلة كلها في اللحظة التي وضع فيها الآخرون المحفة على الأرض ، وأقبل أربعة منهم يحفرون القبر بخوازيق حادة عند أصل صخرة صيخودة .

ورحب كلا الفريقين بالآخر . وبعد تبادل التحيات أنشأ دون كيخوته ومن معه يتأملون المحفة وقد رقد عليها جثمان في زي راعٍ ، وعليه أزهار غطته كله ، وهو يبدو في سن الثلاثين . ورغم الموت بدا عليه أنه كان إبان الحياة ذا قوام ممشوق ووجه وسيم . ومن حوله وعلى المحفة وضعت بعض الكتب وأوراق عديدة مفتوحة أو مطوية . واعتصم الجميع بالصمت : أولئك الذين كانوا يتأملون ، والذين كانوا يحفرون وسائر الحاضرين . وأخيراً قال أحد الذين حملوه لصاحبه :

ـ انظر يا أمبروزيو ماإذا كان هذا هو الموضع الذي أشار به خروسستمو ، مادمت تريد أن تنفذ مأمر به في وصيته بحذافيره .

فأجاب أمبروزيو : نعم هناك ، لأن صديقي المسكين طالما قص عليّ هناك قصته الحزينة . فهناك . كما قال لي ، أبصر للمرة الأولى هذه العدوة اللدود للجنس البشري ، وهناك صرّح لها للمرة الأولى بحبه العفيف بقدر ماهو عفيف ، حتى اضطرته أن ينهي مأساة

حياته البائسة هذه النهاية المروعة ، وهناك أراد أن يوضع في حضن نسيان دائم ، تذكاراً لهذه الأحزان كلها .

ثم اتجه صوب دون كيخوته والمسافرين واستمر يقول :

أيها السادة! هذا الجثمان الذي تنظرون اليه بعيون حانية كان مستودعاً لروحٍ أودعت فيها السماء شطراً عظيماً من أثمن مواهبها . هذا جثمان خروسستمو : نسيج وحده في الذكاء والأدب ، بعيد المدى في اللطف والنبل ، منقطع النظير في الصداقة ، جواد جم الإفضال بغير حساب ، جاد في غير كلفة ، طلق المحيا في غير تفاهة ولا خساسة ، ، وبالجملة هو الأول في كل مايسمى باسم الخير ، وليس له ثان في كل ما يسمى باسم الشقاء . كان محباً وكان مكروهاً ، وكان يعبد وكان يلاقى بالازدراء . لقد شاء أن يروض دابة متوحشة وأن يستنضّ الحنان من مرمر صلب ، وأن يسبق وفد الريح ، وأن يسمع في الصحراء ، وقد خدم نكران الجميل ، وماكان جزاؤه إلا أن يكون فريسة للموت وهو في منتصف طريق الحياة التي قضت عليها راعية أراد أن يجعلها تحيا أبداً في ذكرى الناس . ولو احتاج الأمر الى دليل فهذه أوراق تشهد بصدق ماأقول ، لولا أنه أمرني أن أسلمها للنار بمجرد أن أسلم جثمانه للتراب .

فقال ڤيڤلدو : لكنك بهذا يا سيدي تعاملها معاملة أسوأ وأقسى من صاحبها نفسه . وليس من العدل ولا مما يقتضيه العقل أن تنفذ حرفياً إرادة من يأمر بأشياء خارجة عن كل عقل . وماذا كان سيفعل أوغسطس لوأنه وافق على تنفيذ ماأمر به شاعر منتوا[1] الإلهي في وصيته ؟ وإذن ياسيد أمبروزيو ، يكفيك أن تسلم جثمان صديقك الى التراب ، ولكن لا تسلم أعماله الى النسيان . وما أمر به وهو محنق لإهانته ، لا تنفذه كأنك أداة عمياء . بل بالعكس ، بردِّك الحياة الى مؤلفاته ، تردها أيضاً الى قسوة مرثيلا حتى تكون في المستقبل عظة للناس ، فيتجنبوا الوقوع في هوى كهذه . ونحن نعلم جميعاً ، نحن المحيطين بك الآن ، قصة غراميات صاحبك ويأسه ، ونعلم مدى إعزازك له ، وسبب موته وماأوصى به وهو ينهي حياته ، ومن هذه القصة الأليمة نستطيع أن نستنتج كم كان عظيماً حب خروسستمو وقسوة مرثيلا وإيمان صداقتك ، وما هي النهاية المحتومة التي تنتظر أولئك الذين يسحرهم الحب فيندفعون بغير وازع في طريق الضلال والهلاك . ومساء أمس حينما سمعنا بموت خروسستمو علمنا أن دفنه لابد أن يتم في هذا المكان فقررنا بدافع الرحمة وحب

---

(١) شاعر منتوا هو فرجيليوس (فرجيل) . ومن المعلوم أن فرجيليوس أوصى ، وهو على فراش الموت ، بإحراق أثره الخالد «الاينياذة» بحجة أنه لم يفرغ من تنقيحها ، بيد أن وصييه وصديقيه توكا وفاريو لم ينفذا وصيته ، وأيدهما القيصر أوغسطس في هذا .

الاستطلاع أن ندع خط سيرنا المستقيم لنشاهد بأعيننا ماأثر فينا أشد التأثير مجرد سماعه . وجزاءً وفاقاًلهذه الرحمة وللرغبة التي تحدونا الى علاج هذه المأساة ماأمكننا ، فإننا نرجوك ، يا أمبرواز الكيّس ، أو أنا على الأقل أرجوك أن تعدل عن إحراق هذه الأوراق وتعطيني بعضاً منها .

ودون أن ينتظر جواب الراعي ، مد ڤيڤلدو يده وأخذ بضع أوراق كانت أقرب إليه . فلما رآه أمبروزيو يفعل هكذا ، قال :

ـ يحملني الأدب على الرضا ، ياسيدي ، بأن تحتفظ بما أخذت . لكن رجاءك أن أعدل عن إلقاء الباقي في النار ، رجاء في غير مطمع .

وكان ڤيڤلدو متحرقاً الى استطلاع أمر هذه الأوراق ، فأسرع بفتح واحدة منها وقرأ عنوانها فوجده : «نشيد اليأس» . فلما سمعه أمبروزيو قال :

ـ هذه هي الورقة الأخيرة التي خطتها براعة الفقيد التعس . وحتى ترى ياسيدي فداحة مصابه ، اقرأها بصوت مسموع ، وفي الوقت متسع حتى نفرغ من حفر قبره .

فقال ڤيڤلدو : سأفعل ما أمرت ، عن طيب خاطر .

ولما كانت هذه أيضاً رغبة المحيطين به فقد تحلقوا حوله ، وراح يقرأ بصوت رنان :

الفصل الرابع عشر

في أشعار الراعي الفقيد اليائسة، وحوادث أخرى مفاجئة

نشيد خروسستمو

أردتِ لظُلْمك يا قاسية
ذيوعاً يُردد للغاشية
سأجعل وحيي من الهاوية
ليملأ صدري لظىً حامية
ويصبح صوتي صدى الداهيه
يمزق قلبي وأحشائيه
يقاسي فِعالك ياجانيه

* * *

أعيري إذن أذنا واعيه
لنقمة نفس بها راضية
من العمق تصدر كاللاغية
وإن أسخطتك ، فما شانيه!

أين زئير الأسد وعواء الذئب الضاري
وفحيح الأفعى الرهيبة وصراخ الوحش
ونعيب الغراب نذير الشوم وضوضاء الريح
وهي تهز الأمواج ، وخوار الثور المغلوب

ونواح اليمامة المترملة ونعيب البوم المشئوم
وعويل زبانية الجحيم ـ لتصحب شكاة نفسي
وتؤلف نغماً يهز المشاعر كلها ، لأن العذاب
الذي يمزّقني في حاجة الى آلات جديدة ليُروى
« لا رمال أبينا التاجه ولا زيتون
بيتيس الشهير بسامعة أصداء هذه الضوضاء العجيبة
بل على ذروة الصخر وفي أعماق الهاوية
وبلسان ميت وكلمات حية
ستنتشر آلامي القاتلة
أو في الأودية المظلمة وعلى الشطئان القاحلة
أو الأماكن التي لم يبلغها قط ضوء الشمس
أو بين الهوام السامة التي تتغذى بطمى النيل .
وبينما تتردد في القفار الموحشة أصداء خرساء
لشرها وقسوتها العديمة النظير ،
ميزني القدر البائس فجعلها تذيع في أنحاء المعمورة
« الاحتقار يقتل ، والاتهام الزائف أو الصادق
يقضي على الصبر ، والغيرة تقتل بقسوة أشد
والفراق الطويل يعكر صفو الحياة
والفزع من النسيان لا يقاومه رجاء في حظ أسعد :
ففي كل هذا يتبدى الموت لا مفر منه
لكني أنا ـ وتلك أعجوبة الأعاجيب ـ أحيا
غيران ، غائباً ، مزدري ، واثقاً من الشكوك التي تقتلني
وفي النسيان الذي يتقد فيه نار وجده وبين ألوان العذاب
لا يبلغ نظري ظل الرجاء ، ومن فرط يأسي لا أهفو إليها
بل على العكس : لأظل غارقاً في شكاتي
أقسمت بهجرها أبداً
« هل من سبيل لرجاء وخوفٍ معاً ؟
وهل هذا من الخير ، بينما أسباب الخوف أبرز وأشد يقينا ؟

وهل لو تبدت الغيرة يجب عليّ إغماض عيني
بينما لا أملك إلا أن أراها
من خلال آلاف الجروح النافذة في أعماق روحي ؟
ومن ذا الذي لا يفتح الأبواب واسعة أمام سوء الظن والخوف
حينما يُرى عدم الاكتراث ماثلاً ، وظنونه استحالت حقائق ملموسة
يدركها بيقين مرير ، والحقيقة المجردة مقنعة بنقاب الأكاذيب ؟
إيه أيتها الغيرة ، أي طاغية مملكة الحب
هلمي قيدي هاتين اليدين بالأغلال الحديدية!
وأنت أيها الاحتقار ، هات حبل العذاب!
لكن الألم ، واحسرتاه ، يخنق ذكراك بانتصار غليظ .
«وأخيراً أموت ، ولا رجاء لي في التوفيق ،
إن في الحياة أو الممات ، وسأظل ثابتاً على رأيي
سأقول إن دواعي الحب حميدة ، وإن أكثر النفوس حرية
أشدها لسلطان الحب عبودية
وسأقول إن من كانت دائماً عدوتي روحها جميلة جمال جسمها
وعدم اكتراثها ناشىء عن خطأي ، والحب
يحافظ على السلام في دولته بالآلام التي يصيبنا بها
وهذه الفكرة وأحبولة قاسية كلتاها تسرع بالخاتمة المحتومة
التي يقتادني إليها احتقارك ، لهذا أقدم للرياح جسمي وروحي
دون إكليل غار أو سعف للأمجاد المقبلة
«وأنت يامن تظهرين بأفعالك التي لا مبرر لها
ما يحملني على أن أسلك نفس المسلك مع الحياة التعبة التي أبغضها ،
مادام الجرح العميق في قلبي يقدم إليك براهين ساطعة
على السرور الذي يشعر به وهو يستقبل ضربات ظلمك
إذا شاء الحظ السعيد أن تعترفي بأني جدير أن يعكّر موتي
صفو سماء عينيك ، فلا تفعلي من هذا شيئاً
بالعكس ، ليكن ضحكك في الساعة الأليمة دليلاً
على أن نهايتي عيد عندك . لكن من السذاجة أن أقدم إليك

هذه النصيحة ، وأنا أعلم أنك تفخرين بأن تبلغ حياتي
نهايتها بهذه السرعة .
«ليأت إذن ، مادام الوقت أزف ، طنطالس بعطش
وسيسفوس بثقل صخرته الهائل ، ليأت بروميثيوس
بحدأته ، ولا يقفن أكسيون عجلته ، ولا الأخوات
عملهن الدائم . لينقلوا جميعاً الى قلبي
عذابهم القاتل ، وليرتلوا بصوت خفيض مراثي حزينة
(إن كان يجب لمثله شيء منها) لهذا البدن الذي سيحرم
من كفنٍ ، وليجاوبهم حارس النار ذو الثلاثة رؤوس
وأشباح ومردة آخرون لا يحصون بألحان أليمة ؛
إذ يخيل الى أنه ليس ثمة احتفال أوفق من هذا
في جنازة رجل مات شهيد الغرام
« أي نشيد اليأس! لا تنفجر نوحاً وأنت تغادر
صحبتي الحزينة . بل حذار ، حتى في القبر ، أن تظهر حزنك
لأن السبب في تأليفك يزيد سعادته بشقائي » .

والذين استمعوا الى إنشاد هذا الشعر وجدوه رائعاً . بيد أن ڤيڤلدو لاحظ أنه لا يتفق مع ماوراه الناس من تواضع مرثيلا وفضائلها . وذلك أن خروسستمو شكا الغيرة وسوء الظن والسهو ، وهذه أمور تضع من قدر صاحبته وشهرتها الناصعة . لكن أمبرزيو ، وهو الذي سبر أغوار أفكار صاحبه ، أجابه في الحال :

ـ اعلم يا سيدي ، حتى يتضح لك هذا الشك ، أنه في الوقت الذي كتب فيه هذا البائس ذلك الشعر الذي قرأته لنا ، كان بعيداً عن مرثيلا ، إذ هجرها قصداً حتى يجرب عسى أن يؤثر فيه البعد والفراق أثرهما المعتاد . ولما كان العاشق النائي لا يدعه شك إلا طارده ولا خوف إلا حاصره ، فكذلك خروسستمو : احتمل عذاباً حقيقياً من غيره موهومة . وهكذا تظل شهرة فضيلة مرثيلا سليمة من كل أذى ، ولن يستطيع الجسد ، رغم اتصافها بالقسوة والصلف والاستكبار ، أن يأخذ عليها أو يكتشف فيها أدنى شائبة .

ـ هذا حق ، بهذا أجاب ڤيڤلدو .

ولما أراد قراءة صفحة أخرى من بين الأوراق التي أنقذها من النار ، منعه من ذلك منظر

عجيب تبدى لناظريه فجأة ، أو هكذا خيل إليه . فعلى الصخرة التي حفر قبر خروسستمو أسفلها تبدت الراعية مرثيلا جميلة جمالاً يفوق شهرتها . والذين لم يكونوا قد أبصروها بعد تطلعوا إليها في صمت الإعجاب ، وأولئك الذين اعتادوا رؤيتها لم يكونوا أقل دهشة . ولم يكد أميروزيو يبصرها حتى صاح بنفس مغيظة :

ـ هل أتيت صدفة ، أيتها الباسليق[1] الشاردة في هذه الجبال! ،لترى ماإذا كان حضورك سيسيل الدماء من جراح البائس الذي حرمته قسوتك من الحياة ؟ هل أتيت لتغتبطي وتفخري بما اجترحه مزاجك الغريب من مظالم ؟ أو لترى من علياء هذه الرابية وكأنك نيرون قاسٍ آخر ، حريق عاصمته روما ، أو لتركلي بقدميك هذه الجيفة البائسة ، كما ركلت ابنة طرقوينيوس العاقة جثة أبيها ؟ أنبئينا سريعاً ماذا أتى بك وما تريدين منا ، لأنك تعلمين أن إرادة خروسستمو كانت دائماً طوع أمرك إبان حياته ، لهذا سأعمل بعد مماته بحيث تكون إرادات من يسمون أصدقاءه مطواعة درج يديك .

فأجابت مرثيلا :

ـ لم آت ، يا أمبروزيو ، لشيء مما ذكرت . بل أتيت لأدافع عن نفسي ولأبين خطأ أولئك الذين يتهمونني بآلامهم وبموت خروسستمو . لذا أتوسل إليكم جميعاً معشر الحاضرين أن تعيروني أسماعكم . والحقيقة لا تحتاج في إثباتها للأذكياء إلى وقت طويل أو كلام كثير .

« تقولون إن السماء خلقتني جميلة جمالاً يحملكم على حبي ولا تملكون له دفعاً . وفي مقابل حبكم لي تقولون وتزعمون أني ملزمة بأن أبادلكم حباً بحب . وإني لأعترف حقاً ، بما أودع الله في من عقل طبيعي ، أن كل جميل محبوب . لكني لاأفهم أن يكون المحبوب لأنه جميل ملزماً ، بسبب أنه محبوب ، أن يحب من يحبه ، خصوصاً وقد يقع أن يكون من أحب الجميل امرءاً قبيحاً . ولما كان القبيح خليقاً بالكراهية ، فليس من حقه أن يقول : إني أحبك لأنك جميلة ، إذن يجب عليك أن تحبيني وإن كنت دميماً . لكن لنفترض أن الجمال متساوٍ لدى الطرفين ؛ بيد أن هذا ليس سبباً يوجب أن تكون الرغبات متساوية ، إذ لا ينشأ الحب من كل جمال أياً كان ؛ فمن الجمال مايلذ الأعين دون أن تنقاد له الإرادة . ولو كان كل جمال يؤثر ويستحوذ على القلوب لاختلطت الإرادات في العالم وتصادمت دون أن تعلم ما تأخذ وما تدع ، إذ لما كانت الأشخاص الجميلة لا متناهية ،

---

(١) حية ورد ذكرها في الأساطير يقال إنها تقتل بنظرتها . ومن أسمائها العربية الملكة والمكللة والأصلة والناظر .

فستكون الرغبات أيضاً لامتناهية . والحب الصادق ، كما سمعت ، لايتجزأ : وهو بالرضا ، لا بالقهر . فإن كان الأمر هكذا ، فيما أعتقد ، فلماذا تريد أن يستسلم قلبي للقهر ، لا لشيء إلا لأنك تقول إنك تحبيني ؟ لكن أنبئني : لو أن السماء خلقتني دميمة لا جميلة ، هل يكون من العدل أن أشكو منك إذا لم تحبني ؟ كذلك يجب عليك أن تلحظ أن جمالي لا يدلي في اختياره ، بل وهبتني السماء إياه بفضل منها دون رجاء مني ولا اختيار . وكما أن الحية لا تستحق أن تلام على السم الذي تحمله في فيها ، وإن كان يقتل ، لأن الطبيعة هي التي زودتها به ، كذلك أنا لا أستحق الملامة لأني خُلقت جميلة فالجمال في المرأة الشريفة كالنار البعيدة ، وكالسيف غير المتحرك : لا الأولى تحرق ، ولا الثاني يجرح من لا يقترب منهما . والشرف والفضيلة زينة النفس ، بغيرها يمكن ، لكن لا يجب ، أن يبدو الجسم جميلاً . فإذا كان الشرف من المزايا التي تزين النفس والجسم ، فلماذا يجب على المرأة التي تعشق لمفاتنها أن تفقد الشرف لتستجيب لرغبات الرجل الذي يحاول ، ابتغاء اللذة وحدها ، أن يسلبها إياه بكل الوسائل ؟ لقد ولدت حرة ، ولكي أستطيع أن أحيا حرة اخترت وحدة البراري : فأشجار هذه الجبال صحابتي الأدنون ، والمياه الصافية في هذه الجداول هي مراياي ، وإلى الأشجار والجداول أفضي بخواطري وجمالي . أنا نار بعيدة ، وسيف ليس في متناول أحد . وأولئك الذين جعلهم منظري عشاقاً ، بددت أوهامهم بكلماتي ، وإذا كانت الرغبات لا تتغذى الا بالأمل ، وأنا لم أبث الأمل أبداً في نفس خروسستمو أو نفس غيره ، لهذا يمكن أن يقال إن عناده لا قساوتي هو الذي سبب موته . ولو اعترض أحد وقال إن رغباته كانت شريفة ، ولهذا كان يجب عليّ أن ألبّيها ، فإني أجيب قائلة إنه حين كشف لي ، في هذا الموضع الذي تحفرون عنده اليوم قبره ، عن شرف نواياه ، قلت له إن نيّتي أنا أن أعيش في وحدة دائمة وأن تكون الأرض وحدها هي التي تملك رفات جمالي سليماً ، وإنه لو أراد ، رغم هذه النصيحة التي يجب أن تبدد أوهامه ، أن يصر على تحدي اليأس والإبحار ضد الريح ، فهل من عجب أن يغرق في لجة خليج الحماقة ؟ لو كنت خدعته ، لكنت كذبت نفسي ، ولو أرضيته لخُنت قراري ونقضت عزمي . لكنه أصر ، رغم تبديد وهمه ، واستيأس دون أن يكون مكروهاً . فانظر الآن هل من العدل أن أتهم بتعذيبه ؟ لوكنت خدعته ، فليشكني ، ولو كنت أخلفت وعداً ، لكان عليه أن ييأس ، ولو كنت دعوته ، لكان له أن يثق ، ولوكنت تلقيته بالقبول ، لكان له أن يزهو ، لكن هل يحق له أن يدعوني قاسية وقاتلة وأنا لم أخدعه ولم أدعه ولم أختره ؟ إن السماءلم تشأ حتى الآن أن أحب قضاء وقدراً ، ومن الخطأ اعتقاد أني سأحب طوعاً واختياراً . وليكن هذا إنذاراً عاماً

لكل أولئك الذين يسعون للظفر بحبي تحقيقاً لأهوائهم ، وليعلموا منذ الآن أنه إذا مات أحد من أجلي ، فلن يكون موته بسبب الغيرة أو الاحتقار ، لأن من لا تحب أحداً لا يمكن أن تثير الغيرة في أحد ، وتبديد الأوهام في أذهان الناس ليس معناه احتقارهم . إن من يدعني باسليقاً ووحشاً ، ليبتعد عني كشيء كريه خطر ، ومن يسمني جاحدة ، فلا يخدمني ، أو غريبة شاذة ، فلا يحاول أبداً أن يتعرف الي ، أو قاسية ، فليكف عن ملاحقتي . فهذه الباسليق ، وهذا الوحش ، وهذه الجاحدة ، القاسية ، الغريبة الشاذة ، لا تريد أن تعرف هؤلاء ولاأن تتبعهم أو تخدمهم بأية حال . وإذا كان الجزع وشدة الشهوة قد أفضيا بخروسستمو الى الهلاك ، فهل الذنب في هذا ذنب شرف سلوكي واحتياطي ؟ وإذا كنت أحافظ على فضيلتي بين هذه الأشجار في البراري الموحشة ، فلماذا يريد مني أن أفقدها ، ذلك الذي يريد مني الاحتفاظ بها بين الناس ؟ عندي كما تعلمون مال ، ولا أطمع في مال الآخرين : ومركزي يجعلني حرة ، ولا أود أن أصبح عبدة . أنا لا أحب ولا أكره أحداً ، ولا يستطيع أحد أن يقول إني أخدع هذا أو أتملق ذاك ، أو إني أسخر من الواحد وألاطف الآخر . ويكفي لإرضاء لذاتي صحبة شريفة للراعيات في هذه القرى وعنايتي بعنزاتي . إن هذه الجبال تؤلف وحدها ملكوت آمالي ، وإذا تجاوزتها فلكي تتأمل جمال السماء تحدوها الروح في هذا المقام الأول والأخير » .

وما أتمت هذه الكلمات حتى عادت « الراعية » أدراجها دون أن تنتظر جواباً واختفت في أعماق غابة تغطي الجبل مخلفة في جميع سامعيها إعجاباً بذكائها وجمالها معاً . وبدا على بعض من رمتهم بسهام أشعة عينيها الجميلتين أنهم يرغبون في اقتفاء إثرها ، دون أن يحفلوا بما أنذرت أضرابهم به . لكن لم يكد دون كيخوته يتوجس نيتهم هذه حتى بدت له الفرصة سانحة لإبراز فروسيته ، بأن يهبّ لنجدة الأوانس اللواتي يستصرخن . فأمسك مقبض مهنده بيمينه وصاح بصوت جهوري مفهوم :

ـ لا يفكرَنّ أحد ، مهما يكن شأنه ، في ملاحقة مرثيلا الجميلة ، حتى لا يثير ثائرتي ويلحقه غضبي ، لقد أثبتت ، ببراهين ناصعة قاصعة ، أنها بريئة تقريباً أو تماماً من موت خروسستمو ، وبينت كيف أنها بعيدة عن النزول عند أماني عشاقها . فبدلاً من ملاحقتها ومطاردتها ، من العدل احترامها وتقديرها من جانب النفوس الشريفة التي تعمر هذا العالم ، إذ هي من غير شك المرأة الوحيدة التي تقضي حياتها بنية طيبة .

وسواء أكان لتهديد دون كيخوته أثره ، أم أنهم استجابوا لدعوة أمبروزيو إياهم أن يؤدوا واجبهم كاملاً نحو صديقه ، لم يخط واحد من الرعاة خطوة حتى كان القبر قد حفر

وأحرقت أوراق خروسستمو ووسدوا جثمانه في التراب ؛ وتم هذا كله والدموع تنهمر من عيون جميع الحاضرين . وغطى القبر بصخرة عاتية انتظار الفراغ من نحت شاهد قال أمبروزيو إنه يريد أن ينقش عليه هذه الأبيات :

هنا عاشق راقد في الثرى رعى المَعْزَ حتى رماه الهوى
فأصمى ، لقسوة معشوقة بها الحب سيطر ثم استوى

ثم نثروا على القبر آلاف الأزهار والرياحين والأغصان ، وودع الرعاة جميعاً صديقهم أمبروزيو بعد أن واسوه في هذه الفاجعة . وفعل ڤيڤلدو ورفيقه مثلما فعلوا ، واستأذن دون كيخوته من ضيوفه والمسافرين اللذين دعواه للسفر معهما الى إشبيلية حيث تكثر المغامرات ، كما قالا ، إذ يوجد في كل زاوية من كل درب أكثر مما في سائر الدنيا . فشكر لهما دون كيخوته نصيحتهما وفضلهما واستعدادهما لإسداء الخدمة إليه ، قبل أن يطهر جميع هذه الجبال من قطاع الطريق الذين يقال إنهم يملأونها .

فلما رأى منه المسافران هذا العزم الوطيد لم يشاءا أن يزيداه إلحاحاً ، بل ودعاه ثم تابعا المسير ولديهما من الحديث زاد لا ينفذ ، الحديث عن قصة مرثيلا وخروسستمو ، وعن جنون دون كيخوته . أما هذا فقد قرر أن يمضي سعياً وراء الراعية مرثيلا وأن يعرض عليها خدماته . لكن الأمور لم تسر على ما تخيل ، كما سيرى القارئ فيما يتلو من هذه القصة الحقيقية التي ينتهي قسمها الثاني هنا .

الفصل الخامس عشر

في المغامرة الأليمة التي غامرها دون كيخوته
حينما لقي بعض الينجواسيّين الأشرار

روى الحكيم سيدي حامد بن الأيلي أن دون كيخوته لم يكد يودع ضيوفه والحاضرين دفن خروسستمو حتى دخل الغابة ، يتبعه حامل سلاحه ، حيث رأى الراعية مرثيلا تغيب عن الأنظار . وبعد أن جاس خلالها هنا وهناك خلال ساعتين باحثاً عنها في كل مكان دون أن يعثر عليها ، وصل وصاحبه الى مرج مغطى بالعشب النضير ، في خلاله ينساب جدول عذب رقيق . فأغراهما جمال المكان على قضاء ساعة القيلولة هناك ، لأن وهج القيظ في الظهيرة بدأ ينتشر وبعنف . فترجّلا وتركا روثينانته والحمار يرعيان على هواهما العشب الغزير في المرج النضير ، ثم هجما على الخرج ، ودون تكليف ، وفي هدوء وطيب صحبة أخذ المولى وخادمه في أكل ماوجداه .

ولم يحفل سنشو بوضع الشّكال في روثينانته ، لأنه عرفه فرساً هادئاً طيباً قليل الميل إلى الخطيئة الجنسية ، فلو قدمت إليه كل أفراس مراعي قرطبة لما أثرن في نفسه إغراء . لكن شاء الحظ ، والشيطان أيضاًوهو لا ينام باستمرار ،أنه كانت ترعى في هذا الوادي ساعتئذ رعلة من الأفراس الإناث الجليقيات يسرح بهن بغالون ينجواسيون[1] كان من عاداتهم القيلولة مع دوابهم في الأماكن التي يوجد فيها العشب والماء ، فكان الموضع الذي تلبث فيه دون كيخوته مناسباً لهم كل المناسبة . هنالك أحس روثينانته فجأة بالرغبة في مغازلة الأفراس السيدات ، فلم يكد يستروح وجودهم حتى خرج عن سيره المعتاد ومألوفه وراح يخب بدل دون أن يستأذن أصحابه ابتغاء أن يبلغ منهن مايريد . لكن الأفراس الإناث كن في حاجة الى الرعي أكثر من أي شيء آخر ، فاستقبلنه بالرفس والعض حتى مزقن أحزمة

(١)جليقية : مقاطعة في شمال غرب أسبانيا تحد غرباً وشمالاً بالمحيط الأطلسي ، وجنوباً بالبرتغال ، وشرقاًبمقاطعة قشتالة القديمة (سموره وليون واشتوريا) عاصمتها شنت يعقوب ، ومساحتها ٢,٩٣٧,٨٧٠ هكتار . ـ ينجواس : قرية في مقاطعة شقوبية .

السرج وتركنه عارياً فوق العشب . ولم يقتصر الأمر على هذا ، بل كان ماهو أدهى : فإن البغّالين وقد رأوا روثينانته يريد أن يهاجم أفراسهم ، أسرعوا بهراويهم وانهالواعليه ضرباً حتى تركوه مرضوض العظام فوق الجدالة .

وفي تلك الأثناء شاهد دون كيخوته وسنشو ماحل بروثينانته فأسرعا إليه يلهثان ، وقال دون كيخوته لحامل سلاحه :

ـ يخيّل إلي ، يا صاحبي سنشو ، أن هؤلاء القوم ليسوا فرساناً ، بل رعاعاً سفلة أخساء . لهذا تستطيع ، وأنت مطمئن الضمير ، أن تساعدني على الانتقام العادل للإهانة التي ألحقوها بروثينانته أمام أعيننا .

فأجاب سنشو : أي إنتقام تريد منا أن نقوم به ، وهم أكثر من عشرين ، ونحن اثنان فحسب ، أو بالأحرى واحد ونصف ؟

فرد عليه دون كيخوته قائلاً : أنا بمائة!

ودون أن يطيل الكلام ، أمسك بسيفه وانقض على الينجواسيين . وفعل سنشو مثلما فعل مقتدياً بمولاه .

وفي الهجمة الأولى ضرب دون كيخوته أحد البغّالين بسيفه ضربة شقت صدريته الجلدية وقطعة كبيرة من الكتف . ولما كان الينجواسيون عديدين وقد شاهدوا مهاجميهم اثنين فقط لجأوا إلى هراويهم فحاصروا كليهما في داخلهم وأهووا عليهما بعصيّهم فوق بطونهم بهمة هائلة . وفي الجولة الثانية جندلوا سنشو على التراب ، ولم يكن دون كيخوته أسعد حظاً من صاحبه ، ورغم شجاعته ومهارته ، وشاء الحظ أن يسقط عند أقدام روثينانته الذي لم يكن قد نهض من كبوته بعد . فكان منظراً يدل أوضح دلالة على الدور الذي يمكن أن تؤديه الهراوة في أيد غاضبة خشنة . ولما شاهد الينجواسيون آثار فعلتهم السيئة أسرعوا وحمّلوا دوابهم وارتحلوا عجلين ، تاركين المغامرين الاثنين في أسوأ حالٍ .

وكان أول من أفاق منهما سنشو ، فوجد نفسه الى جوار مولاه فقال له بصوت شاك حزين :

ـ مولاي دون كيخوته! أواه ، مولاي دون كيخوته!

فأجابه دون كيخوته بلهجة شاكية حزينة مثل لهجة سنشو : ماذا تريد يا أخي سنشو ؟

فأجاب سنشو بنثا : أود ، إن أمكن ، أن تتفضل عليّ بجرعة من شراب « الشرير بلاس »[1] إن كان معك منه ، فلعله مفيد في علاج الكسر في العظام كما هو ناجع في علاج الجراح .

---

(١) هنا تلاعب لفظي ، ورد في النص feo blas (= الشرير بلاس) ، وكان الصواب أن يقول : fierabras (= فيرابراس) ، ولكن سنشو الجاهل لم يحسن النطق بها!

فأجاب دون كيخوته : آه لو كان معي ها هنا! نحن في أمس الحاجة إليه! لكني أقسم لك يا سنشو بنثا ، بشرف الفروسية الجوالة ، أنه لن يمضي يومان ـ اللهم إلا إذا قرر القدر أمراً آخر ـ قبل أن أحصل على هذا البلسم في يدي ، وإلا شلت يداي!

فقال سنشو : يومان! إذن ماذا يظن مولاي بكم يوم نستعيد استعمال أقدامنا ؟

فأجاب الفارس المحطم دون كيخوته : أما عن نفسي ، فلا أدري كم من الأيام يستغرق هذا الأمر! لكنني أعلم أن الذنب في هذه المصيبة ذنبي أنا وحدي : إذ يجب علي ألا أشهر سيفي في وجه ناس لم يُسلَّحوا فرساناً . وقد سمح إله المعارك بأن أجازى هذا الجزاء القاسي لأني خالفت قوانين الفروسية . ولهذا ، يا سنشو بنثا ، يحسن بي أن أنبهك إلى أمر يهمنا جميعاً : وهو أنك إذا رأيت أمثال هؤلاء الرعاع يهينوننا ، فلا تنتظر حتى أشهر سيفي لعقابهم ، فهذا أمر لن أفعله ـ عوض ـ ، بل أمسك أنت بالسيف وعاقبهم كما يحلو لك ، فإن هب لنجدتهم والدفاع عنهم فرسان ، هنالك أعرف كيف أدافع عنك وأطردهم شر طردة ، لأنك قد رأيت من قبل ، بآلاف من التجارب والشواهد ، إلى أي مدى تمتد قوة وشجاعة هذا الساعد الذي لا يقهر .

ذلك أن هذا النبيل المسكين قد احتفظ بكثير من الكبرياء والمباهاة منذ انتصاره على البشكوني الشجاع! لكن سنشو لم يستصوب رأي مولاه ، حتى إنه لم يستطع إلا أن يجيبه على هذا النحو :

ـ مولاي ! أنا رجل مسالم هادئ رقيق ، وأستطيع احتمال كل أنواع الإهانات ، لأن لدي امرأة وأولاداً علي إطعامهم وتربيتهم . ولهذا ليتلق مولاي مني هذه النصيحة ، ولا أقول الأمر ، وهي أني لن أمسك بالسيف أبداً ، لا في وجه أحد الرعاع ولا أحد الفرسان ، وأني من الآن حتى يوم الحساب سأغتفر جميع الإهانات التي لحقتني أو ستلحق بي في المسقبل ، سواء أتت أو تأتي أو يجب أن تأتي من أشخاص علية أو سفلة ، أغنياء أو فقراء ، نبلاء أو نغلة ، دون استثناء أية طبقة أو جنس .

فما سمع سيده قوله حتى أجاب :

ـ وددت لو كان نَفَسي يسمح لي بالكلام بهدوء ، ووددت أن يهدأ قليلاً الألم الذي أشعر به من هذا الضلع المكسور ، حتى أجعلك تفهم ، يا بنثا ، كم أنت مخطئ فيما تقول . أيها الخاطئ الذي لا يرجع عن غيه! لو أن رياح الحظ ـ وهي معاكسة حتى الآن ـ استدارت وواتت وملأت أشرعة أمانينا حتى نلقى مراسينا دون عواصف في مرفأ واحدة من الجزر التي وعدتك بها ، ماذا يحدث لك لو أردت أن أوليك حاكماً عليها بعد أن أغزوها ؟ ستحول بيني

وبين ذلك ، لأنك لن تكون فارساً ولا تريد أن تكونه ، وليست لديك شجاعة ولا كرامة لتنتقم من الإهانات وتدافع عن ولايتك : إذ يجب أن تعرف أن نفوس السكان الأصليين ، في المقاطعات أو الممالك التي تفتح حديثاً ، ليست من الهدوء والطاعة للسيد الجديد بحيث لا يخشى المرء تألبهم عليه والمغامرة بأمر الحكم . لهذا يجب على المالك الجديد أن يكون له رجاحة عقل ليحسن سياسة الأمور ، وشجاعة ليتخذ في كل حال أهبته للهجوم أو الدفاع .

فأجاب سنشو : في الحالة الأخيرة التي وقعت لنا كنت أود أن يكون لدى ذلك العقل وتلك الشجاعة اللذان تتحدث عنهما . لكني أقسم لك قسم رجل فقير أني في هذه الساعة أحوج إلى المراهم مني إلى المواعظ . فليحاول مولاي أن ينهض ، ولنساعد بعد هذا روثينانته على النهوض وإن كان لا يستحقه لأنه هو السبب الأصلي في هذا المطر المنهمر من الضربات . وأنا لم أعتقد أبداً أن روثينانته يفعل شيئاً كهذا ، لأني كنت أظنه عفيفاً مسالماً مثلي أنا . وعلى كل حال فقد صدق من قال : لا بد من الزمن لمعرفة الناس على حقيقتهم ، ولا شيء مؤكد في هذه الدنيا . ومن كان يصدق أنه بعد الضربات القوية التي كالها مولاي بسيفه لهذا الشارد البائس ، ستأتي وراءها بسرعة تلك العاصفة الهائلة من ضربات الهراوي التي انقضت على أكتافنا ؟

فقال دون كيخوته : على أن أكتافك ياسنشو صنعت لمثل هذه الأمطار ، فما بالك بأكتافي أنا التي ربيت في لفائف من التيل الهولندي الرقيق! إنها ستتألم وتستشعر أوجاع هذه المغامرة البائسة زماناً أطول . ولولا أني أتخيل ، ماذا أقول! بل أوقن أن أمثال هذه المضايقات من لوازم مهنة السلاح الضرورية ، لكنت تركت نفسي أموت في هذا المكان حنقاً وعاراً .

فأجابه حامل السلاح :

ـ مولاي! مادامت هذه المحن من ثمار الفروسية ، فهل تستطيع أن تقول لي هل تأتي طوال العام ، أو في مواسم معلومات ، مثل المحاصيل ؟ إذ يلوح لي أننا إذا جنينا محصولين من هذا النوع ، فلن يكون في مقدورنا أبداً أن نجني المحصول الثالث ، اللهم إلا إذا أعاننا الله برحمته الواسعة .

فقال دون كيخوته :

ـ اعلم إذن ياصديقي سنشو أن حياة الفرسان الجوالة عُرضة لآلاف الأخطار والمصائب ، وأعلم أيضاً أنهم معرضون كذلك أن يصبحوا ملوكاً وأباطرة ، كما دلت التجربة عند كثير من الفرسان الذين أعرف تواريخهم بالدقة ، ولو سمحت لي أوجاعي لاستطعت الآن أن أقص

عليك طرفاً منها عن فرسان ارتفعوا بقوة سواعدهم إلى عروش الملك . وهؤلاء الفرسان أنفسهم قد بلوا النكبات وغرقوا في المصائب . فالشجاع أماديس الغالي وقع في قبضة عدوه اللدود ألا وهو الساحرأرخلاوس ، ومن المسلم به أن أرخلاوس بعد أن أخذ أماديس أسيراً ، ضربه أكثر من مائتي ضربة بالسوط ، أعني بسيور لجام فرسه بعد أن صلبه على عمود قائم في بهو قصره[1] . بل هناك مؤلف سرّي ، ولكنه ثقة ، يروي أن فارس فيبوس ، لما أن أمسك به في مصيدة نشبت في رجليه بأحد القصور ، وقع في سرداب عميق وقدماه ويداه موثقتان ، وهنالك جرّعوه دواءً من ماء الثلج والرمل أشرف به على الهلاك .ولولا أن أنقذه حكيم صديق حميم له لقضي على هذا الفارس المسكين . كذلك أنا : لا ضير عليّ من معاناة أمثال هذه المحن التي مر بها هؤلاء الأشخاص النبلاء ، إذ قدّر عليهم أن يحتملوا من المهانات ماهو أشد نكالاً مما عانيناه منذ قليل . وأريد أن تعلم ، ياسنشو ، أن الجراح التي تحدثها الآلات التي توجد صدفة في اليد ، لا تُلحق بالمرء إهانة ، فهذا مكتوب صراحة في قانون المبارزة ، حيث ورد : « لو أن إسكافياً ضرب آخر بما في يده ، وإن كان ما في يده من خشب ، فلن يقال إن من أصابته الضربة قد نُسئ بالعصا » . وإنّما قلت لك هذا حتّى لاتظن أننا وقد شبعنا ضرباً قد أصابتنا إهانة ، لأن الأسلحة التي كانت مع هؤلاء الناس وخنقونا بها ، لم تكن إلا أوتادهم ، ولاأذكر أبداً أن أحداً منهم كان يحمل سيفاً أو خنجراً أو نصلاً .

فأجاب سنشو : لم يتركوا لي من الوقت مايسمح بالتطلّع اليهم ، لأنّي لم أكد أمسك بسيفي[2] حتّى نغزوا كتفي بعصيّهم على نحوٍ جعلني لاأرى شيئاً ولا أقدر على المشي ، ثمّ جندلوني في هذا الموضع الذي لاأزال راقداً فيه . وما يؤلمني حقّاً ليس هو التفكير فيما إذا كانت ضربات الأوتاد جرت على إهانة أو لم تجر ، وإنّما هو الوجع الذي خلّفته هذه الضربات التي ستظل منقوشة في ذاكرتي كما هي في أكتافي .

فقال دون كيخوته : ورغم هذا فعليّ أن أذكّرك ، يا أخي پنثا ، أنه لاحقد إلا ويمحوه الزمان ، ولا وجع إلا ويشفيه الموت .

فأجاب پنثا : ماهذا ؟ أي شرّ أعظم من ذلك الذي ينتظر الزمان لمحوه والموت لشفائه! لو أن مصابنا اليوم كان مما يشفيه زوج من المراهم ، لهان الخطب ، لكني بدأت أعتقد أنّ جميع اللبخات الموجودة في مستشفى لا تكفي لمجرّد أن نستطيع النهوض على أقدامنا .

---

(١) وقع أماديس مرتين في قبضة أرخلاوس : في الأولى سحره ، وفي الثانية سجنه في سرداب وتركه فريسه للجوع والعطش . لكن ليس في القصة ما يدل على أنه ضربه بالسوط .

(٢) في النص : mi tizona « وتيثونا » هو في الأصل أحد سيفي السيد القمبيطور ، والآخر كان يسمّى colada .

فقال دون كيخوته : دع هذا ياسنشو ، واستخرج من الشدّة قوة ، وسأفعل أنا كذلك ولننظر كيف حال روثينانته ، اذ يلوح لي أن هذا الحيوان المسكين قد أصابه من هذه المحنة شرٌّ غير قليل .

فأجاب سنشو : ليس في هذا ما يدعو للدهشة ،لأنّه هو الآخر فارسٌ جوّال! بل الذي يدهشني هو أنّ حماري خرج منها سليماً معافى لم يُمَسّ له ضلع بينما خرجنا نحن بغير ضلوع!

فقال دون كيخوته : في الشدائد يترك البخت دائماً باباً مفتوحاً للخروج منها . أنا أقول هذا لأن هذه الدابة الطيبة يمكن أن تحل محل روثينانته فتحملني من هنا الى قصر من القصور تضمّد فيه جراحي . خصوصاً وأنا لاأرى هذه الركوبة مما يشين ، لأنّي أذكر مما قرأت أن ذلك العجوز الطيب سلينو ، الذي تولّى تربية إله السرور ، لذّ له أن يركب حماراً جميلاً داخل المدينة ذات الأبواب المائة[1] .

فأجاب سنشو : كان لابد راكباً كالخيّال كما يقول مولاي . لكن فارق كبير بين أن يغدو راكباً هكذا ، ساقاً هنا وساقاً في الناحية الأخرى ، وبين أن يحزم حزماً على الدابة كزكيبة الدقيق .

فردّ عليه دون كيخوته وعليه سيماء الجد : إن الجراح التي يتلقّاها المرء في المعارك تزيده شرفاً ولاتسلبه . فلا ترد علي بعد هذا يا صديقي پنشا ، بل انهض مااستطعت كما قلت لك ، واركب حمارك على النحو الذي يحلو لك ، ولنرحل من هنا قبل أن يفاجئنا الليل في هذه القفار الموحشة .

فأجابه سنشو : لكنّي سمعت من مولاي مرّات كثيرة أنه كثيراً مايقع للفرسان الجوّالة أن يبيتوا في القفار يلتحفون السماء والنجوم ، بل يلذ لهم ذلك .

فقال دون كيخوته : هذا يحدث اذا لم يكن لهم مندوحة عنه ، أو إذا كانوا عشّاقاً . ولقد أصبت فيما قلت ، لأن من الفرسان من يلزمون صخرة ، معرضين للشمس والظل وتقلّبات الجو خلال سنتين كاملتين دون علم عشيقته . ومن هؤلاء أماديس حينما تسمّى باسم «نور الظلام» ، وأقام على «الصخرة الجرداء» ، وبقي هناك لاأدري كم من الزمان : ثماني سنين أو ثمانية أشهر ،لاأذكر العدد بالضبط ، لكن يكفي أن تعرف أنه قضى مدة

---

(١) لاحظ كلمنثين أن ثرڤانتس خلط هنا بين مدينة طيبة اليونانية ، وطن باخوس إله الخمر والسرور ، وبين طيبة المصرية التي كانت ذات مائة باب . والذي أوقعه في هذا الغلط هو خوّان دي مينا في كتابه «الثلثمائة أغنية» (أشبيلية سنة ١٤٩٦) ، وهو قصيدة رمزية خيالية تدور حول الحياة الانسانية ، مؤلفة من مثان عدتها ٢٩٧ يضاف اليها ثلاثة أخرى . وقد أتمه سنة ١٤٤٤ .

يستغفر فيها ذنبه بسبب سوء استقبال عاشقته أوريانة له . لكن لندع هذا ياسنشو ، ولنفرغ قبل أن تقع محنة للحمار كما وقع لروثينانته .

فقال سنشو : أي شيطان مريد إذن!

ثمّ زفر ثلاثين زفرة وستين آهة ، ولعن مائة وعشرين لعنة الحظ الذي أتى به الى هناك ، وأخيراً نهض واقفاً ، لكنه وقف قبل أن تستقيم قامته ، وبقي منحنياً كالقوس دون أن يقدر على الإعتدال . وكان عليه وهو في هذا الوضع الأليم أن يلحق بالحمار ويضع عليه البرذعة ، بعد أن انطلق شيئاً من الإنطلاق لما ظفر به من حرية في ذلك اليوم .

ثمّ أنهض روثينانته ، ولو كان لهذا الفرس لسان يشكو به لقاوم السيد والخادم معاً . وأخيراً هيأ مركباً لدون كيخوته على الحمار ، وربط روثينانته بمؤخرته ، واقتاد دابته بالرسن ، وسار في الطريق من الناحية التي ظنّ أنها تفضي الى الطريق الرئيسي . وبالفعل شاء القدر المواتي أن يبلغ الطريق العام بعد وقت قصير ، وأبصر فيه فندقاً كان بالرغم منه قصراً كما شاء دون كيخوته : كان من رأي سنشو أنه فندق ، ومن رأى دون كيخوته أنه قصر ، واحتدم النزاع طويلاً ، ولمّا ينته حينما بلغا باب هذا المنزل ، ودخل سنشو بكل قافلته دون مزيد من الاستفهام عن حقيقة أمره .

الفصل السادس عشر

فيما وقع للنبيل العبقري (دون كيخوته)
في الفندق الذي حسبه قصراً

رأى صاحب الفندق دون كيخوته مطروحاً على الحمار فسأل سنشو ماذا وقع لهذا الرجل . فأجاب سنشو أن الأمر هين ؛ ذلك أنه انحدر من أعلى صخرة الى أسفل فحدثت في ضلوعه رضوض . وكان لصاحب الفندق زوجة ـ على عكس زوجات أصحاب هذه المهنة ـ تميل بطبعها الى إسداء الإحسان وتعطف على مصائب الجيران . لهذا هرعت لتضميد دون كيخوته واستعانت بهذا بابنة لها فتاة وضيئة الطلعة . ـ وكان في الفندق خادمة أشتورية[1] ، عريضة الوجه ، سطيحة القفا ، فطساء الأنف ، عوراء في عين ، غير سليمة العين الأخرى . ولكن حسن قوامها عوّض عن معايب وجهها ؛ لم يزد طولها من قدميها حتّى رأسها عن سبعة أشبار ، وكانت أكتافها ، التي أبهظت كاهلها وأحنت ظهرها شيئاً ما ، تحملها على أن تخفض عيونها الى الأرض أكثر مما كانت تود . ـ أقبلت هذه الخادمة الطيبة تساعد ابنة صاحب الفندق في تهيئة فراش خشن لدون كيخوته في غرفة حقيرة يبدو من ظواهر الحال أنها كانت تستعمل مخزناً للتبن سنين طويلة . وكان يسكن في الغرفة نفسها بغّال لم يكن سريره يبعد كثيراً عن سرير صاحبنا دون كيخوته ، وعلى الرغم من أن سرير هذا الجلف كان مؤلّفاً من براذع بغاله وأغطيتها ، فقد كان أفضل مائه مرة من سرير صاحبنا الفارس ؛ إذا لم يكن هذا إلا أربعة ألواح خشنة موضوعة على دكتين غير مستويتين ، ثمّ مرتبة رقيقة جداً حتى كانت أشبه بملاءة سرير ، مملوءة ببروزات خشنة لو مسّها المرء لحسبها حصىً إذ لم يبصر ، من بعض ثقوبها ، أنها عمائت[2] من الصوف ، ثمّ غطاءين من جلد

---

(١) اشتورش ؛ حوز ، وإمارة قديمة في شمال اسبانيا ، تشمل اليوم مقاطعة أوفييدو ، وتحد بالمحيط الأطلسي شمالاً وبمقاطعات لوجو وليون وبلنثيا وسانتندر ، مساحتها ٧٦٦٨كم٢ ، وأشهرها بلادها أوفييدو ، عاصمة الاقليم ، ثم خيخون .

(٢) جمع عميتة ؛ وهي القطعة من الصوف الملفوف مستديراً ليجعل في اليد فيغزل .

الجاموس ، وملاءة كان من الممكن أن يعد المرء خيوطها واحداً واحداً دون أن يترك منها خيطاً . وعلى هذه المنبذة الغليظة انطرح دون كيخوته ، وسرعان ماجاءت صاحبة المنزل وبنتها ومسحاه بالمرهم من رأسه حتى أخمص قدميه ، على ضوء مصباح حملته ماريتورنس ، الخادمة الأشتورية . وفي هذه العملية شاهدت صاحبة النُزل مواضع سوداء زرقاء مرضوضة فقالت إن ماوقع له يبدو أنه ضربات وليس سقوطاً .

فقال سنشو : لا لم تكن ضربات ، ولكن الصخرة التي سقط منها كانت ذات نتوءات حادة كثيرة تركت هذه الأثار .

ثمّ أردف قائلاً : إذا تفضّلت ابق على بعض المشق ، فقد يحتاجها أحد الناس لتضميد جراحه ، إذ الواقع أن في ضلوعي وجعاً .

فسألته صاحبة الفندق : وأنت أيضاً وقعت ؟

فأجاب سنشو پنثا : كلا! ولكن الخوف والرعدة اللذين استوليا عليّ حينما رأيت سيدي يقع جعلا جسمي يتألم ألماً يبدو منه كأني ضربت مائة ضربة بالعصا .

فقالت البنت : هذا جائز ، فلقد حصل لي مرّات عدة أن حلمت أني وقعت من أعلى برج ولم أصل الى الأرض أبداً ، وحينما استيقظت ، كنت منهوكة القوى محطمة كأني وقعت فعلاً! .

فقال سنشو پنثا : هذا ماحدث بالضبط يا أنسة! ودون أن أكون حالماً ، وأكثر يقظة مما أنا الآن ، وجدت على جسمي من الكدح والجحش[1] مثلما على بدن مولاي دون كيخوته .

فقالت ماريتورنس الأشتورية : مااسم هذا الفارس ؟

فأجاب سنشو : اسمه دون كيخوته دلامنتشا ، وهو فارس جوّال ، ومن أشجع وأعظم من شوهد على ظهر الأرض منذ زمان طويل .

فسألت الخادمة اللطيفة : ومن هو الفارس الجوّال ؟

فأجاب سنشو : ماذا ؟ هل أنت جديدة على الدنيا بحيث لا تعرفين من الفارس الجوّال ؟ اذن فلتعلمي ، يا أختي ، أن الفارس الجوال شيء يمكن في لحظة واحدة أن يُضرب أو يصبح امبراطوراً : فاليوم يكون أبأس الناس وأشدّهم جوعاً ، وغداً يملك ثلاثة أو أربعة تيجان يتعطّف بها على حامل سلاحه .

---

(١) الكدح والجحش : أثر السقطة والانسحاج .

فقالت صاحبة الفندق : إذا كان الأمر كذلك ، وأنت حامل سلاح هذا الفارس النبيل ، فلماذا لا تملك إمارة[1] على الأقل ؟

فأجاب سنشو : لم يأن الأوان بعد! لأننا لم نخرج للبحث عن مغامرات إلا منذ شهر[2] ، وحتى الآن لم نصادف مغامرة جديرة بهذا الاسم . وقد يقع للمرء أحياناً أن يبحث عن شيء فيجد شيئاً آخر . لكن ليشف مولاي دون كيخوته من هذا الجرح ، أو السقوط ولتزل عني أوجاعي ، وأنا لا أبادل بآمالي أعظم لقب في اسبانيا!

وكان دون كيخوته ينصت لهذا الحديث كله باهتمام بالغ وهو راقد على فراشه . وهنالك نهض ما استطاع وأخذ بيد صاحبة الفندق وقال :

ـ أيتها السيدة! صدقيني أنك تستطيعين أن تعدي نفسك سعيدة لأنك استقبلت شخصي في قصرك ، شخصي الذي لا أودّ إطراءه ، لأن مادح نفسه واضع لها ، لكن حامل سلاحي سينبئك عن حقيقتي . إنما أود أن أقول لك إنّي سأنقش الى الأبد في ذاكرتي الخدمة التي أسديتها إليّ ، وسأعترف لك بجميلها مدى الحياة وبودّي لو لم أكن أسيراً لقوانين الحب ، وعبداً لعيون هذه الجاحدة الجميلة التي أذكرها بين أسناني! إذن لكانت عيون هذه الآنسة الفاتنة مطلقة التصرّف في حرّيتي .

فأطرقت صاحبة الفندق وابنتها وماريتورنس الطيبة خجلاً من كلمات الفارس الجوّال . ولم يفهمن منها شيئاً وكأنّه يتكلّم اليونانية . ولكنهن قدّرن أنه إنّما أراد شكرهن وتدليلهن ، ولكنهن لم يتعوّدن مثل هذه اللهجة فنظرن اليه ونظرت كل منهن الى الأخرى ، وبدا لهن دون كيخوته رجلاً بخلاف سائر الناس . ولمّا أن شكرنّ له كلماته اللطيفة عن الفندق ، تركنّه ، وراحت ماريتورنس لتضميد سنشو ، ولم يكن أقلّ حاجة الى العلاج من مولاه .

وكان البغّال قد اتفق مع ماريتورنس على أن يقضيا ليلة مرحة معاً . إذ وعدته أن تأتي اليه بعد أن يأوى النزلاء إلى فرشهم وينام أصحاب الفندق ، وتحقق له كل مايطلب إليها من ملذّات . ويقال عن هذه الخادمة أنها لم تعد أبداًوعداً من هذا النوع دون إنجازه ، حتّى لو كان الوعد في قاع غابة ودون شهود! لأنها كانت تتباهى بأن في عروقها يجري دم نبلاء ، ولم تر مما يحط من شأنها أن تكون خادمة في فندق ، وتقول أن تقلّبات الحدثان وبلايا الزمان هي التي ألقت بها في هذا الحال . وكان سرير دون كيخوته ، ذلك السرير الخشن الضيق الهزيل الغادر ، هو أوّل الأسرّة في وسط هذا العنبر الذي تنحدر من ثقوب سقفه أضواء النجوم . بالقرب منه هيأ سنشو

---

(١) في النص : كونتية ـ أي مقاطعة كونت .

(٢) هذا تمويه عليها : لأنهما لم يخرجا إلا منذ ثلاثة أيام فحسب .

فراشه ، ولم يكن فراشه إلاّ حصيرة من القش وغطاءً أشبه بالوبر[1] منه بالصوف . وتلا هذين السريرين سرير البغّال ، وكان مؤلفاً من البراذع والسروج التي كانت على خير بغلين عنده ، وكان معه إثنا عشر بغلاً كلها سمينة شديدة الألواح ذات رونق ، لأنه كان من أصحاب البغال الأغنياء أريبلو[2] ، كما يقول مؤلف هذه القصة الذي يشير الى هذا البغّال إشاره خاصة لأنه كان يعرفه معرفه معرفة وثيقة ، بل يؤكّد البعض أنه كان يمت إليه بصلة القرابة[3] . وقد كان سيدي حامد بن الأيلي مؤرخاً واسع الإطلاع شديد الاستقصاء والتدقيق في كل شيء ، والشاهد على هذا ما رواه حتّى الآن ، فإنه على الرغم من تفاهته وضآلته لم يشأ أن يغفل منه شيئاً . وعلى المؤرخين الجادين الذين يرون أعمال أبطالهم على نحوٍ موجز قصير أن يضربوا على قالبه لأن إيجازهم لا يكاد ذوقه يبلغ شفاهنا ، ويتركون في المحبرة ـ إهمالاً أو جهلاً أو خبثاً ـ خير ما في الأمر . وحيّا الله ألف مرة مؤلف « تابلانة دي ريكامونته »[4] ، ومؤلف الكتاب الذي يروي أعمال كوندي توميا س! فقد وصفا كل شيء بمنتهى الدقة[5] .

وأقول أنّ البغّال بعد أن تفقّد حال دوابه وأعطاها العلوفة الثانية من الشعير ، تمدّد على براذعه وسروجه ، وأنشأ ينتظر مقدم ماريتورنس ذات المواعيد الدقيقة . أمّا سنشو پنثا فقد دُهن جيداً واستعدّ للنوم ، ولكنه لم يستطع ، رغم ما بذل ، أن ينام لأن آلام ضلوعه حالت بينه وبين ذلك . أمّا دون كيخوته فقد جعلته أوجاعه مفتوح العينين كالأرانب . وكان النزل كلّه غارقاً في الصمت ، ولم يكن فيه من النور إلاّ نور مصباح يتّقد معلّقاً تحت عقد الباب الخارجي . وهذا الهدوء الشامل ، والخواطر التي تغذّيها في نفس فارسنا هذا ذكرى الحوادث التي تجري في كل صفحة من صفحات الكتب التي كانت السبب في بلائه ، قد بعثت في خياله جنوناً من أغرب أنواع الجنون التي يمكن الانسان أن يتخيّلها وهو في تمام وعيه . إذ قد خيّل اليه أنه أتى قصراً شهيراً ، لأن جميع الفنادق التي أوى اليها كانت في نظره قصوراً شامخة ، وأنّ ابنة صاحب الفندق هي إبنة صاحب القصر وقد قهرها لطفه فاشتعلت غراماً به ، وأنها قرّرت أن تزوره هذه الليلة بنفسها دون أن يعلم أهلها ، تزوره

(١) في النص : « أشبه بخز أنجو (مقاطعة في فرنسا ، وبلد) منه بالصوف » . وكان أنجو تنتج خزاً غليظاً .

(٢) arevalo مدينة في مقاطعة آبلة على بعد ٧٥ كم شمال شرقي آبلة ، عند تلاقي نهري أريبليو وأداخا ، وفيها كنائس جميلة ، يقال أن إحداها من عهد الامبراطور قسطنطين .

(٣) كان معظم البغّالين في اسبانيا إمّا من الينجوشيين أو من العرب المتنصرة ، ولمّا كان المؤلّف عربيّاً متنصّراً وهو سيدي حامد بن الأيلي ، بحسب مايزعم ثرفانتس ، فليس بمستبعد إذن أن تكون ثمة قرابة .

(٤) يشير ثرفانتس هنا الى « أخبار الفرسان النبلاء ، تابلانه دي ريكامونته وخولوه ، ابن الكونت أسون » ، طليطلة سنة ١٥١٣ (راجع مينندث بلايو ، « أصول القصة » ج١ ص CL XXXIV) ـ أمّا كوندي توميا س فشخص ثانوي في « تاريخ أنريكه بن أوليفا ، ملك أورشليم وامبراطور القسطنطينية » (اشبيلية سنة ١٤٩٨) .

(٥) كل هذا تهكّم من ثرفانتس .

في مخدعه . وقد اعتقد أن هذه الأوهام التي ابتدعها ، حقائق واقعية ، فأنشأ يضطرب ويحزن وهو يفكّر في الخطر الداهم الذي يتهدّد بكارثة . لكنّه عزم في قرارة نفسه ألا يخون سيدته دلثنيا دل توبوسو ، حتى لو كانت الزائرة هي الملكة جنڤياڤ نفسها تصحبها وصيفتها كنتنيونا .

وكان يهيم في بيداء هذه التهاويل لما أن حانت الساعة (المشئومة بالنسبة إليه) التي تأتي فيها الأشتورية . وها هي ذي قد أقبلت بقميصها عارية القدمين معقودة الشعر بشبكة من قماش القطن ، وهي تتسلّل على أطراف قدميها في العنبر الذي كان النزلاء الثلاثة يرقدون فيه ، تريد أن تبلغ صاحبها البغّال . ولم تكد تجتاز وصيد الباب حتى أحس بها دون كيخوته ، فنهض جالساً على سريره ، رغم تضميداته وأوجاع ضلوعه ، ومدّ ذراعيه لاستقبال فتاة أحلامه الرائعة . وأقبلت الأشتورية جامعة أطرافها حابسة أنفاسها ويداها الى أمام تتلمّسان حبيبها ، فوقعت بين ذراعي دون كيخوته فأمسك بها بقبضة قوية وجذبها إليه دون أن تجرؤ على التفوّه بكلمة ، ثمّ أجلسها على سريره . وتحسّس قميصها ـ وكان من الخيش ـ فبدا له من أفخر الديباج ، وكانت في ذراعيها أسورة مؤلفة من خرز زجاجي فبدت له كاللؤلؤ الشرقي المنضود ، وكان شعرها يضرب الى لون الوبر وطبيعته فحسبه غدائر من أنفس ذهب بلاد العرب ، يفوق بريقه لمعان الشمس ، أمّا أنفاسها ـ ولم تكن رائحتها إلا من رائحة سلطة الثوم ذات التوابل والخل المصنّة من الأمس ـ فقد حسبها تنشر شذى طيب الريح عبهريّ النسيم . وبالجملة فقد رسمها في خياله بالمحاسن والمفاتن التي كانت لتلك الأميرة التي قرأ في كتبه أنها جاءت لزيارة الفارس الجريح إبان الليل ، وقد غلبها الوجد واستولى عليها الغرام . لكن هكذا كان ضلال هذا النبيل المسكين الذي لم يستطع أن يبدّد أوهامه شيء : لا ملمسها ولا نفسها ولا تلك الأمور الأخرى التي تميّز هذه الفتاة البائسة ، مما كان من شأنه أن يثير استفراغ أحشاء أي إنسان غير هذا البغّال . بل بالعكس ، حسب دون كيخوته أن يحضن بين ذراعيه إلهة حبّه ، فضمّها بحرارة وهو يقول لها بصوت يفيض عذوبةً وحناناً .

ـ بودّي لو استطعت ، أيتها السيدة الجليلة الفاتنة ، أن أجازي هذه النعمة السابغة التي أنعمت بها عليّ برؤية جمالك الفائق . لكنّ الحظ ، الذي مافتئ يضطهد الأخيار ، قد شاء أن يقذف بي في هذا السرير حيث أرقد الآن محطّماً منهوكاً ، فلو شاءت إرادتي أن تكون كفاء إرادتك لما استطاعت . يضاف الى هذه الإستحالة أخرى أشد منها ألا وهي العهد الذي قطعته على نفسي قبل المنقطعة النظير دُلثنيا دل توبوسو ، فهي وحدها سيدة أفكاري وفتاة أحلامي . ولو لم تقم هذه العقبات ، لما كنت من الغفلة والبلاهة بحيث أدع هذه الفرصة السعيدة تمرّ وقد أتاحها فضلك العميم!

وكانت ماريتورنس في أشد الجزع من ضمّ دون كيخوته لها بهذه الشدة ، وبذلت كل جهد مستطاع للتخلّص منه ، دون أن تعير كلماته أدنى اهتمام وانتباه . وكان البغّال الساذج - وقد أبقته شهواته الخبيثة ساهراً - قد سمع هو الآخر وقع دخول حوريته[1] لمّا أن اجتازت عتبة الباب . فأرهف اذنه لاستماع كل ماقاله دون كيخوته . ودبّ في نفسه دبيب الغيرة لأن الأشتورية لم تف بوعدها واستبدلت به رجلاً آخر ، فنهض واقترب من سرير دون كيخوته ، وراقب هادئ الجأش ليرى الى أي شيء تفضي هذه الكلمات التي لم يفهمها . لكنه حينما رأى الفتاة المسكينة تجاهد للتخلّص ، بينما دون كيخوته يحاول الاحتفاظ بها ، تضايق من الأمر ، ورفع ذراعه على كل طوله وأهوى على الفارس الهائم بضربة عنيفة بجمع يده فأصابت فكّيه حتّى جرى الدم مدراراً من فمه . ولم يكتف بهذا ، بل وثب على صدره وضربه بقدميه ضرباً أسرع من الركض شمله من أعلى الى أسفل . ولم يحتمل السرير ثقل البغّال لأن السرير كان ضعيفاً في تركيبه خرعاً في قوائمه ، فاندكّ وهوى على الأرض . فاستيقظ صاحب الفندق على قرقعة السرير ، وخيّل اليه أن ماريتورنس تتعارك ، لأنّها لم تجب حين دعاها بأعلى صوته . وتحت تأثير هذا الظن نهض وأشعل قنديلاً[2] ، وتقدّم الى الناحية التي صدرت عنها الضوضاء . وأحست الخادمة بسيدها قادماً ، وهي تعرف شراسة خلقه ، فاضطربت وارتعدت فرائصها وراحت تلوذ بسرير سنشو پنثا وكان لايزال يغطّ في نومه ، ورقدت عليه وتكوّرت مثل كبّة الغزل . ودخل صاحب الفندق وهو يصيح :

- أين أنت يا عاهرة ؟ فليس من شك أن هذه ألاعيبك .

وفي هذه اللحظة استيقظ سنشو ، ولمّا أحس بهذه الكتلة على بطنه حسب أنه في كابوس ، فراح يكيل اللكمات يمنة ويسرى ، وكان أكثرها من نصيب ماريتورنس ، فلم تطق هذه آلامها وفقدت مع صبرها حياءها فجازت سنشو بمثل ما أعطاها ، بقسوة أيقظته من رقاده . فلمّا تنبه سنشو الى ماوقع له ، دون أن يعرف ممن ولمَ نهض مااستطاع واشتبك مع ماريتورنس في معركة من ألطف ماشهده الناس . وفي تلك الأثناء شاهد البغّال على ضوء القنديل ماأصاب سيدته ، فتخلّى عن دون كيخوته وراح ينجدها . وفعل صاحب الفندق فعلته ، لكن لغرض آخر ، لأنه أراد أن يعاقب الأشتورية ، معتقداً أنها السبب الوحيد في قيام هذه الملحمة الشيطانية . وكما اعتاد الناس أن يقولوا : «الكلب[3] للقط ، والقط للفأر ، والفأر

(١) في النص Coima وهي كلمة جرمانية الأصل معناها الحرفي : خليلة ، فاجرة ، يسيرة الوصال .

(٢) في الاسباني Candil العربية .

(٣) الكلب للقط : أضفناها لزيادة الإيضاح .

للحبل ، والحبل للعصا » ـ كذلك راح البغّال يضرب سنشو ، وسنشو يضرب البنت ، والبنت تضرب سنشو ، وصاحب الفندق يضرب البنت ؛ وكان كل من الأربعة يزاول عمله هذا بكل ارتياح ونشاط حتّى أنهم لم يفرغوا منه لحظة . وألطف مافي الأمر أن قنديل صاحب الفندق انطفأ فشملهم الظلام فجأة ، فانطلقت الضربات واللكمات خبط عشواء في الظلمات بلا رحمة هنا وهناك ، حتّى لم تدع أيديهم حينما امتدّت لحماً سليماً ولاقطعة من قميص .

وتصادف أن كان يبيت في هذه الليلة في الفندق قوّاس من أولئك الذين يطلق عليهم اسم «الأخوة المقدّسة القديمة في طليطلة »(١) ، لم يكد يسمع جلبة المعركة حتّى أمسك بسوطه الأسود وصندوقه الصفيح الذي يحتوي على ألقابه . ثمّ دخل متحسّساً في العنبر الذي كانت المعركة تجري فيه وصاح :

ـ قفوا باسم العدالة! قفوا باسم «الأخوة المقدّسة »!

وكان أوّل من لقيه هو دون كيخوته المسكين ، وكان لايزال راقداً على حطام سريره ، متمدّداً وفمه في الهواء وهو في حالة إغماء . فأمسك القوّاس بلحيته وظلّ يصيح : «الحكم للعدالة! » لكنّه أحسّ أن من أمسك به لم يبدِ حراكاً أبداً ، فظنّ أنه قُتل ، وأنّ الآخرين هم القتلة . وبتأثير هذا الاعتقاد ، علا صراخه وهو يقول :

ـ أغلقوا باب الفندق ، وحاذروا أن يهرب أحدٌ!

فأحدثت هذه الصرخة فزعاً في المحاربين ، فتركوا المعركة وهي لاتزال سجالاً في اللحظة التي صاح فيهم القوّاس صيحته . وانسحب صاحب الفندق الى غرفته ، والخادمة الى مغاراتها ، والبغّال الى براذعه المكدّسة . أمّا المسكينان دون كيخوته وسنشو فهما وحدهما اللذان لم يستطيعا التحرّك من مكانيهما . وأخيراً خلّى القوّاس عن لحية دون كيخوته ، وخرج لإحضار نور ثمّ يعود للقبض على المجرمين ، لكنّه لم يجد شرارة واحدة ، لأن صاحب الفندق أطفأ مصباح البوابة عمداً حين عاد أدراجه . فاضطر القوّاس أن يستعين بالمدخنة ، حتّى وجد الوسيلة لإشعال ذبالة أخرى بعد عناء شديد ووقت ضائع طويل .

---

(١) كانت هذه الشرطة في طليطلة وطلبيرة وثيوداريال . وكانت تتألف من فرسان ونبلاء . ومهمتها مطاردة اللصوص والعيارين الذي يقطعون الطرق على المسافرين في الجبال والدروب العامة ، وينهبون الأموال والعقار . وكان لهذه الشرطة امتيازات كثيرة صدّق عليها سان فرنندو سنة ١٢٢٠ . وكانوا يحكمون في الخلافات والجرائم ، ولهم الحق بالحكم بالإعدام رمياً بالقوس . وكانت جماعات اللصوص والعيارين قد انتشرت في جبال طليطلة ، وفلاريال (ثيودا ريال فيما بعد) وطلبيرة ، ويسمّون golbines ، فلحماية الأرواح والأموال من جرائمهم واغتيالاتهم ألف أصحاب المصالح إخوة فيما بينهم أفلحت في القضاء على أولئك المجرمين ، فصدّق على قيامها الملك ، وسمّيت بالمقدّسة لقداسة الأغراض التي يسعون لتحقيقها .

الفصل السابع عشر

في تلاوة أخبار الأمور التي وقعت للشجاع دون كيخوته وحامل سلاحه الطيب سنشو پنثا، في الفندق الذي حسبه ـ لسوء حظه ـ قصراً

وفي تلك الأثناء كان دون كيخوته قد أفاق من إغمائه ، فراح يدعو حامل سلاحه بلهجة حزينة شاكية شبيهة بتلك التي دعاه بها في اليوم السابق حينما كان مطروحاً في وادي الأوتاد[١] :

ـ صديقي سنشو ، هل أنت نائم ؟ هل أنت نائم ؟ ياسنشو الصديق ؟

فأجاب سنشو ، وهو ممتلىء يأساً وغيظاً :

أي نوم تريد منّي أن أنامه ، إذا كانت زبانية الجحيم كلّها قد انقضّت عليّ هذه الليلة ؟

فقال دون كيخوته :

ـ في وسعك أن تظن الأمر كذلك لأنّه إمّا أني لاأعرف إلا قليلاً ، أو هذا القصر مسحور ، ويجب أن تعلم... لكن قبل أن أتكلّم أريد منك أن تُقسم لي بأن ماسأقوله سيظل سرّاً الى مابعد وفاتي .

فأجاب سنشو :

نعم أقسم .

فقال دون كيخوته : إني أطلب منك هذا القسم لأني أكره الإساءة إلى شرف أي شخص .

فعاد سنشو يقول : مادمت أقول لك إني أقسم ، وإنّي سأكتم السر حتّى نهاية عمرك! على أني أرجو من الله أن يهيئ لي البوح به غداً!

فقال دون كيخوته : هل أسأت اليك يا سنشو إلى حد أن تتمنّى موتي سريعاً هكذا ؟

---

(١) هي الأوتاد التي ضرب بها دون كيخوته وسنشو حينما اشتبكا مع الينجواسيين . على أن هناك رومانثة قديمة تبدأ بهذا المطلع : « خلال وادي الأوتاد مر « السيد » الكريم ، وعن شماله ترك قرية قسطنطينية » .

فأجاب سنشو : لا ، ليس من أجل هذا ، بل لأني لاأحب كتمان الأسرار كثيراً ، لأني أخاف عليها إن طال كتمانها أن تتعفن في أحشائي!

فقال دون كيخوته : لسبب أو لآخر ، سأثق بلطفك وأدبك! فلتعلم إذن أنه وقعت لي في هذه الليلة مغامرة من أغرب المغامرات التي أفخر بها ، ولأقصّ عليك الأمر بأوجز ما يمكن ، أقول أنه منذ لحظات شاهدت ابنة سيد هذا القصر قادمة نحوي ، وهي أفتن وألطف فتاة توجد على شطر عظيم من الأرض . وماذا أقول عن مفاتنها ومحاسن ذكائها ، وغير ذلك من سحر خفي لا أريد أن أفصح عنه بل أدعه يمر دون مساس به حتّى أصون عهدي لسيدتي دلثنيا دل توبوسو! وإنما أود أن أقول لك فقط أن السماء حسدتني على النعيم الغامر الذي أرسله الحظ إليّ ، أو ـ وهذا أقرب الى اليقين ـ لعل هذا القصر كما قلت لك مسحور ، لهذا فإنه في اللحظة التي كنت أجاذبها أعذب وأرق وأحرّ حديث ، انقضّت عليّ كفّ لم أرها ، كف مارد رهيب ، فضربني بقبضته على فكّي ضربة قاضية لايزالان ينزفان الدم بسببها . ثمّ نسأ وأوهطني[1] حتّى جعلني في حال أسوأ من حال الأمس لما أن أهاننا البغّالون الإهانة التي تعرفها جيداً ، بسبب نزاء روثينانته . ومن هذا أستنتج أن كنز جمال هذه الفتاة يقوم على حراسته عربيٌّ مسحور ، وأنه ليس لي .

ـ ولا لي أيضاً ـ بهذا أجاب سنشو ـ ، لأن أكثر من أربعمائة عربي قد دبغوا جلدي على نحو جعل طحن الأمس بالعصيّ والأوتاد يبدو بالنسبة إليه(٢) تدليلاً عذباً رقيقاً! لكن قل لي ياسيدي كيف نسمّيها جميلة ونادرة تلك المغامرة التي تركتنا على هذه الحال ؟ على أن الأذى الذي أصاب سيادتك لم يكن كبيراً ، لأنّك قد حملت بين ذراعيك تلك الفاتنة المنقطعة النظير . أمّا أنا ، فماذا لقيت يا إلهي غير أبشع اللكمات التي تلقيتها طوال حياتي ؟ يالشقائي وشقاء أمي التي ولدتني! لست فارساً جوّالاً ولاأحسب أنّي سأكونه ، ورغم ذلك فإن النصيب الأوفر من المصائب يكون نصيبي!

فسأله دون كيخوته : وأنت أيضاً ضُربتْ ؟

فقال سنشو : ماذا قلت لك إذن! إن الضرب أوجع أيضاً أهلي!

فقال دون كيخوته : لابأس يا صديقي ، فسأعدّ لك حالاً البلسم الثمين الذي سيشفينا في غمضة عين!

وفي تلك الأثناء كان قوّاس الأخوه المقدّسة قد أشعل القنديل وجاء لرؤية من حسبه

---

(١) نسأه : ضربه بالعصا . أوهطه : صرعه صرعة لايقوم منها .

(٢) في النص tortas y pan pintado : « كعكاً وخبزاً ملوناً » ، وهذا كناية عن أنه لطيف رقيق .

ميتاً . فلمّا رآه سنشو داخلاً لابساً قميصاً وعاصباً رأسه بمنديل وفي يده قنديل ، ووجهه مكفهر كريه ، سأل مولاه :

ـ مولاي! أولا يكون هذا القادم هو العربي المسحور وقد أقبل ليتم تعذيبنا ، إن كان لايزال فينا بعد بقية ؟

فقال دون كيخوته : كلاّ! إنّه لا يمكن أن يكون العربي ، لأنّ المسحورين لا يدعون أحداً يراهم .

فقال سنشو : إذا لم يدعوا أحداً يراهم ، فهم يدعونه يشعر بهم ، وإلاّ فليسألوا أكتافي!

فقال دون كيخوته : وأكتافي أيضاً تشهد بذلك ، لكن هذا ليس دليلاً كافياً للاعتقاد أن من نراه الآن هو العربي المسحور .

فاقترب القوّاس ، ولمّا شاهدهما في حديث هادئ ، وقف مشدوهاً . نعم ، إن دون كيخوته كان لايزال فاغراً فاه ، لايستطيع حراكاً من شدّة الضربات وبسبب الضمادات . وجاءه القوّاس وقال له :

ـ إيه ، كيف حالك يارجل ؟

فقال دون كيخوته : لو كنت مكانك ، لتكلّمت بلهجة أكثر أدباً . أو هل من عادة أهل هذه البلاد مخاطبة الفرسان الجوّالة بهذه اللهجة ، أيها الجلف الأرعن ؟

فلمّا رأى القوّاس أن هذا الرجل البائس قد أهانه على هذا النحو ، لم يطق غطرسته ، فرفع القنديل ثمّ رمى به وبكل مافيه من زيت على رأس دون كيخوته فشجّه ، وهرب مخلفاً وراءه ظلاماً دامساً .

فقال سنشو پنثا : لا شك يا مولاي في أنّه هو العربي المسحور : إنه يحتفظ بالكنز لغيرنا ، أمّا نحن فيحتفظ لنا باللكمات والضرب بالقنديل .

فقال دون كيخوته : لابد أن الأمر هكذا . لكن يجب ألاّ نحفل بشيء من هذا السحر ، ولاأن نغضب له ونغتاظ : لأن هذه الكائنات خفيّة خيالية ، فمن العبث التفكير في الإنتقام منها . انهض يا سنشو ، إذا استطعت ، واستدع قائد هذه القلعة واطلب إليه أن يحضر إليّ شيئاً من الزيت والنبيذ والملح وحصا اللبّان ، لتركيب البلسم الشافي . والحق أنّي في مسيس الحاجة اليه الآن ، لأنّي أنزف دماً غزيراً من جراء الجرح الذي أصابني به هذا الشبح .

فنهض سنشو وهو يتألّم من عظامه المرضوضة ، وتحسّس طريقه الى صاحب الفندق

فالتقى بالقوّاس في الطريق وكان واقفاً بالباب ، قلقاً يود لو يعرف ماجرى لعدوّه الجريح وقال له :

ـ سيّدي ، أيّاً من كنت ، تفضّل وأحسن علينا واعطنا شيئاً من حصا اللبّان والزيت والنبيذ والملح ، لأننا في حاجة إليها لتضميد فارس من أفضل الفرسان الجوّالة على هذه الأرض ، وهو راقد الآن في هذا السرير طريح جرح بالغ أصابه به العربيّ المسحور الساكن في هذا الفندق .

فلمّا سمع القوّاس هذه الكلمات الغريبة ، ظنّ سنشو رجلاً خولط في عقله . لكن الفجر كان قد انبلج ، فراح يفتح باب الفندق ، ونادى صاحب الفندق ليخبره بما يريده هذا الأبله . فزوّد صاحب الفندق سنشو بكل مااحتاج إليه ، وحمله سنشو بسرعة الى دون كيخوته ، وكان هذا مطرقاً يحمل رأسه بين كفّيه ، متألّماً من الوجع الذي أصابته به الضربة بالقنديل ، إذ أحدثت في جبهته ورمين كبيرين ، وهذا كل مافعلته ، لأن ماظنّه دماً لم يكن إلا زيت القنديل ممزوجاً بالعرق الذي أراقته على جبينه مخاوف العاصفة الماضية .

وأخيراً أخذ عقاقيره وخلطها وأنضجها على النار زمناً كافياً إلى أن بدا له أنها بلغت درجة النضج . ثمّ طلب قارورة يصب فيها هذا الشراب ، فلمّا لم يجدوا في الفندق كله ، قرر أن يضعها في كوز[1] من الصفيح ، تكرّم به عليه صاحب الفندق . ثمّ قرأ على الكوز أكثر من ثمانين مرة آيات « أبانا الذي... » ومثلها من صلاة « سلامٌ لك يا مريم! » وصلاة « سلام لك أيتها الملكة ، ياأمّ الرحمة » . وكان يتلو كل كلمة برسم علامة الصليب ابتغاء التبريك . وحضر هذه الطقوس سنشو وصاحب الفندق والقوّاس ، لأنّ البغّال قد عاد إلى بغاله ، يُعنى بها في هدوء . ولمّا تمّ هذا أراد دون كيخوته أن يجرّب مفعول هذا البلسم الذي حسبه ناجعاً رائعاً . فشرب مما بقي في آنية الطبخ بعد أن ملىء الكوز ، وكان أكثر من نصف الثُمن[2] . ولم يكد يفرغ من شرابه حتّى بدأ يتقايأ على نحو أفرغ كلّ مافي جوفه[3] ، وأجرت آلام القيء عرقاً غزيراً ، فطلب أن يغطّى في فراشه جيداً ويترك وحيداً . فأجابوه الى سؤله ، ونام نوماً هادئاً أكثر من ثلاث ساعات شعر بعدها حين استيقظ أن بدنه استراح وأنه شفي من كسوره حتّى ظن أنه أصبح سليماً معافى ، مما جعله يظن في الحال أنه وجد طريقة تحضير بلسم فيربراس ، وأنه يستطيع بمثل هذا الدواء أن يواجه أية مغامرة أو معركة أو خصومة مهما تكن خطورتها ، دون خوف ولا وجل . ووجد سنشو أن راحة مولاه معجزة أتى بها هذا

---

(١) الكلمة الاسبانية Aicuzu عربية الأصل ، على أنها خصصت في الاسبانية للإناء الذي يوضع فيه الزيت للاستعمال اليومي .

(٢) azumbre ، مكيال سعته ٢ ليتر و١٦ مليلتر .

(٣) سبب القيء هو الملح المغلي ، فهو كاف وحده لإحداث هذا القيء خصوصاً إذا كان شديد التركيز .

الدواء العجيب ، فتوسّل إليه أن يسمح له بتناول مابقي في انية الطبخ ، ولم يكن جرعةً قليلة . فسمح له دون كيخوته ، وإذا بسنشو يمسك الإناء من عروتيه بكل سذاجة وغبطة وصبّ منه في حلقه كميه تعادل ماتجرّعه منه مولاه . لكن معدة سنشو المسكين لم تكن من الرقة كمعدة سيده ، ولهذا فإنه قبل أن يتقايأ انتابته نوبة من العرق البارد والغثيان والضيق واحتباس الأنفاس حتّى ظن فعلاً أن ساعته الأخيرة قد حانت . وفي هذه الشدّة لعن الشراب والوغد الذي جعله يتناوله . فلمّا شاهده دون كيخوته على هذه الحال قال :

ـ أنا أعتقد ياسنشو أن هذا البلاء جاءك من كونك لم تُسلّح فارساً ، لأني أحسب أن هذا الشراب لايفيد من ليسوا فرساناً .

فأجابه سنشو قائلاً : ألا لعنة الله عليّ وعلى آلي! ومادام سيادتك تعلم ذلك من قبل ، فلماذا إذن سمحت لي بتناوله ؟

وفي تلك الأثناء كان الشراب قد أحدث مفعوله ، وبدأ حامل السلاح المسكين يستفرغ من كلا طرفيه بسرعة واستمرار جعلا الحصيرة التي رقد عليها وغطاء الخيش الذي غطّى به نفسه غير صالحين للاستعمال أبداً . ولكنّه بذل من الجهود وتحمّل من التقلّصات ما جعله يعتقد هو وسائر الحاضرين أنّه سيقضي فيها نحبه . وظلت هذه العاصفة وبقي هذا الخطر طوال ساعتين ، بعدهما لم يشعر بالراحة التي أحسّ بها مولاه ، بل أصبح منهوك القوى محطّماً لايكاد يمسك نفسه . أمّا دون كيخوته فقد أحس أنّه برأ وتعافى كما قلنا ، فأراد أن ينهض في الحال سعياً وراء مغامرات جديدة إذ بدا له أن كل الوقت الذي أضاعه في هذا المكان إنما أضاعه على العالم وعلى البائسين الملهوفين الذين ينتظرون نجدته ، خصوصاً وقد انضاف الى هذه الفكرة الملازمة اعتقاده من الآن فصاعداً في قوه بلسمه . فاندفع يُسرج بنفسه فرسه روثينانته ، ويضع البرذعة على حمار سنشو ، ثمّ أعان سنشو على ركوب حماره ، بعد أن أعانه على اللبس . ثمّ امتطى صهوة جواده وتقدّم ناحية فناء الفندق والتقط حربة كانت هناك يستخدمها رمحاً .

وأنشأ جميع من في الفندق ، وقد جاوز عددهم العشرين ، يتطلّعون اليه ، كذلك رنت إليه صاحبة الفندق ، وظلّ هو يحدّق فيها ، وهو يزفر بين الحين والحين زفرة تخرج من أعماق أحشائه ، لكنّهم كانوا يعتقدون أن الوجع هو مصدر هذه الزفرات ، خصوصاً أولئك الذين شاهدوه بالأمس يدهن بالمراهم .

فلمّا استقرّا على ظهري دابتيهما توقّف دون كيخوته لدى الباب ونادى صاحب الفندق وقال له بصوت حادّ جدّاً :

ـ سيّدي صاحب القصر! ماأعظم النعم التي نلتها في هذا القصر وأكثرها! وإنّي لمدين لك ديناً سأذكره بالإمتنان طوال أيام حياتي . وإذا كنت أعترف بها وأريد أن أجازيك عنها بالإنتقام لك من متعجرف أهانك أية إهانة ، فلتعلم أنّ مهنتي ليست إلا إغاثة الضعفاء ، والإنتصاف لمن أهينوا ، وعقاب الأشرار . فتصفح ذاكرتك ، وإن وجدت فيها شيئاً من هذا النوع توصيني به ، فما عليك إلا أن تخبرني ، وأنا أعدك ، بحقّ نظام الفروسية الذي تلقيته ، أن تكون راضياً خالصاً .

فأجابه صاحب الفندق بنفس اللهجة الحادة الجادة :

ـ سيدي الفارس! لست في حاجة الى أن تنتقم لي سيادتك من أية إهانة ، لأنه إذا أهانني أحد عرفت تماماً كيف أنتقم لنفسي بنفسي . وكل ماأنا في حاجة إليه هو أن تتفضّل سيادتك فتدفع أجر نفقاتك الليلة الماضية في الفندق ، وكذلك ثمن التبن والشعير اللذين قدّما للدابتين وثمن السريرين والعشاء .

فصاح دون كيخوته : ما هذا ؟... أهذا فندق ؟

فأجاب صاحب الفندق : نعم ، وفندق طيب السمعة جداً .

فقال دون كيخوته :إذن كنت على ضلال! فالواقع أنّي كنت أحسب أنه قصر ، قصر من نوع غير رديء . لكن مادام هذا فندقاً وليس قصراً ، فخير ماتفعله الآن هو أن تتنازل عن دفع الأجرة ، ذلك أنّي لا استطيع أن أخالف عن قاعدة الفرسان الجوّالة التي تقضي ـ وهذا أمر أعلمه تمام العلم ، ولم أقرأ مايخالفه حتى الآن ـ بأن الفارس الجوّال لا يدفع أبداً ثمناً لمبيته وطعامه ولا أية نفقة في الفندق ، لأن الناس مُلزمون ـ عن حق وامتياز خاص بالفرسان ـ أن يحسنوا استقبالهم ويستضيفونهم أينما حلّوا وحيثما نزلوا ، جزاءاً وفاقاً عن المشقّة البالغة التي يبذلونها بحثاً عن المغامرات في الليل والنهار ، في الشتاء والصيف ، راكبين أو مترجّلين ، عطشى جائعين ، في القيظ والقرّ ، معرّضين لكل شدائد السماء ومتاعب الأرض .

فأجاب صاحب الفندق : وما شأني أنا بهذا كلّه! ادفع ما عليك ، قُضي الأمر ، ودع القصص والفروسية ، فلا شأن لي إلاّ بعملي وقبض أجرتي .

فقال دون كيخوته : أنت فندقي حمار!

ثمّ همز روثينانته بشدّة وشهر حربته وخرج من الفندق دون أن يتعقّبه أحد ، ودون أن ينظر ماإذا كان حامل سلاحه يتبعه ، ومضى مسافة في الخلاء . فلمّا شاهده صاحب الفندق راحلاً دون أن يدفع ، راح يطالب سنشو پنثا بما عليه ، فأجابه بأنّه مادام مولاه لم يُردْ أن

يدفع فهو أيضاً لايريد أن يدفع ، ومادام حامل سلاح فارس جوّال فيجب أن يتمتّع بنفس الإمتياز الذي لمولاه فلا يدفع أجراً عن أية نفقة الفنادق والخانات . وعبثاً زمجر صاحب الفندق وأرعد وأبرق وهدّده إذا لم يدفع أن يلقى منه مايوجعه . فقد أقسم سنشو بقانون الفروسية الذي تلقّاه سيّده أنّه لن يدفع مرابطيّاً واحداً حتّى لو كلّفه ذلك فقدان حياته ، لأنّه لا يريد أن يكون سبّباً في ضياع هذا العرف القديم الممتاز السائد بين الفرسان الجوّالة ، ولايريد أبداً أن يشكوه حملة سلاح الفرسان في المستقبل ويلوموه على انتهاك هذا الامتياز العادل .

وشاء سوء طالع سنشو المسكين أن يكون من بين نزلاء الفندق أربعة تجّار صوف من شقوبية ، وثلاثة خردواتية[1] من قرطبة ، وتاجران جوّالان من سوق اشبيلية وكلهم من أهل المرح والملح والمجون. أقبل هؤلاء ، كأنّهم مدفوعون بروح واحدة ، أقبلوا على سنشو وأنزلوه من حماره ، وأسرع أحدهم فأتى بملاءة سرير صاحب الفندق وغطّوه بها . لكنّهم حين رفعوا أبصارهم تبيّنوا أن السقف قليل الارتفاع فلا يصلح لفعلتهم ، فقرّروا الخروج إلى الفناء الذي لم يكن له من سقف غير السماء ، وهناك مدّدوا سنشو على الملاءة ، وبدأوا يطيرونه في الهواء ، ويلعبون به كما يُلعب بالكلب في الأعياد[2] .

وكانت صرخات هذا المرتجع المسكين شديدة شدّة ، بلغت مسامع سيّده ، فتوقّف ينصت ، واعتقد لأول وهلة أنّه بإزاء مغامرة جديدة ، لكنّه سرعان ماتبيّن أنها صرخات حامل سلاحه ، فعاد أدراجه راكضاً بأسرع مايستطيع فرسه ، فوجد الفندق مغلقاً فاستدار من حوله عساه يجد مدخلاً . لكنّه لم يكد يبلغ جدران الفناء ــ ولم تكن عالية ــ حتّى رأى العملية الأليمة التي تجري لحامل سلاحه : رآه يصعد وينزل في الهواء ، بخفة ولطف لولا الغضب لجعلاه ينطلق ضاحكاً . فحاول أن يتسلّق السور بفرسه ، لكنّه كان محطّماً مرتهك المفاصل إلى حد أنه لم يستطيع حتّى النزول من فرسه . فلم يكن أمامه إلا أن يسب ويلعن ـ من أعلى

---

(١) في النص الحرفي : « باعة إبر من بوترو قوطبة » ـ وإن كان رودريجث مارين يفهم من agujeros صنّاع الأبر ومن يشتغل عندهم ، اعتماداً على ماقاله يدرو دي مدينه في كلامه عن قرطبة (في كتابة « عظمة اسبانيا وأهم مافيها » ، جـ٢ ف٢٤ ، طبع في قلعة هنارس سنة ١٥٩٠) إن أجود الأبر المصنوعة في اسبانيا وأوفرها إنتاجاً هي تلك المصنوعة في قرطبة . ــ أمّا سوق اشبيلية فكان يغصّ بأنواع العروض ، وكانت لأهلها سمعه عالية بالفتوة والشجاعة . وكان باعة الإبر في قرطبة مشهورين أيضاً بأنّهم من أسفل وأحط العناصر في اسبانيا .

(٢) كان من عادة العابثين في المرافع (الكرنفالات) أن يلعبوا بالكلاب ، وكانت منتشرة عند الرومان في أيّام سويتون . ونجد ذكر تلك العادة لدى الكتّاب الاسبان قبل كالدرون : عند ماتيو أليمان (« قزمان الفاراقي » ج ١ ك٢ ف ١) وعند بيثنته اسبينيل (« ماركوس دي أوبريجون » ، الرواية ١ ، الراحة ٥ ، ثمّ النهاية ٣ ، الراحة ١٠) .

دائماً جاحدين ، وكانت الضرورة فرصة تخلق من المرء لصّاً ، والحاضر ينسي المستقبل ، فإن خينس وقد خلا من عرفان الجميل بقدر ما خلا من النوايا الطيبة ، قرّر أن يسرق حمار سنشو پنثا ، غير مكترث لروثينانته إذ بدا له غير صالح للبيع ولا للرهن . كان سنشو نائماً ، وسرق خينس منه حماره ، وقبل بزوغ النهار كان قد ابتعد الى حيث لايُدركْ .

وانبلج الفجر باعثاً في الأرض الحبور وفي نفس سنشو پنثا الحزن . فإنه لمّا لم يجد حماره أنشأ في العويل على نحوٍ لم يُرَ أشدّ منه إيلاماً وحزناً ، حتّى أنّ دون كيخوته استيقظ على دويّ عويله وسمعه وهو يقول :

ــ أي ولد أحشائي ، يا من ولدت في بيتي وكنت لعبة أولادي ، ومصدر السرور لزوجتي ، والحسد لدى جيراني ، يامن كنت تخفيفاً لأعبائي ، وأخيراً كنت مورد غذاء لنصف شخصي ، فبستة وعشرين مرابطيّاً تكسبها في اليوم كنت تكفل نصف نفقاتي!

فلمّا شاهد دون كيخوته سنشو يشكو وعرف السبب ، واساه بخير مالديه من أسباب المواساة ووعده بصك تحويل لإعطائه ثلاثة حمير من خمسة خلفها وراءه في زريبته . وبهذا الوعد سرّي عن سنشو ، وجفّت دموعه ، وهدأت زفراته ، وشكر لمولاه ما أولاه من نعمة .

وكان دون كيخوته قد انتعشت الآمال في قلبه لمّا أن نفذ في هذه الجبال فبدت له مواطن صالحة للمغامرات التي ينشدها ، فراح يستعيد في ذاكرته تلك الأحداث الرائعة التي وقعت في مثل هذه الأماكن الموحشة الوعرة للفرسان الجوّالة ، واستغرقته هذه الخواطر وملأت نفسه حتّى نسي كل ماعداها . أمّا سنشو فمنذ أن اعتقد أنّه يسير في مكان أمين لم يكن يشغل باله غير شيء واحد هو أن يرضي معدته ببقايا ماغنمه من قساوسة الجنازة . فمضى خلف سيده ، حاملاً كل ماأمكن البرذون[1] حمله ، منتزعاً الطعام من الكيس ليضع منه في كرشه ولذّ له هذا النوع من السير بحيث لم يكن ليدفع فلساً من أجل أية مغامرة أخرى . وفي هذه اللحظة رفع عينيه فشاهد مولاه وقد توقّف محاولاً أن يرفع بطرف رمحه حزمة على الأرض ، فأسرع لمساعدته ووصل في اللحظة التي رفع فيها دون كيخوته على طرف رمحه وسادة وحقيبة مربوطتين معاً ، وكلتاهما ممزقة متعفنة . وكانت من الثقل بحيث اضطر سنشو لأخذهما بيديه ، وأمره مولاه بأن ينظر ما في الحقيبة . فهرع سنشو لتنفيذ

---

(١) في هذا الفصل أضاف ثربنتس حادث سرقة الحمار ، وكذلك في الفصلين التاليين . ولكنّه ظل في الطبعة الأولى يتحدث بعد هذا الحادث عن الحمار وكأنه لايزال في حوزة سنشو . وفي الطبعة الثانية أصلح هذا الإهمال . لكنه لم يصلحه بدقّة فبقي في كثير من المواضع ـ كما في هذا الموضع الآن ـ مما تولّد عنه خلط كان ثربانتس أوّل من سخر منه . كما سنرى في القسم الثاني من دون كيخوته (الفصل الرابع) .

صهوة فرسه ـ ويطلق الشتائم في وجه أولئك الذين يعبثون بسنشو ، على نحو لا نستطيع ايراده هنا . وعلى الرغم من كل هذه الشتائم واللعنات فإن هؤلاء العابثين لم يتوقّفوا عن عملهم ولا ضحكاتهم ، كما أن سنشو المتطاير لم يكفّ عن عويله وصراخه ، مهدّداً حيناً متوسّلاً حيناً آخر .

لكن عبثاً فلم يقفهم شيء عن عملهم هذا العابث ، حتّى بلغ التعب بهم مبلغه فتركوه من فرط الجهد والملل . ثمّ أتوه بحماره وأركبوه عليه وغطّوه بمعطفه . ولمّا رأته ماريتورنس منهوكاً على هذه الحال ، رقت له وحسبت أنها تعينه بجرّه من الماء فراحت لملء جرّة ماء من البئر حتّى يكون الماء بارداً . فأخذ سنشو الجرّة وقرّبها من شفتيه ، لكنّه توقف عند صيحات مولاه وهو يقول له :

ـ سنشو يابني ، لاتشرب من هذا الماء ، يابني ، لاتشرب منه ، وإلا قتلكَ . انظر! هذا البلسم المقدّس معي ـ وأراه كوز الشراب ـ ، بقطرتين منه تشربهما تصبح سليماً معافى من غير شك .

فأدار سنشو عينيه بانزواء لدى سماعه هذه الكلمات وقال بصوت عالٍ :

ـ هل نسي مولاي أنّي لست فارساً ، ويريد منّي أن أتقايأ القليل من الأحشاء الذي بقي لي من مساء أمس ؟ احتفظ بشرابك وبكل العفاريت ، واتركني وشأني!

قال هذه الكلمات وبدأ يشرب من الجرّة ، لكنّه لمّا أدرك من الجرعة الأولى أنّه ماء ، لم يشأ الاستمرار ، والتمس من ماريتورس أن تحضر له خمراً ، فأجابته الى سؤاله بارتياح بالغ ، ودفعت ثمن الخمر من مالها الخاص ، إذ يقال عنها أنها على الرغم من الحال التي انحدرت اليها فقد كانت لاتزال تحتفظ بظل بعيد من الفضيلة .

فلمّا فرغ سنشو من شرابه نخس حماره وفُتح له باب الفندق على مصراعيه ، فخرج يطفر من الفرح لأنه لم يدفع شيئاً وأفلح في تنفيذ نيّته وقراره ، وإن كان ذلك قد تمّ على حساب رهنه المعهود ، أعني على حساب أكتافه . صحيح أن صاحب الفندق احتفظ بخرجه في مقابل دفع حقّه ، لكن سنشو قد هرب في حال من الاضطراب جعلته لا يتبين أنه فقد شيئاً ولم يكد صاحب الفندق يراه خارجاً حتّى أراد أن يسدّ عليه الباب ، ولكن العابثين (الذين عبثوا بسنشو) منعوه من ذلك ، ذلك أن هؤلاء كانوا جماعة لاتقيم وزن لدون كيخوته حتّى لوكان ـ فعلاً ـ واحداً من فرسان المائدة المستديرة الجوّالة .



الفصل السابع عشر : سنشو پنثا يُطَيَّر في الهواء ، ودون كيخوته
يشاهده في هذه المحنة من فوق سور الفندق الذي حسبه قصراً

الفصل الثامن عشر

وفيه تروى المحادثة التي جرت بين سنشو پنثا ومولاه دون كيخوته، وحوادث أخرى جديرة بالذكر

لحق سنشو بمولاه ، محطّماً منهوك القوى على نحو لايكاد يقدر معه على رفس دابته . فلمّا شاهده دون كيخوته على هذه الحال قال له :

ــ الآن أعتقد ، يا سنشو ، يا طيب ، أن هذا القصر ، أو هذا الفندق إن شئت ، مسحور من غير شك . وإلاّ فهؤلاء الذين عبثوا بك كل هذا العبث المنكر ماذا يمكن أن يكونوا ، إلاّ أشباحاً وجنّاً من العالم الآخر ؟ والذي يؤكّد لي هذا المعنى هو أنّي بينما كنت أشاهد فصول مأساتك الحزينة هذه من فوق الجدران ، استحال عليّ أن أتسلّق الأسوارأو اقتحمها أو حتّى أن أنزل من فرسي . فلا شكّ أنهم وثقوني بسحرهم ، لأنّي أقسم لك بشرف رجل مثلي ، أنّي لو استطعت تسلّق السور أو النزول من الفرس لكنت انتقمت لك من أولئك الأشرار الأوغاد انتقاماً ما كان لهم أن ينسوه أبداً وينسوا سوء مافعلوا ، حتّى لو كان الأمر اضطرّني ـ من أجل عقابهم ـ أن أخالف قوانين الفروسية التي لا تسمح ، كما قلت لك من قبل مراراً وتكراراً ، بأن يعتدي فارس على من ليس بفارس ، اللهم إلا في حالة الدفاع عن النفس وحالة الضرورة القصوى .

فأجاب سنشو :

ــ سواء عليّ أكنت فارساً أم غير فارس ، فإنّي لو استطعت لكنت انتقمت لنفسي بنفسي ، لكن المصيبة أني لم أستطع . ورغم ذلك فإنّي أقسم يميناً مغلظة أن هؤلاء الناس الذين تسلّوا على حسابي لم يكونوا أشباحاً ولا أناساً مسحورين ، كما تقول سيادتك ، بل كانوا أناساً حقيقيين من لحم ودم مثلنا تماماً . وأنا أوقن بهذا جيداً لأنّي سمعتهم ينادي بعضهم بعضاً حينما كانوا يطيرونني ، ولكل منهم اسمه : فأحدهما يدعى پدرو مرتينث ، والآخر تينوريو فرننده ، وسمعت أن صاحب الفندق يدعى خوّان بالوميكه الأعسر . وإذن

يا مولاي إذا كنت لم تستطع قفز السور ولا حتّى وضع قدمك على الأرض ، فمردّ هذا الى شيء آخر غير السحر ، أمّا عن نفسي ، فإن ما أتبيّنه من كل هذا هو أن هذه المغامرات ستفضي بنا في ختام المطاف الى نكبات لن نميّز بعدها أين قدمنا اليمنى .

وخيراً من هذا كله وأعقل ، بحسب مايراه عقلي الضعيف ، أن نعود الى بلدنا الآن والوقت وقت الحصاد ، وأن نعنى بشؤوننا ، بدلاً من أن ننتقل من « سكة لمكّة »[1] ومن الشرق للغرب ، كما يقولون .

فقال دون كيخوته : ما أجهلك بشؤون الفروسية الجوّالة ياسنشو! صه واصبر وسيأتي يوم ترى فيه بعينيك مافي ممارسة هذه المهنة من نبل وعظمة! وإلا فقل أي سرور وأية نشوة أعظم في الدنيا من نشوة الإنتصار وقهر العدو ؟ لاشيء من غير شك .

فأجاب سنشو : هذا جائز ، وإن كنت لا أعلم عنه شيئاً ، لكن كل ماأعرفه هو أنّه منذ أصبحنا فرساناً جائلين ، أو مولاي على الأقل (لأني لا استحقّ أن أحسب في عداد هؤلاء الأشراف) ، لم نظفر بأي انتصار ، اللهم إلا ضد البشكوني ، وحتّى هذه المغامرة لم تخرج منها سيادتك إلا بعد أن فقدت نصف أذن ونصف خوذة . ومنذ ذلك الحين لم نلق إلا لكمات وضرباً بالأوتاد ولكمات ، وفوق هذا كلّه تلقّيت فضل التطويح بي في الهواء من جانب أناس مسحورين لاأستطيع الانتقام منهم حتّى أعرف إلى أي مدى تذهب ، كما تقول سيادتك ، لذة قهر الأعداء .

فقال دون كيخوته : هذا ما يؤلمني ، وما أحسبه يؤلمك أيضاً . لكن على رسلك! فسأعمل على أن يكون في يدي سيف مصنوع بحيلة تجعل من يحمله في مأمن من كل أنواع السحر . ومن يدري! لعلى أن يهبني الحظ السيف الذي كان يحمله أماديس حينما كان يسمّى « فارس السيف المتّقد »[2] ، وكان من أحسن الشفار التي حملها فارس في هذا العالم ، فإلى جانب المزية التي ذكرتها ، كان يقطع كالموس ولا تقاومه أية درع أو سلاح .

فعاد حامل السيف يقول : من حسن حظّي أنّه حتّى لوظفرت بهذه النعمة فوقع في يديك مثل هذا السيف ، فإنه لا يمكن أن يفيد إلاّ الفرسان المسلحين فرساناً ، مثله مثل البلسم ، أمّا حملة السلاح ، فليموتوا[3] كمداً .

---

(١) هكذا أيضاً في النص الاسباني de Ceca en meca ، « وسكة » اسم اطلق على مسجد قرطبة ، وكان المسلمون الذين ينتوون الحج يذهبون أولاً الى سكة ومن ثمّ يتوجهون الى مكّة فأصبح مثلاً في اللغة الاسبانية بمعنى ، يذهب من هنا الى هناك .

(٢) هنا يشير دون كيخوته الى أماديس الرمي ، الملقّب « فارس السيف المتّقد » ، كما أشرنا الى هذا من قبل في حواشي الفصل الأول .

(٣) العبارة الاسبانية هنا que se los papen duelos تناظر في العامية عندنا ، يشربوها ، يروحوا في داهية .

فقال دون كيخوته : لا تخشَ هذا ياسنشو : وربنا يسلّم!

هكذا كان يجري الحديث بين كيخوته وحامل سلاحه حينما أبصر دون كيخوته على الدرب الذي يسلكانه سحابة تراب كثيفة تتجه صوبهم . فلمّا أبصرها اتجه الى سنشو وقال :

ـ هذا ياسنشو هو اليوم الذي ادّخره الحظ لي لأبلغ مناي ، أقول هذا هو اليوم الذي لابد أن تظهر فيه قوّة ساعدي أعظم منها في أي يوم آخر ، وأن أنجز فيه من الأفعال الجريئة ماسيظل مسجّلاً في سجل الشهرة وموضوعاً لإعجاب الجميع فيما يستقبل من القرون . أو لا ترى ياسنشو هذه الزوبعة من التراب ؟ اعلم إذن أن الذي أثارها جحفل لجبٌ يزحف من هذه الناحية ، ويتألّف من أمم شتّى لا تحصى ولا تعد .

فقال سنشو : على هذا الحساب ، لابد أن يكون ثمة جحفلان ، إذ في الناحية الأخرى ترتفع زوبعة أخرى .

فالتفت دون كيخوته بلهفة ، ولمّا شاهد صدق ماقال سنشو شعر بلذّة بالغة ، لأنّه توهم في الحال أنّ ثمة جيشين سيلتحمان في معركة وسط هذا السهل الممتد . ذلك أن خيّاله كان في كل ساعة وكل لحظة مليئاً بالمعارك وأطياف السحر والمغامرات والغراميّات وألوان التحدّي والمنازلات التي ترويها كتب الفروسيّة الجوّالة ، ولم يكن يفعل أو يقول أو يفكّر في شيء دون أن يتّجه إلى أمثال هذه التهاويل والأوهام .

وكان الذي أثار هاتين الزوبعتين من التراب قطيعان هائلان من الضأن يسيران على نفس الدرب من موضعين مختلفين ، لكنّهما كانا محجوبين بحيث لايمكن تمييزهما إلا حين اقترابهما . وكان دون كيخوته يؤكّد ويلح في توكيد أنهما جيشان على نحو جعل سنشو يعتقد أنهما كذلك حتّى قال :

ـ وماذا نحن فاعلون إذن يامولاي!

فقال دون كيخوته : ماذا نحن فاعلون ؟! سنعين المحتاجين ونغيث المُستضعفين . ويجب أن تعلم ياسنشو أن هذا الجيش المواجه لنا بقيادة علي الفيّاش[1] حاكم جزيرة سرنديب ، والجيش الآخر القادم وراءنا هو جيش عدوّه ملك القرمانتيين[2] المدعو پنثاپولين المشمّر الذراع ، وكان يطلق عليه هذا الاسم لأنّه يدخل المعارك وهو مشمّر ذراعه حتّى كتفه .

---

(١) في الاسپاني Ali fanfaron ، أي على المدعي المتفاخر كذباً وزهواً . وقد ركّب ثرڤانتس هذا الاسم المضحك من الكلمتين علي + fanfaron (فياش جخاف) . وفي ـ هذا ذكرى للحروب بين الاتراك المسلمين وبين النصارى ، خصوصاً المعارك البحرية التي اشترك في إحداها ـ وهي اللپانتة ـ مؤلف دون كيخوته ، أي ثرڤانتس نفسه .

(٢) garamentes وهم شعب في وسط افريقيا ، فيما يذكر بعض الشراح!

فسأله سنشو : ولماذا يحترب هذان السيدان هكذا ؟

فأجابه دون كيخوته : هما يحتربان لأن على الفيّاش هذا رجل كافر غضوب وقع في غرام بنت پنتاپولين وهي فتاة رائعة الجمال راقية الآداب . هي نصرانية ، وأبوها لايريد أن يزفّها الى ملك كافر ، إلا إذا تخلّى عن شريعة نبيّه واعتنق شريعة حبيبته(١) .

فقال سنشو : وحقّ لحيتي أقسم أنّ پنتاپولين على حق وسأهب لنصرته بقدر ما أستطيع .

فقال دون كيخوته :لن تفعل إلا الواجب ، لأنه ليس من الضروري ولا المطلوب أن تكون مسلّحاً فارساً كيما تشارك في مثل هذه المعارك .

فقال سنشو : أفهم هذا جيداً . ولكن أين نضع هذا الحمار ، حتّى نضمن الحصول عليه بعد انتهاء المعركة ؟ لأن الدخول في حومة الوغى على ظهر هذه الدابة أمر أعتقد أنه لم يُرَ من قبل .

فأجاب دون كيخوته : هذا صحيح ، لكن كل ما تستطيع أن تفعله به هو أن تتركه يسرح كما يشاء ، وسواء ضاع أو وجدناه ، إذ بعد النصر سيكون أمامنا العديد من الخيول نختار منها مانشاء ، حتّى إن روثينانته نفسه في خطر أن يستبدل به آخر . لكن اسكت وانظر وأعرني كل سمعك . فسأذكر لك وأصف أشهر الفرسان القادمين في كلا الجيشين ، ولكي تراهم وتميّزهم بسهولة لنذهب الى تلك الربوة فمنها نستطيع أن تتبيّن كلاً منهم جيداً .

وتركا الطريق وصعدا مرتفعاً صغيراً منه كان يمكن رؤية القطيعين ، اللذين ظنّهما دون كيخوته جيشين ، بكل وضوح ، لولا أن غيوم الغبار التي ثارت تحت أقدامهما حجبت المنظر عنهما حجباً تاماً . ولكن دون كيخوته كان يرى بخياله ما لا يستطيع أن يراه بعينيه وليس بموجود ، فبدأ يقول بصوتٍ عال :

هذا الفارس الذي تراه هناك بأسلحته الذهبية ، ويحمل على ترسه البيضاوي أسداً متوّجاً يجثو عند قدمي فتاة ، هو الشجاع لوركلكو ، سيد جسر الفضة . وذلك الآخر صاحب الأسلحة ذات الأزهار الذهبية ، ويحمل على ترسه البيضاوي ثلاثة تيجان من الفضّة على مسطّح ذي لون أزرق سماوي ، هو الرهيب ميكوكولمبو ، الدوق العظيم في كيروسيه . والثالث ذو الأطراف الهائلة الذي عن يمينه هو الجسور دائماً برندبربرانْ دي بولنشه السيد

---

(١) في النص الاسپاني عبارة أملاها التعصّب الإجرامي! والقارئ سيضرب قطعاً صفحاً عن هذه الروح الوضيعة التي سيطرت على الكتّاب الاسپان ، خصوصاً في ذلك العصر .

المطلق على البلاد العربية الثلاثة[١] ، وقد تدرّع بجلد الأفعى ، واتخذ باباً ترساً له ، ويقال أن هذا الباب من بين أبواب المعبد الذي حطّمه شمشون حينما انتقم من بني فلسطين أعدائه فقتلهم وقتل نفسه . لكن أدرْ عينيك من هذه الناحية ، ترَ على رأس الجيش الآخر ، الظافر دائماً غير المقهور أبداً تيمونل القرقشوني ، أمير بشكايا الجديدة ، وقد غُطّي بأسلحة موشّاة بالأزرق السماوي والأخضر والأبيض والأصفر ، ويحمل على ترسه رسم قط ذهبي على مسطّح أسدي ، وهذه الأحرف الأربعة مواء[٢] ، وبها تبدأ اسم سيدته ، ابنة دوق «الفينيقيين في الغرب» . وذلك الآخر الذي يثقل كاهل تلك الفرس الجواد ، وأسلحته بيض كالثلج ، وليس على ترسه شارة ، هو فارس ناشيء ، فرنسي الأهل ، يدعى پيير پاپان[٣] سيّد بارونيّات أوتريقة . وذلك الثالث الذي يهمز بمهمازيه بطن ذلك الحمار الوحشي السريع المخطّط ويحمل أسلحة موشّاة بكؤوس زرقاء ، هو دوق نربيا القويّ ، اسبرطفيلردودلي بوسكه (صاحب الخميلة) ، وشارته المرسومه على ترسه حقل من الهليون مع هذه العبارة بالاسپانية Rastrea mi Suerte (اتبع مصيري) .

وعلى هذا النحو استمر دون كيخوته يسرد أسماء كثير من الفرسان تخيّل أنّه يراهم في عداد الجيشين ، وهو يهب ، بغير تردّد ، لكل منهم ماشاء له خياله الخصب من أسلحة وألوان وشارات . ودون أن يتوقّف لحظة قال متابعاً :

ـ وهذه الأسراب التي تراها في مواجهتنا تتألّف من أمم شتّى لا تحصى : منهم قوم يشربون من ماء النهر العذب الذائع الصيت : اكسنثوس[٤] ، وقوم من أهل الجبل يطأون حقول مسيليه[٥] ، وقوم يغربلون ذهب بلاد العرب السعيدة الدقيق ، وقوم ينعمون بالشواطئ المونقة لنهر ثرمودون الصافي ، وقوم يستنزفون ، بشتّى الطرق ، نهر پكتولس[٦] الذهبي ، وهناك النوميديّون ذوو الإيمان المزعزع ـ والفرس المشهورون بمهارتهم في رمي القوس ، ـ والپارثيون والميديّون الذين يحاربون وهم يولون الأدبار ، ـ والعرب ، أصحاب

---

(١) وهي : البلاد العربية السعيدة (اليمن) ، والبلاد العربية القاحلة (نجد) والبلاد العربية المتحجرة (بادية الحجاز) .

(٢) تقليد صوت القط : ميو ، تهكّماً بالسيدة والفارس .

(٣) كان يسمّى بهذا الاسم شخص أحدب يبيع أوراق اللعب في اشبيلية ، بشارع الثعبان .

(٤) نهر في طروادة بآسيا الصغرى ، ويرى هوميروس أنه هو بعينه نهر اسكامندر ولكن الناس سموه اسكامندر ، والآلهة سموه اسكنثوس .

(٥) مسيله Massyla : القسم الداخلي من مراكش قرب جبل الأطلس . ويقول كليمنثين إن المسيليين كانوا شعباً من أفريقية أطلق اسمهم على هذه الحقول .

(٦) نهر شير في لوديا ينبع على جبل طمولس ويصب في هرمس . وكان ميداس يستحم في هذا النهر ، لما أن كان يحيل كل ما يمسه الى ذهب ، ولهذا تحول النهر الى نهر يقذف رمالاً ذهبية ، ولهذا سمّي باسم خروسرواس (نهر الذهب) .

الخيام المتنقّلة ، ـ والأشقوزيون وهم قساة القلوب بيض البشرة ، والأحباش وهم يعلّقون حلقاً في شفاههم ، وأخيراً ثمة مائة أمة أخرى أرى وجوههم وأتعرّفها لكن أسماءهم ندت عن ذاكرتي . وفي الجيش الآخر هاهم ولاء الذين يروون من الفيض البلّوري لنهر بتيس[١] ، وعليهم تيجان من أغصان الزيتون ـ ، والذين يغسلون ويصقلون وجوههم بمياه التاجه الذهبية الدائمة الجريان ، ـ والذين ينعمون بالمياه ذات الخصب في نهر خنيل المقدّس ، ـ والذين يطأون الحقول الطريفية[٢] ذات المراعي الخصبة ، ـ والذين يمرحون في مروج شريش الناعمة كعلّيين ، ـ وأهل المنتشا المتوّجون بالسنابل الشقراء ، ـ والذين يلبسون الحديد وهم من سلالة قديمة يجري في عروقها دم القوط ، ـ والذين يستحمّون في نهر البسورجا الشهير برقّة تيّاره ، والذين يرعون قطعاناً كثيرة في المراعي الفسيحة التي يضمّها نهر جواديانا الكثير التعاريج ، المشهور بنبعه المجهول ، ـ والذين يقشعرّون من البرد في الرياح الصافرة في أودية البرانش ، أو تحت الثلوج التي تغطّي قمة الأبنين ، وأخيراً هناك سائر الأمم المتعدّدة التي تضمّها أوربا بين جوانحها[٣] .

يا لله! كم من مقاطعات وأمم ذكرها وأعطى كلاً منها ـ بمهارة تثير الاعجاب ـ خصائصها ، وهو مستغرق بكليته في الأمور التي قرأها في كتبه الكاذبة! وخلال هذا كله ظل سنشو پنثا معلّقاً بكلماته دون أن ينبس بحرف واحد ، وكان بين الحين والحين يدير رأسه ليبصر ما إذا كان يرى فعلاً هؤلاء الفرسان والمردة الذين يسردهم مولاه . فلمّا لم ير أحداً قال :

ـ مولاي! وهبت نفسي للشيطان إن كان هناك إنسان أو مارد أو فارس من أولئك الذين ذكرتهم ، وعلى الأقل لأبصر أنا واحداً منهم ؛ فلعل هذا أن يكون مجرّد سحر ، مثل أشباح ليلة أمس .

فأجابه دون كيخوته : كيف تقول هذا ؟ أولا تسمع صهيل الخيول ونفخ الأبواق وقرع الطبول ؟

---

(١) نهر في اسبانيا قديماً سمّي بهذا الاسم ، واسمه الآن جوادا الكبير .

(٢) الحقول الطريفية ؛ اسم أطلقه أهل بتيقا القديمة على حقول طريف ، وطريف ، كما ورد في «الروض المعطار» ؛ اسم بلد جزيرة طريف ، على البحر الشامي (البحر الأبيض المتوسط) في أوّل المجاز المسمّى بالزقاق(= مضيق جبل طارق) ، ويتصل غربها ببحر الظلمة (= المحيط الأطلسي) ، وسميت طريف نسبة الى مولى موسى بن نصير الذي بعثه سنة ٩١هـ ليبدأ فتح الأندلس ، ومعه أربعمائة رجل ومائة فارس في أربعة مراكب فنزل بالخضراء التي هي معبر السفن ، وتسمّى في العصر الاسلامي جزيرة طريف .

(٣) لعل هذا السرد الغريب لعدد من الأمم بعضها وجد فعلاً وبعضها خيالي ، إنّما قصد به ثرفانتس الى السخرية من لوبه دي فيجا الذي أورد ثبتا طنّاناً شبيهاً بهذا في الكتاب الثالث من كتابه « أركاديا » ، هذا فضلاً عن إثارته للضحك من دعوى دون كيخوته أنه يشاهد هؤلاء مجتمعين معاً في معركة واحدة يراها بعينه في تلك اللحظة!

فقال سنشو : لا أسمع مطلقاً غير ثُغاء خراف ونعاج متواصل!

وكان هذا حقاً كما قال سنشو ، لأن القطيعين كانا قد اقتربا بحيث يمكن سماع أصواتها .

فقال دون كيخوته : إنه الخوف الذي استولى عليك هو الذي يجعلك ، ياسنشو ، ترى وتسمع بعكس الواقع ، لأن من آثار هذا الانفعال البائس ، انفعال الخوف ، اضطراب الحواس ، وإظهار الأشياء على غير حقيقتها . فإن كنت جزعاً كل الجزع ، فانسحب الى ناحية ودعني وحدي : وسأهب بمفردي النصر للفريق الذي أنجده بساعدي!

وماقال هذه الكلمات حتى همز روثينانته وأشرع رمحه وانقضّ كالصاعقة من أعلى الرابية .

فصاح فيه سنشو بصوت جَهْوري :

ـ على رسلك ياسيّد دون كيخوته! أقسم بالله إنها أغنام وخراف تلك التي ستهاجمها . ياله من جنون! ارجع اذن بحق أبي الذي ولدني . انظر اذن! ليس ثمة مارد ولا فارس ولا قط ولا سلاح ولا تروس أنصاف أو كوامل ولا فراء مخطّط بالأزرق ولا عفاريت . ماذا أنت فاعل ، قل لي بحقِ ذنوبي عند الله!

ولم يكترث دون كيخوته لهذا كلّه ، بل راح يصيح بصوت عالٍ :

ـ هيّا أيها الفرسان المحاربون تحت لواء الامبراطور الشجاع پنتاپولين المشمّر الذراع . اتبعوني جميعاً ، وسترون كيف أنتقم له بسهولة من خصمه علي الفياش صاحب سرنديب .

وما نطق بهذه الكلمات حتّى انقضّ بين النعاج وبدأ يطعنها بالرمح غاضباً هائجاً متحمّساً كأنّه يضرب في ألد أعدائه . فصاح فيه رعاة القطيع أن أمسك عن هذه الدواب المسكينة . فلمّا رأوه لم يستمع لنصحهم حلّوا مقاليعهم وراحوا يقذفونه على أذنيه بحصى كبير في حجم قبضة اليد . لكن دون كيخوته لم يحفل بالحجارة التي انهالت عليه كالمطر ، وظل يجري هنا وهناك وهو يقول :

ـ أين أنت إذن ياعلي الفيّاش المتعجرف ؟ احضر إليّ فها هو ذا فارس واحد يريد أن يمتحن قوتك ، على انفراد ، وأن ينتزع منك حياتك عقاباً لك على ما تسبّبه للشجاع پنتاپولين غَرَمَتْه .

وفي هذه اللحظة أصابته حصاة نهرية في جنبه مباشرة فدكّت ضلعين من أضلاعه في معدته . هنالك أحسّ بأنّه مات أو جرح جرحاً بالغاً . وفي الحال تذكّر بلسمه فأخذ الكوز



ورفعه الى شفتيه وبدأ يصب هذا الشراب الثمين في جوفه . ولكن قبل أن يتم تجرّع ماحسبه ضرورياً كافياً ، جاءته رمية أخرى أصابت يده وكوزه حتّى أطارت الكوز ودفعت إصبعين بشكل مروّع ، وفي مرورها اقتلعت ثلاث أو أربع أسنان من فمه . وكانت الضربتان الأولى والثانية من الإحكام والقسوة بحيث اضطر الفارس المسكين أن يسقط من على فرسه . فأقبل عليه الرعاة ، وظنّوه مقتولاً ، فأسرعوا بجمع قطعانهم وحملوا النعاج المقتولة على أكتافهم ، وكانت عدّتها من ستة الى ثمانية ، وهرعوا هاربين .

وفي خلال هذا كلّه كان سنشو فوق الأعالي يتأمّل حماقات سيده وينتزع شعر لحيته بجمع يديه وهو يلعن اللحظة التي أتاحت له أن يتعرّف اليه . فلمّا رآه مجندلاً على التراب والرعاة يرحلون ، نزل من الرابية واقترب منه ووجده على أسوأ حال ، وإن لم يكن قد فقد الشعور . وقال له :

ـ ماذا إذن ياسيد دُون كيخوته! ألم أطلب إليك أن تعود ؟ ألم أقل لك أنك إنما تهاجم قطعاناً من الضأن لا جيوشاً ؟

فأجابه دون كيخوته : آه! ويل لهذا اللص الساحر الحكيم عدوّي ، الذي استطاع تبديل الأمور واخفاءها! اعلم يا سنشو أن من السهل جداً على هؤلاء أن يخفوا مايريدون ، وهذا اللعين الذي يطاردني ، لأنه رآني على وشك الظفر بإكليل المجد في هذه المعركة فدبّت في قلبه عقارب الحسد منّي ، قد حوّل كتائب الجنود الى قطعان ضأن . وإلاّ فاعمل شيئاً يا سنشو ، أستحلفك بحياتي ، حتّى يزول عنك الوهم وترى مصداق مأقول : وذلك أن تركب حمارك وتتبعهم دون أن تتظاهر بشيء ، وسترى أنهم حينما يبتعدون سيستعيدون شكلهم الطبيعي فلا يعودون نعاجاً بل أناساً تامّين كاملين كما وصفتهم لك من قبل . لكن لاتذهب الآن ، فأنا في أمس الحاجة الى معونتك ، وخدماتك .اقترب وانظر كم ينقصني من اسنان ، إذ يخيّل إليّ أنه لم يبق في فمي منها شيء .

فاقترب سنشو من سيده كل القرب حتى كاد أن يضع عينه في حلقه . وفي تلك اللحظة كان البلسم قد بدأ مفعوله في معدة دون كيخوته ، ففي البرهة التي راح فيها سنشو ينظر في حال فكيه أصاب دون كيخوته غثيان فقذف كل مافي جوفه في لحية حامل سلاحه الحاني عليه بشدّة تضارع قذيفة البندقية .

فصاح سنشو : يا قدّيسة مريم! ماذا وقع لي ؟ لاشكّ في أن هذا الخاطئ جرح جرحاً مميتاً لأنه يقيء دماً من فمه .

لكنّه لمّا أمعن النظر عرف من اللون والطعم والرائحة أنه لم يكن دمّاً ، بل كان بلسم

الكوز الذي حمله على الشرب منه . هنالك أصابته رغبة في القيء شديدة فاستفرغ كل أحشائه في وجه مولاه نفسه ، فأضحى كلاهما ذا منظر عجب!

وأسرع سنشو الى حماره ليأخذ من الخرج مابه يجفف سيده ويضمّده ، لكنّه لم يجد الخرج ، فكاد يفقد صوابه . وراح يلعن نفسه آلاف اللعنات ، وقرّر في أعماق قلبه أن يهجر سيده ويعود الى بلده ، ولو أدى به ذلك الى فقد أجرته وآماله في حكم جزيرة ، وطالما وعد بها .

ونهض دون كيخوته ممسكاً فكّيه بيده اليسرى ليمنع ماتبقّى من أسنانه من السقوط ، وباليد الأخرى أخذ بعنان روثينانته ولم يكن هذا قد تحرّك عن جانب سيّده ، لأنّه كان فرساً خادماً مطيعاً مخلصاً . ثمّ مضى يفتّش عن حامل سلاحه ، وكان هذا مطرقاً إطراقة رجل حزين ، صدره يستند الى حماره وخدّه في كفّه . فلمّا شاهده على هذه الحال وعليه علائم الأسف العميق قال :

ـ اعلم يا سنشو أن المرء لا يفضّل المرء إلا إذا فعل أكثر منه . وهذه العواصف التي اجتاحتنا إنّما هي علامات على أن الزمان سيستأنف بآخرةٍ صفاءه ، وأمورنا ستتحسّن ، فمن المحال دوام سوء الحال أو حسن الحال ، ومن هنا فلمّا كان سوء الحال مآل . فلا تحزن لما يصيبني من مصائب ، لأنّك لاتشارك في شيء منها .

فأجاب سنشو : كيف لا أشارك ؟! وهل كان الذي يرنّح على الملاءة بالأمس شخصاً آخر غير ابن أبي ؟ والخرج الذي فقدته اليوم وكان فيه كل حاجياتي هل كان لشخص آخر غيره ؟

فقال دون كيخوته : ماذا يا سنشو ، هل فقدت الخرج ؟

فأجاب سنشو : نعم فقدته .

فقال دون كيخوته : إذن ليس عندنا اليوم ما نأكله!

فأجاب سنشو : سيكون الأمر كذلك إذا لم توجد في هذه المروج النباتات التي تزعم سيادتك أنّك تعرفها جيداً ، والتي يستعيض بها عند الحاجة أمثالك من الفرسان الجوّالة المنكودي الطالع .

فقال دون كيخوته : ومع هذا فقد كنت أفضّل ، في الساعة التي نحن فيها الآن ، أن أظفر بربع من الخبز ورأسين من الرنجة ـ أفضّلها على كل الحشائش التي وصفها ذيوسقوريدس ولو كانت بشرح الدكتور لاجونا[1] . ورغم هذا ،اركب حمارك يا سنشو

---

(١) ترجم الدكتور أندريس دي لاجونا كتاب «الحشائش» لديوسقوريدس (العقاقير المفردة) من اليونانية الى الاسبانية وشرحه بحواش واضحة وافية وزوّده برسوم لكثير من النباتات النادرة والغريبة . وقد طبع عدّة مرّات قبل ظهور «دون كيخوته» .والطبعة الأولى في أنفرس سنة ١٥٥٥ . وقد درس الكتاب دراسة ممتازة وافية جداً صديقنا سيزار دوبلر ، ونشر في دراسته حتّى الآن مجلّدان ضخمان .

وامش خلفي ، فالله الذي أنعم بكل شيء لن ينسانا ، خصوصاً ونحن نعمل في سبيله : وهو لاينسى البعوض في الهواء ولا الدود في التراب ، ولا الضفادع الناشئة في الماء ، إنه رحيم يرسل نور الشمس لتضيء للأبرار والأشرار ، ويرسل الغيث فيهطل على العادل والظالم .

فأجابه سنشو : إن شئت الحق ، أنت أصلح للوعظ والإرشاد منك لأن تكون فارساً جوّالاً .

فقال دون كيخوته : ياسنشو! الفرسان الجوّالة يعرفون - ويجب أن يعرفوا - كل شيء ، ومنهم في العصور الماضيةمن كان يقف ليلقي موعظة أو خطبة في الطريق العام وكأنه إنّما تخرّج من جامعة باريس ، ومن هنا يقال إنّ السيف[١] لايثلم القلم والقلم لايثلم السيف .

فأجاب سنشو : ليكن الأمر كما يشاء مولاي . ولكن هيّا بنا نبحث عن مبيت لنا هذه الليلة ، وأرجو الله أن يكون في مكان ليس فيه تطيير ولا مطيّرون ، ولاأشباح ولاأعراب مسحورون ، وإلاّ فالويل لنا كل الويل[٢] .

فقال دون كيخوته : أطلب من الله ياولدي ، واقتدنا الى حيث أردت ، وأنا أريد هذه المرّة أن أترك لك أمر اختيار بيتنا . لكن قبل هذا هات يدك وتعال تحسّس بإصبعك كم فقدت من أضراس في هذه الناحية اليمنى من الفك الأعلى ، إذ هنا أشعر بالوجع الأشد .

فوضع سنشو يده في فمه وتحسّس ، ثمّ قال :

- اعتدت أن يكون لك كم ضرس في هذه الناحية ؟

- أربعة ، بخلاف ضرس العقل ، وكلّها كاملة سليمة .

- انتبه جيداً لما تقوله يامولاي!

- أقول إنه كان لي أربعة ، إن لم تكن خمسة ، فلم يُخلع لي ضرس واحد في حياتي ، وأنا لم أخلع منها عن مرض ولاشبهه .

- إذن ، من هذه الناحية في الفك الأسفل لم يبق لدى مولاي غير سنّين ونصف سن ، وفي الفك الأعلى لم يبق لا نصف ولا شيء ، فكلّه مجلوح كراحة اليد في الاستواء .

- واحسرتاه إذن ، هكذا صاح دون كيخوته وهو يسمع الأنباء السيئة التي يفضي بها اليه حامل سلاحه ، ليتهم كانوا قد اقتلعوا ذراعي بدلاً من هذا ، بشرط ألا تكون الذراع التي تحمل السيف . إذ يجب أن تعلم ياسنشو أن الفم بلا أسنان كالطاحون بلا حجر ، وعلى الإنسان أن يقدّر السن أفضل بألف مرّة من الماسة . ولكن هذه النكبات التي أصابتنا

---

(١) في النص : الرمح - ولكننا آثرنا السيف لأنه أنسب في العربية . وهذا القول مثل سائر .

(٢) هنا مثل بالاسباني هذا معناه . وسيلاحظ القارىء أن سنشو سيكثر من ضرب الأمثال .

هي مما نتعرّض له جميعاً معشر المنخرطين في هذا النظام القاسي ، نظام الفروسية الجوّالة . فاركب إذن ، ياصديقي ، وتقدّمنا ، وسأتبعك بالسرعة التي تريدها .

ففعل سنشو ما أمره به مولاه ، وسار في الناحية التي خيّل اليه منها أنّه يضمن العثور على مبيت ، دون أن يبتعد عن الطريق العام ، وهو كثير الطروق عند هذا الموضع . وسارا هكذا الواحد في إثر الآخر ، خطوة بخطوة ، لأنّ وجع الفكّين لم يدعا لدون كيخوته راحةً ولا رغبة في الإسراع . وأراد سنشو أن يسكّن ألمه ويرفّه عنه برواية نوادر ، فروى له مانورده في الفصل التالي .

الفصل التاسع عشر

في الأسمار اللطيفة التي سامر بها سنشو مولاه
وما جرى لهذا مع جثة ميت وحوادث أخرى مثيرة

يخيّل إلي يامولاي أن النوائب التي أحاقت بنا منذ أيام هي لابد عقاب عن الخطيئة التي ارتكبها سيادتك ضد نظام الفروسية بتخلّفك عن الوفاء بالعهد الذي قطعته على نفسك وهو : ألاّ تأكل خبزاً على مائدة ، ولا تمزح مع الملكة وما يترتّب على ذلك ، ثمّ قسمك أن تعمل على الاستيلاء على خوذة مالاندرينو ، أو كما يسمّى هذا العربي ، لأنّي لا أذكر اسمه تماماً .

فأجاب دون كيخوته : أنت على حق كل الحق يا سنشو ، لكن الصدق يقتضيني أن أقول أن هذا الأمر قد ندّ تماماً عن ذاكرتي . وتستطيع أن تتأكّد أن ماوقع لك من حادثة التطبير إنما كان عقاباً لك على غلطتك في عدم تذكيري بذلك في الوقت المناسب . لكنّي سأصلح خطيئتي ، إذ في نظام الفروسية يوجد ترتيب لكل شيء .

ـ ولكن ، هل أقسمت أنا على شيء ؟ بهذا أجاب سنشو .

ـ لا يهم أن تكون قد أقسمت على شيء ، هكذا قال دون كيخوته ، بل يكفي ألا تكون بمأمن تام من تهمة الاشتراك (في الإثم) .وأيّاً ماكان الأمر ـ نعم أو لا ـ فالأحسن أن نتزوّد بالرخصة .

ـ إذا كان الأمر كذلك ، هكذا قال سنشو ، فليأخذ مولاي حذره حتّى لاينسى هذا القسم الجديد كما نسي الآخر ، لأن الاشباح يمكن أن تعاودها الرغبة في العبث بي مرة أخرى ، بل وبمولاي أيضاً إن رأوه سارداً في غيه .

وخلال هذه الأحاديث وأمثالها ، فاجأهم الليل في وسط الطريق دون أن يعرفوا أين وكيف يجدون المأوى . وشر مافي الأمر أنهما كانا يتضوران جوعاً ، إذ بضياع الخرج ضاع الزاد . ولتوكيد هذه المصيبة جرت لهما مغامرة يمكن أن تسمّى ، حقّاً وبغير احتيال ،

مغامرةً . كان الليل قد وافى والظلام الدامس خيّم ، ورغم ذلك تابعا المسير ، إذ اعتقد سنشو أنهما لن يسيرا فرسخاً أو فرسخين على الطريق العام حتّى يجدا فندقاً . وبينما يسيران هكذا في الليل البهيم ؛ وحامل السلاح يتضوّر جوعاً ودون كيخوته قد أخذه نهمٌ شديد ،شاهدا على الطريق الذي يسلكانه موكباً من الأنوار قادماً ، شبيهاً بالنجوم المتحرّكة . فأغمي على سنشو حينما شاهده ، وأحس مولاه بالفزع ، فسحب أحدهما حماره بخطامه ، وسحب الآخر فرسه بلجامه ، وظلاّ هادئين ينظران باهتمام بالغ ماذا عسى هذا أن يكون . فأبصرا الأنوار مقبلة مباشرة ناحيتهم ، وكلّما اقتربت بدت أكبر . فارتعدت فرائص سنشو لهذا المنظر ، وانتفض شعر دون كيخوته ، لكنّه تشجّع قليلاً وقال :

ـ هذه من غير شك مغامرة كبيرة خطرة ، لا بد لي فيها ياسنشو أن أكشف عن كل شجاعتي وقوّتي .

فأجاب سنشو : يا لشقائي! إن كانت هذه أيضاً مغامرة أشباح ، كما يبدو من مظهرها ، فأين أجد الأضلاع التي تكفيها ؟

فقال دون كيخوته : أيا كانت أشباحاً ، فلن أسمح لها أن تمسّ شعرة بل فتلة من ثيابك . وإذا كانت عبثت بك في المرة السالفة ، فالسبب في ذلك أنّي لم أقوَ على تسلّق جدران الفناء ،لكنّنا الآن في أرض سهلة منبسطة ، فيها أستطيع أن أعمل سيفي كما أشاء .

فأجاب سنشو : وإذا سحروك ونفخوك كما فعلوا في المرة السالفة ، فما يفيدك أن تكون في أرض سهلة أو غير سهلة ؟

فقال دون كيخوته : على كل حال أتوسّل إليك ياسنشو أن تلملمْ شجاعتك ، وستريك التجربة شجاعتي .

فأجاب سنشو : نعم! سأتشجّع إن شاء الله .

وانحرفا عن الطريق قليلاً وأنشآ يتأملان باهتمام ماذا عسى هذه الأنوار السائرة أن تكون . وسرعان ماشاهدا جمعاً من الناس يلبسون قمصاناً بيضاً . وكان منظر قضى على مابقي عند سنشو من شجاعة فراحت أسنانه تصطك كمن أصيب بحمّى الربع . وزاد الفزع والاصطكاك لمّا أن أبصرا بوضوح ماهنالك . لقد شاهدا عشرين رجلاً على الأقل متقمّصين راكبين أفراساً ، ويحملون في أيديهم مشاعل ، ووراءها نعش مجلل بالسواد والحداد ، يتلوه ستّة فرسان يلبسون السواد حتّى حوافر بغالهم ، إذ كان يبدو من هدوء سير هذه الدواب أنها ليست خيولاً . وكانت هذه الأشباح البيض تسير وهي ترطن بكلمات غير مفهومة بصوت شاكٍ خفيض .

هذه الرؤية الغريبة ، في مثل هذه الساعة وفي هذا الموضع القفر الموحش ، كانت كافية لإشاعة الرعب في قلب سنشو ، بل وفي قلب مولاه ، لكن بينما تبدّدت شجاعة سنشو ، وقع العكس لدون كيخوته إذ زوّر له خياله الجامح أنه بإزاء مغامرة من المغامرات التي وصفتها كتبه .

فقد خيّل إليه بأن النعش محفّة حُمل عليها فارس ميّت أو جريح جراحاً بالغة ، وأن الإنتقام له احتفظ به لدون كيخوته وحده . ودون أن يواصل التفكير تمكّن من متن فرسه وأشرع رمحه وبكل ثقة راح يقف في منتصف الطريق حيث لابد أن يمرّ ذوو القمصان . ولم يكد يراهم قريبين حتى صاح بأعلى صوته :

ـ قفوا أيها الفرسان أو من تكونون ، وأخبروني من أنتم ومن أين أتيتم ، والى أين تذهبون ، وماذا تحملون على هذه المحفّة . إذ يبدو من مظاهر الأحوال أن تكونوا ارتكبتم أو أصابتكم جناية . فمن المناسب إذن ومن الواجب أن أعرف جليّة الأمر ، إمّا لعقابكم على ما اجترحتم من إثم ، أو للإنتصاف لكم من إثم وقع عليكم .

فأجاب أحد المتقمّصين : نحن على حدّ عجلة ، والفندق بعيد ، فليس لدينا وقت لتقديم حساب عمّا تطلب ، ثمّ همز بغله وتقدّم . فغضب دون كيخوته لهذا الجواب أيما غضب ، فأمسك بالبغل من شكيمته وقال :

ـ قفوا وكونوا أكثر تأدّباً . وأجيبوا عمّا سألت عنه ، وإلاّ أعلنتها عليكم جميعاً حرباً شعواء .

وكان البغل هياباً ، فلمّا أحس بشدّة الشكيمة شبّ وانقلب على الأرض براكبه . وكان ثمة خادم راجل ، لمّا شاهد سيّده يقع راح يسبّ دون كيخوته . وكان هذا قد اتقّد غيظاً ، فخفض رمحه ودون أن ينتظر حملَ على أحد اللابسين السواد فقذف به بعيداً يتدحرج على التراب صريع ضربة شديدة . ثمّ انقلب الى سائر الجماعة فهاجمهم بسرعة ومهارة وطرحهم الواحد تلو الآخر ، وكأنّما نبتت أجنحة في روثيناته هذه اللحظة ، إذ بدأ الفرس نشيطاً فخوراً .

وكان ذوو القمصان جميعاً قوماً عزّلاً مسالمين ، لم يتلقّوا الضربة الأولى حتى أطلقوا لسيقانهم الريح ومضوا يعدون هاربين بمشاعلهم خلال السهل الفسيح ، حتى كان منظرهم كمنظر مواكب المساخر وهي تجري في ليالي الكرنفال . أمّا المجلّلون بالسواد فقد كانوا مغلّفين في سراويلهم الطويلة بحيث لم يقدروا على الحركة . فاستطاع دون كيخوته إذن أن ينسأهم ويطردهم جميعاً أمامه ، حتى صار فارس الميدان وحده بأرخص الأثمان ، ذلك أنهم

جميعاً حسبوه لارجلاً بل الشيطان نفسه جاء من الجحيم لينتظرهم في عرض الطريق ، لينتزع منهم الميت الذي حملوه على النعش .

وكان سنشو يتأمّل هذا كلّه معجباً بجسارة مولاه ، وقال في نفسه : «لاشكّ في أنّ مولاي شجاع وقوي كما يقول» . والى جوار من أسقطه البغل أول الأمركان ثمة مشعل متّقداً على الأرض . وعلى ضوئه أبصره دون كيخوته ، وتقدّم إليه ووضع طرف حربته على حلقه وطلب منه أن يستسلم وإلاّ قتله . فأجابه الطريح :

ـ لقد استسلمت ، لأنّي لا أستطيع الحركة ، وأظن إحدى ساقي مكسورة . لكن إن كنت نبيلاً ومسيحيّاً فإنّي أتضرّع الى سيادتك ألا تقتلني ، وإلا ارتكبت دنساً عظيماً ، لأنّي حامل إجازة (ليسانسييه) وتلقّيت الأوامر الدينية الأولى .

فقال دون كيخوته : وأي شيطان جاء بك الى هنا ، وأنت من رجال الكنيسة ؟

فأجاب الطريح : من ، يا سيّدي ؟ ـ إنه سوء البخت .

فقال دون كيخوته : يهدّدك من هو أعظم ، إذا لم تجب في الحال على كل الأسئلة التي ألقيتها عليك .

فأجاب حامل الإجازة : ستنال سؤلك . وسيعمل مولاي أنّي لست بعد إلا حامل بكالوريا وإن كنت قد قلت منذ قليل أنّي ليسانسييه . اسمي ألونثو لوپث ، من ألقوبندس . وأنا قادم من مدينة بيّاسة[1] ، بصحبة أحد عشر قسّيساً هم أولئك الذين هربوا بالمشاعل . ونحن ذاهبون الى أشقوبية نشيّع ميّتاً يرقد مسجّى في هذا النعش ، وهذا الميّت هو نبيل توفّي في بيّاسة ووضع مدة في المقبرة ، لكنّنا كما قلت لك نحمل عظامه الى أشقوبية حيث مقابر أسرته .

فسأله دون كيخوته : ومن قتله ؟

فأجاب حامل البكالوريا : الله ، بواسطة حمّى خبيثة أرسلها إليه .

فقال دون كيخوته : في هذه الحالة قد أعفاني الله من مؤونة القيام بالإنتقام له لو أنّ أحداً آخر هو الذي قتله . ولكن مادامت يد الله هي التي صرعته ، فليس أمامي إلا السكوت وثني الأكتاف ، ولو أن الله هو الذي صرعني لما فعلت غير هذا ، لكنّي أود أن أخبر فضيلتك أنّي فارس

---

(١) بياسة : قال عنها صاحب «الروض المعطار» : «بالأندلس . بينها وبين جيان عشرون ميلاً وكل واحدة منهما تظهر من الأخرى . وبياسة على كدية من تراب ، مطلّة على النهر الكبير المنحدر الى قرطبة ، وهي مدينة ذات أسوار وأسواق ومتاجر ، وحولها زراعات ، ومستغلات الزعفران بها كثيرة» (ص ٥٧) . واسمها القديم Beatia ، على مسافة ٤٠ كم شمال شرقي جيّان ، وبها كاتدرائية رائعة ، وكان بها جامعة ألغيت سنة ١٥٢٢ وبقيت في أيدي المسلمين حتّى سنة ١٢٢٧م .

من المانتشا أدعى دون كيخوته ، ووظيفتي أن أذرع الدنيا لإصلاح الأضرار وردّ المظالم .

فقال حامل البكالوريا : لستُ أدري ماذا تعني بإصلاح الأضرار ، لأنّي كنت مستقيماً فجعلتني معوجّاً ، وتركتني بساق مكسورة لن تستقيم أبداً مدى الحياة ، والظلم الذي رددته فيّ هو أنك أوقعت بي ظلماً لن يُردّ أبداً ، وأعظم نائبة يمكن أن تحلّ بي هي أن ألقاك ساعياً وراء المغامرات .

فأجابه دون كيخوته : لاتجري الأمور كلها على وتيرة واحدة ، المصيبة أتت ، ياسيّدي يا حامل البكالوريا يا ألونثو لوپث من كونكم كنتم تسيرون ليلاً مرتدين « كتّونات »[١] بيضاء وفي أيديكم مشاعل وترطنون بكلمات بين شفاهكم وتتدثرون بالحداد ، فكان مظهركم مظهرأشباح وأناس من عالم آخر . ولهذا لم أقو عن التخلّي عن القيام بواجبي في مهاجمتكم ، وما كان لي أبداً أن أتخلّى عنه حتّى لو كنتم فعلاً ـ كما كنت أعتقد ولا زلت ـ جيلاً من الجن فرّوا من الجحيم .

فقال حامل البكالوريا : مادام سوء طالعي قد أراد هذا ، فإنّي أتوسّل اليك ، ياسيدي الفارس الجوّال ، يا من ستحرمني طويلاً من الجولان ، أن تساعدني على التخلّص من هذا البغل فإن ساقي تحته وقعت بين السرج والركاب .

فقال دون كيخوته : يبدو إذن أنّك كنت تتكلّم للغد ؟ وأي شيطان جعلك تنتظر حتّى تقصّ عليّ همومك ؟

ثمّ نادى سنشو پنثا ليحضر . لكن هذا لم يحفل بالاسراع لأنّه كان مشغولاً بسلب ماعلى دابة حمل من زادٍ ثمين لهؤلاء القساوسة . لقد صنع سنشو من ثيابه كيساً حشاه بكل مااستطاع حشوه به ، وحمله على حماره ، ثم عدا على نداء سيده ، وعاونه على استخراج حامل البكالوريا من تحت بغله . واستطاعا أن يركباه على البغل ، وأعادا اليه المشعل وطلب إليه دون كيخوته أن يسلك السبيل التي اتخذها رفاقه ، وكلّفه أن يسألهم باسمه الصفح عن إهانة لم يكن في وسعه الإمتناع عن إرتكابها . وقال له سنشو أيضاً :

ـ وربّما أراد هؤلاء السادة أن يعرفوا من الشجاع الذي بدّد شملهم ، فأخبرهم أنّه دون كيخوته دلامنتشا الشهير ، الملقب بالفارس الحزين الطلعة .

ومضى حامل البكالوريا لطيّة . وهنالك سأل دون كيخوته صاحبه سنشو لماذا لقّبه بلقب « الفارس الحزين الطلعة » في هذه اللحظة لا في غيرها .

---

(١) قميص يلبسه الكاهن أثناء خدمة القدّاس ، والكلمة نصرانية دخيلة . وهي بالاسبانية soprobellicss وبالفرنسية surplis .

فأجاب سنشو : سأقول لك : ذلك أنّي تأمّلتك على ضوء هذا المشعل الذي يحمله ذلك الأعرج المسكين ، فبدا لي سيادتك فعلاً على أقبح صورة رأيتها منذ عدّة سنوات ، ولاشكّ أنّ هذا مرجعه إمّا الى متاعب النضال والعراك ، أو الى فقدان أسنانك .

فقال دون كيخوته : لا ، ليس الأمر كذلك . لكن الحكيم الموكّل بكتابة تاريخ مغامراتي سيستحسن أن أتخذ لقباً ذا دلالة خاصة ، كما فعل سائر الفرسان في العصور الماضية . فمنهم من كان لقبه : « فارس السيف المشبوب » ، ومن كان لقبه « فارس الفونقس » (العنقاء) ، أو « فارس العُقاب » ، أو « فارس الموت » ، وبهذه الألقاب والشارات عُرفوا في الدنيا كلّها . ولهذا فإنّ الحكيم الذي ذكرته لك قد أودع في فكرك ولسانك هذا الاسم : « الفارس[1] الحزين الطلعة » وهو الذي أرى أن أسمّى به منذ الآن ، وحتّى ينسجم عليّ هذا الاسم ، قرّرت أن يُرسم على ترسي ـ بمجرّد أن تسنح الفرصة ـ صورة وجه حزين كئيب .

فقال سنشو : لا داعي لإضاعة الوقت والمال في هذه الصورة . إذ يكفي مولاي أن يبرز طلعته وأن يحملق في وجوه من يتطلّعون إليه ، وأنا زعيم بأنهم سيطلقون عليك في التوّ اسم « الفارس الحزين الطلعة » ، دونما حاجة الى صورة أو ترس . وصدّقني أن ما أقوله الحق . وعلى سبيل المزاح أؤكّد لك أنّ الجوع وانعدام الأسنان قد جعلا لك طلعة بائسة تغني بسهولة عن كل تصوير .

فتبسّم دون كيخوته ضاحكاً من قول حامل سلاحه ، ولكن ذلك لم يثنه عن عزمه على اتخاذ هذا الاسم ، وأن يرسم على ترسه هذا الاسم الذي أراد . ثمّ قال لسنشو :

ـ ألا تعلم أنني قد دمغت بالطرد والحرمان لأنّي تطاولت بيدي على شيء مقدّس ، بمقتضى هذا النص[2] : « من أغراه الشيطان... ألخ » وإن كنت أعلم جيداً أنّي لم أتطاول بيدي ، بل بهذا الرمح . على أنّي لم أقصد أبداً إهانة رجال دين أو أمور كنيسة ، لأنّي

---

(١) هذا الاسم قد استعاره ثربنتس من كتب الفروسية أيضاً . فقد كان لقب الأميرديوكليانو الذي أصبح فيما بعد ملكاً ، وكان ابناً للملك غرثون دلا لوبا والملكة ديوكليثياالتي كانت من أمهر السحرة ، وقد تزوّج ديوكليانو من حبيبته ليونيا ، ومن هذا الزواج ولد لهما ولد اسمه فلوريمان دي جرثيا ، وكان شاباً عاشقاً شجاعاً كأبيه . وقد نبّه الى هذا رودريجث مارين في مقال نشره في « مضبطة الأكاديمية الملكية الاسبانية » ، السنة الثانية (سنة ١٩١٥) الكراسة٢ ، وعاد وفصله في مقال له يكون الفصل ١٦ من تعليقاته في المجلّد التاسع من نشرته الكبرى لدون كيخوته (ج٩ ص٢٣١ ـ ص ٢٣٥) . ومن القصة التي ترد فيها أخبار هذا الفارس توجد نسخة في المكتبة الأهلية بمدريد ، وأخرى في المتحف البريطاني بلندن .

(٢) هذا النص في قرار أصدره مجمع ترنت ، وتمامه : « من ضرب أحد رجال الدين يحرم ، ولا يغفر له إلا بأمر البابا . ومن أغراه الشيطان فارتكب جريمة أو انتهك حرمة بأن تطاول بيده على كاهن أو راهب ، فقد حلّت عليه اللعنة » .

احترمهم وأعبدهم شأن المسيحي الكاثوليكي المُخلص ، بل قصدت أشباحاً من العالم الأخر . ولو كان الأمر كذلك ، لما كنت نسيت ما وقع للسيّد روي ديات حينما حطّم كرسي أحد الملوك ، أمام قداسة البابا ، فحرمه في التو لهذا السبب ، وهو أمر لم يمنع ردريجو دي فيفار العليب من أن يتصرّف في ذلك اليوم تصرّف الفارس المخلص الشجاع[1] .

وكان حامل الإجازة في تلك الأثناء قد ابتعد ، فرغب دون كيخوته في أن يعرف ماإذا كانت الجثة الموضوعة في النعش من لحم أو عظام . لكنّ سنشو لم يوافق على ذلك أبداً وقال له :

ـ مولاي! لقد نهضت بهذه المغامرة الخطيرة بتكاليف أقل مما أنفقت في أيّة مغامرة سابقة رأيتك تقوم بها . وهؤلاء القوم ـ وإن هزموا ومزق شملهم ـ فيمكن أن يدركوا ويتنبّهوا الى أن شخصاً واحداً قد جندلهم ، فيحملهم العار والحفيظة على أن يعودوا ليأخذوا بثأرهم وينالوا منّا ما يوجعنا . والحمار على استعداد ، والجبل قريب ، والجوع يُلهبنا : فليس أمامنا إلا أن ننسحب بأقدام خفاف ، وكما يقولون : فليذهب الميت الى القبر ، والحي الى الخمر .

ثمّ أخذ حماره من مقوده ، ورجا مولاه أن يتبعه ، ورأى هذا مافي كلام سنشو من عقل وحكمة ، فتبعه ولم يرد له جواباً .

وبعد أن سارا زمناً بين رابيتين ، وصلا وادياً فسيحاً نضراً ، فحطّا الركاب . وأراح سنشو حماره . ثمّ تمدّد الخادم ومولاه على العشب الأخضر ، تحدوهما شهية عارمة ، فأفطرا وتناولا الغداء والعشاء كلها جملة واحدة ، وملآ بطنيهما كلها من اللحوم المقدّدة التي حرص السادة رجال الدين كهنة المرحوم أن يزوّدوا بها أكتاف البغل ، وهم قومٌ نادراً ماينسون شؤون هذه الحياة الدنيا! لكن وقع لهما شرٌّ آخر ، وجداه شرّ الشرور : ذلك أنهم لم يكن لديهم نبيذ يشربونه ، بل ولا قطرة ماء يرويان بها الظمأ . فالتهبت أحشاؤهما من العطش . ولمّا رأى سنشو أن المرج الذي يرقدان عليه فيه عشب نضير وفير صغير ، قال مانرويه في الفصل التالي .

---

(١) يشير دون كيخوته في هذا المقام الى تلك الأشعار الواردة في « رومانثيرو السيد » والتي ورد فيها :

« في كنيسة القديس بطرس ، دخل دون رودريجو ، فشاهد سبع كراسٍ لسبعة ملوك نصارى ، وأبصر كرسي ملك فرنسا بجانب كرسي الأب الأقدس (البابا) بينما كرسي سيّده الملك أبعد منه . فأهوى على كرسي ملك فرنسا وقذفه بقدميه وكان الكرسي من العاج ، فانكسر أربع قطع . ثمّ أخذ كرسي ملكه ورفعه الى أعلى مكان... وما علم البابا في الأمر حتى أمر بحرمان السيد » .

الفصل العشرون

في المغامرة العجيبة التي قام بها الشجاع دون كيخوته بأقل خطر تعرّض له فارس شهير في أية مغامرة

« إن نضرة هذا العشب لشاهد لايردّ على وجود نهر أو ينبوع في هذه النواحي منه يرتوي . فمن الخير لنا إذن أن نتقدّم قليلاً ، فسنجد قطعاً ما يطفئ الغليل المخيف الذي يلحّ علينا ، وعذابه أشدّ نكراً من عذاب الجوع » .

ورافأه دون كيخوته على هذا الرأي ، فأمسك بعنان روثينانته واقتاد سنشو حماره من خطامه بعد أن وضع على ظهره بقايا العشاء . ثمّ استأنفا المسير صاعدين في المروج خبط عشواء ، لأن ظلام الليل قد حال دون رؤية الأشياء . وماسارا مائتي خطوة حتّى قرع أسماعهما خرير صاخب كأنّه خرير شلال يسقط من أعلى الصخر . فأحستا لدى هذا الضجيج بغبطة لاتوصف ، وتوقّفا ليصغيا الى مصدره ، فسمعا في الحال ضجيجاً آخر سكّن غبطتهما وعطشهما معاً ، خصوصاً سنشو وهو الجبان بطبعه . ذلك أنهما سمعا ضربات خرساء شديدة ، تنهال على إيقاع وتصحبها قرقعة قيود وسلاسل حديدية ، كانت بالإضافة الى ضجيج السيل كافية لإشاعة الرعب في أي قلب آخر غير قلب دون كيخوته . وكان الليل ، كما قلنا ، دامس الظلام ، وقادتهما الصدفة الى أيكة من الأشجار السامقة تحرّك أوراقها الريح فتصدر عنها ضوضاء عذبة ومخيفة معاً ـ حتّى إن الوحدة والمكان والظلام وخرير الماء وحفيف الأوراق ـ كل ذلك نشر الرعب والفزع . وازداد الأمر سوءً لمّا أحستا أن الضربات لا تزال تتوالى ، والريح تعصف ، والفجر تأخّر في البزوغ حتّى يعرفا على الأقل أين مكانهما .

لكن دون كيخوته بقلبه الجسور وثب على روثينانته والتأم ترسه وأشرع رمحه وصاح :

ـ يا صاحبي سنشو! اعلم أن إرادة السماء شاءت لي أن أولد في العصر الحديدي هذا لكي أبعث فيه العصر الذهبي . من أجلى الأخطار الرهيبة ، والأفعال المجيدة والمغامرات

الرائعة . نعم! أنا الذي عليه أن يبعث أبطال المائدة المستديرة الخمسة والعشرين ، وأكفاء فرنسا الاثني عشر وفرسان «الشهرة» التسعة ، أنا الذي سأجر ذيول النسيان ـ بأعمالي الخارقة ـ على بلاتير وفيبوس وبليانيس وتابلان وأوليفان وتيران وأضرابهم وهذا الحشد الهائل من الفرسان الجوّالة المشهورين في القرون الماضية ، وسآتي في هذا القرن الذي أعيش فيه من الأعمال الحربية العظيمة الرائعة مايغطّي على أروع ماتباهى به الآخرون . تأمّل جيداً ، أي حامل سلاحي المخلص الأمين ، تأمّل ظلمات هذه الليلة وسكونها العميق ، وحفيف هذه الأشجار المختلط الأخرس ، وجلبة هذا الماء الذي جئنا من أجله ويلوح وكأنّه يتدافع من أعلى جبال القمر ، وأخيراً ذلك الضجيج المتواصل لضربات متوالية تمزّق الأسماع ـ وكلّها أمور يكفي واحد منها لأن يشيع الدهشة والخوف والهلع في روح إله الحرب ، المشتري ، نفسه ، فما بالك بمن لم يتعوّد هذه الأحداث! إن هذه الأشياء التي وصفتها لك كلّها دوافع تحفزني وتبعث شجاعتي ، وهذا قلبي يتواثب في صدري لشدّة رغبتي في مواجهة هذه المغامرة ، وإن لاح من تباشيرها أنها عامرة بالأخطار . وإذن شدّ ياسنشو أحزمة روثينانته ، وابق في حفظ الله . وستنتظرني أنت هنا طوال ثلاثة أيّام ، إن لم أعد بعدها إليك تستطيع أنت أن تعود الى قريتنا ، ومن هناك ـ حتّى تعمل عملاً صالحاً وتخدمني ـ تذهب الى توبوسو وتقول لدلثنيا ، سيدتي المنقطعة النظير ، أن أسيرها الفارس قد مات وهو يؤدّي أعمالاً خالدة تجعله أهلاً لها .

فلمّا سمع سنشو سيده يتحدّث على هذا النحو ، أنشأ يذرف أحرّ العبرات بحنان عميق ، وقال له :

ـ لست أدري ، يا مولاي ، لماذا تريد أن تلقي بنفسك في مثل هذه المغامرة الحافلة بالأخطار . نحن الآن في الليل ولايرانا أحد ، ففي وسعنا إذن أن نغيّر طريقنا ونخلص من الخطر ، ولو أدّى بنا ذلك الى عدم الشرب ثلاثة أيّام متواليات . ومادام لايرانا أحد ، فلن يكون ثمّة من ينعتنا بالجبن . هذا الى أنّي كثيراً ماسمعت قسيس الناحية يعظ ويقول ـ ومولاي يعرف هذا القسيس جيداًـ إن من يسع الى الخطر يهلك به . ولهذا فليس من صواب الرأي تحدّي الله بإلقاء النفس في هذه التهلكة التي لاخلاص منها إلا بمعجزة . وكفاكَ معجزة بما حبته لك السماءأنك لم تطيّر كما طُيّرت أنا ، وأنّك ظفرت بنصر مؤزّر ـ لم يصبك من وراءه أقل خدش ـ على كل هؤلاء الأعداء الذين كانوا يشيعون جثمان الفقيد . فإذا لم يستطع هذا كلّه أن يؤثّر في هذا القلب الذي قدّ من صخر ، فليرّق على الأقل وهو يفكّر في هذه الواقعة وهي أن مولاي لن يبتعد من هنا خطوة حتّى أسلّم روحي فزعاً لمن يطلبها . لقد

هجرت بلدي وتركت أهلى وأولادي لأتبع مولاي وأكون خادمه ، وأنا أعتقد أنّي سأصبح خيراً مما كنت . لكن الطمع ـ كما يقولون ـ يمزّق الجوالق[1] ؛ فقد حطّم أمالي ، إذ في الوقت الذي حسبت فيه أنّي على وشك الظفر بتلك الجزيرة المنحوسة التي طالما وعدني بها مولاي ، هاأنت ذا مقابل خدماتي تريد أن تتركني وحيداً في مكان ناء عن بني الإنسان . أواه! بحق الواحد الذي لاشريك له لا تكن قاسياً عليّ يا مولاي كل هذه القسوة . وإذا كان مولاي لايريد أبداً العدول عن الخوض في هذه المغامرة ، فلينتظر على الأقل حتّى الصباح ، إذ بحسب العلم الذي لُقّنته حينما كنت راعياً لم يبق على بزوغ الفجر غير ثلاث ساعات ؛ ذلك أنّ فم الدب الأكبر فوق رأس الصليب ، بينما منتصف الليل يرتسم على خط الذراع اليسرى .

فأجاب دون كيخوته : لكن ياسنشو كيف قدرت أن تبصر هذا الخط أو تدرك أين الفم والرأس ، مع أنّ الليل مدلهمّ بحيث لايستطيع المرء أن يميّز نجماً واحداً .

فقال سنشو : هذا صحيح ، لكن للخوف عيوناً نافذة ، ومادام يقال إنه يبصر ما تحت الأرض ، فكيف لايبصر ما في السماء! على أنّه من السهل أن يحزر المرء أن الصبح ليس ببعيد .

فقال دون كيخوت : ليأت عمّا قليل أو عمّا أكثر ، ولكن لن يقال ، في هذه الساعة ولافي أي وقت ، أن دموعاً أو توسّلات قد حالت بيني وبين القيام بواجبي بوصفي فارساً . فأرجوك إذن ياسنشو أن تلتزم الصمت . والله الذي ألهم قلبي الرغبة في مجابهة هذه المغامرة الهائلة الرهيبة ، سيعنى بحفظي وبعزائك في أحزانك . وماعليك إلا أن تشد أحزمة روثينانته وأن تنتظر هاهنا ، وأعدك أن أعود بعد قليل : ميّتاً أو حيّاً .

فلمّا رأى سنشو رسوخ عزم مولاه وقلة تأثير النصح فيه والدموع والتوسلات ، قرّر أن يستخدم الحيلة ويحمله مااستطاع على انتظار طلوع النهار طوعاً أو كرهاً . ومن أجل هذا ، بينّما كان يشد أحزمة روثينانته ، ودون أن يرى أو يظهر عليه شيء ، ربط حافري الفرس بخطام الحمار ، حتّى إنه حينما أراد دون كيخوته المسير لم يستطع ، لأن الفرس لم يقدرعلى الحركة ، اللهم إلا وثباً وقفزاً . فلمّا شاهد سنشو ينثا أن حيلته أفلحت قال :

ـ مولاي! ها أنت ذا ترى أن السماء تأثّرت بدموعي وتضرّعاتي فأمرت ألا يستطيع روثينانته الحركة من هنا ، وإذا لجّ بك العناد وعذّبت هذه الدابة المسكينة ، فمعنى ذلك أنك تريد أن تعاند القدر وتشكّ الإبرة!

---

(١) أي أن الجشع والرغبة في ملء الجوالق (الشوال) بأكبر مقدار ممكن يجعل الجوالق تتمزّق . وهو مثل سيرد ذكره كثيراً .

فاستولى اليأس على دون كيخوته ، وكلّما همّ بفرسه ازداد عسر تحريكه . لهذا قرّر أن ينتظر حتّى يطلع النهار أو يوافق روثيناتته على المسير ، ولم يداخله أي ظن أن هذه المقاومة إنّما أتت من حيلة سنشو . وقال :

ـ مادام الأمر هكذا وروثينانته لايشاء التحرّك ، فلأقنع بانتظار أول بسمات الفجر وإلاّ كنت بالأحرى راغباً في البكاء على طول تأخّره في البزوغ .

فقال سنشو : ليس مايدعو للبكاء ؛ فسأروي لك قصصاً حتّى يدركنا الصباح ، اللهم إلا إذا كنت تودّ النزول والنعاس قليلاً على العشب النضير ، كما هي عادة الفرسان الجوّالة حتّى تكون أوفر استعداداً ونشاطاً وأنت تقوم بهذه المغامرة التي لا يشبهها شيء .

ـ ماذا تقول ؟ أنام ؟ أنزل من فرسي ؟ هل أنا إذن واحد من أولئك الفرسان الذين ينامون في ساعة الخطر ؟ نم أنت يا من خلقت للنوم ، أو إفعل ما شئت ، أمّا أنا فسأعمل ما أراه الأفضل .

ـ لا تغضب ، يا مولاي ، فلم أقل هذا لإثارة حفيظتك .

ثمّ اقترب منه وأمسك بإحدى يديه مقدم السرج وبالأخرى مؤخرته حتّى التصق بفخذ سيده اليسرى دون أن يجرؤ على الابتعاد عنه قيد أنملة ، لأن خوفاً عظيماً استولى عليه من صدى وقع الضربات وهي تتوالى على التبادل .

هنالك طلب دون كيخوته من سنشو أن يقصّ عليه حكاية كما وعده .

فأجاب سنشو : عن طيب خاطر ، لوسمح لي الخوف بالكلام . على أنّي سأبذل جهدي لأروي قصة ، لو استطعت أن أتمّها دون أن أنسى منها شيئاً لكانت خير قصة . فلينتبه مولاي إذن ، فسأبدأ :

« كان يا مكان... الخير لكل الناس والشرّ للذي يسعى فيه... وأرجوك أن تلاحظ يامولاي ، مااعتاد الأقدمون أن يبدأوا به أسمارهم ، فلم يكونوا يبدأون بأي شيء ، بل بحكمة لكاتو ، الوالي الروماني ، تقول : «الشرّ لمن يسعى فيه» ، وهي كلمة تطابق مقتضى الحال هنا ، إذ تدلّ مولاي على وجوب التزام الجانب الأمين ، دون البحث عن الشرّ في أيّة ناحية كان ، وتدعونا الى سلوك سبيل أخرى ، إذ لاشيء يرغمنا على متابعة السير في هذه الطريق التي تزخر بالمخاوف » .

فقال دون كيخوته : تابع قصتك يا سنشو ، أمّا الطريق التي نسلكها فدع أمرها لي وحدي » .

فاستأنف سنشو قائلاً : « أقول إذن أنّه في ناحية من نواحي استرامدورا عاش راعي ماعز ، أي يحرس الماعز ، وهذا الراعي للضأن أوالماعز ، كما تروي قصتنا هذه ، كان يدعى

لوپ رويث ، ولوپ رويث هذا كان يحب راعية تدعى تورلّبا ، وهذه الراعية المدعوّه تورلّبا كانت بنت صاحب قطعان غني ، وصاحب القطعان الغني هذا...» .

فقاطعه دون كيخوته قائلاً : إذا كنت ستروي قصّتك على هذا النحو ياسنشو ، فتكرّر ما تريد أن تقوله مرّتين ، فلن تنتهي في يومين . اروِها ببساطة ومباشرة كرجل ذكي ، وإلاّ فاسكت ولا تُضف شيئاً .

فأجاب سنشو : كل القصص التي للأسمار تروى في قريتنا على النحو الذي أبديته ، ولا أستطيع أن أرويها بطريقة أخرى ، وليس من العدل أن يطالبني مولاي بابتكار طرق جديدة .

فقال دون كيخوته : اروِ إذن كما يحلو لك ، ومادام الحظ يضطرني الى الاستماع إليك ، فاستمر .

فقال سنشو : يا سيّد نفسي! تعرف إذن ، كما قلت من قبل ، أنّ هذا الراعي كان عاشقاً للراعية تورلّبا التي كانت فتاة بدينة منتفخة ، شرسة بل عليها سيما الرجال لأنّه كان لها شارب ، حتّى لأكاد أراها وأنا في موضعي هذا .

فسأله دون كيخوته : هل عرفتها إذن ؟

فقال سنشو : كلاّ لم أعرفها ، لكنّ الذي حكى لي الحكاية قال لي أنّها صحيحة ومؤكّدة الى درجة أنّني لو حكيتها الى شخص آخر ، ففي وسعي أن أحلف وأؤكّد أنّي شاهدت بعيني كل ما وقع فيها من أحداث . والشاهد إذن أنّه مع مرور الأيّام ، كما يقال ، جاء الشيطان وهو لا يغفل أبداً ، ودائماً يدس أنفه في كل شيء لإفساده ، فدخل بينهما حتّى أنّ حب الراعي للراعية إنقلب الى كراهية وحقد ، وألسنة السوء تقول أنّ السبب فيما وقع هو قدر من ألوان الغيرة التي سبّبتها له شيئاً بعد شيء ، حتّى تجاوزت المزاح ، ومنذ ذلك الوقت اشتدّت كراهية الراعي ولم يطق رؤية الراعية حتّى أنّه صمّم على هجرة الأوطان والذهاب الى حيث لاتقع عليه عينها أبداً . فلمّا شاهدت تورلّبا انصراف لوب عنها اشتدّ غرامها أكثر من غرامه السابق بها .

فقال دون كيخوته : هذه طبيعة النساء : ينصرفن عمّن يحبّهن ، ويحببن من ينصرف عنهنّ . استمر .

فاستأنف سنشو : حدث إذن أن الراعي نفّذ تصميمه ، فدفع ماعزه أمامه متجهاً في سهول استرمدورا للعبور الى مملكة البرتغال . فلمّا بلغ تورلّبا نبأ هروبه ، سارت في إثره ، وتابعته من بعيد ، سائرة على قدميها وحذاؤها في يد ، وعكّازة في اليد الأخرى ، وقد علّقت في عنقها خرجاً صغيراً يقال إنّه يحتوي على قطعة من مرآة ونصف مشط وعلبة صغيرة فيها مسحوق

لتزيين الوجه . ولكن سواء أكانت تحمل هذه الأشياء أو لا تحملها ـ فهذا أمر لاأودّ تحقيقه الآن ـ فالذي حدث هو أنّ الراعي قدم ومعه قطيعه ليعبر نهر الوادي الكبير في الوقت الذي زاد فيه فيضانه إلى حد أن أوشك على الخروج عن مجراه . ولم يكن في الناحية التي أتى منها لازورق ولا سفينة ولا ملاّح ليعبر به وقطيعه من الماعز ، فأثار ذلك حفيظته لأنّه أبصر تورلّبا في إثره وهي بسبيل أن تضايقه بعبراتها وصرخاتها . فتلفّت ذات اليمين وذات الشمال ، وفي النهاية أبصر صيّاداً بالقرب منه زورق صغير لا يتّسع إلا عنزة واحدة ورجلاً . ورغم ذلك ناداه وقاوله ليعبر به الى الشاطىء الآخر هو والثلاثمائة عنزة التي معه . فاستقلّ الصيّاد زورقه وأخذ عنزة وعبر بها ، ثمّ عاد وعبر بثانية ، ثمّ عاد وعبر بثالثة ، ثمّ عاد وعبر برابعة... ولينتبه مولاي وليعدّ الماعز التي يعبر بها الصيّاد ، إذ لونسيت واحدة ، لأنتهت القصة دون أن يمكن إضافة كلمة واحدة ، واستأنف القصة : وأقول أنّ الشاطئ في الجانب الآخر كان وعراً طينيّاً لزجاً ، حتّى أن الصيّاد تأخّر كثيراً في الذهاب والعودة . ورغم ذلك عاد يأخذ عنزة أخرى ، ثمّ أخرى أيضاً .

وهنا صاح دون كيخوته : افترض إذن أنّه عبر بها كلّها ، ودع الذهاب والعودة على هذا النحو ، وإلاّ فلن تنتهي من العبور بها في أقل من عام .

فسأله سنشو : كم واحدة عبرت حتّى الآن ؟

فأجابه دون كيخوته : ومن يدري!

فقال سنشو : لقد قلت لك انتبه واحسب جيداً! وإلاّ فقد انتهت القصّة وقضي الأمر ولا سبيل الى إتمامها .

فقال دون كيخوته : وكيف كان ذلك ؟ هل من الضروري في قصّتك أن نعرف بالدقّة عدد العنزات التي عبرت ، فلو أخطأنا في واحدة لا تستطيع أن تقص شيئاً بعد ؟

فأجاب سنشو : كلاّ ، أبداً يا مولاي! إذ في اللحظة التي سألت فيها مولاي عن عدد الماعز التي عبرت فأجبت بأنّك لاتدري ، كل مابقي لي أن أقول ذهب من ذاكرتي . وكان هذا الجزء أحسن وألذ ما في القصّة .

فقال دون كيخوته : إذن القصّة انتهت ؟

فأجاب سنشو : نعم كما انتهت حياة أمّي .

فقال دون كيخوته : أؤكّد لك أنّك حكيت أعجب حكاية أو قصّة أو أقصوصة تمكن أحد أن يؤلّفها في الدنيا كلّها ، وأنّ طريقتك هذه في روايتها وختمها لم ولن يرى لها نظيراً أبداً . على أنّه لم يكن لي أن انتظر من ذكائك الخارق أمراً آخر . ولم تأخذني الدهشة ؟ لعل هذه الضربات ، التي لم يهدأ لها صليل ، قد عصفت بمخّك ؟

فأجاب سنشو : كل هذا ممكن ، لكن فيما يتّصل بقصّتي ، أعرف أنها تنتهي عند هذا الحد ، أي حيث بدأ الخطأ في عدّ العنزات التي عبرت .

فقال دون كيخوته : حسناً ، فلتنته حيث شئت . لكن لنرى الآن ماإذا كان روثينانته يستطيع النهوض .

وضربه بمهمازه وهو يقول هذه الكلمات ، وأخذ الفرس يتواثب دون أن يتحرّك من مكانه إذ كان محكم الوثاق .

وفي هذه اللحظة حدث ـ إمّا بسبب طراوة الصباح وقد تنفّس ، وإمّا لأن سنشو كان قد أكل في العشيّة السابقة شيئاً مسهّلاً ، وإمّا ، وهو الأكثر احتمالاً ، لأن الطبيعة فعلت مفعولها فيه ، ـ نقول حدث أن سنشو أحسّ بالرغبة في إنزال ثقل لاحيلة لأحد في رفعه عنه . لكن الخوف كان قد استولى على نفسه الى حدّ أنّه لم يجرؤ على الإبتعاد عن مولاه قيد أنملة . ومن ناحية أخرى كان من المستحيل عليه أن يؤجّل هذا الأمر . وفي هذه الحيره احتال للأمر بأن سحب يده اليمنى التي أمسك بها خلف السرج ، وبكل هدوء انتزع الدبّوس الذي يمسك بلباسه ، فنزل عنه الى قدميه وقيّده بالأصفاد ، ثمّ رفع شطر قميصه والقى في الهواء بردفيه الثقيلين . فلمّا فرغ من هذا وأعتقد أنّه أنجز الجانب الأهم من هذه المحنة القاسية ، برزت لديه مشكلة أعسر وأعقد : إذ خيّل إليه أنّه لن يستطيع البدء في انجاز مهمّته دون أن تحدث ضوضاء ، وها هو ذا يصرّ أسنانه ويثني كتفيه ويمسك أنفاسه بكل مافي رئتيه من قوّة . لكن على الرغم من كل هذه الاحتياطات خانه الحظ فأفلتت منه ضوضاء خفيفة ، تختلف كثيراً عن تلك التي أثارت خوفه ، وسمعها دون كيخوته فسأل في الحال :

ـ ما هذه الضوضاء ؟

فأجاب سنشو : لا أدري يا سيّدي! لكن هذا لابدّ أمر جديد ، لأنّ الأحداث والمصائب لا تأتي أبداً وحدها!

ثمّ قام بمحاولة أخرى ، نجحت معه تماماً دون أن تحدث أدنى ضجّة . وبهذا استراح من هذا العبء الثقيل الذي ضايقه أشد الضيق . لكن أنف دون كيخوته لم يكن أقل حساسية من أذنه ، وكان سنشو لصقه كأنّه محيط به ، فانبعثت بعض الأبخرة وصعدت الى خط مستقيم الى أنفه . فلمّا شمّها استعان بأصابعه لتكون في عون خياشيمه التي ضغط عليها بين الإبهام والسبّابة وقال بصوت فيه خَنَف :

ـ يبدو لي ياسنشو أنّك تشعر الآن بخوف شديد .

فأجاب سنشو : نعم! لكن ماذا يجعل مولاي يعتقد أنّ خوفي الآن أشدّ من ذي قبل ؟

فقال دون كيخوته : لأنك تفوح منك رائحة أشد من ذي قبل ، وليست رائحة عنبر هذه!

فقال سنشو : هذا ممكن أيضاً لكنّ الذنب ليس ذنبي ، بل ذنب مولاي الذي قادني في هذا الوقت غير الملائم الى هذه النواحي المهجورة .

فقال دون كيخوته دون أن يسحب أصابعه من أنفه :

ـ ابتعد بضع خطوات ، يا صديقي ، ومنذ الآن فصاعداً راعِ شخصي وما يجب عليك نحوي ، وعدم الإحترام هذا إنّما نشأ من فرط ما تركت لك من الحرّية معي .

فأجاب سنشو : أراهن أن مولاي يظن أنّي فعلت بنفسي شيئاً كان يحب ألا أفعله أبداً .

فقال دون كيخوته : دع هذا ، دعه! فهذه أمور يحسن عدم إثارتها .

في هذه الأحاديث وأشباهها أمضى المولى والخادم بقية الليل . ولم يكد سنشو يرى الفجر يبزغ حتّى حلّ وثاق روثينانته بكل هدوء . ولمّا شعر الفرس بالحرّية عادت الشجاعة اليه . وعلى الرغم من أنّه لم يكن جموحاً بطبعه ، فقد بدأ يضرب بمقدم حوافره ، أمّا أن ينحني فقد كان أمراً عنده عسيراً . فلمّا رأى دون كيخوته أنّ روثينانته بدأ يتحرّك ، تفاءل وأبصر في هذا إنذاراً بخوض هذه المغامرة الرهيبة!

وفي تلك الأثناء كان النهار قد أشرق وبانت الأشياء بوضوح . فرأى دون كيخوته نفسه تحت خميلة من أشجار الكستناء الباسقة لها ظل كثيف ، أمّا صوت الضربات الذي لم ينقطع أبداً فلم يستطع أن يتبيّن مصدره . لهذا لم يشأ الإنتظار وهمز روثينانته وودّع حامل سلاحه مرة أخرى وأمره أن ينتظره في هذا المكان ثلاثة أيّام على الأكثر ـ كما قال له في المرّة السابقة ـ بعدها إذا لم يعد فليوقن سنشو أن إرادة الله قد شاءت أن تذهب حياته في هذه المغامرة الخطيرة . ثمّ ذكره بسفارته الى سيدته دلثنيا وماسيقوله لها ، وأضاف قائلاً لسنشو ألا يشغل بمسألة دفع أجرته ، لأنّه ، أي دون كيخوته ، قد ترك وصيّة قبل مغادرة بلدته أوصى فيها بأن يدفع له أجره ومكافأته عن المدّة التي خدمه فيها واستمر يقول :

ـ لكن لوشاءت إرادة السماء أن أخرج من هذا الخطر سليماً معافىً ، فيمكنك أن تحسب من المؤكّد كلّ التأكيد أنك ستملك الجزيرة التي وعدتك بها .

فلمّا سمع سنشو عبارات مولاه الطيّب الرقيقة المؤثّرة ، راح يبكي وصمم على ألا يترك سيده حتّى ختام هذه المسألة تماماً . ومن هذه العبرات وهذه العزيمة النبيلة يستنتج المؤلّف هذه القصة أن سنشو پنثا لابدّ أن يكون من أصل نبيل ، أو على الأقل أنّه مسيحي عريق في المسيحية . فأثار حزنه رقّة شعور مولاه ، لكن لا الى الحد الذي يكشف عن ضعف . كلاّ ،

بل كتم مشاعره ماستطاع ، وسلك سبيله قُدماً صوب الجهة التي خيّل اليه أنّ منها تنبعث ضوضاء الماء والضربات .

وفي إثره مشى سنشو ، كعادته ، يقود حماره ، رفيقه الأبدي في السرّاء والضرّاء . ولمّا سارا زمناً بين أشجار القسطل الكابية ، بلغا مرجاً صغيراً يمتد عند قرار رواب مرتفعة يساقط منها شلاّل جميل يهدر بشدّة . وعلى مستقرهذه الصخور بيوت حقيرة أشبه بالخرائب منها بالمنازل ، وأدركا أن من وسطها تنبعث ضجة هذه الضربات المتواصلة باستمرار . فزع روثينانته من ضوضاء الضربات ومسقط الماء ، فهدأ دون كيخوته روعه بالكلمات واللمسات ، ثمّ اقترب من هذه البيوت قليلاً قليلاً ، وبكل قلبه تضرّع الى سيدته لتمنحه عنايتها في هذه المغامرة الرهيبة ، كما توسّل الى الله ألا ينساه . أمّا سنشو الذي التزم جانب مولاه فقد مدّ رقبته ونظره تحت بطن روثينانته ـ قدر مافي وسعه ـ ليرى جلية الأمر فيما عمر نفسه بالشك والقلق زمناً طويلاً . وعلى هذا النحو خطوا مائة خطوة حتّى تبين لهما ، عند منعطف صخرة ، علّة هذه الضجّة التي أشاعت في نفسيهما طوال الليل كلّه مخاوف شديدة ، ولم يكن (إذا لم يثر هذا في نفسك ، أيها القارىء ، أسفاً ولا حنقاً) ثمة من سبب لها إلا ست مطارق طاحونة[1] كانت ضرباتها المتبادلة تؤلّف كل هذه الضوضاء!

فلمّا تبين دون كيخوته جلية الأمر اعتصم بالصمت ، وامتقع لونه وترنّح من أعلى رأسه حتّى أخمص قدميه . ونظر اليه سنشو فرأى رأسه مائلاً على صدره كمن تسربل بالعار والخجل . ونظر دون كيخوته الى سنشو ، فأبصر خدّيه منتفخين وفمه مليئاً بالرغبة في الضحك حتّى ليكاد يختنق منها ، ولم يتماسك حزنه أمام تقطيبة سنشو المضحكة ، فسلم نفسه للإبتسام . ولم يكد سنشو يرى مولاه يفتر عن ابتسامة حتّى انطلق في ضحك لجّ فيه وأمعن حتّى اضطر أن يمسك بأحشائه لئلا يموت من الضحك . وسكت عنه الضحك أربع مرّات ، واستأنف الضحك أربع مرّات في عنف لا يقل عن عنف المرّة الأولى فثارت ثائرة دون كيخوته خصوصاً حينما سمع سنشو يقلّده في نبراته وحركاته ويصيح : «اعلم ، أي صديق سنشو ، أنّي ولدت بإرادة السماء في عصرنا الحديدي هذا لأبعث العصر الذهبي : ولي أنا الأخطار الرهيبة والأعمال الرائعة ، والمغامرات الفذّة» ويستمر في تكرار هذه الكلمات التي تفوّه بها مولاه حينما سمع ضجة ضربات المطرقة في المرة الأولى . فلمّا رأى دون كيخوته

(١) هذا النوع من الطواحين المسمّى batan عبارة عن ماكينة عادية تتألف من بعض مطارق خشبية كبيرة تحرّكها عجلة تتحرك بواسطة الماء المنحدر ، وتستخدم في تنظيف الأقمشة وصقلها . وكان واسع الانتشار والاستعمال في إقليم المنتشا في اسبانيا في العصر القديم (العصور الوسطى وأوائل العصر الحديث) .

أنّ سنشو يسخر منه كل هذه السخرية ، تملّكه من الغضب ماجعله يرفع مقبض رمحه ويهوي عليه بضربتين قاسيتين لو كانتا أصابتا الرأس كما أصابتا الكتفين ، لكان في حلّ من دفع راتب له إن لم يكن لورثته . فلمّا أدرك سنشو أن مزاجه قد جرّ عليه كل هذا الويل ، خشي أن يعاود سيده الجزاء فاستكان وتذلّل وقال بلهجة المستغفر :

ـ ليهدأ روع مولاي! وأيم الله لقد كنت أمزح .

فأجابه دون كيخوته : ولأنك تمزح أنا لاأمزح . تعال أيها الهازل وأجبني : هل تظن لو أنّه كانت هذه المطارق مغامرة خطيرة لما كنت أبديت شجاعة في خوضها الى نهايتها ؟ وهل أنا الفارس ملزم بتمييز الأصوات وإدراك ماإذا كانت الضجة التي أسمعها آتية من مطارق أو من شيء آخر ؟ ألا يمكن ـ وهذا عين الحق ـ ألا أكون سمعتها ولا رأيتها في حياتي ، كما سمعت أنت وشهدت أيها الجلف الشرّير الذي ولد ونشأ في جوارها ؟ وإلا فأرني أن هذه المطارق الست قد تحولت الى ستة مرده ، ثمّ ادفعها إليّ الواحد بعد الآخر وأرجلها في أعلاها ، فلك أن تسخر منّي ما وسعتك السخرية .

فأجابه سنشو : حسبنا هذا يامولاي ، وأنا أعترف أنّي قد أطلقت العنان لنفسي أكثر مما يجب . لكن أخبرني وقد تصالحنا وعاد بيننا السلام ، ولعل الله أن ينجّيك من كل المخاطر كما نجّاك منها هذه المرّة! ـ أخبرني أليس ثمة ما يضحك ويتندّر به في هذا الخوف البالغ الذي استولى علينا ؟ أعني الذي استولى عليّ أنا ، لأني أعلم أن مولاي لم يعرف اسم الخوف أبداً!

فقال دون كيخوته : لست أنكر أنّه لم يكن فيما وقع لنا مايدعو الى الضحك ، لكنّي لا أظن أن فيه ما يتندّر به لأن جميع الذين سيسمعونك ليس لديهم من الفطانة ما يجعلهم يفهمون الأمور على وجهها الصحيح .

فأجاب سنشو : أنت على الأقل عرفت كيف تستعمل مقبض الرمح على الوجه الصحيح ، لأنك استهدفت الرأس فأصبت الكتفين ، بفضل الله وبما أتيته من انحراف ناحية اليمين . لكن لاعلينا فكل شيء يضيع بالغسل كما يقال ، وكثيراً ما سمعت الناس يقولون : من أحبّك أبكاك ، خصوصاً والسادة الكبار اعتادوا أن يصفعوا خدمهم بعد شتمهم . ولا أدري ماذا يعطونهم بعد ضربهم إياهم ، لكنّي أتصور أن الفرسان الجوّالة يعطون بعد الضرب بالعصا جُزراً أو ممالك راسخة الدعائم .

فقال دون كيخوته : يمكن أن يتحوّل الحظ على نحوٍ يتحقّق معه كل ماتقول . فاصفح عمّا سلف وأنت رجل عاقل وتعلم جيداً أن الحركات الأولى التي تبدر من الانسان ليست ملك يمينه ولكنّي أريد أن أخبرك بشيء حتّى تملك زمامك وتمتنع من التطاول في الكلام معي : وذلك أنّي لم

أقرأ في أي كتاب من كتب الفروسية ـ وهي لا تحصى ـ أن حامل سلاح قد ثرثر مع مولاه بهذه الجرأة كما تفعل أنت مع مولاك . والحق أن كلينا على خطأ : أنت ، لأنك لا تحترمني كما يجب ، وأنا ، لأني أتساهل في حقي في الاحترام . فهذا جندالين ، حامل سلاح أماديس الغالي ، الذي أصبح كونت الجزيرة الثابتة ـ يقال أنه لم يخاطب مولاه أبداً إلا وقبعته في يده ورأسه خفيض وجسمه منحن ، على عادة الترك . لكن ماذا تقول في جسبال حامل سلاح دون جلاور ، فقد بلغ من التواضع حداً جعل اسمه لا يظهر في هذه القصة الحقيقية الطويلة إلا مرة واحدة ، وهذا دليل على قدرته العجيبة على الصمت ؟ فمن كل ماذكرت عليك أن تستنتج ، أيّ سنشو ، أن احترام الخادم لمولاه أمر ضروري وكذلك احترام التابع الإقطاعي لسيد الإقطاع واحترام حامل السلاح للفارس . لهذا يجب علينا إذن أن نتعامل بمزيد من الاحترام دون تبسّط ولا مغالاة في المزاح . وعلى كل حال فأي غضب غضبته عليك ، فالمغبّة دائماً على الإبريق[1] . والنعم والمكافأة التي وعدتك بها ستمنح في ميعادها ، وإذا لم تأتِ كما وعدتك فإن أجرك لن يضيع .

فأجاب سنشو : كل مايقوله مولاي عظيم ،لكنّي أريد أن أعرف . إذا قدر ولم يئن ميعاد المكافأة أبداً . وكان لامناص من الاكتفاء بالأجر ـ كم كان يكسب في ذلك الزمان حامل سلاح فارس جوّال ، وهل كان أجره مشاهرة ، أو مياومة كصبيان البنّائين .

فقال دون كيخوته : أعتقد أن حملة السلاح في ذلك الزمان لم يكن لهم أجر معلوم ، بل حسب رغبة السيد الفارس ، وإذا كنت قد عيّنت لك أجراً في الوصيّة المختومة التي أودعتها في منزلي ، فذلك من أجل ما قد يقع . والحق أني لا أعرف ماذا على الفروسية أن تفعل في هذه الأزمنة البائسة التي نعيش فيها ، ولاأريد أن تقلق روحي في العالم الآخر بسبب شيء تافه كهذا . ويجب أن تعلم ياسنشو أنه لا يوجد في الدنيا عمل أشق وأحفل بالأخطار من عمل المغامرين في الأخطار .

فأجابه سنشو : أعرف هذا جيّداً ، لأن مجرّد ضجّة مطارق الطاحون قد أشاعت الاضطراب والقلق في قلب جوّال شجاع مثل مولاي . وكن مطمئناً تماماً لن أمزح في أمورك بعد ، بل سأجلّك بوصفك سيدي ومولاي الطبيعي .

فقال دون كيخوته : هذه الحالة إذن ستعيش ، كما يقولون ، على وجه الأرض ، لأن احترام السادة يأتي في المرتبة التالية لاحترام الوالدين ، وكأنهم لهم نفس الحقوق ونفس المكانة .

(١) هذا مثل اسباني يقول « إذا وقع الحجر على الابريق فويل للابريق ، وإذا وقع الإبريق على الحجر ، فالويل أيضاً للابريق » .

الفصل الحادي والعشرون

في المغامرة الرائعة والغنيمة الوافرة التي ظفر فيها بخوذة ممبرينو، وفي أمور أخرى جرت لفارسنا الذي لا يُقهر

في تلك الأثناء بدأ المطر في السقوط ، فودّ سنشو الاحتماء منه بطواحين النسيج . لكن دون كيخوته أحسّ لها بكراهية شديدة بسبب عبثها به ، فلم يشأ أبداً الموافقة على دخولها . بل شدّ العنان فجأة ناحية اليمين ، ثمّ بلغا طريقاً شبيهاً بطريق الأمس .

وعلى مسافة قليلة أبصر دون كيخوته رجلاً راكباً على فرس ، يحمل على رأسه شيئاً يرفّ ويلمع كأنّه من ذهب . ولم يكد يراه حتّى التفت الى سنشو وقال :

ـ يخيّل إليّ يا سنشو أنّه لا يوجد مثل بغير معنى حقيقي ، لأنّ الأمثال أقوال منتزعة من التجربة نفسها ، وهي أمّ العلوم كلّها ، وخصوصاً المثل الذي يقول : إذا انغلق باب انفتح آخر . فإذا كان الحظ قد أغلق بالأمس باب المغامرة التي سعينا اليها ، فها هوذا يفتح على مصراعيه باب مغامرة أحسن وأوثق . فإن لم أنجح هذه المرّة في العثور على المدخل ، فالغلطة ستكون غلطتي دون أن أجد وجهاً للإعتذار بجهلي بطواحين الأقمشة ، أو بظلام الليل .وإنما أقول هذا كلّه لأنّي أرى ـ لو صدق حدسي ـ قادماً من هذه الناحية يلبس على رأسه خوذة ممبرينو التي اقسمت من أجلها القسم الذي لم تنسه .

فأجاب سنشو : بحق الله يامولاي إلاّ أخذت حذرك مما تقول ، ومما أنت فاعل ، فلست أريد أن نكون بإزاء مطارق طواحين أخرى تطرّقنا وتطحن عقولنا!

فصاح دون كيخوته : يا لك من شيطان في إنسان! أي شبه بين الخوذة والمطارق ؟

فأجاب سنشو : لست أدري! لكن لو كان في وسعي الكلام كما اعتدت لأبديت لمولاي من الأسباب مايجعله يرى أنّه مخطىء فيما يقول .

فقال دون كيخوته : كيف أخطئ فيما أقول ، أيها الخائن المتحذلق المدقّق ؟ قل لي : أوَلا ترى ذلك الفارس المقبل علينا ممتطياً صهوة فرس أغبر أرقط ، وعلى رأسه خوذة من الذهب ؟

فأجاب سنشو : ماأراه وأتبيّنه ليس إلا رجلاً يركب حماراً رمادياً مثل حماري ، وعلى رأسه شيء يلمع .

فقال دون كيخوته : نعم هذا الشيء الذي يلمع هو خوذة ممبريو . فانتح جانباً ودعني ألاقه وحدي . وسترى كيف أتمّ هذه المغامرة دون أن أنبس بكلمة اقتصاداً للوقت ، وأستولي على هذه الخوذة التي طالما تمنّيتها .

فقال سنشو : أمّا الانتحاء جانباً فهذا شأني ، لكنّي أقول مرة أخرى لعل الله أن يجعله صعتراً لا مطارق .

فقال دون كيخوته : لقد أخبرتك ياأخي ألا تصمّ أذاني بهذه المطارق ، وحق... ـ ولا أزيد ـ وإلاّ طرقت روحك!

فصمت سنشو : خوفاً من أن ينفّذ دون كيخوته قسمه ، لأنه كان قد ضربه فأصماه وأدماه .

وها نحن أولاء نذكر لك نبأ هذه الخوذة وهذا الفرس والفارس التي رآها دون كيخوته : كان في هذه النواحي بلدان متجاوران : أحدهما كان من الصغر بحيث لم يكن فيه صيدلي ولاحلاّق ، والآخر أكبر منه وفيه كلاهما . وكان حلاق البلد الأكبريعمل أيضاً لأهل الأصغر فيفصد هذا ويحلق لحية ذاك . ولأداء هاتين المهمّتين كان يذهب حاملاً صحن حلاقة من النحاس[1] الأصفر . وشاء القدر أن يفاجئه المطر في الطريق ، فلكي يحمي قبّعته ـ وكانت جديدة من غير شك ـ وضع عليها صحن الحلاقة وكان مصقولاً فكان يلمع من مسافة بعيدة . وكان يركب حماراً رمادياً ، كما قال سنشو ، ولهذا ظن دون كيخوته أنه أبصر فرساً أغبر أرقط وفارساً وخوذة من الذهب : لأن جميع مايلفت نظره كان يرتّبه بسهولة وفقاً لهذيانه الفروسي وخواطره الشاردة .

فلمّا أبصر الفارس المسكين قادماً عن قرب ، لم يوجّه اليه كلمة بل انقض عليه بكل ما في وسع روثينانته من قدرة على الركض ، ورمحه مصوّب ، وفي عزمه أن ينفذه فيه من جنب فيخرج من الجنب الآخر ، لكن في اللحظة التي أوشك فيها أن يبلغه صاح فيه دون كيخوته دون أن يهدىء من اندفاع جريه :

ـ دافع عن نفسك ، أيها المخلوق الحقير ، أو سلّم اليّ عن طيب خاطر ماأستحقه بجدارة .

---

(١) الكلمة الاسبانية Azofar عربية هي « الصفر (بضم فسكون) أي النحاس الأصفر .

وشاهد الحلاّق ـ الذي لم يتوقّع ولم يخطر بباله شيء من هذا كلّه ـ هذا الشبح ينقضّ عليه ، فلم يجد وسيلة للإحتماء من ضربة الرمح إلاّ أن يقع من فوق حماره ، ولم يكد يلمس الأرض حتّى نهض أخفّ من الظبي وأطلق ساقيه للريح في السهل المنبسط بحيث لم يكن للريح نفسها أن تلحقه ، تاركاً صحن الحلاقة على الأرض ـ وكان هذا كل مارغب فيه دون كيخوته ، فصاح قائلاً إن الوثني كان فطناً ، حاكى القندس ؛ فإن القندس إذا أطبق عليه الصيّادون قطع بأسنانه ماتدلّه الغريزة على أنه موضوع طلبهم . ثمّ أمر سنشو بالتقاط الخوذة ، فأخذها هذا ووزنها في يده وقال :

ـ والله هذا الصحن جيد ، ويساوي ريالاً ثمانياً[١] مثل المرابطي .

ثمّ أعطاه لمولاه فوضعه على رأسه في الحال ، وقلبه على كل وجه ليتبيّن كيفية وضعه ، ولمّا لم يهتد الى ذلك صاح :

ـ لابدّ أن يكون الكافر الذي صنعت هذه الخوذة الشهيرة لأوّل مرّة وفق مقاسه كان ذا رأس كبير جدّاً ، وماهو أدهى من هذا هو أنّه ينقصها نصفها .

فلمّا سمعه سنشو يسمّي صحن الحلاقة خوذة لم يتمالك من الضحك الشديد ، لكنّه تذكّر غضبة سيده فأمسك وهو في نصف الضحك .

فقال دون كيخوته : مم تضحك يا سنشو ؟

فأجاب : أضحك مما عسى أن يكون كبر رأس هذا الكافر صاحب هذه الخوذة التي تشبه صحن حلاقة حَذْوَ القُذّة بالقذّة .

فقال دون كيخوته : هل تدري ماأتصوّره ؟ إنّي لأتخيّل أن هذه القطعة الفريدة ، هذه الخوذة المسحورة لا بد أن تكون قد وقعت ، بالصدفة الغريبة ، في يد من لا يعرف قيمتها ولا يقدّرها حقّ قدرها ، فلمّا رآها من الذهب الخالص فكّر في صهر نصفها للإفادة من ثمنه ، دون أن يعلم ماذا يفعل ، فبقي النصف الآخر على هذه الصورة التي يجعله يشبه صحن حلاقة ، كما تقول . ومهما يكن من أمرها ، لكنّي وأنا أعرفها لاأهتم بما جرى لها ، بل سأصلح من أمرها عند أوّل حدّاد نلقاه في أوّل قرية نمر بها ، بحيث تصبح لاتقلّ أبداً عن الخوذة التي صنعها ربّ الحديد لرب المعارك[٢] . والى أن يتم إصلاحها سأحملها على

---

(١) الريال الثماني real de a ocho يساوي ثمانية ريالات من الفضّة ، أي ستة عشر ريالاً عاديّاً .

(٢) يقول رودريجث مارين في تعليقه هنا : «لاأذكر أنّ فولكانو صنع أسلحة للمرّيخ ، وإنّما أعرف أن المرّيخ هو الذي صنع أسلحة لفولكانو ، أسلحة من أردأ الأنواع ، بدخوله في علاقات وثيقة مع زوجته فينوس» . ولكن هذه الملحوظة ساخرة ، والحق أن فولكانو (إله الحديد) قد صنع أسلحة لأخيلوس وإينوس .

علاّتها ، فإن شيئاً أفضل من لاشيء ، وعلى كل حال فستكون كافية لحمايتي من الحجارة .

فقال سنشو : نعم ، بشرط ألاّ ترمى الحجارة بمقلاع ، كما حدث في معركة الجيشين لمّا أن كسروا ثناياك وحطّموا القارورة التي وضعت فيها ذلك الشراب المبارك الذي جعلني أتقيّأ كبدي .

فقال دون كيخوته : لستُ كاسف البال لضياعه ، لأنّي أتذكّر تركيبه جيداً كما تعلم يا سنشو .

فقال سنشو : وأنا أيضاً أذكره جيّداً ، لكن إذا ركّبته أو تذوّقته مرّة أخرى في حياتي ، فلتكن تلك نهاية عمري . على أنّي لا أفكّر أبداً بوضع نفسي موضع الحاجة اليه ، بل بالعكس ، أرى أن أحتاط بكل قواي الحسّية حتّى لا أُجرحْ ولا أُجرح أحداً . أمّا أن أرتجح مرّة أخرى ، فهذا أمر لا أدري عنه شيئاً : لأنّه من المصائب التي لا يقدر المرء أبداً على تلافيها ، وإذا وقعت فلا شيء أفضل من ثني الأكتاف وكتم الأنفاس وإغلاق العينين ، وأن يترك المرء نفسه إلى حيث يرسلها البخت والعطاء .

فقال دون كيخوته عند سماعه هذه الكلمات : يالك من مسيحي خبيث ياسنشو! إنّك لا تنسى أبداً الإهانة التي ألحقت بك . لتعلم إذن أن من شيم القلب النبيل الكريم ألا يحفل أبداً بهذه الصغائر . قل لي : بأي رجل تعرج ؟ وأي أضلاعك رضّ ، وأي رأس محطّم استنقذته من المعركة ـ حتّى لاتنسى هذا المزاح الخفيف ؟ فحقيقة الأمر أنّه لم يكن إلا مزاحاً وهزاءً . ولو لم أفهم الأمر على هذا ، لكنت عدت الى هناك فأحدثت من التخريب والتدمير مالم يفعله اليونانيّون انتقاماً لخطف هيلانة ، هيلانة التي لو وجدت في عصرنا هذا ، أو وجدت حبيبتي دُلثنيا في عصرها ، لكان من المؤكّد تماماً أنّها لن تكون لها كل هذه الشهرة بالجمال .

وهنا زفر زفرة حارة أطلقها في الهواء حتّى السحاب .

فقال سنشو : ليكن الأمر إذن لإضحاكهم مادام ليس في الإستطاعة إبكاؤهم . أمّا أنا فأعرف جيداً ماذا كان للإبكاء وماذا كان للإضحاك ، ولن يذهب من ذاكرتي كما لن يذهب من جلد أكتافي . ودعنا من هذا وقل لي ، إن تفضّلت يامولاي ، ماذا نحن فاعلون بهذا الفرس الأشهب الأبقع الذي يبدو كأنّه حمار رمادي والذي تركه مرتينو ذلك الذي جندلته ، إذ يبدو من هيئته في الهرب أنّه لاينوي العودة لأخذه . وبحق لحيتي إن هذا الفرس ليس بالرديء .

فأجابه دون كيخوته : ليس من عادتي أبداً سلب من أهزمهم ، وليس في عرف الفروسية انتزاع الأفراس منهم وتركهم يسيرون على الأقدام ، اللهم إلا إذا كان المنتصر قد

فقد فرسه في المعركة ، هنالك يجوز له أن يأخذ فرس المهزوم ، لأنّه غنيمة في حرب مشروعة . وإذن فاترك هذا الفرس أو الحمار أو ماشئت أن تطلق عليه من أسماء ، ياسنشو ، فإنّ صاحبه حين يرانا ابتعدنا من هاهنا ، سيعود لأخذه .

فقال سنشو : يعلم الله كم أودّ أخذه أنا ، أو على الأقل استبداله بحماري الذي لايبدو لي فارهاً ، والحق أن قوانين الفروسية ضيقة ، مادامت لاتتسع حتّى لإستبدال حمار بحمار . ولكنني أود أن أعرف ماإذا كنت أستطيع استبدال جهازه .

فأجاب دون كيخوته : هذا أمر لست منه على بيّنة ، وفي حال الشك ، وإلى أن أحصل على معلومات أوفى ، أسمح بالبدل إذا كنت في حاجة قصوى إليه .

فقال سنشو : قصوى جداً الى حد لوكان هذا الجهاز لشخصي أنا ، لمآ كانت حاجتي إليه أشد .

فلمّا ظفر بهذه الرخصة قام بعملية البدل[1] mutatio capprum (كما يقول الطلاّب) ، وزيّن حماره بالجهاز فتبدّي رشيقاً أنيقاً . ولمّا فرغ من هذا ، أكلا من بقايا الغنيمة التي ظفرا بها من فوق بغل القساوسة وشربا من ماء الجدول الذي يغذّي طواحين سبك الصوف ، دون أن يديرا وجهيهما ناحية الطواحين ، لشدّة بغضهما لها بسبب ماأحدثته في نفوسهما من ذعر . وذهب الغضب مع الشهيّة ، بل ذهب سوء المزاج كذلك ، فامتطيا الفرس وبدأ المسير في غير اتجاه معلوم ، ابتغاء أن يكونا أقرب الى شيم الفرسان الشاردين ، مسلّمين قيادهما الى روثينانته ، الذي سارت وراءه إرادة سيده ، وتبعته إرادة الحمار وقد كان يسير دائماً أنّى اقتاده الفرس . وعلى هذا النحو عادا الى الطريق العام فالتزماه حيثما اتفق دون هدف معلوم .

وبينما كانا يسيران قدما هكذا ، قال سنشو لسيّده :

ـ مولاي! هل تسمح لي بالتحدّث قليلاً إليك ؟ منذ أن فرضت عليّ هذا الأمر القاسي بالصمت ، تعفّن الكثير في جوفي ، وعندي الآن شيء على طرف لساني ، شيء واحد لاأودّ أن يضيع هكذا سدى .

فأجابه دون كيخوته : قل لي ما هو ، وكن موجزاً في كلامك ، فالكلام إذا طال أملّ .

فأجاب سنشو : أقول إذن يا مولاي أنّي بقيت طوال أيّام أفكّر فيما يجنيه المرء من قليل هزيل بالسعي وراءهذه المغامرات التي تنشدها في هذه الأنحاء القاحلة ومفارق الطرق :

---

(١) على عادة ثربنتس من السخرية بالحذلقة ، استخدم هنا هذه العبارة اللاتينية التي تدل على مرسم يجري في عيد القيامة(قيامة السيد المسيح ، وهو يوم تحتفل فيه الكنيسة الكاثوليكية كل عام بقيام المسيح من قبره في اليوم الثالث من صلبه) ؛ في هذا اليوم يستبدل الكرادلة والمطارنة في الكهنوت الروماني بقبّعاتهم ومعاطفهم الجلدية أخرى من الحرير الأحمر الحقيقي .

فحيث لا يوجد أحد لمشاهدتها والعلم بها ، أياً كانت الأخطار التي يواجهها المرء والانتصارات التي يقوم بها ، فإن أعمالك الباهرة ستظل دفينة في نسيان دائم ، رغم نوايا مولاي الطيبة ومزاياها الحقيقية . ولهذا يبدو لي - والرأي لمولاي ـ أنّ الأفضل أن نغدوا لخدمة امبراطور أو أمير عظيم ، يكون في حاجة الى القيام بحرب ، فيستطيع مولاي أن يكشف بخدمته عن مزايا ساعده وشدّة أسره وفرط ذكائه ، حتّى إذا ماشاهد السيد الذي نكون في خدمته هذا كلّه ، كان لزاماً عليه أن يكافئنا ، كلاّ بحسب فضله . وهناك أيضاً سنجد كتّاباً يسجّلون كتابة أعمالك الخارقة يامولاي ، حتّى تظل ذكراها باقية أبداً . أمّا أعمالي أنا ، فلا أقول عنها شيئاً ، لأنّها يجب ألا تخرج عن حدود مجد السوّاس ، ورغم ذلك ففي وسعي أن أقول إنه لوجرى العرف في الفروسية بتسجيل أعمال السوّاس ، فإنّي أعتقد أن أعمالي لن تبقى بين السطور .

فأجابه دون كيخوته : كلامك هذا ليس بالقبيح ياسنشو! لكن قبل بلوغ هذه المرحلة ، لابدّ أوّلاً من السعي في مناكب الأرض بحثاً عن المغامرات وكأنّهن محن ، حتّى يكسب المرء من وراء هذه الأعمال الرائعة اسماً وشهرة . فإذا مثل في حضرة ملك كبير سبقته شهرة أعماله ، وإذا جاوز أبواب المدينة تبعه الصبية وأحاطوا به صائحين : « هذا فارس الشمس[1] » ، أو فارس الأفعوان[2] ، أو أيّة شارة أخرى عرف بها أنّه من ذوي الأفعال المجيدة . فيقولون : « هذا هو الذي قهر في معركة فردية المارد الهائل بروكابرونو ذا القوّة العظيمة ، هذا الذي خلص من السحر مملوك[3] الفارس الكبير ، وكان مسحوراً من تسع سنوات تقريباً » . وهكذا تذاع أعمالي من فم الى فم ، وبعد هذا تطرق مسامع السلطان هذه الضجّة التي يثيرها الصبيان والعامة كلّهم فيظهر من شرفةقصره الملكي . حتّى إذا أبصر الفارس وتعرّفه من لون سلاحه وشارة ترسه اندفع صائحاً رغماً عنه : « آه! هيّا يافرساني المقيمين في قصري ، انهضوا لاستقبال زهرة الفروسية ، فهاهوذا قادم! » فيخرج الجميع لدى سماعهم هذا الأمر ، وينزل هو بنفسه حتّى منتصف درجات السلّم ، ويعانقه عناقاً حاراً ، ويقبّله قبلة السلام على وجنته[4] ، وسرعان مايقتاده من يده الى جناح الملكة ، فيجدها

(١) في قصة « بلمرين دي أليفا » ، الفصل٤٢ .

(٢) في قصة « اسبلنديان » ، الفصل ١٤٧و١٤٨ .

(٣) يأخذ كلمنثين على ثربنتس أنه يستعمل التعبير : « المملوك الكبير » بينما المستعمل هو « التركي الكبير » (أي سلطان السلاطين) ، وأنه يجعل المملوك سلطان فارس ، مع أنّه حاكم مصر لافارس ، كما أنّه ليس لقب تشريف ، ثمّ يستدرك قائلاً إن المتكلّم هنا مجنون ، فله من الحرّية أكثر من الشعراء والرسّامين!

(٤) راجع قصة : « أماديس الغالي » ، الفصل ١١٧ .

الفارس مع بنتها الأميرة التي لابدّ أن تكون من أكمل وأجمل الأوانس اللائي يوجدن ـ ونادراً مايوجدن ـ على الشطر الأعظم من وجه البسيطة . ويحدث بعد هذا أن تقع عين الأميرة على الفارس ، وعين الفارس على الأميرة ، ويبدو كلاهما للآخر أقرب الى الإله منه الى الإنسان ، ودون أن يعرفها كيف ولماذا ، يظلاّن معقودين بعقدة الحب الوثيقة ، والقلب حزين لايدري كيف يخاطب القلب ليكشف عن عواطفه ومخاوفه . ومن ثمّ يقتاد الفارس الى قاعة من قاعات القصر فاخرة الرياش ، فتخلع عنه أسلحته ، ويقدّم له حساء فاخر ذو لون قرمزي يتدثّر به ، فإنّ كان جميل الطلعة وهو شاكي السلاح ، فما أروعه بلباس الإحتفال! وإذا أقبل الليل تناول العشاء مع السلطان والسلطانة والأميرة ولايرفع عينيه عن الأميرة دون أن يلحظه الحاضرون ، وهو في هذا جدّ ماهر ، لأنها كما قلت ، آنسة شديدة الحياء قدوع ، فإذا فرغ العشاء شوهد قزم قميء قبيح يدخل من باب القاعة فجأة ، وفي إثره سيّدة فاتنة بين ماردين قدمت لإجراء مغامرة فريدة وصفها حكيم قديم ، الظافر فيها يكون أعظم فرسان العالم[1] .

ثمّ يأمر السلطان جميع الحاضرين من فرسانه بالدخول في هذه المباراة ، فلا ينجح فيها أحد غير هذا الفارس الغريب ، فيتألّق مجده ، ويبعث الرضا في نفس الأميرة ، فيبلغ بها السرور غايته إذا جوزيت عن وصفها أمانيها في هذا المقام العالي . وخير مافي الأمر أنّ هذا السلطان أو الأمير أو من يكون ـ هو في حرب عنيفة ضد أمير آخر من أنداده ، فيلتمس منه الفارس ، ضيفه ، أن يأذن له بخدمته في هذه الحرب ، فيمنحه الإذن عن طيب خاطر ، ويقبّل الفارس يديه بكل أدب واحترام جزاءً وفاقاً لهذه النعمة التي أسبغها عليه . وفي نفس الليلة يودّع الأميرة ، معشوقته ، يودّعها من خلال سور الحديقة الذي يطل عليه مخدع الأميرة . وكأين من مرّة جاذبها الحديث في هذا المكان ، وكان الوسيط بينهما وصيفة تكتم سر الأميرة وتفضي إليها الأميرة بكل أسرارها[2] . يتنهّد ، فيغمى على الأميرة ، فتأتي الوصيفة بماء ، وتأسف لإنبلاج الصباح لأنّها لاتريد أن ينكشف أمرها ، حفاظاً على شرف سيّدتها . وأخيراً تستعيد الأميرة وعيها ، وتبسط من خلال السور الحديدي يديها البيضاويتين الى الفارس الذي ينقضّ عليهما لثماً ويغرقهما بدموعه ، ويتفقان على طريقة ليعرف بها كلاهما أنباء الآخر وما يقع له من محن أو نعم ، وترجوه الأميرة ألا يطوّل غيابه إلا أقل مدة ممكنة ، فيعدها بذلك مقسماً أغلظ الأيمان ، وبعد أن يقبّل يديها من جديد ، ينتزع نفسه من حضرتها وفي نفسه من الحسرات ما يجعله ينذر عندها الحياة . ويعود الى

---

(١) راجع قصة « اماديس النالي » ، الفصل ٦٦ ، القسم الثاني الخ .

(٢) راجع قصة « أماديس النالي » ، الفصل ١٦ ، « فارس الصليب » ، الفصل ١٤٤ .

مخدعه ، ويلقي بنفسه على السرير ، لكنّه لايستطيع النوم أسفاً على الرحيل . ويصحو مبكّراً ، ويذهب ليودّع السلطان والسلطانة والأميرة ، لكن الأولان ينبأنه بأن الأميرة منحرفة المزاج ولاتستطيع استقبال أحد . فيعتقد الفارس آنئذ أن ذلك بسبب آلام الفراق ، فيفطر قلبه ، ولايعوزه إلا القليل ليكشف علناً عن آلامه . وتشهد الوصيفة كاتمة السر هذا المنظر ، وتلاحظ كل شيء ، وتغدو لتقصّه على سيّدتها التي تستمع إليها باكية وتقول لها إن من أشدّ ما يحزنها أنّها لاتعلم من فارسها هذا ، وهل هو من سلالة الملوك أو ليس من أصلابهم . فتؤكّد لها الوصيفة أن هذا اللطف والأدب والشجاعة لا يمكن أن توجد إلا في أبناء الملوك والأشراف . وترضى الأميرة الحزينة بهذا العزاء ، وتحاول كتم حزنها حتّى لايظن بها أهلها الظنون ، وبعد يومين تظهر للناس . ولكن الفارس قد ارتحل ، ويشترك في الحرب ، ويحارب ويهزم عدو السلطان ويستولي على عدّة مدن ، ويحرز جملة إنتصارات . ثمّ يعود الى البلاط ، ويرى سيدته في الموضع الذي اتعدّاه عادة ، ويتّفق وإيّاها على طلب يدها من أبيها جزاء خدماته ، ولايرضى الملك به صهراً ، لأنّه لايعرف من هو ، واختطافاً أو بطريقة أخرى تصبح الأميرة زوجة للفارس ، وينتهي الوالد بالرضى عن هذا الارتباط ويعدّه شرفاً عظيماً بعد أن يكتشف أن هذا الفارس هو إبن ملك شجاع في إحدى الممالك التي لاوجود لها على المصوّرات الجغرافية . ويموت الوالد ، وترث الأميرة عرشه ، وهاهو ذا الفارس قد أصبح ملكاً[1] . هنالك يكون أوان الإغداق على حامل سلاحه وعلى جميع من عاونوه على بلوغ هذه المكانه العليا . ويزوّج حامل سلاحه بإحدى وصيفات الأميرة ، ولاشكّ أنها ستكون كاتمة سرّ غرامهما ، وهي ابنة دوق من الطراز الأوّل .

فصاح سنشو : هذا هذا! هذا ما أريده ، وعلى بركة الله! إي والله يكفيني هذا ، وسيجري كل شيء تماماً كما وصفت ، مادام مولاي سيسمّى بلقب «الفارس الحزين الطلعة»!

فأجابه دون كيخوته : لا تشكّ في هذا أبداً فالفرسان الجوّالة قد مرّوا ويمرّون بنفس المراحل التي قصصتها عليك حتّى يبلغوا مرتبة الملوك والأباطرة[2] فلم يبق إذن الآن إلا أن نبحث عمن هو الملك المشغول بحرب عظيمة وله بنت جميلة ، سواء كان من ملوك النصارى أو ملوك الكفّار . ولدينا متسع من الوقت للتفكير في هذا إذ لابدّ أولاً - كما قلت لك - من اكتساب الشهرة قبل المثول في البلاط . وثمّة شيء آخر ينقصني : فلو فرض أننا عثرنا على

(١) راجع قصة : «برنردو دل كاربيو» ، الفصل ٣٨ ، و «بريماليون» ، الفصل ١٥٧ .

(٢) «تيرانت الأبيض» القسم الأوّل ، الفصل ٤٠ ، «فارس الصليب» ، الكتاب الأوّل الفصل ٦٥ .

ملك وحرب وبنت ، وأنّي اكتسبت شهرة تجاوبت بذكرها المحافل في الدنيا بأسرها ، فإنّي لاأجد كيف يتيسّر أن أجد نفسي من سلالة الملوك ، أو على الأقل ابن عم منحدر من ابن عم للإمبراطور . لأنّ الملك لن يسمح بتزويجي من ابنته قبل أن يتأكّد بكل يقين ، من هذا النسب ، مهما يكن من قيمة أعمالي الرائعة ، وهكذا أفقد ، بسبب عدم وجود هذا النسب الملكي ، ما اكتسبه ساعدي عن جدارة . نعم إنّي ابن نبيل ، ومن بيت معروف ، ولي أموال وعقار ، وكفء لإقتضاء خمسمائة درهم على سبيل التعويض[1] . لكن قد يقع أن يرتّب الحكيم الذي سيكتب تاريخ حياتي ويلفّق نسبي ، بحيث أصبح حفيداً لحفيد الملك ، من الدرجة أو الجيل الخامس أو السادس . إذ يحسن بك ياسنشو أن تعلم أنّ ثمّة نوعين من الأنساب والنبالات ، فبعضها ينحدر من الأمراء والملوك ؛ لكن الزمن يجور عليهم فينتهون إلى نقطة مدبّبة مثل هرم مقلوب ، والبعض الآخر ينحدرون من أصل وضيع ، ثمّ يرتفعون درجة فدرجة ، حتّى يصبحوا سادة عظاماً . وهكذا يكون بينهم هذا الفارق ؛ وهو أنّ بعضهم كانوا على غير ما هم عليه الآن ، وأنّ البعض الآخر هم على غير ماكانوا عليه ، ولمّا كان من الممكن أن أصبح واحداً من الفريق الأول ، حينما يتحقّق أن أصلي عظيم مجيد ، فلا بد أن يرضى هذا الملك صهري المقبل ؛ وإلاّ فإن الأميرة لو أحبّتني حبّاً مفرطاً ، لأتخذتني زوجاً لها وسيّداً ، على الرغم من أبيها ولو عرف معرفة اليقين أنني ابن سقّاء . وإذا لم يقع هذا أيضاً لكان عليّ أن اختطفها وأنقلها إلى حيث أشاء ، حتّى يهدئ الزمن أو الموت من غضب أهلها .

فقال سنشو : هنا محلّ للقول بما يقول به بعض الدهماء : «لا تطلب بالرضا ما تستطيع أخذه بالقوّة» . وإن كان أنسب منه أن يقال : «وثوب الأسواروالارجاء الأخيار»[2] . وأقول هذا لأنّه إذا لم يشأ الملك ، صهرك يامولاي ، أن يوافق على تزويجك بالأميرة ، فليس لديك إلا اختطافها ووضعها في مكان أمين . لكن آفة هذا الأمر هو أنّه حتّى يحين أن تضع الحرب أوزارها وتتمتّع بالملك في هدوء ، يظل حامل سلاحك المسكين يحرّق الأرم في انتظار النعم الموجودة ، اللهم إذا ارتحلت الوصيفة ، كاتمة السر التي ستصبح زوجته ، في إثر الأميرة ، وقضى حياته المسكينة معا ، حتّى يقدّر الله أمراً آخر ، لأنّي أعتقد أنّ مولاه يستطيع أن يهبها إيّاه في الحال زوجة له .

فقال دون كيخوته : لا مانع يمنع من هذا .

---

(١) تقضي قوانين الفويرو خثجو التي سادت التشريع الاسباني من عهد القوط حتّى القرن الثالث عشر «بتعويض» قدره ٥٠٠ سويلدوس sueldos لكل نبيل تلحقه إهانة في شخصه أو في أمواله . وكان السويلدو في قشتالة يساوي ٢٣ شنيزيمو من البسيطة .

(٢) معنى هذا المثل أنّه إذا ارتكبت ذنباً أو جريمة فالهرب خير من الأمل في شفاعة الآخرين .

فأجاب سنشو : ما دام الأمر كذلك ، فليس أمامنا إلاّ تسليم أمرنا الى الله وترك المقادير تجري في أعنّتها .

فأجاب دون كيخوته : حقّق الله أملي وأملك ياسنشو ، والويل لمن يرى في نفسه الويل .

فقال سنشو : على بركة الله! إنّي مسيحي هرم ، ويكفيني أن أصبح كونت .

فقال دون كيخوته : بل هذا كثير ، وإذا لم تصبح كذلك ، فهذا لن يغيّر في الأمر شيئاً . فإنّي إذا أصبحت ملكاً ، استطعت منحك النبالة دون أن تدفع عنها أجراً أو تكسبها بخدماتك ، لأنّي إذا جعلتك كونت ، أصبحت فارساً فجأة ، وسيضطرّون ، رغم ما ستتناقله ألسنة السوء ، الى إعطائك إقطاعية رغم أنوفهم .

فقال سنشو : ماذا! هل يظنّون أنّي لن أقدر على الإحتفاظ بكرامة نقبي!

فقال مولاي : يقال «لقبي» ، لا نقبي!

فأجاب سنشو : ليكن كذلك! أقول أنني كفء له ، وأقسم بحياتي بأنّي كنت مدّة من الزمان حاجباً لفرقة دينية ، وكانت كسوة الحاجب مناسبة لي تماماً حتّى قال الناس أنّي أصلح أن أكون أمين صندوق الجماعة . فكيف سيكون الأمر حينما أضع رداء الدوق على ظهري ، وأتدثّر بالذهب واللآلىء ، على هيئة كونت أجنبي! يخيّل إلي أنّ الناس سيتوافدون لرؤيتي من أقصى البقاع .

فقال دون كيخوته : لاشك في أنّك ستكون ذا بهاء مونق ، لكن عليك حينئذ أن تلمّع لحيتك مراراً ، لأنّها غليظة قذرة شعثاء ، فإن لم تعالجها بالموس مرّة كل يومين على الأقل لتعرّف الناس حقيقة أمرك من مدى قريب .

فقال سنشو : ما عليّ إلاّ كراء حلاّق في منزلي ، بل لو اقتضى الأمر لجعلته يسير ورائي كحامل سلاح لسيّد عظيم .

فسأله دون كيخوته : ومن أدراك أن السادة العظام يجرّون حاملي سلاحهم وراءهم ؟

فأجاب سنشو : سأحكي لك . منذ سنوات أمضيت شهراً في البلاط . وهناك رأيت في النزهة سيّداً قصيراً جداً ، ولكن كان الناس يقولون أنّه طويل[1] جداً . وكان يتبعه رجل يركب فرساً في كل نزهاته ، حتّى كان بمثابة ذيل له . فسألت لماذا لا يلحق هذا الرجل به ولماذا يظل دائماً وراءه . فأجابوني بأنه حامل سلاحه وأنّ من عادة العظماء أن يصحبوا في

---

(١) يلوح أن سنشو يشير هنا الى دون پدور خيرون ، دوق أشونة وكان قصير القامة ولكن طويل الباع بأعماله الباهرة . وقد ولد في ١٧/١٢ سنة ١٥٧٤ في مدينة أشونة وتوفي سنة ١٦٢٤ . وأشونة «من كور إستجة بالأندلس» . (الروض المعطار ص٢٣») .

أثرهم رجالاً من هذا النوع . ومن هنا عرفت هذا الأمر ، ولم أنس هذه الحادثة منذ ذلك الحين .

فقال دون كيخوته ؛ أقول لك إنك على حق ، وأنك تستطيع أن تجرّ وراءك حلاّقك . والعادات لاتأتي كلّها معاً ، بل تبتدع واحدة بعد الأخرى ، ومن الممكن أن تصبح أوّل كونت يتبعه حلاّقه . على أنّ مهمة الحلاق أدخل في الائتمان والثقة من مهمّة من يشد الركاب .

فقال سنشو ؛ أمّا عن الحلاّق ، فدعني وشأنه ، وعليك أنت بالعمل لتصبح ملكاً وتجعلني كونت .

فقال دون كيخوته ؛ وهو كذلك .

ثمّ رفع عينيه فأبصر ماسنقصّ عليك نبأه في الفصل التالي .

الفصل الثاني والعشرون

في تحرير دون كيخوته طائفة من المساكين اقتيدوا رغم أنفهم الى حيث لا يريدون

يروي سيدي حامد بن الأيّل ، المؤلف العربي المنتشاوي ، في هذه القصّة الرائعة الهائلة المتواضعة العذبة الخيالية أنّه بعد أن تناقل دون كيخوته الشهير الأحاديث التي أوردناها في نهاية الفصل الحادي والعشرون هو وسنشو پنثا ، رفع دون كيخوته دلا منتشا بصره فشاهد على الطريق التي يسلكها قرابة اثني عشر رجلاً قادمين على أرجلهم وقد سُلِكت رقابهم في سلسلة من الحديد طويلة كأنّها حبّات سبحة ، وفي أيديهم الأغلال . وكان يتبعهم راكبان على فرسين ورجلان آخران سائران ، وكان الراكبان يحملان بندقيّتين ذات عجلتين ، وكان الراجلان يحملان حراباً وسيوفاً . فلمّا رآهم سنشو صاح :

ـ هذه سلسلة المحكوم عليهم بالأعمال الشاقة سخرة ـ من الملك ، يقتادون للتجذيف في السفن .

فسأل دون كيخوته : سُخرة ؟ كيف هذا ؟ وهل الملك يسخّر أحداً ؟

فأجابه سنشو : لا أقول هذا ، بل أقول أنهم قوم حكم عليهم ـ بسبب الجرائم التي ارتكبوها ـ بأن يخدمواالملك سخرةً في السفن .

فقال دون كيخوته : الخلاصة ، هل هؤلاء يذهبون بمحض إرادتهم أو قهراً عنهم ؟

فقال سنشو : قهراً عنهم طبعاً!

فقال مولاه : إذا كان الأمر كذلك ، فهنا مجال أداء رسالتي وهي أن أمنع القهر وأغيث الملهوفين .

فقال سنشو : انتبه الى أنّ العدالة ، وهي عينها الملك ،لا ترتكب قهراً ولا إهانة نحو هؤلاء ، بل تعاقبهم على جرائم ارتكبوها .

وفي تلك الأثناء كانت سلسلة المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة قد اقتربت منهما

ں دون كيخوته بكل احترام من الحرّاس أن ينبؤوه عن السبب أو الأسباب التي من اقتادوا هؤلاء المساكين . فأجابه أحد الحرّاس الراكبين قائلاً إن هؤلاء محكوم ، وسيخدمون الملك على الغرابات[1] ، وليس عندي ما أقوله أكثر من ذلك ، وليس لك ألني أكثر من هذا .

أجابه دون كيخوته : ومع ذلك أود أن أعرف عن كل منهم السبب فيما حلّ به .

أضاف الى ذلك كلمات رقيقة أخرى لحثّهم على أنبائه بما يودّ معرفته ، فقال حارس

معنا السجل الذي قيّد فيه جرائم كل من هؤلاء التعساء ، لكن ليس هذا وقت الوقوف وقراءة مافيه . تقدّم أنت ، واسألهم هم أنفسهم ، وسيجيبون عليك إن شاءوا وهم راغبون ، لأنّهم قوم يلذ لهم أن يرتكبوا الجرائم وأن يقصّوها على الناس .

بهذا الإذن الذي كان دون كيخوته سيأخذه لنفسه بنفسه لو لم يفطن له ، اقترب من لة وسأل أحدهم عن الخطايا التي أوقعته في هذه الحال . فأجابه أن السبب فيما هو فيه ب .

سأله دون كيخوته : لهذا السبب وحده ؟ لأنّه إذا كان من يحبّون يحكم عليهم ال الشاقة ، لكان عليّ أن أكون من بينهم منذ زمن طويل!

قال المحكوم عليه : إنّ حبّي ليس من ذلك النوع الذي تظنّه ياسيّدي . فإنّ حبّي كان من الغسيل مليئة بالملابس البيضاء ، وقد ضممتها بين ذراعيّ بشدّة بالغة فلو لم ها العدالة منّي لما كنت تخلّيت حتّى هذه الساعة عن عناقها . وقد قبض عليّ متلبّساً ستي ، فلم يكن ثمّ مجال لاستجواب ، وأنجزت القضية بلهفة وعجل ، وداعبوا كتفي سوط ، وعليّ فوق هذا ثلاث سنوات[2] في الغرابات وقضي الأمر .

سأله دون كيخوته : ومامعنى الغُرابات ؟

أجاب : معناها السفن .

كان هذا المحكوم عليه فتى في الرابعة والعشرين من عمره ، وولد في يدراهيتا .

وسأل دون كيخوته واحداً آخر نفس السؤال ، فلم يشأ الجواب ، إذ كان يمشي كاسفاً ن البال . فأجاب عنه الأوّل :

اب : والجمع غرابات وأغربة وغربان ـ سفينة كبيرة . راجع دوزي : الملحق ، ج٢ ، ص٢٠٤ .

المطبعة الأصلية tres precisos وفي الطبعة الثالثة أيضاً طبعت خطأ هكذا : tres precios ـ والمقصود ثلاث سنوات في التجذيف لسفن في عرض البحر . وهذه السفن تسمّيgurapas وهي كلمة عربية : غراب ، والجمع غرابات .

ـ هذا ياسيّدي ذاهب الى الغرابات لأنّه كناري ، أعني موسيقار ومغنّ .
فكرّر دون كيخوته : كيف! هل يُرسل الموسيقاريون والمغنّون الى الغرابات ؟
فأجاب المحكوم عليه : نعم يا سيّدي! فلا شيء في الدنيا أسوأ من الغناء في العذاب .
فقال دون كيخوته : ولكنّي على العكس من هذا سمعت مثلاً يقول : في الغناء عزاء .
فقال المحكوم عليه : الأمر هنا على العكس ، من يغنّ مرّة يبكِ عمره .
فقال دون كيخوته : لا أفهم من هذا شيئاً!
لكن قال له أحد الحرّاس :
ـ سيدي الفارس! عند هؤلاء الناس الغناء في العذاب معناه الإعتراف بالتعذيب . فهذا المذنب قد عذّب فاعترف بجريمته وهو أنّه سارق ماشية ، وباعترافه حكم عليه بعقوبة التجذيف ست سنوات ، الى جانب مائتي جلدة حملها على كتفيه . وهو يمشي دائماً حزيناً مسربلاً بالعار لأنّ سائر اللصوص ، أولئك الذين تركهم هناك والذين هاهنا معه ، يزدرونه ويسخرون منه ويسيئون اليه لأنّه اعترف بجريمته ولم يكن لديه من رباطة الجأش والثبات مايجعله ينكرها ، إذ هم يقولون إنّ « كلاّ » ليس فيها من الحروف أكثر مما في « نعم » ، وإنّه لحظ عظيم للمتّهم أن تكون حياته أو موته أمر يتوقّف على لسانه هو ، لا على لسان الشهود والأدلّة ، وفي هذه المسألة أرى أنّ مايقولونه ليس خطأً كلّه .
فقال دون كيخوته : وهذا رأيي أيضاً .
ومضى الى الثالث فسأله نفس السؤال ، وسرعان مالبّى بغير تردّد وقال :
ـ أنا ذاهب لزيارة سيداتي الغرابات طوال خمس سنوات ، بسبب أنّه ليس معي خمس دوقات[١] .
فقال دون كيخوته : أنا مستعد لدفع عشرين عن طيب خاطر لإنقاذك من هذا الهمّ .
فقال المحكوم عليه : هذا شبيه بمن كيس نقوده عامر وهو في وسط الطريق يموت جوعاً لأنّه لايستطيع شراء مايلزمه . أقول هذا لأنّه لوكانت عندي العشرون دوقة التي يقدّمها لي مولاي الآن ، في الوقت المناسب ، لكنت بللت قلم الكاتب وقدحت زناد المحامي العام ، بحيث كنت أكون اليوم في وسط ميدان «سوق الدواب» في طليطلة ، لا في هذا الطريق مقوداً كالكلب السلوقي . ولكنّ الله كبير ، والصبر طيّب... وكفى!
فانتقل دون كيخوته الى الرابع ، وكان رجلاً مهيب الطلعة ، له لحية طويلة بيضاء تغطّي

(١) الدوقة ducado عملة ذهبية ، كانت تساوي سبع بسيطات .



الفصل الثاني والعشرون : دون كيخوته والمحكوم عليهم
بالأشغال الشاقة

صدره كلّه . فلمّا سمعه يسأله عن سبب إدانته ، أنشأ يبكي دون أن يجيب بكلمة ، لكنّ المجرم الخامس أجاب عنه فقال :

ـ هذا الرجل الوقور سيمضي أربع سنوات في الغرابات ، بعد أن زفّ في الطرقات ممتطياً صهوة جواده ومتدثراً بأفخر الثياب احتفاءً به .

فقال سنشو پنثا : معنى هذا فيما يبدو لي أنّه اعترف علناً بجريمته .

فأجاب المحكوم عليه : هذا هذا! والجريمة التي بسببها نال هذه العقوبة هو أنّه كان سمسار آذان ، بل سمسار أجسام أيضاً ، أعني أنّ هذا السيد الفاضل كان قوّاداً[1] ، وكان أيضاً يشتغل بالسحر والشعوذة .

فقال دون كيخوته : أمّا السحر والشعوذة فلا شأن لي بهما ، أمّا أنّه كان « قوّاداً » ، فهذا لا يستحق من أجله أن يذهب الى الغرابات ، اللهم إلا إذا كان من أجل أن يكون قائداً فيها ، لأنّ مهمة القوّاد ليست هيّنة ، بل تحتاج الى قوم مهرة كتومين للسر ، وهي مهمّة لا غنى عنها في جمهورية حسنة التنظيم ، ولا يستطيع ممارستها غير قوم كرام العنصر رفيعي التهذيب . بل أرى من الواجب تعيين مفتّشين وممتحنين لأجل هذه المهمّة شأنها شأن سائر المناصب ، وتحديد عدد الأعضاء العاملين فيها ، كما هي الحال تماماً بالنسبة الى سماسرة التجارة . فبهذه الطريقة يتلافى الكثير من المتاعب التي لا سبب لها غير أنّ عدداً أكثر من اللازم يشتغلون بها ، ومعظمهم يعوزهم الأدب والذكاء ، أو مخنّثون وخدم حقراء ، وأغرار تعوزهم الحنكة والتجربة ، لا يعرفون في المواقف الخطيرة ـ حيث لابدّ من التصميم ـ أقول : لا يعرفون ما يأخذون مما يدعون ولا يميّزون يمينهم من شمالهم ويدعون الحساء يبرد بين اليد والفم . وبودّي أن أتابع هذا الحديث ، وأن أثبت لماذا يحسن التدقيق في اختيار الأشخاص الذين يمارسون في الدولة هذه المهمة الضرورية ، ولكن ليس هذا محلّه وأوانه . وسأتحدّث في هذا ذات يوم الى من يملك التنفيذ . وحسبي اليوم أن أقول أن الألم ، الذي سببته لي رؤية هذا الوجه الوقور الذي امتحن امتحاناً غليظاً من أجل بضع رسائل غرام ، قد خفف منه إتهامه بالسحر . ولكنّي أعْلم أنه ليس في الدنيا سحر ولا تعاويذ يمكن إرغام الإرادة أو تحويلها ، كما يظن بعض البسطاء . إنّ إرادتنا حرّة لا سلطان للنباتات والتعاويذ السحرية عليها . وما يفعله بعض المخنّثين البسطاء أو بعض الأشقياء الخبثاء ، ليس إلاّ أشربة ومركّبات وسموماً حقيقية ، بها يحوّلون الناس مجانين موهمين الناس أنهم قادرون على جعلهم عاشقين ، مع أنّ من المستحيل إرغام الإرادة .

---

(١) الكلمة الإسبانية alcahuete عربية الأصل .

فقال الشيخ الطيّب : هذا صحيح . والحق يا سيّدي أنّه لا شأن لي بالسحر ، أمّا القيادة في الحب فأمر لا أنكره ، ولكنّي لا أعتقد أني أصبت بالضررفي هذا أحداً . وكان كل قصدي أن يستمتع الناس جميعاً ، وأن يعيشوا في سلام ووئام ، دون خصومات ولا هموم . لكنّ هذا المقصد الكريم لم يحمني من الذهاب الى حيث لن أعود ، فقد أثقلت كاهلي السنون وأشكو احتباس البول احتباساً لا أذوق معه طعم الراحة .

ولدى هذه الكلمات انطلق الرجل المسكين في البكاء ، حتّى استدر شفقة سنشو الى حد حمله على أن ينتزع من جيبه قطعة من ذات الأربعة ريالات ويتصدّق بها عليه .

وتابع دون كيخوته تحقيقه فسأل التالي عن جريمته ، فأجابه بصوت لايقل حرارة وانطلاقاً عن زميله الآخر :

ـ إنّي ها هنا لأنّي أفرطت في المزاح مع ابنتي عمتي ، ومع ابنتي عم أخريين ليستا ابنتي عمّتي . والخلاصة أننا مزحنا مزاحاً نشأ عنه زيادة نسل اختلط حتّى صار من الصعب على واضع شجرة الأنساب أن يتبيّن جلية الأنساب . وأدانتني الأدلّة والشهود ، وأعوزتني المحسوبية ، كما أعوزني المال ، وأوشكت أن تطيح برأسي ، وحكم عليّ بالعمل خمس سنوات في الغرابات . ولم أستطع استئناف الحكم ، وهذا جزاء جريمتي . ولكنّي شاب ، والحياة طويلة ، وطالما امتدّت كان ثمّ دواء لكل داء . فإن كان في وسعك ، ياسيّدي الفارس ، أن تغيث هؤلاء المساكين ، فسيجازيك الله عنه في السماء خير الجزاء ، وسنحرص على أن ندعو الله ونحن على الأرض كي يهبك من الصحة والعمر مايستحقّه شخصكم الكريم .

وكان هذا يلبس لباس الطلاّب ، وقال أحد الحرّاس عنه أنّه فصيح بليغ ، يتقن اللغة اللاتينية .

وخلف هؤلاء جميعاً أقبل فتى في الثلاثين أغر الطلعة ، لولا أنّه حين ينظر كان يضع عينيه في الأخرى . وكان مقيّداً على نحو مخالف الآخرين ، إذ كان في قدمه سلسلة طويلة دارت حول بدنه ، وفي عنقه طوقان شديدان أحدهما متصل بالسلسلة والآخر نوع من الأغلال يتدلّى منه قضبان من الحديد يتحدّران حتّى خصره وينتهيان الى غل قيّدت فيه يداه بأقفال كبيرة ، بحيث لم يكن يقدر على رفع يديه الى رأسه ، ولا إمالة رأسه الى يديه . فسأل دون كيخوته لماذا يحمل هذا الرجل من القيود أكثر مما يحمله الآخرون . فأجاب الحارس بأن ذلك لأنّه ارتكب من الجرائم وحده أكثر مما ارتكب سائرهم مجتمعين ، وأنّه وغد لئيم خبيث فاجر ، حتّى أنّ تقييده على هذا النحو لا يبدو كافياً للإمساك به ، ولهذا يخشون دائماً أن يفر .

فقال دون كيخوته : لكن ما هي هذه الجرائم التي لم تستحق أكثر من عذاب الغرابات ؟

فأجاب الحارس : سيقضي فيها عشر سنوات ، وهذا شبيه بالموت المدني . ويكفي أن تعلم أنّ هذا الرجل هو خينس دي پسموتته[١] الشهير ، ويطلق عليه البعض اسم خينسيودي پرپيا[٢] .

فقال المحكوم عليه حينئذ : سيدي المندوب! على رسلك ولا داعي للتنابز بالألقاب . أنا اسمي خينس ، لا خينسيّوك وپسموتته اسم اسرتي ، لا پرپيا كما تقول ، وليفتّش كلٌّ عن نفسه ، فسيرى .

فقال المندوب : اخفض صوتك ، أي سيدي اللص الفتّاك ، إذا كنت لاتريد منّي أن أغلق فمك راضياً أو كارهاً ،

فأجاب المحكوم عليه : يبدو تماماً أن المرء يسير وفق مشيئة الله ، لكن سيأتي يوم يعرف فيه الناس ماإذا كان اسمي خنسيّو دي پرپيا ، أو لا .

فقال الحارس : أفلا يسمّونك كذلك ياكذّاب ؟

فأجاب خينس : بلى! لكنّي سأفعل بحيث لايسمّونني بهذا الاسم ، أو فلأنتف لحيتي كما أتكلّم بين أسناني . ياسيّدي الفارس! إذا كان عندك ماتعطيه لنا فاعطه لنا توّاً واذهب في حفظ الله ، لأن هذه الأسئلة عن حياة غيرك تضايق ، وإذا أردت أن تعرف شيئاً عنّي ، فاعلم أنّي خينس دي پسمونه ، الذي كتبت حياته بهذه الأصابع .

فقال المندوب :هذا صحيح ، فقد كتب حياته بنفسه على نحو ليس بعده زيادة لمستزيد . لكنه ترك الكتاب رهناً في السجن من أجل مائتي ريال .

فقال خينس : وسأعمل على استرداده حتّى لو رهن مقابل مائتي دوقة .

فقال دون كيخوته : هل هو جيّد الى هذا الحد ؟

فقال خينس : جيّد الى حد أنّه يتحدّي قصة «لثريودي طورمس[٣]» وكل ما كتب في

---

(١) Cines se passmonte .

(٢) Cinesillo de parapill .

(٣) في سنة ١٥٥٤ طبع كتاب بعنوان «حياة لثريودي طورمس وماجرى له من السعود والأهوال» ثلاث طبعات في برغش والقلعة وامبيرس ، وطبعة برغش يظهر أنها هي الطبعة الأولى . ولكن لم يذكر عليه اسم المؤلف ، وكذلك طبع بغير اسم المؤلف طوال القرن السادس عشر ، حتى مستهل القرن السابع عشرحيث نسب الى دييجو هورتادودي مندوثا Diego Hurtade de mendoza ، بعد هذا طبع دائماً مقروناً بهذا الاسم . ولكن أثبت مورل فاتيو Morel - Fatio أنه ليس له . ـ وعلى كل حال فهذه القصة تمتاز بالواقعية ودقة الملاحظة ، وتجري على لسان بطلها ، وفيه سخرية من الوسط الاجتماعي الذي ينتسب اليه البطل ، ولهذا كان هذا الكتاب نموذجاً لنوع أدبي يسمّى = «القصة البكارسكا» . من أشهر أمثلته «حياة قزمان الفاراقي» (سنة ١٥٩٩ ـ سنة ١٦٠٤) تاليف ماتيو أليمان . والبطل في هذه الروايات يتحدّث عن نفسه فيروي قصة حياته على هيئة ترجمة ذاتية له ، وحياته عادية حالية من =

هذا الباب أو سيكتب . وكل ماأستطيع أن أقوله لمولاي هو أنّه يروي حقائق ، ولكن حقائق لطيفة شائقة ، لا يمازجها أدنى كذب .

فسأله دون كيخوته : وما عنوان هذا الكتاب ؟

فأجاب : عنوانه «حياة خينس دي پسمونته» .

فسأله دون كيخوته : وهل أرسلت إليه قبل هذه المرّة ؟

فأجاب خينس : نعم! لخدمة الله والملك أرسلت اليها في مرة سابقة وبقيت اربع سنوات ، وأعرف طعم الكعك والكرباج ، ولاآسف كثيراً على العود إليها مرة أخرى ، إذ سيكون لدي متّسع من الوقت لإتمام كتابي ؛ إذ بقي كثير من الأشياء اللطيفة لأقصّها فيه ، وإنّ في غرابات اسبانيا من الفراغ أكثر مما أحتاج ، خصوصاً ولست في حاجة الى وقت طويل لإنجاز مابقيّ عليّ إنجازه ، لأنّي أعرفه عن ظهر قلب .

فقال له دون كيخوته : أنت ظريف خفيف الروح!

فأجاب خينس : وبائس ، لأنّ البؤس يلاحق الظّرْف .

فقال الحارس : بل يلاحق الأوغاد!

فأجابه پسمونته : قلت لك ياسيّدي المندوب على رسلك! فإن أولئك السادة (رؤساءك) لم يضعوا في يدك هذا الكرباج لتعذيب المساكين الموجودين هنا ، بل لإقتيادنا الى حيث أمر مولانا صاحب الجلالة . وإلاّ ، فوحياة... لكن كفى! ذات يوم تذهب البقع التي ارتكبت في الفندق ، بالغسل . فلنسكت جميعاً ولنعش في سلام ولنحسن الكلام ، ولنَسِرْ ، فكفى هذا الهراء .

فرفع المندوب سوطه لضرب پسمونته جواباً عن تهديداته . لكنّ دون كيخوته وضع نفسه بينهما ورجاه ألاّ يضربه ، وقال أنّه ليس من الغريب أن يكون المقيّد اليدين طلق اللسان . ثمّ وجّه الكلام الى جميع المحكوم عليهم وقال :

ـ من كل ما قلتموه ، يا إخواني الأعزاء جداً ، يتبين لي بوضوح أنّه على الرغم من عقابكم على ذنوبكم ، فإن العقاب الذي ينتظركم لن يلذ لكم كثيراً ، وأنّكم ذاهبون الى الغرابات رغم إرادتكم . ويتبين لي كذلك أن قلّة الشجاعة لدى أحدكم في التحقيق ، وعدم وجود المال لدى الثاني ، وفقدان المحسوبية عند الثالث ، وأخيراً خطأ القاضي أو هواه ـ

= المطامع والمطامح في لمستقبل ، وإنّما تسعى لقط للخلاص بنفسها من المواقف التي تطرأ عليها . لقد كان خادماً لدى كثير من الأسياد المختلفي المنازع ، فاستعرض أخلاقهم جميعاً بدقة ملاحظة وواقعية تامة ، وليس بين المواقف من اتصال وحدة البطل فيها جميعاً .

هذه هي أسباب ماأنتم فيه ، والعلّة في أنكم لم تنالوا ماتستحقونه من إنصاف . وهذا كلّه يتبدّى أمام ذاكرتي ليقول ويؤكّد لي وجوب أن أظهر نحوكم ما من أجله أرسلتني السماء الى الدنيا ، ومامن أجله انخرطت في سلك الفروسية وصرت عضواً فيها ، وبسببه نذرت أن أغيث الملهوفين والضعفاء الذين يضطهدهم الأقوياء . ولكن لمّا كنت أعرف أن من صفات الفطنة ألا يعمل المرء بالعنف مايستطيع عمله باللين ، فإنّي أود رجاء السادة الحرّاس والسيّد المندوب ليتفضّلوا بحل وثاقكم وترككم في سلام . وهناك آخرون يستطيعون خدمة الملك في ظروف أفضل ، وإنّه وأيم الله لأمر فظيع شائن أن يستعبد المرء أولئك الذين خلقهم الله والطبيعة أحراراً . وأردف قائلاً : نعم ياسادتي الحرّاس! هؤلاء المساكين لم يرتكبوا بحقّكم أية إهانة . فليذهب كلٌّ بخطيئته : ففي السماء إله لاينسى عقاب المسيء ولامجازاة المحسن ، وليس من الخير أن يجعل أناس شرفاء من أنفسهم جلاّدين لغيرهم من الناس ، إذا لم يكن لهم هذا أدنى مصلحة . وأنا أرجوكم هذا الرجاء بكل هدوء ولطف ، حتّى يكون لدي مايدعوني لشكركم إذا أجبتم سؤالي . فإن لم ترضوا عن طيب خاطر ، فهذا الرمح وهذا السيف كفيلان بقوة ساعدي أن يجعلاكم تذعنون بالقوة .

فأجاب المندوب : أوه ياله من مزاح لطيف! تمخّض الجمل فولد فأراً! أولاً يريدنا أن نطلق سراح المحكوم عليهم من الملك ، كأنّ لدينا القدرة على إطلاقهم ، أو لديه الحق في إصدار الأوامر لدينا بذلك! هيّا إذن ياسيّدي ، سرْ في طريقك ، وأصلح من الحوض الذي تحمله فوق رأسك ، ولا تبحث عن ثلاثة أقدام[1] في القط .

فأجابه دون كيخوته : بل أنت القط والفأر والمجرم والوغد!

وما قال حتّى فعل ، فانقضّ عليه بعنف واندفاع هائل حتّى جندله على التراب جريحاً من ضربة رمح ، قبل أن يتمكّن من الاحتياط لنفسه . ومن حسن الطالع أن الذي انقضّ عليه دون كيخوته كان حامل البندقية . وظلّ سائر الحرّاس حيارى مُبْلِسين حينما شاهدوا هذا الهجوم غير المنتظر ، وسرعان ما أفاقوا من دهشتهم وأمسك الخيّالة بسيوفهم والرجّالة بحرابهم وهجموا جميعاً على دون كيخوته الذي انتظرهم برباطة جأش . وكانت ستكون محنة بالغة له لولاأن المحكوم عليهم ، وقد أبصروا هذه الفرصة السانحة لإنعتاقهم ، بذلوا كل مافي وسعهم لتحطيم السلسلة التي قيدوا فيها الواحد الى جانب الآخر . هنالك اختلط الحابل بالنابل ، حتّى أن الحرّاس اضطربوا وحاروا بين الهجوم على دون كيخوته وبين

(١) هذا مثل يطلق لمن يسعى للمتاعب . والصيغة الأوفق والأشهر أن يقال : لاتبحث عن خمسة أقدام في القط ، لأنه من المستحيل ذلك ، بينما البحث عن ثلاثة أسهل .

مطاردة المحكوم عليهم ، ولم يحسنوا عمل شيء . وأعان سنشو من جانبه خينس دي پسمونته ، فكان أوّل الهاربين ، فلمّا شعر بأنّ أصبح حرّاً وثب على المندوب المطروح على الأرض وانتزع منه سيفه وبندقيّته وصوّبها على الحرّاس جميعاً دون أن يطلق منها الرصاص حتّى فرّ الحرّاس جميعاً من الميدان هاربين من بندقية پسمونته ومن الأحجار التي رماهم بها سائر المحكوم عليهم وقد فكّت عنهم أغلالهم .

وحزن سنشو لهذه المعركة الرائعة ، لأنّه يعرف جيداً أن أولئك الهاربين من الحرّاس سيذهبون جميعاً ويعلنون النبأ «للأخوة المقدّسة» التي تنفخ البوق بدورها لمطاردة المذنبين . وأفضى بهذه المخاوف لسيّده ، ورجاه أن يبتعد سريعاً عن الطريق العام ويتوغّل في داخل الجبل القريب .

فقال دون كيخوته : هذا صواب ، ولكنّي أعلم ما عليّ فعله أوّلاً .

ودعا جميع المحكوم عليهم وهم يعدون في كل اتجاه بعد أن مزّقوا المندوب شر ممزق ، فتحلّقوا حوله ليروا ماذا يريد منهم . فخاطبهم قائلاً :

ـ من شيم الكرام عرفان الجميل ، ومن أشد الخطايا إغضاباً لله نكرانه . أقول هذا لأنّكم شاهدتم بالتجربة البينة يا سادة ما أوليتكم من جميل ، في مقابلة أود ، أو هذه إرادتي ، أن تذهبوا جميعاً حاملين هذه السلسلة التي فككتكم منها ، وبلا أدنى إبطاء ، الى مدينة توبوسو ، وهناك امثلوا أمام سيدتي دلثنيا دل توبوسو ، وقولوا لها إنّ فارسها ، الفارس الحزين الطلعة ، يرسل اليها باحتراماته ، وارووا لها كلمة كلمة تفاصيل هذه المغامرة العظيمة حتّى اللحظة التي حرّرتكم فيها كما كنتم تودّون . وبعد هذا ، لكم أن تذهبوا حيث تشاؤون .

فقال خينس دي پسمونته نيابة عن زملائه :

ـ إنّ ما يأمرنا به مولاي وسيّدي الفارس المحرّر ، من المستحيل عمله ، من المستحيل كل الاستحالة ، لأننا لانستطيع أن نذهب جماعة على طول هذه الطريق المطروقة ، بل نذهب فرادى كلّ بنفسه محاولاً التستّر في حشايا الأرض ، حتّى لايلتقي بواحد من رجال «الأخوة المقدّسة» التي لاشكّ سترسل خير عيونها في أثرنا . وما يستطيع مولاي فعله ، وما يقتضي الإنصاف فعله ، هو تعديل هذه الخدمة وهذا الأمر بالمرور أمام تلك السيدة دلثنيادل توبوسو الى ترتيل عشرات من صلوات «الإيمان» و «سلام لك يامريم» نرتّلها باسمك . وهذه كفارة نستطيع على الأقل القيام بها ليلاً نهاراً ، أثناء الهرب وأثناء الراحة ، في الحرب والسلام . لكنّ الظن بأننا سنعود الآن الى أرض مصر ، أعني أننا سنستأنف حمل القيود

ونذهب الى توبوسو ، هو كالظن أنّ الآن ليل ، وإن كانت الساعة لاتزال العاشرة صباحاً! وطلب هذا الأمر الجنوني ، كطلب الكمثرى من شجر الدردار .

فقال دون كيخوته غاضباً : إذن فقسماً بالله ياابن القحبة ، ياخنسيّو دي پرپيو ، أو كما يسمّونك ، إلا ذهبت وحدك ، مطأطأ الرأس ، أنفك بين فخذيك ، والسلسلة كلّها على ظهرك .

وكان پسمونته رجلاً لا يحتمل المزاح بطبعه ، ولم يفهم أن مخ دون كيخوته طار منه برج ، إذ فعل هذه الفعلة الهائلة وهي أنّ أطلق سراحهم ، فلمّا شاهده يعامله هذه المعاملة ، غمز بعينيه لرفاقه فابتعدوا دفعة واحدة وأمطروا دون كيخوته بوابل من الحجارة حتّى لم تكن كفّاه كافيتين ليتّقي بالترس ما يقذفونه به . أمّا روثينانته المسكين فلم يحفل بالمهماز وكأنّه قدّ من برونز . وأقعى سنشو خلف حماره واحتمى به من سحائب الأحجار التي تهاوت على كليهما .

ولم يستطع دون كيخوته الاحتماء جيداً فأصابه عدد وفير من القذائف في وسط بدنه بشدّه جعلته يسقط على الأرض . فلمّا سقط هجم عليه الطالب فانتزع حوض الحلاقة من رأسه وضربه به ثلاث أو أربع ضربات على كتفيه ، ثمّ ضرب به الأرض حتّى كسره قطعاً قطعاً . وأخذ هؤلاء الأوغاد من الفارس المسكين صدرية ذات كمّين كان يلبسها على سلاحه ، وكانوا على وشك أن ينتزعوا ماعليه حتّى جواربه لولا أن حال دون ذلك سلاحه . وانتزعوا من سنشو معطفه القصير وتركوه بقميصه . ثمّ اقتسموا فيما بينهم غنائم هذه المعركة ، وفرّوا الى كل ناحية حريصين على تفادي «الأخوة المقدّسة» التي يخافونها كل الخوف أكثر من حرصهم على وضع السلسلة في رقابهم والمثول هكذا أمام السيدة دلثنيا دل توبوسو . ولم يبق في الميدان إلا الحمار وروثينانته وسنشو ودون كيخوته : الحمار مطرق منغص الرأس ، يحرك أذنيه بين الحين والحين وكان وابل الحجارة لايزال ينهمر ، وروثينانته متمدّد على طول جنب سيده ، لأنّ سحيفة[1] من الحجارة جندلته هو الآخر ، وسنشو بقميصه ، ترتعد فرائصة من مرور خاطر «الأخوة المقدّسة» بنفسه ، وأخيراً دون كيخوته وقيذ الجناح لما لقيه من جحود إحسان وكنود نعمة!

---

(١) السحيفة : المطر الشديد الوقع الكثير الصوب .

الفصل الثالث والعشرون

فيما جرى لدون كيخوته وهو في جبل الشارات (سيرا مورينا)، مغامرة من أندر ما ترويه هذه القصة

ولمّا أبصر دون كيخوته نفسه على هذه الحال الأليمة قال لحامل سلاحه :

ـ أي سنشو! دائماً سمعت الناس يقولون : الإحسان الى الأشرار كرمي الماء في البحار . ولو صدّقت ماقلت لتجنّبت هذه المحنة ، ولكن ما وقع وقع ، فلنصبر ولنتخذ منه للمستقبل عبرة .

فأجابه سنشو : احتمال اتعاظك كاحتمال أن أكون مسلماً[1]! لكن ما دمت تقول أنك لوصدّقتني لكنت تجنّبت هذه المحنة ، فصدّقني الآن كيما تتجنّب محنة أشدّ هولاً ، لأنّي أقول لك إنه لامحلّ للفروسية مع «الأخوة المقدّسة» ، فإنها لاتقيم وزناً لجميع الفرسان الجوّالة ولا بمرابطين ، واعلم أنّه يخيّل اليّ أن سهامها[2] الآن في أذني .

فقال دون كيخوته : أنت بطبعك جبان ياسنشو . ولكن حتّى لا تقول عنّي إنني عنيد أركب رأسي ولاأعمل أبداً بما تشير به ، فإنّي سأتبع ماتنصح به هذه المرّة ، وأحتمي من هذا الهول الذي تفزع منه . لكن بشرط : وهو ألا تخبر أحداً من الناس ، في حياتي أو بعد مماتي ، أنّي ابتعدت وانسحبت من هذا الخطر خوفاً ، إنما فعلت ذلك استجابة لتضرعاتك . ولو قلت غير هذا لكنت كذبت ، وها أنذا أكذّبك منذ الآن للمستقبل ، وللمستقبل منذ الآن ، وأقرّر أنك تكذب وتكون كاذباً في كل مرّة تقول فيها أو تفكّر في شيء من هذا القبيل .

ولا تجب عليّ بشيء ، فإنّ مجرّد التفكير في تجنّب الخطر ، وهذا الخطر بالذات الذي يخيّل اليّ فيه أنّى أبدي ظلاً من الخوف ، يجعلني أرغب في البقاء هنا ، في انتظار ليس فقط

(١) في النص : «أن أكون تركيّاً» Como yo soy turco ، والتركي هنا بمعنى المسلم عامة . أي أن هذا مستحيل أن تتعظ بشيء .

(٢) كان هذا حق «الأخوة المقدّسة» إعدام المجرمين المتلبسين بجرمهم في مكان الجريمة بضربهم بالسهام .

هذه «الأخوة المقدّسة» أو الجماعة التي تفزعك، انتظارها بمفردي، بل وأسباط بني اسرائيل والأخوة المكابيين السبعة، والتوأمين كاستور ويوليكس، وجميع الإخوة والأخوات وأخوة الأخوات في الدنيا بأسرها!

فأجاب سنشو «الانسحاب يا مولاي ليس معناه الهرب، والانتظار ليس من الحكمة حينما يفوق الخطر الأمل، وإنّ الحكمة تقتضي أن يدّخر المرء نفسه اليوم لغدٍ وألاّ يغامر بكل شيء في يوم واحد. واعلم أنّه على الرغم من غباوتي وغلظ طبعي، فإنّ عندي مايسمّى باسم ضبط النفس. فلا تندم على استماعك نصحي إذن، واركب روثينانته إذا استطعت بنفسك، وإلاّ عاونتك واتبعني، لأنّ عقلي يقول لي إننا أحوج الآن الى أقدامنا منّا الى أيدينا.

فامتطى دون كيخوته فرسه دون أن يردّ بكلمة. وأمامه سار سنشو راكباً حماره، حتّى دخلا طريقاً في جبل سيِّرا مورينا وكان بالقرب منه. وكان قصد سنشو أن يجتازوا هذه السلسلة من الجبال، ليبلغا بيسو أو مدوزّ الكمپو[1] بعد الإختفاء مدة في هذا القفار فراراً من «الأخوة المقدّسة» إذا مضت في آثارهم. وشجّعه على هذا الرأي أنّه تبين أن الزاد الذي كان يحمله الحمار أنقذ من نهب المحكوم عليهم، وهذه معجزة حقّاً، لأنّ هؤلاء الناس فتّشوا كل شيء وحملوا ما طاب لهم.

وفي هذه الليلة عينها بلغا قلب سيرامورينا[2]، وبدا لسنشو أنّ من الخير قضاء الليل ها هنا بل وقضاء بضعة أيّام، على الأقل طالما كان لديهم مايكفي من الزاد. فاتخذا مكانهما طوال الليل بين صخرتين وأيكة كثيفة من أشجار الفلّين. ولكنّ القدر ـ شاء أن ينظّم كل شيء على هواه في نظر أولئك الذين لا يستضيؤون بنور الإيمان ـ شاء أن يفكر خنيس دي پسمونته، هذا اللص الفاجر الذي أنقذه من الأغلال دون كيخوته بنبالته وحماقته، أن يفكّر بالإختباء في هذه الجبال مدفوعاً بعامل الخوف من «الأخوة المقدّسة» خوفاً له مايبرّره. وشاء القدر أيضاً أن يقتاده الخوف والطالع الى الموضع نفسه الذي نزل فيه دون كيخوته وسنشو پنثا اللذان سرعان ما تعرفهما وتركهما في سباتهما هادئين. ولمّا كان الأشرار

---

(١) بيسو Viso يقصد بها هنا بيسودل ماركيس Viso del Marques، قرية صغيرة في اقليم المنتشا تخضع لقضاء Valdepenas وبالقرب من سانتاكروث دي موديله Santa cruz de Mudela. وباسم بيسو وسنتاكروث تسمّى دون ألبرو = دي باثان لما أن اشترى هاتين القريتين من كارلوس الخامس(شارلكان)، فأصبح يلقّب بلقب ماركيز دل بيسو، وذلك سنة ١٥٣٩، وكانت قبل ذلك تابعتين لهيئة قلعة رباح Calatrava.

(٢) كلمة سيرا (التي عربت الى شارة) معناها اللغوي الأصلي: «منشار» ثمّ أطلقت على سلاسل الجبال الممتدّة في قلب الهضبة الاسبانية ولها أسنان مدبّبة كالمنشار.

دائماً جاحدين ، وكانت الضرورة فرصة تخلق من المرء لصّاً ، والحاضر ينسي المستقبل ، فإن خينس وقد خلا من عرفان الجميل بقدر ما خلا من النوايا الطيبة ، قرّر أن يسرق حمار سنشو پنثا ، غير مكترث لروثينانته إذ بدا له غير صالح للبيع ولا للرهن . كان سنشو نائماً ، وسرق خينس منه حماره ، وقبل بزوغ النهار كان قد ابتعد الى حيث لايُدرَكْ .

وانبلج الفجر باعثاً في الأرض الحبور وفي نفس سنشو پنثا الحزن . فإنه لمّا لم يجد حماره أنشأ في العويل على نحوٍ لم يُرَ أشدّ منه إيلاماً وحزناً ، حتّى أنّ دون كيخوته استيقظ على دويّ عويله وسمعه وهو يقول :

ــ أي ولد أحشائي ، يا من ولدّت في بيتي وكنت لعبة أولادي ، ومصدر السرور لزوجتي ، والحسد لدى جيراني ، يامن كنت تخفيفاً لأعبائي ، وأخيراً كنت مورد غذاء لنصف شخصي ، فبستة وعشرين مرابطيّاً تكسبها في اليوم كنت تكفل نصف نفقاتي!

فلمّا شاهد دون كيخوته سنشو يشكو وعرف السبب ، واساه بخير مالديه من أسباب المواساة ووعده بصك تحويل لإعطائه ثلاثة حمير من خمسة خلفها وراءه في زريبته . وبهذا الوعد سرّي عن سنشو ، وجفّت دموعه ، وهدأت زفراته ، وشكر لمولاه ما أولاه من نعمة .

وكان دون كيخوته قد انتعشت الآمال في قلبه لمّا أن نفذ في هذه الجبال فبدت له مواطن صالحة للمغامرات التي ينشدها ، فراح يستعيد في ذاكرته تلك الأحداث الرائعة التي وقعت في مثل هذه الأماكن الموحشة الوعرة للفرسان الجوّالة ، واستغرقته هذه الخواطر وملأت نفسه حتّى نسي كل ماعداها . أمّا سنشو فمنذ أن اعتقد أنّه يسير في مكان أمين لم يكن يشغل باله غير شيء واحد هو أن يرضي معدته ببقايا ماغنمه من قساوسة الجنازة . فمضى خلف سيده ، حاملاً كل ماأمكن البرذون[1] حمله ، منتزعاً الطعام من الكيس ليضع منه في كرشه ولذّ له هذا النوع من السير بحيث لم يكن ليدفع فلساً من أجل أية مغامرة أخرى . وفي هذه اللحظة رفع عينيه فشاهد مولاه وقد توقّف محاولاً أن يرفع بطرف رمحه حزمة على الأرض ، فأسرع لمساعدته ووصل في اللحظة التي رفع فيها دون كيخوته على طرف رمحه وسادة وحقيبة مربوطتين معاً ، وكلتاهما ممزقة متعفنة . وكانت من الثقل بحيث اضطر سنشو لأخذهما بيديه ، وأمره مولاه بأن ينظر ما في الحقيبة . فهرع سنشو لتنفيذ

---

(١) في هذا الفصل أضاف ثربنتس حادث سرقة الحمار ، وكذلك في الفصلين التاليين ، ولكنّه ظل في الطبعة الأولى يتحدث بعد هذا الحادث عن الحمار وكأنّه لايزال في حوزة سنشو . وفي الطبعة الثانية أصلح هذا الإهمال . لكنه لم يصلحه بدقّة فبقي في كثير من المواضع ـ كما في هذا الموضع الآن ـ مما تولّد عنه خلط كان ثربانتس أوّل من سخر منه ، كما سنرى في القسم الثاني من دون كيخوته (الفصل الرابع) .



الفصل الثالث والعشرون : دون كيخوته يحاول القيام بوثبة جنونية

(عن جوستاف دوريه)

الأمر ، ورغم أنها كانت مغلقة بسلسلة وقفل فقد أمكنه رؤية مافيها من خلال الثقوب التي أحدثها البلى فيها . وهذه محتوياتها : أربعة قمصان من النسيج الهولندي الرقيق ، وقطع قماش أخرى غريبة نظيفة ، كذلك وجد سنشو فيها كميّة وفيرة من العملة (الأسكودو) الذهبية مربوطة في منديل ، فلم يكد يراها حتّى صاح :

ـ الحمد لله الذي بعث لنا بمغامرة ، فيها مكاسب!

واستمرّ في تفتيش الحقيبة ، فوجد كتيباً لطيفاً فيه مذكّرات ، أنيق التجليد . فطلب منه دون كيخوته أن يعطيه هذا الكتاب ، أمّا النقود فيتركها لسنشو . فقبل هذا كفّي مولاه شاكراً له هذه المنحة ، وأفرغ مافي الحقيبة ووضع القماش في خرج الزاد . ولمّا شاهد دون كيخوته هذا كلّه قال :

ـ يبدو لي يا سنشو ـ ولا يمكن أن يكون الأمر غير ذلك ـ أن أحد المسافرين الذين ضلّوا الطريق كان يود اجتياز هذه الجبال ، ولكن بعض اللصوص فاجأوه في الطريق وقتلوه وجاءوا لقتله في هذا المكان القفر .

فأجابه سنشو : هذا غير ممكن ، لأن اللصوص لايتركون هنا هذا المال .

فقال دون كيخوته : أصبت فيما قلت يا سنشو ، ولا أستطيع أن أحزر ماذا عسى هذا الأمر أن يكون . لكن انتظر ، ولننظر ماإذا كان في هذه الألواح إشارة يمكن منها أن نهتدي الى مانريد معرفته .

وفتح الكتيّب ، وكان أوّل ماوقع بصره عليه مكتوباً فيه على شكل مسودّة ، وإن كان الخطّ جميلاً ، مقطوعة(سونيتو) قرأها بصوت عالٍ ليسمع سنشو ، ورد فيها :

الحبّ : إمّا غبيٌّ ... أو مستبدٌّ غشومُ
أو ما ألاقي شديد ... لا تقتضيه جرومُ
والناس والعقل يدري ... الحبّ ربٌّ رحيمُ
فمن قضى بعذابٍ ... يلذّ وهو أليمُ ؟!
إن قلت ياخوط : أنت! ... كذبتُ ، فالخير خِيمُ
الخير ينبت خيراً ... وما السماء ظلومُ
لابدّ لي من حمام ... والموت أمرٌ صريمُ[1]
لابدّ من معجزات ... لدفع ما لا تَشيمُ[2]

(١) أي : قاطع لا مفرّ منه .
(٢) أي : ما لا نقدره ولا ندرك له سبباً .

فقال سنشو : هذه الأغنية لا تدلّنا على شيء ، اللهمّ إلا إذا استطعنا بواسطة هذا « الخيط » أن نهتدي الى كل هذه المغامرة .

فقال دون كيخوته : أي « خيط » هنا ؟

فأجاب سنشو : يبدو لي أنّ مولاي قد ذكر لفظ « خيط » ؟

فقال دون كيخوته : لقد قلت « خوط »[١] ، وهو من غير شك اسم المعشوقة التي يشكو منها مؤلف هذه المقطوعة . وأيم الله أنه شاعر لا بأس به ، وإن لم أكن أفهم في الشعر كثيراً .

فقال سنشو : وأكثر مما تظن . وسترى مصداق هذا حينما تحمل عنّي الى السيدة دلثنيادل توبوسو رسالة منظومة من أوّلها الى آخرها . ويجب أن تعلم ياسنشو أن جميع أو على الأقل معظم الفرسان الجوّالة في العصور الماضية كانوا من كبار الشعراء المطربين[٢] ، أعني من كبار الشعراء وكبار الموسيقيين : لأن هاتين الملكتين ، أو هاتين العبقريتين كما تسمّيان ، لاغنى عنهما للعشاق الشاردين . ومن الحق أن نقول إن أشعار الفرسان القدماء كان فيها من القوة والجزالة أكثر مما فيها من الرقة والعذوبة .

فقال سنشو : اقرأ شيئاً آخر ، فلعلّك تجد ما ننشده .

فقلب سنشو الصفحة وقال :

ـ هذا نثر ، ويشبه أن يكون رسالةً .

فسأل سنشو : هل هي خاصة بأعمال ؟

فأجاب دون كيخوته : من استهلالها يبدو لي أنّها رسالة غرامية .

فقال سنشو : من فضل مولاي أن يقرأ بصوت عال ، لأنّي أحب هذه القصص الغرامية حبّاً جمّاً .

---

(١) الخوط : الغصن الناعم ويشبه به المرأة الهيفاء القد الناعمة . قال أبو نوّاس :

علنيه خوط أسحلة   لان متناه لمهتصره

وذلك في القصيده التي مطلعها :

أيـها المنتاب عن عفـره   لست من ليلى ولا سمره

راجع ديوانه (ص٦٧ طبع مصر سنة ١٨٩٨ باشراف اسكندر آصاف) .

وعلنيه : سقانيه مرات . والخوط : الغصن الناعم تشبه به المرأة . والأسحلة مفرد إسحل : شجر عظيم ينبت بأعالي نجد . والمهتصر : الذي يجذب الغصن ويميله . وقد وجدنا أن هذا اللفظ « خوط » هو خير تعريب لكلمة Fili الوارده في النص لأنه يسمح بهذا اللبس الذي وقع فيه سنشو ، إذ خلط بين Fili اسم المعشوقة وبين hilo بمعنى خيط .

(٢) الشعراء المطربون : trovadores وهو اسم يطلق في العصور الوسطى ، من القرن الحادي عشر حتّى الخامس عشر ، على الشعراء ، وخصوصاً ـ لتمييزهم من الزجالين Huglares ـ أولئك الذين يقرضون أشعاراً غرامية أو مدائح في سادة القصور والملوك دون أن يهدفوا من ورائها الى التكسّب .

فقال دون كيخوته : بكل ارتياح . وقرأ بصوت عالٍ كما التمس منه سنشو ، فوجد ما يلي :

« وعودك الكاذبة وآلامي المحقّقة تقتادني الى مكان يصل منه الى أذنيك نبأ موتي أولى من تعبير شكواي . لقد غدرت بي ياجاحدة من أجل رجل يملك أكثر مما أملك ولكنّه لا يساوي أكثر منّي . فلو كانت الفضيلة تعدّ ثروة لما حسدت غيري على سعادته ، ولما ذرفت الدموع على شقاوتي . وماصنعه جمالك حطّمته أفعالك . فأحدهما جعلني أظنّك ملكاً ، وبالآخر عرفت أنّك امرأة . فقرّي عيناً بالسلام ، يامن أعلنت عليّ الحرب ، ولعلّ الله أن يستر خيانات زوجك ، حتّى لا تندمي على ما اجترحته يداك ، وحتّى لا أثأر مما لم أعد أرغب فيه » .

فلمّا انتهى دون كيخوته من قراءة هذه الرسالة قال :

ـ إنها لا تخبرنا بشيء أكثر من المقطوعة ، اللهم إلا أنّ من كتبها عاشق مهجور .

ثمّ تصفّح الكتيّب كلّه فوجد فيه أشعاراً أخرى ورسائل ، بعضها يمكن قراءته والآخر ممحو . لكنّها لم تتضمّن غير شكايات وزفرات وملامات ، ومسرّات وآلام ، وعود بالوصل وإعراض ، وتمجيد للواحدة وتَحزُّن على الأخرى . وبينما كان دون كيخوته يفتّش في الألواح ، كان سنشو يفتّش في الحقيبة غير تارك فيها ركناً لم يفتّش فيه ، أو ثنية لم ينفذ الى دخائلها أو خياطة لم يمزّقها أو كبّة من الصوف لم يحلّها ، حتّى لا يضيع شيء نتيجة الإهمال أو عدم الإعتناء ، وكذلك فعل بالوسادة ، وذلك لأنّ النقود الذهبية التي وجدها بعثت في نفسه الجشع ، وقد بلغت عدتها أكثر من مائة قطعة إذ على الرغم من أنّه لم يجد غير هذه اللقطة ، فقد رأى فيها جزاءً كافياً عن الترجّحات عن الملاءة ، والقيء الذي أحدثه شراب فيرابراس ، وضربات الهراوات ، ولكمات البغال وانتهاب الخُرج وسرقة المعطف وكل ألوان الجوع والعطش والتعب التي قاساها في خدمة مولاه الكريم ، واعتقد أنه جُوزِيَ عن هذا كلّه خير الجزاء بهذا الكنز الذي عثر عليه .

ولكنّ الفارس ذا الوجه الحزين كان يرغب رغبة شديدة في معرفة من هو صاحب هذه الحقيبة ، مقدّراً بالحدس من القصيدة والرسالة ، ومن النقود الذهبية والقمصان الرقيقة أن صاحبها لابد أن يكون عاشقاً من علية القوم ، اقتاده غدر صاحبته وإعراضها إلى نهاية بائسة يائسة . ولمّا لم يجد في هذا المكان القفر الموحش الوعر من يمكنه أن يستحدث منه خبراً ، لم يكن أمامه إلا أن يمضي في طريقه متخذاً السبيل التي يتخذه فرسه روثينانته ، أي حيث تستطيع هذه الدابة المسكينة أن تجد موطناً لحوافرها ، وفي ظنّه أنه لابد ملاقٍ في

هذه الأدغال مغامرة غريبة . وبينما كان يسير مسترسلاً في هذه الخواطر ، أبصر فجأة - على قمّة رابية في مواجهته ـ رجلاً يثب من صخرة الى صخرة ومن أيكة الى أخرى بخفة تثير الدهشة . وخيّل اليه أنّ الرجل نصف عار ، ذو لحية سوداء كثّةوشعر طويل أشعث ورأس عارٍ وقدمين حافيتين وساقين لايسترهما شيء . وكان يلبس سروالاً من القطيفة الصفراء يغطّي فخذيه ، ولكنّه ممزق بحيث يبدو منه اللحم في عدة مواضع . وعلى الرغم من أنّه مرّ مرور البرق ، فقد رصد الفارس الحزين الوجه هذه التفصيلات كلّها واستقرّت في مخيلته . وودّ لو لحق به ، لكن لم يكن في وسع قوائم روثينانته الهزيلة أن تلاحقه خلال هذه الصخور ،وهو فرس قصير الخطو بطبعه ، بارد المزاج ، وسرعان ماتراءى لدون كيخوته أنّ هذا الشخص لابدّ أن يكون صاحب الحقيبة ، فقر قراره على مطاردته ولو كلّفه الأمر أن يعدو في هذه الجبال طوال سنة كاملة . فأمر سنشو أن يسير من إحدى نواحي الرابية ، ويسير هو من الناحية الأخرى ، وبهذه المناورة كان يأمل أن يلحق بهذا الرجل الذي اختفى سريعاً .

فأجابه سنشو : لا يسعني تنفيذ ما تأمربه ، لأنّي إذا تركت مولاي انتابني الخوف وهجم عليّ الفزع بكل تهاويله ومخاوفه . وهذا الذي أقوله هو بمثابة دعوة لك بألاّ تبعدني عنك قيد أنملة .

فقال الفارس ذو الوجه الحزين : موافق ، ويسرّني أن تثق بشجاعتي كل هذه الثقة ولن أتخلّى عنك ولو تخلّت روحك عن بدنك . فتعال من ورائي ، خطوة فخطوة ، أو كما في وسعك ، ولتكن عيناك مصباحين . وسنتجوّل في هذه الروابي عسانا نقع على هذا الرجل الذي لمحناه ، وهو لايمكن أن يكون إلا صاحب هذه الحقيبة التي عثرنا عليها .

فقال سنشو : إن كان الأمر كذلك ، فمن الخير ألا نبحث عنه ، لأنّا لو وجدناه وكان هو صاحب النقود الذهبية ، لكنت مضطراً الى ردّها اليه ، فالأفضل إذن أن أبقى محتفظاً بهذه العقيدة الساذجة ، دون القيام بمحاولات لاجدوى منها ، الى أن يكتشف المالك الحقيقي لهذه اللقطة دون أن نبذل جهداً واستطلاعاً في الكشف عنه . ولعلّ ذلك أن يكون بعد إنفاق هذه النقود ، هنالك يعفيني الملك من أدائها إليه .

فأجاب دون كيخوته : أنت مخطىء في هذا ياسنشو . فمن مجرّد أن يخيّل إلينا أن صاحب النقود هو ذلك الذي أبصرناه ، فنحن ملزمون بالبحث عنه وردّها اليه ، فإن لم نبحث عنه فبمجرّد الظن القويّ أنّه صاحبها يلبسنا الذنب نفسه كما لو كان حقّاً صاحبها . وإذن فلا تتعب نفسك ياصديقي سنشو في البحث عنه ، لأنّ عثوري عليه يزيل عن كاهلي عبئاً ثقيلاً .

وماقال هذا حتّى همز روثينانته ، وتبعه سنشو على قدميه يحمل حمل الحمار ، بفضل خينس دي پسمونته . فلمّا كادا يتمّان الدورة حول الجبل عثرا عند شاطئ جدول على جثة بغل بسرجه ولجامه ، وقد نهش نصفه الذئاب والغربان ، مما أيّد ظنهما أن هذا الهارب هو صاحب الحقيبة والبغل . وبينما كانا يتأملانه سمعا صوت صفّارة مثل صفّارة الرعاة الذين ينادون قطعانهم ، وفجأة برز لهما عن يسار حشد هائل من الماعز ، من خلفها تبدّى من أعلى الجبل المعّاز الذي يحرسها ، وكان رجلاً طاعناً في السن . فناداه دون كيخوته بأعلى صوته وطلب منه الإنحدار بالقرب منها . وأجاب المعّاز موافقاً وسألهما مالذي أتى بهما الى هذا المكان الذي لايطرقه غير حوافر المعز أو الذئاب وغيرها من الحيوان الوحشي . فأجابه سنشو داعياً إيّاه الى النزول وسيعرف حينئذ جلية الأمر . فنزل المعّاز ولمّا اقترب من دون كيخوته قال :

ـ أراهن أنك كنت تتأمّل البغل الأجير النافق في هذا الغور . صدّقني إذن إن قلت لك إنه هنا منذ ستّة أشهر . ولكن قل لي هل عثرت هنا على صاحبه ؟

فأجابه دون كيخوته : لم نقابل أحداً ، بل وجدنا وسادة وحقيبة بالقرب من هنا .

فقال المعّاز : وأنا أيضاً عثرت بهذه الحقيبة ، ولكنّي لم أشأ حملها ولا الإقتراب منها ، خشية وقوع أي أذى ، وحتّى لاأتّهم بأنّي حصلت عليها سرقة ، لأن الشيطان خبيث ، يضع بين أرجل الإنسان مابه يتعثّر ويقع دون أن يعلم كيف ولماذا .

فأجاب سنشو : وهذا أيضاً ماقلته ، فقد وجدتها ، لكنّي لن أشأ الاقتراب منها . فتركتها في مكانها كما كانت ، لأنّي لا أريد أن أعلّق الشخاشيخ[1] في الكلاب .

فقال دون كيخوته : خبّرني ، أيها الرجل الطيب ، هل تعرف من صاحب هذه الأشياء ؟

فقال المعّاز : ما أستطيع أن أقوله أنّه منذ قرابة ستّة أشهر قدم الى أكواخ الرعاة ـ وتبعد ثلاثة فراسخ من هنا ـ شاب سبط القوام وضيء الطلعة ، راكباً ذلك البغل النافق هناك ، ومعه هذه الحقيبة التي قلت أنك عثرت عليها ولم تلمسها . وسألنا عن أشد هذا الجبل قفراً ووحشة ، وهذا حق لأنك إذا توغّلت نصف فرسخ آخر فلعلك لاتجد مخرجاً أبداً ، ويدهشني أنك قدرت على الوصول الى هنا ، إذ لا يوجد طريق ولا شعب يؤدّي الى هذا المكان . أقول إذن أنه ماكاد الفتى يسمع جوابنا حتّى أدار ظهره وأتجه الى المكان الذي أشرنا إليه وتركنا في دهشة وعجب بجمال طلعته وسرعة سيره للنفوذ في أعماق الجبل . ومنذ ذلك الحين لم نره أبداً ، الى أن قطع الطريق بعد ذلك بعدّة أيّام على أحد الرعاة ، ودون أن ينطق بكلمة انهال

---

(١) في الأصل no quiero perro con cencero : «لا أريد كلباً بشخاشيخ» . ـ لأن الكلب ذا الشخاشيخ يفصح عن وجوده اللصوص .

عليه باللكمات والرفسات . ثمّ انقضّ على الأتان الذي يحمل المؤونة ، وأخذ كل ما عليه من خبز وجبن ،ثمّ ولّى هارباً وتوغّل في الجبل . فلمّا عرفنا هذه الحادثة ، قمت أنا وبعض المعّازين وبقينا نبحث عنه طوال يومين تقريباً في أعماق غابات الجبل فعثرنا عليه رابضاً تحت شجرة فلّين سامقة شديدة . فأقبل علينا هاشّاً باشاً ، وثيابه مهلهلة ممزّقة ووجهه متغيّر لوّحته الشمس حتّى صعب علينا تعرّفه ، وكانت ملابسه ـ رغم تمزيقها ـ هي التي أكّدت لنا ـ بالذكرى التي تركتها في نفوسنا ـ أنّه هو الذي نبحث عنه . وحيّانا بكل أدب ، وفي كلمات قصار ولكنّها سديدة دعانا إلى ألا ندهش لحاله هذا وعيشه على هذا النحو ، فما ذلك إلا وفاء لنذر كفّارة عن خطاياه العديدة . فرجوناه أن يدلّنا على اسمه ، لكنّا لم نستطع أبداً حمله على ذلك . وقلنا له : إذا احتاج الى غذاء فما عليه إلا أن يدلّنا أين نوافيه به ، إذ يسرّنا أن نلبّي رغباته في هذا بكل ارتياح ودقة . وإن لم يشأ ذلك فليأت لطلب ذلك منّا ، لا أن يأخذه من الرعاة بالقوّة . فشكر لنا شكراً جزيلاً ماعرضنا عليه والتمس الصفح عمّا سلف منه ، ووعدنا أن يسأل غذائه إحساناً لله دون أن يؤذي أحداً . أمّا عن مسكنه فقال أن لا مسكن له إلاّ ما يتصادف وجوده حين يغشاه الليل . وبعد تعاقب هذه الأسئلة وهذه الأجوبة أنشأ في البكاء بحنان ، وإن لم ننطلق معه بالبكاء نحن الذين كنّا نسمعه لكنّا حجارة أو أشدّ قسوة! ويكفي أن ننظر كيف وجدناه في المرة الأولى وكيف نراه الآن ، إذ ، كما قلت لكما ، كان فتى رقيقاً وضيء الوجه يبدي في أدب عبارته عن كريم معدنه ونبالة أصلة ، حتّى أن جفوتنا وقسوتنا بدت جليّة واضحة ولطفه بدا واضحاً حتّى من خلال ماظهره عليه من خشونة . وفجأة وبينما كان في وسط الحديث ، توقّف والتزم الصمت وسمّر عينيه في الأرض مدة طويلة ، فأصابتنا الدهشة وانتابنا القلق ، منتظرين ماذا عسى أن تفضي إليه هذه الجذبة ونحن مشفقون عليه إذ كنّا نراه يفتح عينيه حيناً ويغلقها حيناً آخر ، وينظر الى الأرض دون إطراف ، ثمّ يقبض شفتيه ويقطب حاجبيه ، فعرفنا في التو أنّه مصاب بلوثة جنون . وصدق ما حسبناه لأنّه نهض من الأرض فجأة غاضباً ثائراً ، وانقضّ بجميع قواه وغضبه على أقرب الناس اليه ، ولولا أننا انتزعناه من بين يديه لقتله بلكماته وعضّاته . وكان وهو يضربه يقول : « أي فرنندو الخائن! هنا ستدفع ثمن غدرك بي ، وهاتان اليدان ستنتزعان منك ذلك القلب الذي تسكن به كل الرذائل والدنايات مجتمعة ، وعلى رأسها الخداع والخيانة » ـ وأضاف الى هذا عبارات أخرى كلها سباب في فرنندو هذا قائلاً أنّ خائن غدّار . وأخيراً وبعد جهد جهيد خلصنا رفيقنا من بين يديه ، ودون أن ينبس بكلمة هرب الفتى مسرعاً كل الإسراع ، واختفى بين الصخور والأدغال فاستحالت علينا مطاردته واللحاق به . فاستنتجنا من هذا أنه مصاب بجنون ، وأنّ

شخصاً يدعى فرنندو قد فعل به فعلة نكراء يدل على نكرها ما آل إليه من حال . وتأيّد هذا كله في المرّات التي قابلناه فيها ليسأل الرعاة شيئاً من الزاد ، أو ليأخذه منهم بالقوة ، إذ حينما تظهر عليه أعراض الجنون في نوباته يُعرض عمّا يقدّمه اليه الرعاة عن طيب خاطر ولا يتقبّل منه شيئاً ، وإنّما يأخذ مايريد باللكمات . ولكن إذا ثاب اليه رشده سأل الإحسان لله بأدب جمّ ، فإن أعطي انطلق ينهج بالشكر ، وبالبكاء أيضاً . وتابع المعّاز حديثه قائلاً : وأقول لكم ياسادتي أنني قرّرت أنا وأربعة رعاة ـ إثنان منهما يشتغلان عندي ، والآخران صديقان ـ أن نبحث عنه حتّى نعثر عليه ، فإذا ظفرنا به اقتدناه ـ شاء أو أبى ـ الى مدينة المدوّر التي تبعد ثمانية فراسخ من هنا ، وهناك نعمل على أن يحصل على الشفاء إن كانت علّته قابلة للعلاج ، أو على الأقل نعرف من هو عندما يثوب الى رشده ، ونعرف هل له أهل يمكن أن نخبرهم بما وقع له . وهذا أيها السيدان هو كل مااستطيع أن أقوله عمّا سألتماني عنه ، وتأكدا تماماً أن صاحب الأشياء التي وجدتماهاهو بعينه الشخص الذي رأيتماه يمر بسرعة وخفة تلتثمان وعريه » . ولقد أنبأه دون كيخوته فعلاً كيف شاهد الرجل وهو يعدو في ثنايا الجبل .

فانتابت دون كيخوته الدهشة مما سمع من كلام المعّاز ، والرغبة الشديدة في أن يعرف من هو هذا المجنون البائس ، وصمّم على تنفيذ مايفكّر فيه وهو البحث عنه في الجبل كلّه دون أن يترك زاوية أو فجوة أو غاراً بغير أن يفتّش فيه عنه حتّى يعثر عليه . لكن البخت رتّب الأمور خيراً مما رجا ، إذ في هذه اللحظة نفسها تبدّى ـ في مضيق من مضايق الجبل ينتهي اليهم ـ ذلك الفتى الذي يبحثون عنه . وأقبل يرطن بين شفتيه بكلمات لم يكن من الممكن سماعها ولو من قرب . وكان رداؤه كما وصفوه ، لكن حينما لاحظ دون كيخوته أن صدريته ممزّقة يحملها على أكتافه كانت من جلد الغزال المعطّر بالعنبر ، مما جعله يجزم بأنّ شخصاً يلبس ملابس من هذا النوع لا يمكن أن يكون من طبقة وضيعة . ولمّا اقترب الفتى منهم حيّاهم بصوت مبحوح سريع ، لكن بأدب جمّ . وردّ عليه دون كيخوته بأحسن منها ، ثمّ نزل من على صهوة فرسه ، وراح يعانقه بحرارة ويضمّه الى صدره برهة وكأنّه يعرفه منذ سنوات . أمّا الآخر ـ ويمكن أن نطلق عليه اسم (الأرث ذي الوجه القبيح) كما سمّى دون كيخوته : « ذي الوجه الحزين » ـ فبعد أن رضي عن عناقه أبعده ووضع كفّيه على كتف دون كيخوته وراح يتأمّل فيه كأنّه يريد أن يعرفه ، وهو في دهشة أيضاً من رؤية وجه دون كيخوته ومظهره وسلاحه لاتقل عن دهشة هذا منه . وفي النهاية بدأ « الأرث » بالكلام بعد العناق ، فقال ماسنورده فيما يلي .

الفصل الرابع والعشرون

في تلاوة مغامرة السيرّا مورينا

تحكي القصة أن دون كيخوته كان يقبل بكل مسامعه على ماكان يقوله «فارس الجبل» البائس وهو يتابع حديثه :

ـ الحق ياسادة ، أيّاً من كنتم لأنّي لاأعرفكم ، أنّي أشكر لكم ماأبديتم نحوي من مظاهر الأدب واللطف ، وبودّي لو أستطيع أن أرد عليكم بغير النية الطيبة ما أظهرتموه منها في حسن استقبالكم لي . لكنّ سوء طالعي لا يهيئ لي ـ من أجل الجواب عمّا يقدّم اليّ من خدمات ـ غير الأماني الطيبة في الإعتراف بالجميل .

فأجاب دون كيخوته : إن أمانيّ أن أخدمك ، لأنّي صمّمت على عدم الخروج من هذه الجبال حتّى أعثر عليك وأعرف منك ماإذا كانت المحنة التي تدل غرابة حياتك على أنّك مصاب بها يمكن أن يوجد لها دواء فأبذل في الحصول عليه كل ما أستطيع . أمّا إن كانت محنتك مما لايرجى منها شفاء ، فإنّي أود على الأقل أن أعينك على احتمالها فأمزج زفراتي بزفراتك وعبراتي بعبراتك ؛ فمن العزاء عن الألم أن تجد من يشارك في الاحساس به . فإن كانت نواياي الطيبة تستحق الجزاء بشاهد من الأدب ، فإنّي أستحلفك بحق اللطف الذي أراه يرفّ فيك ، وبحق من تعشق أو خير من تحب ، أن تخبرني من أنت وما الدافع بك الى أن تعيش وتموت كالدواب في وسط هذه القفار التي تقيم فيها على خلاف حقيقة حالك ، كما يشهد بذلك مظهرك .وإنّي لأقسم ـ هكذا تابع دون كيخوته قوله ـ بطريقة الفرسان التي دخلت فيها ، وإن كنت بها غير جدير ، وبمهنة الفارس الجوّال ، بأنّك إذا رضيت رغبتي في هذا لخدمتك بكل حماسة وإخلاص يقتضيانهما واجبي ؛ فإمّا أن أواسيك في محنتك بالخفيف منها إن كان لها دواء ، أو بإعانتك على البكاء عليها كما وعدتك .

ولمّا سمع فارس الغابة فارس الوجه الحزين يتحدّث على هذا النحو لم يفعل إلا أن ظل

يحدّق فيه ويفحصه ويتأمّله من أعلى رأسه حتّى أخمص قدميه ، فلمّا فرغ من تأمّله قال :

ـ إن كان معكم طعام فأعطوني إحساناً لله ، فإذا طعمت فعلت وقلت ما شئتم ، اعترافاً بالنوايا الطيبة التي أظهرتموها .

وسرعان ماأخرج سنشومن الخرج والمعاز من السلة مااحتاجه «الأرث» لشبعه ، فانقضّ على ماقدّموه اليه انقضاض الأبله المتبلّد ، وأخذ في القضم بنهم شديد لم تنتظر معه اللقمة اللقمة ، بل كان يلتهم ولايبتلع . وطالما كان يأكل ظل الباقون معتصمين بالصمت ، ولمّا فرغ من طعامه أشار عليهم بالسير في أثره حتّى اقتادهم الى مرعى نضير كان قائماً هناك عند منعطف لصخر . فلمّا بلغ هذا الموضع انطرح على العشب ، وفعل الآخرون مثله ، دون أن ينطق أحد بكلمه ، الى أن تمكّن الفارس الأرث من جلسته ، فأنشأ يقول :

ـ إن شئتم ياسادة أن أروي لكم بعبارة موجزة هول مصائبي ، فعليكم أن تعدوني ألا تقطعوا سلسلة قصّتي الحزينة بأي سؤال أو حركة ، فإن فعلتم توقّفت توّاً ولم أتحدّث أبداً .

فأعادت هذه المقدمة في ذهن دون كيخوته ذكر القصة التي رواها له حامل سلاحه ، والتي توقّفت لعدم معرفه عدد المعز التي عبرت النهر . ولكن «الأرثّ» تابع حديثه قائلاً :

ـ إن كنت أحتاط هذا الاحتياط فذلك لأنّي لا أرغب في التلبّث طويلاً عند قصّة مصائبي ، لأنّ إعادة ذكرها لن يفيد إلا في خلق غيرها ، فإن أقللتم من الأسئلة كان فراغي من روايتها أسرع ، بيد أنّي لن أغفل عن ذكر شيء ذي بال حتّى أرضي حبّ استطلاعكم تمام الرضا .

فوعده دون كيخوته ـ باسم الجميع ـ بما طلب ، وبهذا التأكيد بدأ على هذا النحو :

ـ اسمي كردنيو ، وبلدي من أهم بلاد هذا الأندلس[1] ، وأسرتي نبيلة ، وأهلي أغنياء ، وشقائي كبير يبكي له أهلي وتشعر به أسرتي ، دون أن يملكوا تخفيفه بثروتهم ، لأن ثروة الرزق لا تغني كثيراً في علاج ماترسله السماء من شقاء . وكان يسكن في ذلك البلد ملاك من السماء ، وضع فيه «الحبّ» كل كمال ومجد كنت أطمح اليه : كذلك كانت لوسنده نبيلة غنيّة مثلي ، لكنّها كانت أسعد منّي وأقل إخلاصاً مما استحقّته عواطفي الشريفة . لوسنده هذه أحببتها وعبدتها منذ نعومة أظفاري . وهي أيضاً كانت تحبّني بتلك البراعة والبساطة التي يسمح بها فناء سنّها . وأدرك أهلونا مابيننا من عواطف متبادلة ، دون أسف ، إذ اعتقدوا أنّ هذه العواطف إذ امتدّت الى مابعد الطفولة فلن يكون لها من

---

(١) يقول «هذا الأندلس» deste Andalucia ـ كما لاحظ كليمنثين لأنه يشير الى الأندلس الأسفل ، في مقابل الأندلس الأعلى الذي يشمل مناطق غرناطة وقاين حيث الأرض جبلية مرتفعة .

خاتمة غير الزواج ، وهو أمر يبدو كأنّ مساواة كلينا في المنزلة والثروة قد هيّأه سلفاً . ونما الحبّ بيننا مع السن ، ورأى والد لوسنده أن الواجب والأداب تقضي عليه بأن يحول بيني وبين بيته مؤتسياً في هذا بأهل تِسْبه[1] التي طاما تغنّى بها الشعراء . فلم يزدني هذا المنع إلا ضراماً وشوقاً على شوق ، لأن المنع فرض الصمت على شفاهنا ، لاعلى أقلامنا التي استطاعت خيراًمن الألسنة ، أن تعبّر لمن تريد له التعبيرعمّا يختلج في النفس من لواعج ، إذ يحدث كثيراً أن تضطرب الإرادة القوية نفسها في حضرة المعشوق فتنقلب أشدّ الألسنة ذلاقة عيّاً بكيناً . ياللهِ! كم من رسائل كتبت اليها! وكم من جوابات تلقّيت منها ، كلّها نبل وكلّها رقة! وكم من قصائد نظمتها وأشعارغرامية أفضت فيها نفسي بمكنون عواطفها ورسمت مشبوب أمانيها ، وتحدثت الى ذكرياتها ، واستمتعت بمباهجها! وأخيراً استولى عليّ القنوط وشعرت أنّ نفسي تحترق بلهيب الشوق لرؤية لوسنده ، فقرّرت أن أعمل أنسب الأمور لبلوغ الجزاء المأمول الذي أستحقّه عن غرامي ، أعني أن أطلب من أبيها الاقتران بها زوجة شرعية لي . فتقدّمت الى أبيها بهذا الطلب ، لكنّه أجاب بأنّه مع تقديره للرغبة في تشريفه بهذا الإقتران وتشرّفي به ، فإنّ أبي لايزال حيّاً فله إذن حق التقدّم بهذا الطلب ، لأنّه إن لم يكن هذا الزواج برضا تام وعلى هوى من والدي ، فليست لوسنده من أولئك اللواتي يقترنّ ويقدّمن أنفسهن زوجات سرّاً وقسراً . وبدا لي أنّه على حق فيما يقول ، فشكرت له كريم مشاعره ، وأملت أن أنال موافقة أبي بمجرّد عرض الأمر عليه .

«وذهبت يحدوني هذا الأمل الى والدي أكشف له عن رغبتي هذه . لكن في اللحظة التي دخلت فيها غرفته ، وجدته يحمل في يده رسالة مفتوحة سلّمها إليّ قبل أن أفوه بكلمة ، وقال : يا كردنيو! سترى في هذه الرسالة أنّ الدوق ريكردو يرجو لك الخير » . والدوق ريكردو ـ كما يجب أن تعلموا يا سادة ! ـ رجل من عظماء اسبانيا تقع ضياعه في أخصب بقاع هذا الأندلس[2] . فأخذت الرسالة وقرأتها فوجدتها مكتوبة بعبارات بدا لي أنا نفسي

---

(١) تسبه Tisbe : معشوقة بيرم Pyrame البابلي الذي اتعد وإياها في سهل بالقرب من بابل تحت شجرة توت . فوصلت تسبه أولاً . ثمّ طلت لها لبؤة ففرّت وخلفت وراءها نقابها فمزّقته اللبؤة وملأته دماً ، فشاهده بيرم لمّا وصل فاعتقد أنها قتلت . فاستولى عليه القنوط فقتل نفسه بسيفه . ثمّ عادت تسبه ورأت ما جرى لعشيقها فانتحرت الى جواره . فاستحالت ثمار التوت سوداء بعد أن كانت حتّى ذلك الحين بيضاء .

(٢) يشير كردنيو هنا الى دوقة أشونة ، وأشونة في الأندلس الأسفل . والأندلس الأعلى يمتد من أشبيلية الى غرناطة ، ماراً بأرشذونة ، ويشمل مملكتي غرناطة وقاين القديمتين وإن كان الأب موريو بلاردة Murillo Velarde في كتابه «الجغرافيا التاريخية» ج١ ص١٤٨ (مدريد سنة ١٧٥٢) يقول عن الأندلس إنه يشمل أربع ممالك : غرناطة ، وأشبيلية ، وقرطبة ، وقاين . وينقسم الى أندلس أعلى هو مملكة غرناطة ، وأندلس أسفل هو سائر الأندلس .



الفصل الرابع والعشرون : دون كيخوته في مجاهداته

أنه من المستحيل بعدها ألا يرضى والدي بما طلب منه فيها . ذلك أنّ الدوق رجاه أن يرسلني الى حيث يقيم قائلاً إنه يريد منّي أن أكون ـ لامن حاشية ابنه الأكبر ، بل رفيقاً له ، وأنه سيتولّى تعييني في منصب يليق بتقديره لي . فتولاّني الصمت لدى قراءة هذه الرسالة ، خصوصاً وقد قال والدي : «في خلال يومين سترحل ياكردنيو لإرادة الدوق ، وأحمد الله الذي فتح عليك بطريق ستصل به الى ماتستحقّه» . والى هذه الكلمات أضاف النصائح التي يسديها والد لولده في مثل هذه المناسبة . وأزف موعد الرحيل ، وكنت قد تحدّثت الى لوسنده في الليلة السابقة وقصصت عليها كل شيء وأنبأت أباها كذلك ملتمساً منه أن يحفظ عهده لي مدة من الزمان ، ويؤجّل اتخاذ قرار بشأن ابنته ، على الأقل حتّى أعرف ماذا يريده ريكردو منّي . فوعدني بذلك ، وأكّدت لوسنده ما وعدّ بأغلظ الأيمان ، وبنوبات من الإغماء . وأخيراً ذهبت الى حضرة الدوق ريكردو ، فاستقبلني استقبالاً حاراً أثار الحسد في نفوس رجاله ، إذ ظنّوا أن ماأبداه نحوي من عطف سابغ سيكون في غير مصلحتهم . وكان أكثرهم اغتباطاً بقدومي ابنه الثاني المدعو دون فرنندو ، وكان شاباً صافي الأديم محمود الشمائل ، حرّ النفس ، أريحي الطباع ، سهل المحبة ، سرعان مارغب في صداقتي إلى حد أطلق الألسنة بذكرها . أمّا الأكبر فكان يحبني من غير شك ، ويعاملني باحترام ، لكن دون أن يكون بيني وبينه من المودّة والانطلاق مثلما كان بين دون فرنندو وبيني . ولمّا كان السر بين الأصدقاء مرفوعاً ، والألفة التي كات بيني وبين دون فرنندوقد أصبحت صداقة ، فقد أفضى اليّ بدخيلة نفسه ومكنون خواطره ، ومن بينهاعاطفة غرامية كانت تسبّب له بعض الهمّ . ذلك أنّه كان يحب فلاحة من أتباع أبيه ، وكان أهلها أغنياء جداً ، وكانت رائعة الجمال خفيفة الروح عاقلة الى حد أن عارفيها لم يكونوا يدرون أي هذه الصفات أبرز من الأخرى : فألهبت هذه الشمائل المجتمعة في الفلاحة الجميلة مشاعر دون فرنندو ، فقرّر أن يعاهدها على الاقتران بها حتى تكون له بعد أن أخفقت سائر الوسائل في الظفر بها . ولكي أكون أميناً على صداقتي وإيّاه رأيت لزاماً عليّ أن أسعى بكل ماأستطيع أن أجده من الحجج القاطعة والأمثلة السائرة ، أن أعدل به عن هذا القرار . لكنّ محاولاتي معه ذهبت سدى ، فقرّرت أن أبوح لأبيه بكل شيء ؛ وكان دون فرنندو لوذعيّاً فطناً فأحسّ بما عزمت عليه ، إذ أدرك أن خادماً أميناً مثلي لايمكن أن يتستّر على شيء يشين الدوق ، مولاي . فأراد أن يصرفني ويخدعني فقال إنه لادواء أنجع لنسيان الجمال الذي استولى عليه ـ من البعد بضعة أشهر ، ومن أجل هذا رغب أن نسافر معاً الى أبي ، بحجّة شراء خيول جيدة من بلدي حيث تربّى أحسن الخيول في الدنيا . فلمّا سمعته يتكلّم على هذا النحو ، دفعتني

العاطفة الى موافقته على هذا الرأي حتّى لو كان رأياً فائلاً ، وعدّه أحكم رأي يمكن تصوّره ، ذلك أني رأيت في تنفيذه فرصة رائعة لرؤية حبيبتي لوسنده . وبدافع هذه الفكرة وتلك الرغبة رأفأته على رأيه وأيّدته فيما ذهب اليه ، ونصحته بالتنفيذ في الحال قائلاً أن البعد ، مهما تكن قوّة العواطف ، ذو أثر بالغ لا ينكر . لكن . كما عرفت من بعد ـ لم يقترح عليّ دون فرنندو هذا الاقتراح إلا بعد أن غرّر بالفلاحة تحت ستار أنّه زوجها ، فراح يبحث عن فرصة للهرب قبل افتضاح أمره ، خشية غضب أبيه إن علم بخطيئته ، ولمّا كان الحب ، لدى كثير من الشبّان ، غير جدير بهذا الاسم ، بل هو مجرّد رغبة عابرة لا تستهدف غير اللذّة ، فإذا تحقّقت هذه انطفأ ذاك ، وهو أمر لا يحدث للحب الصادق ـ فإن دون فرنندو لم يكد ينال مراده من الفلاحة حتّى هدأت شهواته وانطفأت شعلة عواطفه ، فإن كان تظاهر أولاً بالرغبة في البعد ليتجنّب أن يلتزم بشيء ، فإنّه قد أراد الآن أن يبتعد ليتجنّب التمسّك بعهده ، وأذن له الدوق في الرحيل ، وكلّفني بمصاحبته . فبلغنا مدينتنا ، واستقبله أبي بما يليق به مثل هذا الضيف الكريم ، ورأيت لوسنده ، وتولّدت مشاعري من جديد وإن لم تكن ماتت ولاخمدت ، ولسوء حظّي أفضيت بها الى دون فرنندو ، لأنّي رأيت أن شريعة صداقتنا تلزمني بألاّ أحجب عنه أي سر . فرحت أثني على مفاتن لوسنده وجمالها وذكائها ، وأعلي من قدرها بحرارة ولّدت في نفسه الرغبة الشديدة في رؤية شخص تحلّى بكل هذه المفاتن . وشاء سوء الطالع أن أحقّق رغبته ، فذات ليلة أريته إيّاها على ضوء شمعة ، من نافذة اعتدنا أن نتحدّث عندها . فنسى كل ما رآه من جمال حتّى ذلك الحين . فظل سادراً ساهماً مستغرقاً لا يحس ، وبالجملة فقد اشتعل غراماً بها الى الحدّ الذي سترونه من خلال قصتي هذه البائسة . وشاء القدر ـ زيادة في إضرام غرامه الذي أخفاه عنّي ولم يبح به إلاّ للسماء ـ أن يعثر ذات يوم على رسالة كتبتها لي تدعوني الى خطبتها الى أبيها ، وكانت رسالة رقيقة مليئة بالحب والحياء لم يكد يقرأها حتّى قال لي أن في لوسنده وحدها اجتمعت كل مفاتن الروح والجمال التي توزّعها سائر النساء . ومن الحق عليّ أن أعترف الآن بأنه على الرغم من إدراكي لصدق الأسباب التي جعلت دون فرنندو يشيد بلوسنده ، فقد بدأت أستشعر عدم الثقة فيه . والواقع أنّه كان يريد دائماً أن نتحدّث عن لوسنده ، ويعود بالحديث اليها مهما تكلّف في ذلك ومهما بعد الموضوع عنها . فأيقظ هذا كلّه في نفسي شائعة الغيرة ، لا لأنّي كنت أخشى تغيير لوسنده عليّ أو خيانة منها ، ولكن مصيري جعلني أخشى ما هيأته لي هي . وحاول دون فرنندو دائماً أن يقرأ الرسائل التي كنت أبعث بها الى لوسنده ورسائلها هي إليّ ، بحجّة أنّه كان معجباً ببراعة تعبيرنا عن عواطفنا .

«وحدث ذات يوم أن سألتني لوسنده أن أقرأ قصة فروسية كانت تعجبها كثيراً ، وهي قصة أماديس الغالي...» .

ولم يكد دون كيخوته يسمع اسم قصة الفروسية حتى صاح :

ـ لو أنبأتني يا سيّدي في بدء حديثك أن صاحبة العصمة الأنسة لوسندة مولعة بكتب الفروسية ، لما كنت في حاجة الى منقبة أخرى لإقناعي بتقدير سمو عقلها ، وإلاّ فلو كان ينقصها الإعجاب بهذا النوع من الكتب اللذيذة الفاتنة لما كانت متحلية بكل تلك الشمائل التي وصفتها لنا ياسيّدي . فعن نفسي لاحاجة بك الى الإسراف في العبارات للإشادة بمفاتنها ومناقبها وذكائها ، بل كفاني أن أعرف الى أين يتّجه ولعها ، لأقرّر أنها أجمل وأذكى امرأة في الدنيا . بيد أنّي كنت أودّ منك ياسيّدي أن ترسل اليها مع قصة «أماديس الغالي» ، قصة ذلك الرجل الطيب «دون روخيل اليوناني» ، فأنا على يقين من أنّ الأنسة لوسنده كانت ستستمتع كثيراً بأنباءدرنيدا وجرايا ، وأسمار الراعي دارينل[1] ، والقصائد الرعوية التي كان يتغنى بها ويعزفها برقة ولطافة بالغة ، لكن سيأتي الوقت لتتدارك هذا الخطأ ، وذلك حينما تتفضّل معي الى قريتنا ؛ فهناك أستطيع أن أعطيك أكثر من ثلثمائة مجلّد هي لذة نفسي ونعم حياتي ، وإن كنت أعتقد أنّه لم يبق لديّ منها شيء ، بسبب مكر السحرة الأشرار وحسدهم . وليغتفر لي سيّدي إن كنت قد خالفت عهدنا له بألاّ نقاطع قصّته أبداً ، لكنّي لم أكد أسمع كلاماً عن الفروسة والفرسان الجوّالة حتّى استعصى عليّ أن أمنع نفسي من إضافة كلمة في الموضوع ،شأني في ذلك شأن أشعة الشمس لا تملك تمتنع من نشر ضوئها وحرارتها أو القمر أن يبث رطوبته . فاعذرني إذن ، واستمر في حديثك وما أشوقه الآن .

وبينما كان دون كيخوته يلقي الخطبة التي أتينا على ذكرها ، مال كردنيو برأسه على صدره حال من يحلم حلماً عميقاً . وعلى الرغم من أنّ دون كيخوته توسّل اليه مرتين أن يستأنف قصته ، لم يشأ أن يرفع رأسه ولاأن يجيب بكلمة . وأخيراً وبعد صمت طويل ، رفع رأسه وقال :

«لن أستطيع أن أزيل من ذهني ، ولن يزيل أحد من خاطري ، ومن يعتقد أو يفعل

---

(١) درنيدا وجرايا Daraida Caraya شخصيتان في قصة «دون روخيل اليوناني» وهي الجزء الثالث من رواية «دون فلوريسل النيقي» Don Florisel de Niquea تأليف فلثيانو دي سلفا Feleiano de Silva (١٤٩٢ ؟ ـ ١٥٥٨ ؟) الذي ولد في ثيودا رودريجو ، وعشق ابنه يهودي متنصراسمها جرثيا فيهGracia fe واقترن بها على رغم معارضة كل اسرته . وقد عبر عن غرامه هذا مع جرثيا فيه في كتاب «حلم فلثيانو دي سلفا» ، وفيه تمثّل عظمة الحب» . وقد أضيف الى خاتمة قصة «أماديس اليوناني» . وأشهر قصصه «ثلستينا الثانية» Segunda Celestina وهي مليئة بالأشخاص المختلفين الذين صوّرهم بقوة وتهكّم . وكان أسلوبه مليئاً بالصنعة والبديع ، فسخر منه الكتّاب المعاصرون ، وسخر منه ثربنتس في مستهل دون كيخوته كما أشرنا الى هذا من قبل .

عكس هذا فهو قَدُم ثقيل : هذا الأمر الذي لن أستطيع إزالته ولن يزيله أحد هو أنّ ذلك الخبيث المدعو السيّد اليسابات[١] كان يعاشر الملكة مدسما معاشرة الخلآن » .

فصاح كيخوته قائلاً : وقد احتد غاضباً(في لهجة عنيفة على عادته) :

كلا! وألف مرة كلا! هذا خبث ، بل نذالة بتعبير أدق! إن الملكة مدسما كانت سيدة فاضلة نبيلة ، ولا يمكن الظن أنّ أميرة نبيلة جليلة كهذه تفكّر في مخادنة ربّاطِ فتوق[٢]! ومن يقل عكس هذا يكن كذّاباً أشراً . وسأثبت هذا ، راجلاً أو راكباً ، مسلّحاً أو أعزلاً ، نهاراً أو ليلاً ـ لمن يشاء .

وفي تلك الأثناء كان كردنيو يحدّق فيه بكل انتباه ، إذ أصابت كردنيو لوثة جنون ، فلم يكن في وسعه الاستمرار في قص قصته ، كما لم يكن في وسع دون كيخوته سماعه لشدّة غضبة من إهانة مدسما . والغريب في الأمر أنه دافع عنها كما لوكانت ملكته الشرعية الحقيقية ، لأنه كان مليئاً بما في كتبه الملعونة . وكردنيو من ناحيته قد أصابته نوبة جنون لما أن سمع من يكذبه ويصفه بأنه نذل خبيث وماالى هذا من نعوت مشابهة ، فأساء تقدير المزاح ، فأمسك بحصاة كبيرة وجدها عند قدميه ، وضرب بها صدر دون كيخوته ضربة شديدة جندلته على ظهره . ورأى سنشو پنثا ماحلّ بمولاه فانقض على المجنون بقبضة يده ، لكن المجنون استقبله بلكمة ألقت بسنشو على الأرض ، وعلا فوق بطنه ورضّ أضلاعه كما لذّ له هواه . وأراد المعّاز الذود عن سنشو فلقي نفس المصير ، وبعد أن طحن المجنون هؤلاء الثلاثة طحناً خلىّ عنهم ومضى لسبيله بكل رباطة جأش وهدوء ، ودخل في خفايا أدغال الجبل . ثمّ نهض سنشو قد بلغ به الغضب مبلغه فهجم على المعّازقائلاً أنه هو السبب فيما وقع ، لأنّه لم ينبّهما ـ هو وسيده ـ أن هذا الرجل تنتابه بين الفينة والفينة خبطات جنون ، إذ لو عرفا ذلك لاحتاطا للأمر . فأجاب المعّاز قائلاً أنّه نبّههمااالى ذلك فعلاً ، فإن كان صاحبه لم يصغ الى ما قال فليس الذنب ذنبه . فردّ عليه سنشو وعاود المعّاز الجواب . وانتهى الرد والجواب بالتماسك بالذقون وتبادل اللكمات ، ولولا أن فصل دون كيخوته بينهما لمزّق كلاهما الآخر إرباً إرباً وقال سنشو وهو يمسك بالمعّاز :

ـ دعني وإيّاه ياسيدي الفارس ذا الوجه الحزين! فهذا من السفلة مثلي ، ولم يسلّح فارساً ، وفي وسعي أن انتقم من الإهانة التي ألحقها بي كما أشاء ، وأن أصارعه يداً بيد كما يفعل الرجل الشريف .

(١) السيّد اليسابات maestro Elisabat كان جرّاحاً في خدمة أماديس الغالي .

(٢) في الأصل الاسباني sacapotras ومعناها الأصلي : من يشد الفتق عند المصابين بالفتاق . وتطلق مجازاً وتحقيراً على الجراح الرديء .

فقال دون كيخوته : هذا هذا! لكنّي أعلم أن الذنب ليس ذنبه فيما وقع لنا .

وأعاد بينهما السلام بهذا الكلام . ثمّ عاود سؤال المعّاز ما إذا كان من الممكن العثور مرة أخرى على كردينو ، لأنّه في أشد الشوق الى معرفة ختام قصته . فكرّر له المعّاز ماسبق أن قال وهو أنّه ليس يدري أين يقيم كردنيو ، على أنه إذا فتش في هذه النواحي بدقة فهو لابدّ ملاقيه إما عاقلاً وإمّا مجنوناً .

الفصل الخامس والعشرون

في غرائب الأمور التي وقعت لفارس المنتشا الشجاع في جبال السيرّا مورينا والنذر الذي قام به اقتداءً بالأدهم الجميل[١]

فلمّا ودع دون كيخوته المغاز امتطى صهوة روثينانته وأمر سنشو بأن يتبعه ، فامتثل هذا للأمر ساخطاً راكباً حماره[٢] . وتوغلا في أشد أجزاء الجبل وعورة . وكانت تحرق سنشو رغبة ملحة في الحديث مع سيده أثناء المسير ، لكنّه كان يودّ أن يكون سيده البادئ حتّى لا يخالف أوامره . فلمّا لم يستطع هذا الصمت الطويل احتمالاً قال :

مولاي دون كيخوته! تفضّل وقل لي على بركة الله وخلّ عنّي ، لأنّي أود الرحيل من هاهنا والعود الى بيتي لأجد زوجتي وعيالي ، فمعهم على الأقل استطيع الكلام والحديث ماطاب لي الأمر . لأن السير مع مولاي خلال هذه القفار الموحشة ليل نهاردون أن استطيع أن أوجّه اليك كلمة حينما أريد ، هذا معناه أن أقبر حيّاً . بل لو كان القدر قد شاء أن يتكلّم الحيوان الأعجم ، كما كانت الحال في أيّام أيسوب[٣] ، لكان الأمر أهون ، هنالك كنت أتكلّم مع حماري ، أو أي دابة في عرض الطريق ، فأحدثّه عن كل مايطرأ في ذهني ، وأحتمل مصيبتي بصبر وجلد . ولكنّها مشقة بالغة لا قبل باحتمالها أن يسير المرء وراء المغامرات طوال حياته دون أن يجد شيئاً غير اللكمات والرفسات وقذائف الحصى والتأرجح على الملاءة . ومع هذا كلّه يجب أن يغلق المرء فمه دون أن يقوى على أن ينبس ببنت شفة تعبيراً عمّا في نفسه ، وكأن المرء أخرس .

فأجاب دون كيخوته : أنا أفهم ما تريد ياسنشو! إنّك تموت رغبة في أن أرفع الحظر

(١) الأدهم الجميل Beltenebros لقب أطلقه أحد الرهبان على أماديس الغالي ، خلال النذر الذي قام به على الصخرة الجرداء .

(٢) ينسى ثرڤنتس هنا أيضاً أن الحمار قد سرق ولم يعد مع سنشو .

(٣) يخطئ سنشو في النطق باسم هذا الشاعر صاحب الخرافات المشهورة فينطقه Cuisopet ، وصحته في النطق القديم Isopete ويكتب اليوم Esobo . ولاحظ أيضاً هنا أنّ المؤلف ينسى أن حمار سنشو قد سرق .

عن لسانك . إذن فهو مرفوع! وتكلّم بما شئت ، لكن بشرط ألا يمتد رفع الحظر هذا الى أطول من المدّة التي سنقضيها في هذه الجبال .

فقال سنشو : موافق ، مادمت سأتكلّم الآن ، وأمّا ماسيأتي بعد فأمره في الغيب . وللإنتفاع بهذه الرخصة منذ الآن ، اسأل مولاي متى خطر له أن يأخذ جانب الملكة مركسينه هذه ، أو كما تسمّى لاأدري . أي شيطان جعلك تهتم بأن يكون ايلي[1] الاباد خليلها أو غير خليلها! أعتقد أنك لو كنت تركت هذه المسألة تمر ـ ولم يكن من شأنك الحكم فيها ـ لكان ذلك المجنون قد استمر في قص حكايته وكنت قد تجنّبت أن يصيبك الحصى في بطنك وتجنّبت أنا أكثر من عشر صفعات على وجهي ومثلها رفسات في بطني .

فأجاب دون كيخوته : وأيم الله ، يا سنشو ، لو عرفت كما أعرف أنا أية سيدة نبيلة محترمة كانت تلك الملكة مدسمه ، لكنت قلت أنّ صبري كان عظيماً لأنّي لم أحطّم ذلك الفم الذي خرجت منه هذه الكلمات الكافرة الفاجرة ، فمن الكفر الشديد أن يقول المرء أو يفكّرأن ملكة تعيش عيشة الخليلة مع جرّاح . وحقيقة الأمر في هذه الحكاية هي أنّ السيد اليساباد الذي تكلّم عنه المجنون كان رجلاً شديد الفطنة واسع الحيلة ، وكان للملكة حاكماً وطبيباً ، أمّا أن يتخيّل المرء أنها كانت خليلة ، فهذه وقاحة تستحق أشد العقاب . ولكي توافقني على أن كردنيو لم يكن يدري ماذا يقول ، فيجب أن تلاحظ أنّه حينما كان يتحدث هكذا كانت قد غلبته اللوثة وانتابته النوبة .

فقال سنشو : هذا هو ما أقوله تماماً ، ولهذا لم يكن لك أن تهتم مطلقاً بما يقوله هذا المجنون ، وعلى كل حال فلولا أنّ ساعدك حسن الطالع ، ولولا أنّ الحصى اتجهت الى البطن ولم تتخذ طريقها الى الرأس ـ لكان الأمرمما لا يحمد عقباه أبداً ، وكل هذا جزاءً وفاقاً لدفاعنا عن هذه السيدة الجميلة التي أخذ الله روحها وصارت تراباً وعفناً!

فأجاب دون كيخوته : أي سنشو! تأكّد تماماً أن جنون كردنيو لا يشفع له أبداً . فكل فارس جوّال واجب عليه أن يدافع عن شرف النساء ضد الحكماء وضد المجانين على السواء ، أيّاً كنّ هؤلاء النساء ، فما بالك إذا اتصل الأمر بالأميرات ذوات الحسب الرفيع ، كما هو شأن الملكة مدسمه التي أحمل لها إعجاباً بالغاً نظراً لصفاتها النادرة : لأنها فضلاً عن جمالها الرائع الخارق ، فقد كانت ذات فطنة وصبر وشجاعة في المصائب العديدة التي حاقت بها . هنالك كان لها العون خير العون في نصائح السيد اليساباد وصحبته ، حتّى

(١) يحرف سنشو هنا اسم الملكة : مدسمه والطبيب اليساباد .

استطاعت احتمال آلامها بحزم وفطنة . ومن هنا نبتت لدى الجهلة ذوي النوايا الشرّيرة فكرة أنها كانت خليلته . لكنّهم في هذا كاذبون ، ومن يخطر بباله مثل هذا الظن الأثيم فأولئك يكذبون مئات المرّات .

فقال سنشو : أنا لا أقول ذلك ولا يخطر ببالي ، فهذا شأنهم ، وما على المرء إلاّ أن يأكل من الخبز الذي صنعه بيده ، وسواء لديّ ناما معاً أو لم يناما ، فالله هو الذي سيحاسبهما على ذلك . أمّا أنا فعن كرمى أصدر ، ولا أرى عن غيري شيئاً ، ولست ممن يطمعون في معرفة شؤون الآخرين ، ومن يستتر ويدس في جيبه يحسّ . وأكثر من هذا فقد ولدت عرياناً ولاأزال عرياناً ، فلن أدّخر شيئاً ولن أكسب شيئاً . فإن كانا أشد مما هما فماذا يعنيني ؟ كثيرون يحسبون أن ثمة شرائح ، لكن لاتوجد خطاطيف لتعليقها . بيد أنه من ذا الذي يستطيع أن يصنع أبواباً للبراري ؟ وكم قالوا في حق الله!

فقال دون كيخوته : يالله! ماهذه الترهات التي تسوقها! وما الصلة بين مانحن عليه الآن ، وبين هذه الأمثال التي تلضم الواحد منها في الآخر ؟! بحياتك ياسنشو ألا سكتّ ، ولاتهتم منذ الآن فصاعداً إلا بهمز حمارك ، ولا تتدخّل إلا فيما يعنيك . واعلم بكل حواسك الخمس أن كل ما فعلته وأفعله وما سأفعله إنّما يتّفق مع العقل ويطابق تماماً قوانين الفروسية التي أعرفها خيراً من جميع الفرسان الذين مارسوا هذه المهنة في الدنيا كلها .

فأجابه سنشو : مولاي! أمن قواعد الفروسية السليمة أن نسير ضالين هكذا في هذه الجبال ، دون درب ولاطريق ، بحثاً عن مجنون قد يلذ له . إذا ماعثرنا عليه ، أن ينهي مابدأ به ، ولا أعني قصّته ، بل رأس مولاي وأضلاعي أنا ، حتّى يحطّم أوصالنا كلّها ؟

فقال دون كيخوته : صه! مرة أخرى أقول لك ياسنشو . واعلم أنّ ما يجرّني الى هذه الأماكن الموحشة ليس فقط الرغبة في أن أجد المجنون ، بل وأيضاً الرغبة في القيام بمغامرة تخلّد اسمي وتذيع شهرتي في الدنيا بأسرها ، على نحو يكون فيه ختام الفضائل التي تجعل الفارس الجوّال تاماً كاملاً .

فسأله سنشو : وهل تنطوي على خطر شديد هذه المغامرة ؟

فأجابه الفارس الحزين الطلعة : كلا! وإن كان من الممكن أن ينقلب الحظ نحساً ، ولكن كل شيء يتوقّف على مهارتك .

فقال سنشو : مهارتي أنا ؟

فأجاب دون كيخوته : نعم مهارتك ، لأنك إذا رجعت سريعاً من حيث أود أن أرسلك ، فسريعاً تنقضي متاعبي وسريعاً يبدأ مجدي . ولكن ليس من الانصاف أن أتركك قلقاً في

انتظار ما أودّ أن أفضي به . إنّي أودّ أن تعلم ، أي سنشو ، أن أماديس الغالي الشهير كان من أكمل الفرسان الجوّالة . ماذا أقول ؟! بل هو الوحيد ، الفريد ، الأوّل ، سيّد جميع الفرسان الجوّالة في عصره . ويؤسفني أن أقول هذا واعتذر لدون بليانيس ولأولئك الذين يقولون أنه كان كفئاً له في بعض النواحي ، لأنهم مخطئون في هذا وأيم الله! وأقول أيضاً أن الرسّام الذي يريد أن يكون شهيراً في فنه ، يحاول أن يقلّد اللوحات الأصلية لأكبر الفنّانين الذين يعرفهم ، والقاعدة نفسها تسري على سائر المهن والحرف التي تفيد في إعلاء شأن الجمهوريّات . وهذاأيضاً مايجب أن يفعله ومايعمله فعلاً كل من يريد أن ينال الشهرة في الفطنة والصبر ، إنه يقلّد أولسيس الذي قدّم لنا هوميروس عن أعماله وشخصه نموذجاً حيّاً للرجل الفطن الصبور في المحن ، كما أن فرجيليوس أظهر لنا في شخص إينياس قيمة الولد البار وحكمة القائد الشجاع ، وقد صوراهما لا كما كانا ، بل كما كان يجب أن يكونا ، حتّى يدعا للأجيال القادمة نموذجاً كاملاً لفضائلهما . وكذلك كان أماديس نجمة القطب وشمس الفرسان الجوّالة للعاشقين ، وعلينا نحن الذين انضوينا تحت لواء الفروسية والحب أن نحاكيه ونضرب على قالبه . ومادام الأمر كذلك ياسنشو ، فيبدو لي أن الفارس الذي يتقن محاكاته سيكون أقرب الفرسان الى بلوغ الكمال في الفروسية . ومن بين الأمور التي أبرز فيها هذا الفارس تمام حكمته وشجاعته وثبات صبره وحبّه مافعله حينما اعتزل الناس ـ لما هجرته سيدته أورريانا ـ وأظهر التجرّد على « الصخرة الجرداء » بعد أن غيّر اسمه الى « جميل الظلمات » ، وهو اسم مليء بالمعاني ويتلاءم مع الحياة الجديدة التي فرضها على نفسه[1] . ومحاكاته في هذا الأمر أسهل عندي من قصم ظهور المردة وإطاحة رؤوس الأفاعي وتشتيت شمل الجيوش وتحطيم الأساطيل وإفساد أعمال السحر ، وهذه الأماكن الموحشة أصلح مايكون لتنفيذ هذا العزم ، لهذا لا أودّ أن أدع هذه الفرصة السانحة للظفر بخصلة من شعره ـ تفلت منّي .

فسأله سنشو : وماذا تريد سيادتك أن تفعل في هذا المكان المنقطع ؟

فأجابه دون كيخوته : أولم أقل لك أنّي أريد محاكاة أماديس وقد اصطنع اليأس والحمق والخبرة ، ليحاكي في الوقت نفسه دونرولاندو الشجاع حينما وجد على أشجار ينبوع آثاراً وعلامات تدلّ على أنّ أنجليكا الجميلة قد ارتكبت منكراً مع ميدورو مما أشاع فيه الحزن حتّى بلغ به الجنون وراح يقتلع الأشجار ويعكّر مياه الينابيع الصافية ويقتل الرعيان ويبيد

---

(1) راجع قصة أماديس الغالي » . الفصل ٢١ والفصل ٦٠ ومايليه .

القطعان ويحرق الضياع ويقلب المنازل ويجر فرسه ، وفعل مئات الآلاف من الحماقات والغرائب الجديرة بالذكر والتسجيل[1] حقاً إنّي لا أريد أن أقلّد رولدان أو أورلندو أو روتولاندو (وكان يحمل هذه الاسماء الثلاثة) تقليداً كاملاً في كل شيء وفي جميع ماارتكب من حماقات أو ما فكّر فيه وماذكره منها . بل لعلّي سأقنع بمحاكاة أماديس الذي لم يرتكب حماقات وشروراً ، بل اكتفى بالدموع ومظاهر اليأس وحصل بهذا على مجد لم يظفر بمثله إنسان .

فقال سنشو : يظهر لي أنا أن الفرسان الذين ارتكبوا هذه الأفاعيل قد استثارهم سبب لارتكابها ، وكان لديهم من الدواعي ماحملهم على فعل هذه الحماقات وألوان التعذيب . أمّا أنت يا مولاي ، فماذا يدفع بك الى أن تصطنع الجنون ؟ أية سيدة هجرتك ؟ وأية آثار وعلامات عثرت عليها تدل على أنّ السيدة دلثنيا دلتوبوسو قد ارتكبت منكراً مع مسلم أو نصراني ؟

فأجابه دون كيخوته : آه ، هذه هي المسألة ، وهذه هي النقطة الدقيقة في أمري . فأن يجنّ فارس جوّال يكون ثمّ دواع للجنون ، فهذا أمر لايدعو الى الفخر ولافضل فيه ، وإنّما الفضل هو في أن تفقد العقل بغير داع ، وتجعل سيدتك تقول : إذا كان يفعل كل هذه الأفاعيل والأمر لايزال على الجفاف ، فماذا عساه فاعلاً حين يصبح الأمر على الرّي ؟! ومن ناحية أخرى أليس هذا الغياب الطويل بيني وبين سيدتي وربّتي دائماً دلثنيا دل توبوسوسبباً كافياً ؟ وكما سمعت يقال للراعي أمبروسيو في ذلك اليوم : من يكن غائباً تتوال عليه الشرور ويخشها . ولهذا لا تضيّع وقتك يا صديقي سنشو في نصحي بالعدول عن هذا التقليد النادر السعيد الذي لم ير مثله أحد . أنا مجنون ويجب أن أظل مجنوناً حتّى تعود اليّ بجواب عن رسالة سأكلّفك بحملها الى سيدتي دلثنيا . فإن كان الجواب حسبما يستحقّه إيماني انقضى جنوني واعتزالي ، وإن كان على العكس ، أصبحت مجنوناً فعلاً وفقدت كل عاطفة . فأيّما كان الجواب الذي ستأتيني به فسأخرج من الحيرة والعذاب اللذين ستتركني فيهما ، وأنعم بالخير الذي تأتي به بفضل عقلي وتمام وعيي ، أو أفقد الشعور بالشر بفضل جنوني . لكن خبّرني ياسنشو ، هل حافظت على خوذة ممبرينو ؟ لقد شاهدتك ترفعها بوضوح على متانة صنعها .

فأجاب سنشو عن هذا قائلاً :

---

(١) راجع Orlando Furriovso الأناشيد ٢٣ ، ٢٤ ، ٣٠ وغيرها .

حيّ الله! أي مولاي الفارس الحزين الطلعة! إنّي لا أحتمل ولاأصبر على بعض ماتقوله ياسيّدي . إنّه يخيّل الي في النهاية أن كل ماحدثتني عنه من مغامرات الفرسان وكسب الممالك والاستيلاء على الدول ومنح الجزر والجود بأفضال أخرى على نحومايفعل الفرسان الجوّالة ، أقول إنّ كل هذا إن هو إلا ريح وكذب وحكايات فارغة . وإلاّ فمن ذا الذي يسمع مولاي يقول أنّ صحن الحلاقة الذي يستعمله الحلاّق هو خوذة ممبرينو ، ولايراه يرجع عن هذا الخطأ طوال عدّة أيّام ـ ثمّ لايقول أنّ من يزعم هذا ويؤكّده لابدّ أن يكون قد فقد صوابه ؟ إن صحن الحلاقة هو معي في الخرج بعد أن تسطّح وتبعّج وقد حملته معي لأصلحه في البيت وأحلق لحيتي به إن شاء الله وسمح لي بالعودة الى زوجي وأولادي .

فقال دون كيخوته : انظر ياسنشو! أقسم بالله الذي أقسمت أنت به أن عقلك أضيق عقل كان لسائس في الدنيا . أمن الممكن أنه منذ الوقت الذي صحبتني فيه ولم تدرك أن جميع أمور الفرسان الجوّالة تبدو كأنّها خيالات وتهاويل وأساطير وأنها تبدو كلّها مقلوبة ؟ السبب في ذلك ليس أنها كذلك في الواقع ، بل السبب هو أنه يضطرب حولنا دائماً شرذمة من السحرة تقلب أمورنا وتقتطع منها وتفسدها وتجعل عاليها سافلهاحسبما تدعوها الأهواءالى الإيذاء أو المعاونة . وهذا هو السبب في أنّ هذا الشيء الذي يبدو لك صحن حلاقة يبدو لي أنا خوذة ممبرينو ، ويبدو لشخص ثالث شيئاً آخر ثالثاً . ولقد كانت حيطة رائعة من جانب الحكيم الذي يعاونّي أن يوهم الناس كلهم أن خوذة ممبرينو بعينها هي صحن الحلاقة ، إذ هذه الخوذة ذات قيمة عظيمة جداً فلو أدركوها لطاردوني جميعاً للاستيلاء عليها منّي . ولكن لأنهم يرونها مجرّد صحن حلاقة لذا لايحفل أحد بانتزاعها منّي . وآية ذلك ما فعله الرجل منذ حين : أراد كسرها فاستعصت عليه فتركها على الأرض ولم يأخذها ، ولو عرف حقيقة أمرها لما تركها . فاحتفظ بها يا صديقي ، فلا حاجة بي اليها الآن ، بل عليّ التجرّد من كل هذه الأسلحة لأصبح عرياناً كما ولدتْ ، لأن في اعتزالي هذا أريد أن أكون أقرب الى محاكاة رولدان منّي الى محاكاة أماديس .

وهما في هذا الحديث إذ بلغا قاعدة جبل شاهق يبدو كصخرة عمودية الإنحدار ويقوم وحده بين جبال عديدة تحيط به . وعلى سفحه يجري جدول رقراق حواليه مروج خضر رطيبة تسرّ العيون . وزاد من بهاء المنظر أشجار متناثرة هنا وهناك ، وأزهار بريّة . هذا المكان اختاره الفارس الحزين الطلعة ليعتزل فيه . فما عتم أن رآه حتّى صاح بصوت عالٍ كالمجنون :

ـ «هذا وحق السماء المكان الذي ارتجيه واختاره لأنوح على المصير الذي أوقعتموني

أنتم فيه . هذا هو المكان الذي فيه ترفد عبراتي هذا الجدول ، وتهزّ زفراتي العميقة المتّصلة أوراق هذه الأشجار البرّية ، آية وشهادة على الأحزان التي تمزّق قلبي الجريح . وأنت ـ أياً من كنته ـ أيتها الآلهات الريفية اللواتي تسكنين في هذه الأماكن الموحشة ، استمعن الى شكاة هذا العاشق المسكين الذي تضطرّه الغيبة الطويلة ودواع الغيرة الخياليّة الى بث شكواه في هذا القفار من قسوة تلك الجميلة الجاحدة ، وإن كانت الأنموذج الأعلى لكل جمال إنساني . وأنتن أيتها النافّات والدروادات[١] اللائي تسكنّ عادة في أعماق الجبال ـ لعل الساتورات الرشاق الماجنين الذين يتعشّقونكنّ عبثاً لايقلقون راحتكن ، على أن تساعدنني على النواح على شقأ أو في القليل لاتمللن من سماع شكاتي! أي دلثنيا دل توبوسو! يانهار ليالي ، ومجد آلامي ، ونجمة قطب أسفاري ، وسعد سعودي ، ألا ليت السماء تستجيب لكل دعواتك ، لو تفضّلت فنظرت الى ماأنا فيه والى أي حال أفضت بي غيبتك عنّي وكافأت إيماني الراسخ بخاتمة سعيدة! وأنت أيتها الأشجار المتوحدة التي ستشاركيني منذ الآن وحدتي ، خبريني بحفيف أوراقك الرقيق أن وجودي هنا لايضايقك! وأنت ياحامل سلاحي ، يارفيقي المخلص الرقيق في السرّاء والضرّاء ، أذكر جيداً ماستراني أفعله هنا حتّى تنقله وتقصّه على تلك التي هي السبب الوحيد فيه » .

وما قال هذه الكلمات الأخيرة حتّى نزل من على صهوة فرسه روثينانته وأسرع فحلّ لجامها وسرجها ، وربت بخفة على مؤخّرها براحة يده قائلاً :

ـ خذ الحرّية ممن فقدها أيها الجواد الممتاز بأعماله بقدر ماهو تعيس بحظه ، انطلق واسلك أي طريق شئت فقد كتب على جبهتك أنّه ليس ثمة فرس يَعْدِلك خفة وقوّة ، لا فرس استولفو[٢] المجنّح ، ولا فرونتينو الشهير الذي كلّف برادامانته ثمناً غالياً .

فلمّا رأى سنشو هذا قال :

ـ شكراً لمن أعفانا من مشقة خلع البرذعة عن الحمار ، وفي اعتقادي انه لن يخلو من مربت عليه ومادح له . ولو كان هاهنا لما سمحت بأن يخلع عنه البرذعة أحد . وإلا ، فما الفائدة ؟ إذ يكفي ذكر كلمات عاشق ويائس ، لأن صاحبه لم يكن لا عاشقاً ولا يائساً ، وصاحبه هذا هو أنا بمشيئة الله . والحق ، أي مولاي الفارس الحزين الطلعة ، إذا كانت مسألة رحيلي وجنونك جداً لاهزلاً ، فالأجدى أن نعيد السرج واللجام للفرس روثينانته ،

(١) هذه حوريات أو جنّيات ، فأمّا النافات napeas فكن يسكنّ في الأودية ، وأمّا الدروادات drindas فيسكن في الخمائل ، وأمّا الساتورات satiros فكائنات اسطورية نصفها على هيئة إنسان ، والآخر على هيئة معزي .

(٢) فرونتينو Frontino : فرس مشهور جداً في حكايات الفروسية ، وبرادمانته من أشخاص هذه الحكايات .

ليحل محل الحمار الذي فقدناه ، فهذا يوفر الوقت في الذهاب والإياب ، لأنّي إذا سلكت الطريق على قدمي فلا أدري متى أصل ومتى أعود ، لأنّي بطيء الخطى .

فأجاب دون كيخوته : أقول لك ياسنشو افعل ماتشاء ، وإنّ فكرتك هذه لاتبدو رديئة . وأضيف الى هذا أنّك سترحل في خلال ثلاثة أيام حتّى ترى إبانها كل ما أعمله وأقوله من أجلها ، وتكرّره على مسامعها .

فقال سنشو : وماذا عساي أن أرى أكثر مما رأيت ؟

فأجاب دون كيخوته : إن الأمر لم يتم فصولاً بعد! فعليّ الآن أن أمزّق ثيابي ، وأنثر سلاحي ، وأتقلّب على هذه الصخور ، وأقوم بأمور أخرى مشابهة تثير إعجابك ودهشتك .

فقال سنشو : بحق الله الا احتاط مولاي إجراء هذه التقلبات ، وإلا وقعت على صخرة ، في وضع ما على نحو تتحطّم به الآلة التي تقوم بهذه المجاهدة . أمّا رأيي أنا فهو أنّ مادام مولاي يجد هذه التقلبات ضرورية لامفرّ منها ، فليكتفي ـ مادام الأمر كلّه مصطنعاً وللهزل ـ فليكتفي بالقيام بها في الماء ، أو على شيء وثير مثل القطن ، ودعني أنا أتكفّل بالباقي : ففي وسعي أن أقول للسيدة دولثنيا أن مولاي قد قام بهذه التقلبات على صخرة مدبّبة حادة أشد مضاءً من الماس .

فأجابه دون كيخوته : أشكر لك ياصديقي سنشو نواياك الطيبة ، ولكنّني أريد منك أن تعلم أن كل هذه الأمور التي أقوم بها هنا ليست هزلاً ، بل هي الجد كلّه ، وإلا لكان في ذلك مخالفة لقواعد الفروسية التي تحرّم علينا الكذب وإلاّ كان ذلك كفراً ، وعمل شيء مكان أخر هو بعينه نوعاً من الكذب . ولهذا يجب أن تكون تقلباتي حقيقية مخلصة لاتشوبها أي مغالطة أو تمويه . بل سيكون من الضروري أن تترك لي بعض خرق التضميد لجراحي ، فقد شاء الحظ العاثر أن نفقد البلسم .

فقال سنشو : لقد كان ضياع الحمار كارثة فقد أضعنا بضماده خرق التضميد وكل الزاد . وأتوسّل الى مولاي أن لا يعيد ذكرى هذا الشراب اللعين ، إذ يكفيني سماع اسمه لتنقلب روحي وأحشائي . وأرجوك أيضاً أن تحسب أن الأيام الثلاثة التي امهلتنيها لأرى إبانها الحماقات التي سترتكبها ـ أقول أن تحسب أن هذه الأيام الثلاثة قد مضت فعلاً ، وأنا أقرّر من ناحيتي أنّها مرّت وأنّي شاهدت ماقمت به فعلاً خلالها ، وأصبح لها قوة الشيء المحكوم به . وسأقص على السيدة الأعاجيب . فاكتب الرسالة ودعني أذهب ، لأنّي أرغب أشد الرغبة في العودة لإنقاذ مولاي من المطهّر الذي سأدعه فيه .

فقال دون كيخوته : تقول « مطهّر » يا سنشو ؟ الأولى أن تسمّيه جحيماً » ، بل أشد من الجحيم إن كانت ثمة ماهو أشد من الجحيم .

فأجاب سنشو : « من سقر[1] لا مفرّ » كما سمعتهم يقولون .

فقال دون كيخوته :لا أفهم المقصود بـ« مفر » .

فأجاب سنشو : « مفر » معناه أنّ من يدخل النارلايخرج منها أبداً ، وهذا سيكون على عكس مايرمي اليه مولاي ، وإلا حفيت أقدامي إذا حملت المهماز لحث روثينانته . فدعني أذهب إلى توبوسو في حضرة السيدة دلثنيا ، هنالك أروي لها من حماقات وجنون (وهما شيء واحد) مولاي ـ مافعل وما سيفعل بعد ـ ممّا يليّن فؤادها فيصبح أطوع من القفاز حتّى لو وجدته أقسى من جذع شجرة الفلّين . وأعود بهذاالجواب المعسول طائراً في الهواء كالسحرة وأخلّص مولاي من هذا المطهر ، الذي يبدو كالجحيم ، وإن لم يكن كذلك إذ هناك أمل في الخروج منه وهو أمر لايتم ـ كما قلت ـ لأولئك الذين يدخلون الجحيم ، ولاأظن أنّ مولاي يقصد شيئاً آخر .

فقال الفارس الحزين الطلعة : نعم هذا هو الحق ، لكن ماذا نعمل لكتابة الرسالة ؟

فأضاف سنشو : وكذلك لكتابة وثيقة التنازل عن الحمير الصغار .

فقال دون كيخوته : سأضمن فيها كل شيء . ومادام ينقصنا الورق ، فمن المناسب أن نكتبها ـ كما كان يفعل القدماء ـ على أوراق الشجرأو على ألواح من الشمع وإن كان العثور على الشمع ليس أسهل من العثور على الورق . أوه! ولكن خطر ببالي الآن أين نكتبها وفي سجلّ متين : لنكتبها في دفتر المذكرات الذي ضاع من كردنيو . وعليك بعد ذلك أن تكلّف من يكتبها على ورق بخطٍّ جميل في أوّل قرية تجد بها معلّم مدرسة ، أو إن لم تجد فأوّل كاهن تعثر عليه ، ولكن لاتفكّر أبداً في أن يكتبها لك موثّق عقود : فخط موثقي العقود مبهم لايستطيع الشيطان نفسه أن يقرأه .

فسأله سنشو : والتوقيع ، ماذا نعمل فيه ؟

فأجابه دون كيخوته : إن أماديس لم يكن يوقّع أبداً رسائله .

فقال سنشو : حسناً ، ولكن وثيقة التنازل لابد لها من توقيع . فإن جعلت كاتباً ينقلها ، لقيل أنّ التوقيع مزوّر وبذلك لا أحصل على الحمير .

فقال دون كيخوته : إن وثيقة التنازل ستكتب ويوقّع عليها في دفتر المذكّرات نفسه وإذا شاهدتها ابنة أخي فلا تمانع أبداً في تنفيذ ماتنص عليه الوثيقة . أمّا رسالة الغرام فضع

---

(١) في النص Quien ha infierno nula es retencio والنقطة في هذه الجملة هي نطق سنشو الفاسد للكلمة اللاتينية redemptio (= خلاص) مما جعل دون كيخوته لايفهم فهذه الجملة الاسبانية هي ترجمة للجملة اللاتينية Quia in inferno nulla est redemptio (=إذ لاخلاص من الجحيم) وهي جزء من ترنيمة كنيسة تقال في الصلوات على الموتى .

عليها التوقيع التالي : «المخلص لك حتّى الممات : الفارس الحزين الطلعة» . ولايهم إذا كانت الرسالة بخط شخص آخر غيري ، لأن دلثينا ـ فيما أذكر ـ لا تعرف القراءة والكتابة ولم تر في حياتها رسالة واحدة . والواقع أنّ غراميّاتي وغرامياتها كانت دائماً أفلاطونية لم تتجاوز أبداً النظرة البريئة ، وفي فترات متباعدة تماماً ، حتّى أنّي استطيع أن أقسم بكل ثقة واطمئنان أنّه منذ اثنتي عشرة سنة ، وأنا أحبها أكثر من مقلة هاتين العينين التي سيأكلهما يوماً دود الأرض ، لم أرها غير أربع مرّات ، بل وفي هذه المرّات الأربع لعلّها لم تلاحظ أنّي كنت أنظرإليها ، بسبب مانشأها عليه أبوها لورنثو كورتشويلو وأمّها الدونثا نوجالس من حياء وحشمة .

فصاح سنشو : ماذا ، ماذا! هل ابنه لورنثو كورتشوويلو هي الآن لسيدة دلثنيا دل توبوسو ، تلك التي تسمّى أيضاً لورنثو! ؟ .

فأجاب دون كيخوته : نعم هي ، هي التي تستحق أن تكون سيدة الدنيا بأسرها .

فقل سنشو : إنّي أعرفها جيداً ، واستطيع أن أقول أنها تحسن إلقاء العمود كأقوى شباب القرية . أوه! إنها بنت صلبة مبنية مستوية ، صدرها أشعر ، قادرة على أن تنتزع لحية أي فارس جوّال يتخذها سيدة له . ياللمارد ، ويالقوّتها ولصوتها! وفي وسعي أن أقول أنها صعدت ذات يوم على برج كنيسة القرية تنادي على فلاحين يعملون في مزرعة والدها : وعلى الرغم من أنّ المسافة كانت أطول من نصف فرسخ ، فقد سمعوها وكأنهم كانوا عند قاعدة البرج . وأحسن من هذا أنها لاتحتشم أبداً ، بل فيها مجون ودلال ، وتمزح مع الجميع ، وتضحك وتهزل في كل مناسبة . والآن أقول لك يا مولاي الفارس الحزين الطلعة : إنك تستطيع بل ويجب عليك أن تقوم بحماقات من أجلها ، وتستطيع بحق أن تيأس وأن تشنق نفسك ، وكل الذين سيعلمون عنك ذلك سيقولون : لقد أحسن فعلاً حتّى لو أطاح بك الشيطان . وإنّي أودّ أن أرحل توّاً ، لا لشيء إلا لأحظى بلذّة رؤياها ، لأنّي لم أرها منذ وقت طويل : ولابد أن تكون قد تغيّرت فلا شيء يفسد بشرة المرأة أكثر من العمل باستمرار في الحقول حيث الشمس والهواء . ولكن يجب عليّ مع ذلك أن أصارح مولاي دون كيخوته بحقيقة . لأنّي بقيت حتّى الآن في جهل تام . لقد ظننت بسذاجتي أن السيدة دلثنيا لابد أن تكون أميرة هام بها مولاي ، أو شخصية ذات مركز سام ، جديرة بالهدايا النفيسة التي بعثت بها اليها ، وأقصد بها : البشكوني المنهزم أو المحكوم عليهم الذين خلصتهم وأمور أخرى كثيرة بمقدار الإنتصارات التي أحرزها مولاي في الوقت الذي لم أكن فيه بعد حامل سلاحه . ولكن إذا قدّرنا الأمور التقديم السليم ، فليت شعري ماذا عسى أن تستفيده

السيدة الدونثا لورنثو ، أعني السيدة دلثنيا دل توبوسو ، من ركوع المهزومين الذين يرسلهم مولاي اليها أمامها ، أو الذين سيرسلهم بعد إليها ؟! إذ قد يحدث في اللحظة التي يمثلون فيها أمامها أن تكون مشغولة بجدل التيل أو درس القمح في الجرن ، فإذا رأوها استشاطوا غضباً ، وسخرت هي أو غضبت من هذه الهدية .

فقال دون كيخوته : كم مرة قلت لك ياسنشو أنك ثرثار كبير وأنك تتدخل بروحك الغليظة لتمزح وتطلق النكات . ولكي تعرف كم أنت أحمق وكم أنا حكيم ، أريد منك أن تسمع قصة صغيرة . اعلم إذن أنه كانت هناك أرملة شابة جميلة حرّة غنية ، مولعة جداً باللهو ، فأحبّت أخاً شمّاساً ، ضخم الجثة ، في ميعة الشباب ، نضيراً طويل السمت . وعلم بذلك رئيسه ، فقال للأرملة الطيبة زاجراً إياها برقة : «إنني مندهش ياسيدتي ، وعندي من الأسباب مايدعوني لذلك ، من أن سيدة نبيلة مثلك ، ولها ما لك من جمال ومال ، تتعشّق رجلاً وضيع المنزلة فقير العقل مثل هذا ، بينما في نفس المكان كثير من العلماء والاساتذة واللاهوتيّين ، تستطيعين أن تختاري من بينهم كما تختارين بين مائة كمثرى ، وتقولين : هذا يعجبني وذاك لايعجبني» . فأجابته السيدة بانطلاق وانعتاق قائلة : «أنت على خطىء ، أي سيدي وأخي . إنك تفكّر بعقلية قديمة إذا كنت تحسب أنني أسأت الاختيار بتفضيلي ذلك الفتى مهما بدا لك من بلاهة ، لأنه في الأمر الذي أريده من أجله يعرف من الفلسفة بقدر أرسطو طاليس وأكثر» . كذلك ، ياسنشو ، فيما يتّصل فيما أريده من دلثنيا ، إنها تعدل أعظم أميرة في الدنيا . ويجب ألا تعتقد أن جميع الشعراء الذين يتغنّون بسيدات بأسماء يطلقونها عليهن حسب خيالهن يقصدون شخصيّات حقيقية . وإلاّ فهل تحسب أنّ مثيلات أمارليا وفيليا وسيلفيا وديانا وجلاتيا وفيليديا وشبهياتهن ممن يملأن الأسفار والحكايات ومحلات الحلاّقين ومسارح الملاهي ـ كنّ مخلوقات حقيقية ومعشوقات فعلية لأولئك الذين تغنّوا بهن ؟ كلا! إن معظم الشعراء يتخيلوهن ليجدوا موضوعات لأشعارهن ولكي يعتقد الناس أنهم كانوا عاشقين ، أو على الأقل قادرين أن يكونوا كذلك . ولهذا يكفيني أن أظن وأعتقد أن ألدونثا لورنثو الطيبة جميلة وعاقلة . أمّا نسبها وحسبها ، فلا يهم كثيراً ، فلن نقوم بتحقيق من أجل أن نمنحها مسوح الكاهنة ، وأنا مقتنع بأنها في نظري أعظم أميرة في الدنيا . إذ يجب أن تعلم ، يا سنشو ، إذا لم تكن تعلم بعد ، أن أعظم ما يثير العشق أمران : الجمال والصيت الذائع . وهذان الأمران متوفران في دلثنيا الى أعلى درجة ، إذ لايساويها أحد في الجمال ، ولا يضارعها في ذيوع الصيت إلا القليلات . وفي ختام القول أتخيّل أن كل ماأقوله هو هكذادون حاجة الى إضافة شيء أو نقصه ، وإنّي أصورها في خيالي

كما أودّها سواء من ناحية نبالة الأصل أو مفاتن الجمال ، الى درجة لا يدانيها فيها واحدة : لا هيلانة ولا لوكريسيا ولا جميع البطلات في القرون الخالية اليونانية أو الرومانية أو المتبربرة . وليقل الناس عنها مايشاءون ، فلئن لامني الجهّال فلن يعاقبني أهل الجد .

فقال سنشو : وأنا أقول إن مولاي على حق في كل شيء ، وما أنا إلا حمار . ولست أدري لمَ يبادر هذا اللفظ الى لساني إذ لايجوز الحديث عن الحبل في بيت مشنوق . لكن أعطني الرسالة ، وعليّ الرحيل .

وانتزع دون كيخوته دفتر المذكرات وانتحى جانباً وبدأ في كتابة الرسالة رابط الجأش . فلمّا فرغ من كتابتها دعا سنشو وقال له إنه يريد أن يقرأها عليه ليحفظها عن ظهر قلب لإحتمال ضياعها في الطريق ، إذ يخشى من سوء الطالع .

فقال سنشو : خيراً من هذا أن يكتبها مولاي مرتين أو ثلاث في هذا الدفتر ثمّ يعطيني إيّاه ، وسأحرص على صونه ، أمّا الظن بأنّي استطيع استظهاره فهو الحمق كل الحمق . إن ذاكرتي من الضعف بحيث أنسى أحياناً ماسمي . ومع ذلك أقرأه عليّ إذ يسرني سماعه ، فلابد أن يكون مكتوباً بعبارات مشبوبة .

فقال دون كيخوته : اسمع اذن ما ورد فيه :

رسالة دون كيخوته الى دلثنيا دل توبوسو

« سيدتي السامية المبجّلة!

« إن جريح سهم البعاد ، المكلومَ نسيج الفؤاد ، أي دلثنيا توبوسو الناعمة العذبة ، ليتمنّى لك سلامة عافية لا ينعم بها . إذا ازدراني جمالك ولم تشملني مناقبك بالعطف ، وإذا ظلّت قسوتك تواليني بالمخاوف وإن كنت ممن يتحمّلون الآلام ، فلن أقوى على البقاء في هذا الجزع الشديد المتواصل . وإنّ حامل سلاحي الطيّب سنشو سيصف لك بالتفصيل ، يا أيتها الجاحدة الجميلة والعدوّة المعبودة ، أقول أنه سيصف لك بالتفصيل الحالة التي أنا فيها من أجلك . فإن طاب لك أن تنقذيني ، فأنا لك ، وإلاّ فافعلي ما يحلو لك ، فبانقضاء أيّامي أكون قد أرضيت هواك وقسوتك .

« المخلص لك حتّى الممات

الفارس الحزين الطلعة »

ـ وحياة أبي! ـ هكذا صاح سنشو لمّا أن سمع الرسالة ـ هذه أسمى وأجمل قطعة من النثر سمعتها! يا لله! كم أحسن مولاي العبارة عن كل ما أراده! وما أجمل ما وضعت في

الخاتمة : «الفارس الحزين الطلعة»! أقول وقولي الحق إنّك الشيطان بعينه ، فلاشيء ثمّ لا تعرفه .

فأجاب دون كيخوته : كل شيء مطلوب في المهنة التي أمارسها .

فقال سنشو : والآن اكتب وثيقة التنازل عن الحمير الثلاثة على ظهر الصفحة ووقّع عليها بكل وضوح ، فإذا رآها أحد تعرّف خطّك .

فقال دون كيخوته : عن طيب خاطر .

ثمّ كتبها وقرأ مضمونها عليه ، وها هو ذا[1] :

«الرجا أن تدفعي ، يا ابنة أخي ، بموجب وثيقة الحمير هذه الى سنشو پنثا ، حامل سلاحي ، ثلاثة من الحمير الخمسة التي تركتها في البيت تحت رعاية عصمتك ، وهذه الحمير الثلاثة تدفع له وتسلّم اليه نظير مبلغ مساو تسلّمته هنا عداً ونقداً ، وهذا إيصال تحرّرت به هذه الرسالة . تحريراً في أحشاء جبال الشارات السمراء ، في السابع والعشرين من شهر أغسطس من هذا العام» .

فقال سنشو : حسن جداً ، ما على مولاي الآن إلا التوقيع .

فقال دون كيخوته : لاداعي للتوقيع ، سأكتفي بوضع خاتمة ، وقيمتها قيمة التوقيع ، ليس فقط بالنسبة الى ثلاثة حمير ، بل وأيضاً للثلاثمائة حمار .

فقال سنشو : إنّي أضع ثقتي في مولاي . دعني الآن أذهب لسرج روثينانته واستعدّ انت لمنحي بركتك ، لأنّي عازم على الرحيل فوراً دون أن أشاهد الحماقات التي ستقوم بها ، وسأستطيع أن أقول إنّي رأيتك بعيني تقوم بها .

فقال دون كيخوته : أريد على الأقل يا سنشو ـ وهذا أمر لا غنى عنه ـ أن تراني عارياً تماماً لا ثوب عليّ غير الجلد وأنا أقوم بعشر حماقات أو عشرين . ويكفيني لذلك أقل من نصف ساعة ، وإذا رأيت هذا بعينك تستطيع أن تحكم وأنت مطمئن الضمير على كل ماسيطيب لك إضافته من عندك ، وأؤكد لك أنك لن تروي بقدر ماأنا عازم على فعله .

فقال سنشو : بحق الله يا مولاي ألا أعفيتني من رؤية جلدك! وإلا فسيتملّكني العطف فلا أستطيع أن أتمالك من ذرف الدموع ، وقد أصاب رأسي الوجع من بكائي بالأمس على حماري المسكين حتى لا أستطيع أن استأنف البكاء . وإن أصرّ مولاي على ضرورة مشاهدتي بعض حماقاته ، فليقم بها وعليه ثيابه ، ولتكن قصيرة مرتجلة أيّاً كانت ، أمّا عن نفسي فقد

---

(١) في هذه الوثيقة يقلّد ثربنتس ساخراً لغة المعاملات التجارية واصطلاحاتها .



الفصل الخامس والعشرون : دون كيخوته في جبل الشارات
(سيرّا مورينا)

قلت لك أنّ لا ضرورة لهذا وأنا مستغن عن مشاهدتها ، ففي ذلك اختصار لوقت الرحيل وإسراع بالعودة التي لابد ستأتي لك بالأنباء الطيبة كما تودّ ياMولاي وتستحق . وإلا فعلى السيدة دلثنيا أن تأخذ أهبتها! لأنها إذا لم تجب بما يقضي به العقل ، فإنّي أقسم قسماً عظيماً بأن انتزع منها الجواب المفيد ، انتزعه من بطنها بالرفسات واللكمات . فمن ذا الذي يحتمل أن يصبح فارس جوّال شهيركمولاي مجنوناً بغير داع لأجل امرأة... أوه ألا ليت هذه السيدة لا تجعلني اضطر الى وصفها ، وإلا والله أطلقت لساني ولم أحفل بما سيكون . إنّي رجل طيب في هذه المواقف ، وهي لا تعرفني ، وإلاّ لو عرفتني لحسبت لي ألف حساب[1]!

فقال دون كيخوته : وأيم الله فإنك فيما تبدو لي لست أعقل منّي .

فقال سنشو : لست مجنوناً مثلك ، ولكنّي أشد غضباً منك . والآن دع هذا جانباً ، وأخبرني ماذا سنأكل الى حين عودتي ؟ هل ستصنع صنيع كردينو فتكمن للرعاة وتنقضّ على طعامهم فتنتزعه منهم ؟

فقال دون كيخوته : لا عليك من هذا ، فحتّى لو كان لدي زاد وفير ، فإنّي لن آكل إلا الأعشاب والثمارالتي تقدّمها لي هذه الأشجاروتلك المروج . والمثل الأعلى في هذه المسألة ألاّ آكل أبداً ، وأن أتحمّل كثيراً من ألوان الزهد والمجاهدة .

فقال سنشو : ولكن ، هل تعرف ماأخشاه ؟ أن أخشى ماأخشاه هو ألا أهتدي الى الطريق وأنا عائد الى هذا المكان الذي أتركك فيه لأنه موحش خفي .

فقال دون كيخوته : استجمع كل ما تستطيع من علامات ، وأنا أيضاً سأحرص على عدم الإبتعاد عن هذه النواحي ، بل سأصعد أعلى الصخور لأرقب ما إذا كنت أستطيع أن أشهد عودتك . وعلى كل حال وخشية أن تفقدني وتضل طريقك ، فإن الأحسن أن تقطع شجيرات الرتم المحيطه بنا هنا ، وتنثرها بين مسافة وأخرى حتّى تبلغ السهل . فتعينك هذه الأغصان كعلامات وصُوى تهتدي بها في عودتك اليّ على غرار الخيط[2] الذي استعمله يرسيوس في التيه .

فأجاب سنشو : هذا ما أنا فاعله .

وراح يقطع بضع شجيرات ثم عاد يسأل مولاه البركة وودعه بعد أن ذرف كلاهما أحرّ

---

(١) النص الحرفي : «لصامت من أجلي» .

(٢) هو خيط أريادنا المشهور في الأساطير ، وقد أعطته أرياناً أو اريادناً ، ابنة مينوس ملك أقريطش ، الى ثيسيوس فاستعان به على الخروج من التيه بعد أن قتل المينوتور .

العبرات ، وأوصاه دون كيخوته بروثينانته وصية حارة راجياً إياه أن يعنى بها عنايته بشخصه ، وأخذ سنشو في المسير في السهل ناثراً أغصان الرتم على طول الطريق كما نصحه مولاه ، وسرعان ماأصبح بعيداً على غير ماكان يهوى دون كيخوته الذي كان يودّ لو أنه أطلعه على حماقتين أو ثلاثاً على الأقل .

ولكن سنشو لم يكد يخطو مائة خطوة حتى عاد وقال لمولاه : أعترف يا مولاي بأنك كنت على حق . فلكي أقسم وأنا مطمئن الضمير أني شاهدتك تقوم ببعض الأعمال الجنونية ، فمن الخير أن أشاهد ولو عملاً واحداً وإن كنت قد رأيت جنوناً كبيراً في مجرّد بقائك هنا في هذا المكان .

فقال دون كيخوته : أو لم أقل لك ذلك ؟ انتظر ياسنشو وسأؤدّي حماقة في أقل من المدّة التي يستغرقها قول « أبانا الذي... »[١] .

وفي الحال خلع دون كيخوته لباسه ولم يبق عليه إلا قميصه ، وبدأ يرفس في الهواء ، ويقفز الى أعلى ويتدحرج وقدماه في الهواء ورأسه في أسفل حتى كشف عن أمور لم يشأ سنشو أن يراها أكثر من ذلك ، فاستأنف مسيره واقتنع بأنه يستطيع أن يقسم في اطمئنان بأن مولاه قد أصابه لجنون .

والآن فلندع سنشو يسلك سبيله الى أن يعود ، وهو لم يبطئ العودة طويلاً .

---

(١) في النص : قول عقيدة الإيمان credo .

الفصل السادس والعشرون

في استمرار دون كيخوته في مغامراته الغرامية الرائعة في جبل الشّارات

ولنعد الى حديث الفارس الحزين الطلعة لمّا صار وحيداً . تقول القصة أنّ دون كيخوته لم يكد يفرغ من وثباته وتقلباته التي قام بها وهو عارٍ من وسطه الى أخمص قدميه مكسوٌّ من وسطه الى رقبته وقد رأى كيف أن سنشو قد ارتحل قبل أن يرغب في مشاهدة حماقات أخرى . نقول أنّ دون كيخوته صعد بعد ذلك الى قمة صخرة عالية وراح هناك يفكّر في أمر طالما شغل باله دون أن يصل بعد إلى قرار بشأنه ،ألا وهو أن يعلم : من الأحسن والأنسب بالنسبة إليه أن يحاكيه : رولدان في حماقاته المدمّرة ، أو أماديس في حماقاته الحزينة ، وكان يحدّث نفسه ويقول : « إذا كان رولدان فارساً شجاعاً قويّاً على نحن مايقول الناس ، فأي شيء عجيب في هذا ؟ أو لَمْ يكن مسحوراً ، ولايستطيع أحد من الناس قتله إلا إذا غرز في لوح قدمه إبرة سوداء . ولكنه كان ينتعل حذاءً ذا سبعة نعال من حديد[١] . ورغم ذلك فإن سحره كله لم يفد شيئاً ضد برنردو دل كرپيو[٢] الذي فطن للحيلة فخنقه بين ذراعيه في رونصڤال . لكن سنترك جانبا شجاعته ، وننظر في جنونه ، إذ لاشك في أنّه فقد رشده لمّا رأى العلامات على أشجار الينبوع وعلم من المراعي أن أنجليكا نامت مع ميدورو أكثر من قيلولتين ، وكان ميدورو هذا مراكشيّاً مضفر الشعر وخادماً لأجرمنته[٣] . على أنّه إذا كان قد خيّل اليه أن هذا الخبر صحيح وأنّ السيدة قد فعلت معه هذه الفعلة ، لما كان له فضل في أن أصبح مجنوناً . أمّا عن نفسي ، فكيف أستطيع أن أحاكيه في جنونه ، إذ كنت لم أحاكه

---

(١) يقول كلمنثين أن دون كيخوته يخلط هنا بين شيئين يرويهما أريوستو عن شخصين مختلفين هما : فراجوس وأورلاندو . فأولهما كان يحمي بطنه بسبعة ألواح من الحديد ، والثاني(رولدان أورولندو) لم يكن من الممكن جرحه إلا في لوح قدمه .

(٢) راجع ماقلناه عنه من قبل .

(٣) راجع « أورلندو الغضوب » ، النشيد رقم ٢٣ . على أن ميدور كان خادماً لوردينل الأمير الافريقي ، لا لأجر منته ـ أمّا الينبوع والعلامات فيشار بها الى الأشعار التي نقشها ميدور في كهف ينبثق فيه ينبوع .

في الموضوع الذي تسبب في هذا الجنون ؟ إذ أنه فيما يتصل بدلثنيا دل توبوسو فإني أقسم أنها لم ترَ في حياتها ظلاً لمراكشي واحد ، وبلحمه وبلباسه ، وأنها لاتزال حتّى اليوم كأمها التي ولدتها . فستكون لها إذن إهانة بالغة أن أعتقد فيها أمراً أخر وأجنّ بنفس النوع من الجنون الذي أصاب رولدان الغضوب . ومن ناحية أخرى أرى أن أماديس الغالي قد ظفر بشهرة في الحب لا يدانيه منها إنسان ، دون أن يفقد عقله ويرتكب حماقات . ومع ذلك فالقصة تقول أنه لمّا رأى سيدته أوريانا قد ازدرته وأمرته ألا يمثل بعد في حضرتها دون إرادتها ـ فإنه لم يفعل شيئاً أكثر من أنّه انسحب الى الصخرة الفقيرة بصحبة راهب ، وهناك راح يذرف أحرّ العبرات مسلّماً أمره الى الله ، وظل كذلك إلا أن أعانته السماء بأشد المحنة والآلام . فإذا كان هذا حقّاً ، وهو حقّ قطعاً ، فلماذا أشغل نفسي بأن أعرّي نفسي تعرية كاملة ، وأؤذي هذه الأشجار التي لم تؤذني ؟ وماحاجتي الى تعكير ماء هذه الجداول الصافي الذي سيرويني حين العطش ؟ فلتحيَ ذكرى أماديس ، وليقلده دون كيخوته المنتشاوي في كل مايستطيع ، وسيقول الناس عن دون كيخوته ماقالوه عن غيره[1] وهو : إذ لم يكن قد عمل أعمال عظيمة فقد هلك في سبيل محاولة القيام بها! وإذ كانت دلثنيا لم تهنّي ولم تزدرني ، أفلا يكفي كما قلت أن أكون بعيداً عنها ؟ هيّا إذن ، الى العمل! وتعالي الى ذاكرتي يا أعمال أماديس ، أنبئيني من أين أبدأ في المحاكاة . بيد أنّي أعلم أن الصلوات كانت أكثر ماشغله ، وهذا ماسأفعله أنا أيضاً » .

ثم صنع مسبحة من ثمرات الفلّين الكبيرة عدّتها عشر حبّات[2] ولكن الأمر الذي ضايقه كثيراً هو أنّه لم يكن عنده راهب يأخذ منه الإعتراف ويمنحه السلوى . لهذا أمضى وقته في التجوال في البراري أو الكتابة والرسم على لحاء الأشجارأو على الرمل نفسه ، كتابة أشعار يشكو فيها أحزانه أو يتغنّي فيها بدلثنيا . بيد أنّ الأشعار الوحيدة التي وجدت كاملة وأمكن قراءتها حينما جاءوا للبحث عنه ـ كانت المقطوعات التالية :

أيتها الأشجارُ ، أيتها الأعشاب ، أيها النبات
أيتها الزاكيّات في هذه الأعالي

(١) الإشاره الى فايتون كما حكى أوفيديوس (التحولات ، الكتاب الثاني) .

(٢) النص هنا كما في طبعة كوستا ، وهي الطبعة الثانية التي ظهرت في نفس السنة ، سنة ١٦٠٥ . أمّا في الطبعة الأولى فكان النص هكذا : « ... ما شغله ، وأكمل امرئ الى الله . ولكن ماذا أفعل للحصول على مسبحة ؟ هناك خطر بباله كيفية صنعها ، فانتزع خرقة كبيرة من طوايا قميصة المتدلية وعقد فيها إحدى عشرة عقدة إحداها أغلظ من الباقيات ، واستعان بها كمسبحة طوال المدة التي أقام فيها هناك حيث تلا مليون مرة صلاة « سلام عليك يا مريم » . وقد تساءل النقّاد عن سبب في تعديل ثربنتس للنص هكذا : أهو الخوف من محاكم التفتيش ، أم ما يقتضيه الذوق ؟

سامقات ناضرات زاهيات
إن كنتن لا تشمتن بأحزاني
فاستمعن الى شكاتي المقدّسة
لا تضيقنَ بآلامي
وإن كانت رهيبة
فلكي يدفع لكنّ ثمن الترحيب
بكى هنا دون كيخوته
على فراق دلثنيا
دل توبوسو
هذا هو المكان
الذي يستتر فيه عن حبيبته
أخلص عاشق
انهال عليه الشقاء
دون أن يعلم كيف ومن أين
إن عشقاً خبيث النحيزة
يعبث به ويعنّيه
لهذا ـ وبما يملأ برميلاً ـ
بكى هنا دون كيخوته
على فراق دلثنيا
دل توبوسو
راح يسعى وراء المغامرات
خلال الصخور العاتيات
لاعناً الطوايا القاسيات
فلم يجد بين ـ الصخور
والأدغال ـ لم يجد الحزين إلا النائبات
لقد ضربه «الحبّ» بسوطه
لابنطاقه الرقيق
فأصابه في قفاه

وهنا بكي دون كيخوته
على فراق دلثنيا

دل توبوسو

وكانت إضافة كلمتي «دل توبوسو» في سطر منفصل الى اسم «دلثنيا» موضوع تندّر أولئك الذين اكتشفوا هذه الأشعار، إذ ظنّوا أن دون كيخوته تخيّل أنّه إذا لم يضف كلمتي «دل توبوسو» الى اسم «دلثنيا» فإن المقطوعة لن تكون مفهومة، وهذا فعلاً ما اعترف هو نفسه به فيما بعد، وكتب أشعاراً أخرى، ولكن هذه الأشعار التي أوردناها هي الوحيدة التي أمكن قراءتها. وهكذا أمضى الفارس العاشق أوقات فراغه، وأحياناً أخرى كان يرسل زفراته ويهيب بجنّيات الحقول والغابات في هذه الخمائل، وبالحوريّات في تلك الينابيع، و«بالصدى» الشاكي الطيّار ـ متوسّلاً اليها أن تصغي اليه وترد عليه وتواسيه، وفي أحيان ثالثة كان يبحث عن بعض لأعشاب المغذّية ليقيم أود حياته في انتظار عودة سنشو. ولو أنّ سنشو تأخّر ثلاثة أيّام، لكان الفارس الحزين الطلعة قد حالت ملامح وجهه فلا يعود يعرفه أحد ولا أمّه التي ولدته.

ويخلق بنا أن ندعه مستغرقاً في أهاته وأشعاره، ونحكي ماجرى لسنشو پنثا في المهمّة التي أوكلت اليه. فنقول إنه لم يكد يبلغ الطريق العام حتّى مضى متوجّهاً الى توبوسو، فبلغ في الغداة الفندق الذي وقعت له فيه حادثة تقليبه على الغطاء. فلم يكد يلمحه حتّى تخيّل نفسه يحلّق مرة أخرى في الهواء فصمّم على ألا يدخله، مع أن ذلك كان وقت دخوله، أعني وقت العشاء وكان يرغب رغبة شديدة في تناول لقمة ساخنة، وهو الذي لم يطعم منذ عدّة أيّام غير الأطعمة الباردة. فدفعته بطنه الى الاقتراب من الفندق، وهو متردّد بين الدخول والعبور. وكان معلّقاً بين الاقدام والإحجام لما أن خرج من الفندق رجلان ما شاهداه حتّى قال أحدهما للآخر:

ـ خبّرني، يا صاحب الإجازة، أوليس هذا الراكب هو سنشو پنثا الذي تقول خادمة صاحبنا المغامر عنه إنه صحب مولاه بصفة حامل سلاحه؟

فقال صاحب الإجازة: بلى، إنه هو، وهذا فرس صاحبنا دون كيخوته.

لقد عرفا الرجل وركوبته بسهولة، لأن أحدهما كان القسّيس والآخر حلاّق القرية وهما اللذان أجريا محاكمة كتب الفروسية. فما كادا يتعرّفان سنشو وروثينانته، حتى دفعهما الشوق الى معرفة أنباء دون كيخوته، فاقتربا منه، وناداه القسّيس باسمه قائلاً:

ـ أي صديق سنشو پنثا! أين مولاك؟

وعرفهما سنشو في الحال ، لكنّه قرّر أن يكتم عنهما موضع مولاه والحالة التي تركه عليها ، وقال لهما إنه مشغول في مكان ما بأمرٍ ما ذي أهمّية بالغة لديه ، ولكنه لم يكشف عن ذلك ولو كلّفه الأمر عينيه اللتين في وجهه!

فقال الحلاّق : كلا ، كلا ، يا سنشو پنثا! إن لم تخبرنا أين هو وماذا يعمل فسنعتقد ـ ولنا الحق في هذا الاعتقاد ـ أنك قتلته وسرقت أمواله ، وها أنت ذا تركب فرسه . فعليك أن تخبرنا عن صاحب هذا الفرس ، وإلاّ فالويل لك .

فأجاب سنشو : لاداعي لتهديدي ، ولست أنا قاتلاً ولاسارقاً . فليمت كل موتته المقدّرة له حسب إرادة الله . أمّا مولاي فهو في أعماق هذه الجبال معتزل وفق مشيئته .

ثمّ راح يقص عليهم في الحال ودون أن يأخذ نفسه كيف تركه ، والمغامرات التي وقعت لكليهما ، وأنّه يحمل رسالة الى السيدة دلثنيا دل توبوسو ابنه لورنثو مورتشويلو التي هام بها مولاه حتّى الجنون . فدهشا مما رواه سنشو پنثا ، ولئن كانا يعرفان من قبل عن جنون دون كيخوته وغرابة نوع جنونه ، فقد ازدادا دهشة فيما سمعاه . والتمسا من سنشو پنثا أن يطلعهما على الرسالة التي يحملها الى السيدة دلثنيا دل توبوسو . فقال سنشو إن الرسالة مكتوبة على دفتر مذكرات وأنّ مولاه قد أمره بتكليف ناسخ ينسخها على الورق في أوّل قرية يصادفها . فقال القسّيس ماعلى سنشو إلا أن يطلعه عليها وسينسخها هو بنفسه بخط جميل . فوضع سنشو پنثا يده في صدره ليبحث عن دفتر المذكّرات ، ولكنّه لم يجده ، وماكان له أن يجده ولوظل يبحث عنه حتّى هذه الساعة ، لأنّ دون كيخوته احتفظ به دون أن يفكّر في إعطائه الى سنشو ، ودون أن يفكّر سنشو أيضاً في أن يطلبه منه .

فلمّا رأى سنشو أنه لم يجد الدفتر ، انتابه عرق بارد وصار شاحباً كالموتى ، وراح يتحسّس جسمه كلّه بلهفة وإسراع من أعلى الى أسفل ، فلمّا لم يجد شيئاً أمسك بلحيته بكلتا يديه وانتزع نصفها وانهال بخمس أو ست لكمات على فكّيه وأنفه حتّى انهمر الدم على وجهه كلّه . فلمّا رأى ذلك القسّيس والحلاّق سألاه عما جرى له حتّى يعامل نفسه هذه المعاملة العنيفة .

فقال سنشو : ماجرى لي ؟ لقد ضيّعت ثلاثة حمير أدناها يساوي قصراً .

فقال الحلاّق : وكيف كان ذلك ؟

فأجاب سنشو : لقد ضيّعت دفتر المذكّرات الذي كانت فيه رسالة الى دلثنيا ثمّ وثيقة بتوقيع مولاي يأمر فيها بنت أخيه بإعطائي ثلاثة حمير من الخمسة أو الستةالتي في الزريبة .

وراح يقص عليهما كيف أضاع حماره . فواساه القسيس قائلاً أنه إذا لقى مولاه فسيطلب منه أن يجدّد الهبة ، وستكون في هذه المرّة مكتوبة على الورق وفقاً للعرف الجاري ، بينما الوثائق المكتوبة على دفتر المذكّرات لا يمكن أن تقبل أو تدفع قيمتها . فأحسّ سنشو بالطمأنينة لدى سماعه هذه الكلمات وقال أنه مادام الأمر كذلك فلا يهم فقدان الرسالة الى دلثنيا لأنّه يعرف مضمونها عن ظهر قلب ويمكن انتساخها من ذاكرته أين ومتى أريد ذلك .

فقال الحلاّق : أسمعناها إذا ياسنشو وسننسخها .

فتوقّف سنشو وراح يحك رأسه عساه أن يتذكّر الرسالة ، ويستند تارة الى رجل ، وتارة أخرى الى الأخرى ، ومرة يتطلّع الى السماء ، وأخرى الى الأرض ، وأخيراً وبعد أن قرض نصف أظفر أحد أصابعه ـ وهما في لهفة شديدة لسماع مايقول ـ صاح بعد وقفة طويلة :

ـ يا صاحب الإجازة! بحق الله لوددت أنّ الشيطان انتزع ماأذكره من الرسالة! على أنّها تبدأ هكذا : «سيدتي السامية الرقيعة[1]» .

فقال الحلاّق : لا ، لايمكن أن تكون «الرقيعة» ، بل «الرفيعة» أو ماأشبه ذلك .

فقال سنشو : نعم هو كذلك ، ثمّ ـ حسبما أذكر ولم تخنّي الذاكرة ـ ورد بعد ذلك : «... الجريح الفاقد النوم والمكلوم يقبّل أياديك الكريمة ، أيتها الجميلة الجاحدة المنكرة كل النكران» . ثمّ لاأدري من أشياء أخرى قالها عن سلامة العافية والمرض وأرسلها اليها ، وراح يسهب ويرمح في الكلام الى أن ختم رسالته بقوله : «المخلص لكن حتّى الممات ، الفارس الحزين الطلعة» .

وضحك السامعان كثيراً مما شاهداه من قوّة ذاكرة سنشو پنثا ، فهنأه على ذلك ، والتمسا منه أن يعيد عليهما الرسالة مرتين أخريين حتّى يحفظاها عن ظهر قلب وينسخاها عند الحاجة . فكرّرها سنشو إذن ثلاث مرّات ، وراح خلال ثلاث مرّات يعيد آلاف الالتباسات اللفظية . وبعد ذلك أنشأ يروي مغامرات مولاه ، بيد أنّه لم يشر أبداً الى مغامرة تقليبه على الغطاء التي جرت له في هذا الفندق ، وقد رفض أن يدخله . وأضاف قائلاً أن مولاه حينما يتلقّى أنباء مشجّعة من سيدته دلثنيا دل توبوسو فإنه سيقوم على حمله ليصبح امبراطوراً ، أو ملكاً على الأقل ، كما وقع الإتفاق بينهما على ذلك ، وهذا أمر بسيط جداً

(١) حاولنا هنا أن نحاكي اشتباه الألفاظ في كلام سنشو ، وإن كان من العسير محاكاة الأصل الاسباني تماماً ، وهو يقوم هنا على اشتباه الألفاظ المتقاربة النطق وتؤدي الى معان مخالفة قبيحة تثير الضحك من عقلية سنشو .

وسهل جداً ، نظراً لعلو شأنه وقوّة ساعده ، وأنّه حينما يرقى العرش سيزوّج سنشو الذي سيكون حينئذ أرمل لأن الأمر لايمكن أن يكون بخلاف ذلك ، سيزوّجه من إحدى وصيفات الامبراطورة ، وهذه الوصيفة وريثة دولة غنية عظيمة توجد على الأرض الثابتة ، بلا جزائر ولا جزيرات ، ولن يشغل نفسه بعد بالجُزُر .

وكان سنشو يقول هذا كله بلهجة فيها من الجد والخلو من العقل ـ وكان يمسح أنفه ولحيته بين الحين والحين ـ مما جعل السامعين ينحدران من علٍ وهما يشهدان شدّة جنون دون كيخوته بحيث استولى أيضاً على عقل هذا الرجل الساذج المسكين . ولم يشاءا أن يتعبا نفسيهما في انتزاعه من ضلاله ، إذ بدا لهما أن وعيه ليس في خطرفالأحسن تركه على حاله ، وسيكون من الممتع لهما أن يستمعا الى تهويلاته الجنونية . ولهذا طلبا إليه أن يدعو الله ليمنح مولاه العافية وقالا إنه من الجائز والممكن الوقوع أن يصبح مولاه مع مرور الزمن ، امبراطوراً أو على الأقل رئيس الأساقفة أو صاحب مرتبة معادلة .

فقال سنشو : في هذه الحالة إذا عقّد الحظ الأمور فأصبح مولاي رئيس الأساقفة ، لا امبراطوراً ، فإنّي أود أن أعرف منذ الآن ماجرت عادة رؤساء الأساقفة الجوّالين على إعطائه لحاملي سلاحهم .

فأجابه القسّيس : من عادتهم أن يعطوهم منحة بسيطة ، أو منحة معقودة على النفوس ، أو مرتبة حارس خزانة الكنيسة وهي مهنة تدرّ دخلاً ثابتاً ذا قيمة ، هذا بخلاف الجرايات التي تقدّر بهذا المقدار أيضاً .

فقال سنشو : لكن يلزم أن يكون حامل السلاح أعزب وأن يعرف كيف يقيم خدمة القدّاس على الأقل . فإن كان الأمر كذلك فيا ويلتاه عليَّ أنا متزوّج ـ وما أكثر خطاياي ، وأجهل حتّى الحرف الأول من حروف الهجاء! ماذا سيؤول اليه أمري ، يا إلهي ، إذا دخل في رأس مولاي أن يصبح رئيساً للأساقفة ، لا إمبراطوراً كما هو العرف والبدع السائد لدى الفرسان الجوّالة ؟

فقال الحلاّق : لاتعذّب نفسك ياصديقي سنشو بهذه الأمور ، فإننا سنحرص على التوسّل الى مولاك ونصحه وعند اللزوم سنقنعه بأنه فرض عليه أن يصبح امبراطوراً ، لارئيساً للأساقفة ، وهو أمر سيكون أسهل عليه لأنّه شجاع أكثر منه عالماً .

فقال سنشو : هذا أيضاً ماكنت أعتقده دائماً ، وإن كنت أستطيع أن أقرّر أنه صالح لكل أمر . أمّا أنا فإنّي من ناحيتي سأدعو ربّنا أن يبعث به الى حيث يبلغ أربه على أحسن وجه ، وحيث ينيلني أربي أيضاً على أحسن وجه .

فقال القسّيس : أنت تتكلّم بحكمة ، وستعمل عمل المسيحي الصالح . والمهمّ الآن أن نحاول انتزاع مولاك من هذه المجاهدة التي لافائدة منها والتي لذّ له القيام بها هناك كما تقول . وحتّى نفكّر في الوسيلة التي نتذرّع بها الى ذلك ، ولنتناول العشاء أيضاً ـ فقد حلّ وقته ـ يحسن بنا أن ندخل هذا الفندق .

فقال لهما سنشو أن يدخلا هما ، أمّا هو فسيبقى خارجه ، وسيخبرهما فيما بعد بالسبب الذي يمنعه من دخوله ، وهو يرجوهما أن يأمرا بإحضار شيء له ليأكله ، شيء ساخن طبعاً ، وبإحضار شعير لروثينانته . ودخل الصديقان الفندق وتركاه هناك خارجه ، وبعد قليل أحضر له الحلاّق ما يأكله . ثمّ راح الحلاّق والقسّيس يبحثان معاً في الوسائل الواجب اتخاذها لإنجاح مشروعهما ، ثمّ توقّف القسّيس عند فكرة تتفق تماماً ومزاج دون كيخوته وتلائم غرضهما ، وقال للحلاّق أن يلبس ثياب نبيلة جوّالة ، بينما الحلاّق يلبس زي حامل سلاح ، ويذهب كلاهما للبحث عن دون كيخوته ، ويتظاهر القسّيس بأنه نبيلة محزونة تطلب النجدة ، ويسأل دون كيخوته معروفاً لا يملك إلاّ أن يسديه بوصفه فارساً جوّالاً شهماً ، وهذا المعروف الذي سيسأله هو أن يصحبهما حيثما تريد لإصلاح مضرّة أوقعها بها فارس غادر ، وتلتمس منه كذلك ألا يسألها أن تخلع نقابها ولاأن يسألها عن شؤونها الى أن يخلص بحقّها من ذلك الفارس اللئيم . وقال القسّيس إنه لايشك في أنّ دون كيخوته سيذعن لكل مايطلب منه على هذا النحو ، وهكذا يمكنهما أن يخلّصاه مما هو فيه وإعادته الى بلده ، وهناك يحاولان أن يجدا دواءً لجنونه الغريب .

الفصل السابع والعشرون

في كيف أفلح القسيس والحلاق في خطتهما، وأمور أخرى خليقة بالذكر في هذه القصة العظيمة

لم ير الحلاّق بأساً فيما دبّره القسيس بل وجداه صالحاً حتّى إنهما قاما بالتنفيذ في الحال . فسألا صاحبة الفندق أن تعيرهما تنورة ونقاباً ، ورهنا في مقابل ذلك لديها كسوة القسّيس الجديدة . واصطنع الحلاّق لنفسه لحية طويلة عملها من ذنب ثور ، لحية شقراء أو حمراء ، علّق فيها صاحب الفندق مشطه[1] . وقد سألهما عن السبب في طلب هذه الأزياء التنكّرية فقصّ عليه القسّيس باختصار قصة جنون دون كيخوته وكيف أنهما في حاجة الى هذه الأزياء التنكّرية لإنقاذه من الجبل الذي اعتزل فيه . فأدرك صاحب الفندق وزوجته في الحال أن هذا المجنون إنّما هو نزيلهم منذ أيّام ، صانع البلسم ، ومولى حامل السلاح الذي عانى تقليبه على الغطاء ، ولهذا راحا يقصّان على القسّيس كل ماحدث في الفندق دون أن يخفيا ماأخفاه سنشو . وأخيراً ألبست صاحبة الفندق القسيس على أغرب نحو : فألبسته تنورة من القماش المفوّف بأشرطة من القطيفة السوداء سعتها شبر مفصلة قطعاً ، وصدرية من الفضّة الخضراء مزوّدة بإطار من الساتان الأبيض ، وكلتا التنورة والصدرية لابد أن تكون قد صنعت في زمان الملك ومبا[2] . ولم يشأ القسيس أن يضع نقاباً ، وإنّما غطّى رأسه بطاقية صغيرة من التل المنقوط كان يلبسها في الليل أثناء النوم . ثم عصب جبهته بعصابة واسعة من التفتة السوداء ، واتخذ من عصابة أخرى نوعاً من النقاب يغطّي لحيته ووجهه كلّه . ووضع على رأسه قبعته الدينية وكانت كبيرة بحيث كانت بمثابة مظلّة ، وغطّى كتفيه بمعطفه ، وركب بغلته على نحو ماتركب النساء ، بينما ركب الحلاّق بغلته ولحيته نازلة

---

(١) كان من عادة الفقراء أن يضعوا مشطاً في ثنايا شعر ذنب الثور لتنظيفه .

(٢) ومبا Wamba ملك القوط الغربيين (في القرن السابع الميلادي) . وهذا الاصطلاح : « زمان الملك ومبا » يعبّر به الاسبان عن عصر بعيد جداً .

حتّى خصره ، ولونها بين الأشقر والأبيض ، لأنّها كانت مصنوعة من ذنب ثور محمار .

وودّعا الجميع ، كما ودّعا أيضاً ماريتورنس الطيبة التي وعدت بقراءة عدية مسبحة ، وإن كانت خاطئة ، ليوفّقهما الله في عملهما الشاق الخيّر . لكنّ القسّيس لم يكد يتجاوز عتبة الفندق حتّى خطر بباله هذا الخاطر السيئ وهو أنّه لايليق به أن يتزيّا بهذا الزي غير اللائق بقسّيس ، وإن كان ذلك لغاية نبيلة . فأفضى بهذا الخاطر الى الحلاّق وسأله أن يستبدل كلاهما ، زيّه بزي الآخر ، لأن الأليق أن يتّخذ الحلاّق زي نبيلة راجية ، فإن لم يشأ الحلاّق ذلك ، فقد عزم على ألا يتابع الخطّة وليذهب الشيطان بدون كيخوته .

وهنا أقبل سنشو ، فلم يتمالك من الضحك لما أن رآهما بهذا الزي . ووافق الحلاق على كل ماأراده القسّيس ، وهكذا غيّر هذا دوره وراح يلقّن زميله كيف يكون تصرّفه وماذا يجب أن يقول لدون كيخوته لحمله على المجيء معهما وترك المكان الذي اختاره لمجاهدته غير المجدية . فقال الحلاّق إنه يعرف كيف يقوم بدوره دون حاجة الى درس وتلقين . ولم يشأ التنكّر الآن ، مؤثراً التريّث حتّى يقتربوا من مكان دون كيخوته . فطوى ثيابه ، بينما رتّب القسّيس لحيته وسارا في طريقهما وسنشو ينثا دليلهما . وفي الطريق قصّ عليهما سنشو ماوقع لمولاه وماوقع له مع المجنون الذي صادفاه في الجبل ، ولكنّه أخفى عليهما أنّه وجد حقيبة وماإحتوته هذه الحقيبة ، لأنّه رغم بلاهته كان شرهاً .

وفي اليوم التالي بلغوا الموضع الذي نثر فيه سنشو الأغصان صوىً يهتدي به الى المكان الذي ترك فيه مولاه . ولم يكد يتعرّف الموضع حتّى قال لهما إنهم بلغوا مدخل الجبل ، وماعليهما إلا ارتداء الأزياء التنكّرية إن كان في ذلك فائدة في استنقاذ مولاه . ذلك أنهما قد قالا له من قبل إن ذهابهم هكذا جماعة وتنكّرهما على هذا النحو أمر ذو أهمّية بالغة لانتزاع مولاه من الحياة البائسة التي فرضها على نفسه . وطلبا اليه كذلك ألا يخبر مولاه عن حقيقتهما أو أنه يعرفهما ، وإذا سأله دون كيخوته ـ كما هو المتوقّع ـ ماإذا كان قد سلّم الرسالة الى دلثينا فليجب بنعم ، ولكنّ السيدة لمّا لم تكن تعرف القراءة فقد أكتفت بجواب شفوي أمرت فيه دون كيخوته بالمثول في حضرتها حالاً لأمر في غاية الأهمّية ، وإلاّ غضبت عليه ، وأضافا أنّ هذا الجواب ومايعتزمان قوله من ناحيتهما يجعلهما على يقين من الرجوع عمّا فيه واضطراره الى السير حالاً ليصبح امبراطوراً أو ملكاً ، إذ لم يعد ثمّ خوف من أنه يريد أن يصبح رئيساً للأساقفة .

وأصغى سنشو الى كلامهما بانتباه تام ووعاه في ذاكرته بعناية ، وشكر لهما ماأبدياه من رغبة في نصح مولاه بأن يصبح امبراطوراً لارئيساً للأساقفة ، لأنّه كان يعتقد اعتقاداً

جازماً أنّ الأباطرة أقدر وأوسع باعاً من رؤساء الأساقفة الجوّالة فيما يتّصل بمكافأة حاملي سلاحهم . وقال لهما إنه من الأفضل أن يسبقهما الى مولاه ويعطيه جواب سيدته ، ولعلّ هذا الجواب أن يكون كافياً وحده لإنتزاعه من ذلك المكان ، دون أن يكونا في حاجة الى تحمّل كل هذه المشقّة . فاستحسنا ماقاله سنشو ، ولهذا قرّرا الانتظار حتّى يعود بخبر العثور على مولاه .

ونفذ سنشو في أعماق هذه الجبال تاركاً رفيقيه وسط وادٍ ضيّق يجري فيه جدول صغير ذو خرير وتلقي عليه الظلال الوارفة صخور عالية وبعض أشجار تنمو على جوانبها . وكان الوقت شهر أغسطس ، وفي هذه النواحي يكون القيظ في ذلك الشهر شديداً ، وكانت الساعة الثالثة بعد الظهر تقريباً . وكل هذا جعل المكان بديعاً ودعا الراحلين الى المكوث فيه انتظاراً لأوبة سنشو . وكان أن أقاما فيه . وبينما هما جالسان في الظل في هدوء ، طرق أسماعهما صوت مفاجىء كان غناءً صافياً رقيقاً لا تصحبه رنّات آلات . فاستولت عليهما الدهشة البالغة لأنّهما لم يكونا ينتظران في هذا الموضع شادياً يغنّي هذا الغناء الجميل . ولئن اعتاد الناس أن يقولوا أنّ المرء يلقى في وسط الحقول والغابات وبين الرعاة أصواتاً جميلة ، فهذا أقرب الى خيال الشعراء منه الى واقع الحال . وتضاعفت دهشتهما لمّا أدركا أنّ ما كانا يسمعانه كان شعراً ينشده رجال مهذّبون لطاف ، لا رعاة قطعان غلاظاً جفاة . ويدل على هذه الحقيقة هذه الأشعار التي سمعاها :

من ضيّع الآمال ؟
الإهمال
من زادني حسرة ؟
الغيرة
من حطّم الصبر ؟
الهجر
من هذه اللأواء
ماثم من شفاء
قد بدّد الرجاء
الهجر والإهمال ـ والغيرة
من أحدث الآلام ؟
الغرام

من يمنع المجد ؟
الحظ
من رضي لي الشقاء ؟
السماء
إخال أنّي أموت
من دائي الممقوت
اتفقت على عذابي
الحظ والغرام ـ والسماء
من يصلح بختي ؟
موتي
ونعيم الحب ـ من ينال ؟
القلّب الأحوال
من شقاء الحب ـ من يعين ؟
الجنون
ليس ثمّ فطنة
في علاج محنة
دواؤها المضمون
الموت والجنون ـ وتقلّب الأحوال

وكان الوقت والزمان والوحدة وجمال الصوت وبراعة الغناء ـ كان لهذا كله أثره في إشاعة الدهشة واللذة معاً في نفوس السامعين . فأرعيا سمعيهما ساكنين على رجاء أن يزدادا سماعاً . فلمّا رأيا أن صمت المغنّي قد طال واستطال ، قرّرا السعي للبحث عنه ولمعرفة من صاحب هذا الصوت الرخيم . ومانهضا حتّى أمسك بهما الصوت نفسه في مكانيهما فراحا يستمعان فيه الى هذه المقطوعة :

أيّتها الصداقة المقدّسة ، يامن طرت بأجنحة رقيقة
تاركة مظهرك على الأرض
وصرت بين الأبرار في علّيين
تقيمين ناعمةً في منازل الخالدين
ومن هناك تبدين لنا ـ إن شئت ـ

وجهك الجميل منقّباً بنقاب
تشع من خلاله أحياناً
حميّة الفعال النبيلة التي تُضحي في النهاية دميمة
غادري السماء أيتها الصداقة ، ولا تسمحي
للخداع أن يرتدي ثيابك
ليقضي على النوايا الصادقة
فإنّك إن لم تنتزعي منه مظاهره
فسرعان مايقع العالم في معركة
خليط الكراهية الأولى

وانتهت المقطوعة بزفرة عميقة وأصغى السامعان بانتباه عساهما أن يسمعا مقطوعات أخرى .فلمّا رأيا الموسيقى قد استحالت شكايات وزفرات ، بادرا لمعرفة مَنْ المغنّي الحزين ذو الزفرات الأليمة والصوت البغوم . ولم يبحثا طويلاً : إذ أبصرا عند منعطف سن صخرة رجلاً قامته ووجهه كما وصف سنشو حينما قصّ عليهما قصة كردنيو . فلمّا رآهما هذا الرجل لم يضطرب ولم تستول عليه الدهشة ، بل توقّف وألقى برأسه على صدره في وضع من يحلم حلماً عميقاً دون أن يرفع نظره اليهما اللهم إلا في اللحظة الأولى التي ظهرا له فيها . وتعرّفه القسّيس حسب الوصف الذي قام به سنشو ، وكان القسّيس مهذّب اللفظ أنيقه فاقترب منه ورجاه رجاءً ضارعاً حاراً بعبارات موجزة ملحفة أن يترك الحياة البائسة التي يحياها في هذه القفار وإلاّ فقد عمره وتلك مصيبة المصائب . وكان كردنيو حينئذ في تمام رشده بمعزل عن تلك النوبات العنيفة التي كانت تخرجه عن طوره . فلمّا رأى هذين الرجلين في لباس غير مألوف لدى من يردون هذه القفار انتابه نوع من الدهشة ، خصوصاً حين سمعهما يتحدّثان عن قصّته حديث العارف العليم بها ، فإن كلمات القسّيس أكّدت له هذا المعنى بما لا مجال بعده لأي ارتياب . فأجابهما بهذه الكلمات :

ـ « إنّي أرى أي سيداي ـ أيّاً من كنتما ـ أنّ السماء ـ عناية منها بإغاثة الأخيار ، والأشرار أحياناً أيضاً ـ قد أرسلت اليّ في هذه الأماكن النائية عن البشر أشخاصاً يرسمون أمام عيني وبأجلى صورة جنوني في قضاء عمري بهذه النواحي ويحاولون انتزاعي من هذه الخلوة الحزينة وإعادتي الى مقام أحسن ، وهي نعمة لاأستحقّها . ولكن لأنهم لايعرفون ماأعرف : وهو أنّي إذا خرجت من محنتي الحاضرة فسأقع فيما هو أشدّ منها ـ فسيعتقدون أنني رجل ضعيف العقل بل لعلّهم يحسبون أيضاً أنّي فقدت عقلي تماماً . ولن يكون هذا

داعياً الى الدهشة ، إذ أعلم بنفسي أن ذكرى آلامي متّصلة ثقيلة ولها تأثير عارم لإهلاكي ، وما أملك منها فكاكاً ، حتى أنّي لأظل أحياناً كالحجر مجرّد من كل وعي وشعور . وعليّ الاعتراف بهذه الحقيقة حين يذكر لي بالبينات الواضحة ما ارتكبت من أفعال لمآ تعتريني تلك النوبات المروّعة . هنالك لاأملك إلا أن أصرخ بشكايات لاجدوى منها وأن ألعن سوء طالعي بغير فائدة ، واعتذاراً عن جنوني أخبر عن أسبابه كل من يودّون الاستماع إلي ؛ فإن عرف العقلاءالسبب بطل العجب ، وإذا كانوا لا يملكون دواءً يقدمونه اليّ ، فهم على الأقل لا يجدون مبرّراً لتحميلي اصره ، ويستحيل هول تهاويلي الى شفقة على آلامي . فإن ، كنتما ، يا سيديّ ، قد جئتما تحدوكما النية التي حدت غيركما ، فإنّي أرجوكما أن تصغيا الى قصّتي الأليمة قبل أن تستأنفا إسداء النصح الخالص الرشيد . ولعلكم بعد أن تستمعا لها أن تعفيا نفسيكمامن عناءالتعزية عن مصاب غلقت دونه كل أبواب العزاء » .

فألح عليه الرفيقان في أن يقصّ قصّته ، فهما لا يودّان خيراً من أن يعرفا منه هو سبب علّته ، ووعداه بألاّ يعملا غير مايشاء هو لعلاجه أو مواساته . هنالك بدأ هذا الفارس الحزين يروي قصّته الدامية بنفس الألفاظ والتفاصيل تقريباً التي رواها بها لدون كيخوته وراعي الماعز قبل ذلك بأيّام حينما بقيت الرواية ناقصة بمناسبة السيّد اليسابات وحرص دون كيخوته على التدقيق في أداء واجبات الفروسية . أمّا الآن فقد شاءت المصادفة السعيدة ألا تنتاب كردنيو نوبة جنون فاستطاع أن يتم قصّته حتّى النهاية . فراح يقصّها حتّى بلغ مسألة البطاقة التي وجدها دون فرنندو في ثنايا كتاب « أماديس الغالي » فقال كردنيو إنه يذكرها جيداً ، وإنها كانت على النحو التالي :

من لوسنده الى كردنيو

« كل يوم تتكشّف لي فيك مواهب تحملني على زيادة تقديرك . فإن أردت منّي الوفاء بديني ، دون أن يكون ذلك على حساب الشرف ، فالوصول الى ذلك ميسور . إنّ لي أباً يعرفك ويحبّني ، وسيستجيب لرغبتك دون أن يرغم إرادتي ، رغبتك العادلة ، إذ كان حقّاً أنّك تقدّرني كما تقول وكما أعتقد » .

وهذه البطاقة هي التي دعتني الى طلب يد لوسنده كما قصصت عليكما ، وهي عينها التي جعلتها في نظر دون فرنندو فتاة من ألطف وأمهر فتيات عصرها ، وولدت فيها الرغبة في إهلاكي قبل تحقيق رغباتي . وأفضيت الى دون فرنندو أنّ والد لوسنده يشترط أن يكون والدي هو الذي يطلب يدها منه ، وقلت له أيضاً إنني لاأجرؤ على محادثة أبي في هذا الشأن خوفاً من أن يكون جوابه الرفض ، لا لأنّه كان يجهل فضائل لوسنده ومفاتنها التي تزيّن

أعلى البيوتات في اسبانيا ، ولكن لأنّي افترضت أن أبي لايودّ تزويجي قبل أن يعلم مايريد الدوق ريكردو أن يفعله بي . وأخيراً قلت له أنني لا أخاطر بمفاتحة أبي في الموضوع لهذه العقبة ولعقبات أخرى كثيرة كنت أتبيّنها بخوف دون أن أتحققها ، ولأنّه كان يخيّل الي أن رغباتي لن تتحقّق أبداً . فأجاب دون فرنندو عن هذا كله قائلاً إنه سيتولّى بنفسه أمر مفاتحة أبي في الموضوع وحمله على أن يكلّم والد لوسنده بشأني . أوه! أي ماريوس الغادر ، أي كاتلينا الظالم ، أي سلاّ الأثيم ، أي جانلون الخدّاع ، أي فليدو الخائن ، أي خوليان المنتقم ، أي يوداس الدنيء الطعمة! أيها الصديق الغدّار ، أيها الجاحد اللئيم القاسي! ماذا فعل بك هذا المسكين الذي أطلعك على أسرار قلبه وأمانيه ؟ أيّة إهانة بلغتك منّي ؟ أية كلمة قلتها ، أو نصيحة أسديتها لم يكن هدفي الوحيد منها نفعك وإعلاء قدرك ؟ لكن لماذا أشكو وا أسفاه! أوليس من الحقائق المقرّرة أنّ المصيبة إذا انحدرت من القدر المحتوم مندفعة من العلو الى السفل بقوّة لاتقاوم ، فلن تستطيع قوّة على ظهر الأرض أن توقفها ، ولاأية حكمة إنسانية أن تتلافاها ؟ من كان يتصوّر أنّ دون فرنندو ، هذا الفارس النبيل الأعراق الرائع الذكاء ، الذي غمرته بأياديّ ، وعنده القدرة على نوال كل ماتهواه شهواته الغرامية أينما أراد ، أقول : من كان يتصوّر أنّه يقرّر في نفسه أن يسلبني نعجتي الوحيدة ، التي لم أظفر بها بعد[1] ؟ لكن لنطرح جانباً هذه الإعتبارات التي لانفع فيها ، ولنعد الى قصّتي الأليمة . فأقول أنّ دون فرنندو حينما رأى أن في وجودي عقبة تحول دون تنفيذ غرضه الدنيء ، قرّر أن يرسل بي الى أخيه الأكبر ، بحجّة طلب بعض المال منه لدفع ثمن ست أفراس تعمّد شراءها في نفس اليوم الذي قدر فيه التحدّث الى والدي ، وذلك إبتغاء إبعادي حتّى يخلو الجوّ لغدره . أكان في وسعي ، ياحسرتاه ، أن أتوقّع هذه الخيانة ؟ أكان من الممكن أن يخطر هذا الأمر ببالي ؟ كلا وأيم الله ، كان الأمر بالعكس ، فقبلت عن طيب خاطر أن أرحل في الحال ، راضياً عن هذه الصفقة . وفي الليل تحدثت مع لوسنده وأفضيت اليها بما اتفقت عليه أنا ودون فرنندو ، وعبّرت لها عن وطيد الأمل في تحقّق أمانينا المقدّسة العادلة . فأجابت ، وهي تخشى مثلي من خيانة دون فرنندو : إنّ عليّ أن أعود سريعاً ، لأنّها تعتقد أن أمانينا لن تتأخّر في التحقّق إلا بمقدار مايتأخّر أبي في التحدّث في هذا الموضوع مع أبيها . ولست أدري ما الذي جرى لها في هذه اللحظة ، بيد

(١) إشارة الى ما ورد في «سفر الملوك» الثاني ، إصحاح١٢ ، وقد ورد ذكره في القرآن في حكاية داوود (سورة ص آيات ٢٣-٢٤) : «إن هذا أخي له تسع وتسعون نعجة ولي نعجة واحدة ، فقال : أكفلنيها وعزني في الخطاب * قال : لقد ظلمك بسؤال نعجتك الى نعاجه ، وإن كثيراً من الخلطاء ليبغي بعضهم على بعض...» .

أنّها لم تتم هذه الكلمات حتّى امتلأت عيناها بالدموع واختنق صوتها ، ولاح كأنّ عقدة قد ربطت حلقها فلم تدعها تنطق بالكلمات التي حاولت أن تفصح عنها . فاعتراني ذهول لهذا الحادث الذي لم يقع لها من قبل أبداً . ففي كل مرة كانت الصدفة السعيدة أو مهارتي تجمعنا لنتحدّث معاً ، كان يسود حديثنا البهجة والرضا ، دون أن يداخله بكاء أو زفرات أو حسد أو شكوك . وأنا من جانبي كنت في نعمة تامة وشكر دائم على أن وهبني إياها الله حبيبة ، وكنت دائم الإطراء لمفاتنها ومحاسنها . وكانت هي بدورها تبادلني إطراءً بإطراء ، مثنية على ما أظهره حبّها من شمائل عندي خليقة بالثناء . كما كنّا نتبادل آلاف الأحاديث الصبيانية ونروي مغامرات الجيران والمعارف ، ولم تتجاوز بي الجرأة حدّاً أبعد من تناول إحدى يديها البيضاوين ، في شيء من العنف ، وتقريبها من فمي بقدر ماكانت تسمح بذلك قضبان نافذة واطئة كانت تفصلنا عن بعضنا بعضاً . أمّا في الليلة السابقة على اليوم المشؤوم لرحيلي ، فقد كانت تبكي وتنوح ، ثمّ تركتني في اضطراب شديد ومخاوف . فقد أفزعني ما رأيته على لوسنده من شواهد جديدة حزينة من الأسف والتعاسة . وحتّى لا أقضي بنفسي على آمالي ، أرجعت كل شيء الى قوة الغرام الذي تشعر به نحوي والى الأمل الذي يسببه دائماً غرام أولئك المتحابين المولّهين . وأخيراً رحلت ، حزيناً مطرقاً ، ونفسي تساورها الشكوك والمخاوف ، دون أن أعلم على وجه التحقيق أسباب الشكوك والمخاوف ؛ وهي علامات بينات على الضربة الأليمة التي كانت تنتظرني .

بلغت الى حيث أرسل بي وسلّمت الرسائل لأخي دون فرنندو فأحسن استقبالي ولكنّ لم يعجّل إنجاز مهمّتي بل تركني أنتظر - على مضض بالغ - ثمانية أيام في مكان لم يكن الدوق يستطيع أن يراني فيه ، لأنّ دون فرنندو كتب طالباً أن يرسل اليه المال دون أن يعلم ذلك أبوه . وماكان ذلك إلا من حيل الغدر ، فإنّ المال لم يكن ليعوز أخاه فكان في وسعه أن ينجز مهمّتي في الحال . وكان هذا الوضع غير المنتظر يخوّل لي أن أعصاه ، إذ بدا لي من المستحيل أن أحتمل العيش هذه المدة الطويلة بعيداً عن لوسنده ، خصوصاً وقد تركتها على حال من الحزن وصفتها لك من قبل . ورغم ذلك فقد رضخت وأطعت ، شأن الخادم المخلص ، وإن كنت قد شاهدت أن ذلك سيكون على حساب راحتي وصحّتي . وبعد مضي أربعة أيّام وصل رجل بحث عنّي ليوصّل اليّ رسالة عرفت أنها من لوسنده حينما شاهدت خط العنوان ، ففضضتها وفي نفسي فزع بالغ إذ توقّعت أن يكون ثمة سبب هام قد حملها الى الكتابة اليّ خلال البعاد ، لأنّها نادراً ماكانت تكتب لي وأنا حاضر . لكن قبل أن أتلو الرسالة ، سألت الرجل عمّن أعطاه إيّاها وكم من الوقت استغرقت رحلته . فأجابني أنه كان

يمر صدفة في أحد شوارع المدينة عند الظهيرة وإذا بسيدة رائعة الجمال تدعوه الى النافذة ، وعيناها مغرورقتان بالدموع ، وقالت له بلهجة وسرعة : « أخي! إن كنت مسيحياً مؤمناً كما يبدو لي ، فإنّي أرجوك ، لله ، أن تحمل هذه الرسالة بسرعة ، بسرعة جدّاً ، الى المكان والشخص المذكورين على الرسالة ، جزاك الله خير الجزاء ، وحتّى أسهّل عليك هذه المهمّة ، خذ مايحتويه هذا المنديل » . وماقالت حتّى القت من النافذة منديل يحتوي على مائة ريال ، وهذا الخاتم الذهبي الذي أحمله ، وهذه الرسالة التي تمسك بها في يديك ، ودون أن تنتظر جوابي ، تركت النافذة بعد أن شاهدت أنّي التقطت المنديل والرسالة وبعد أن أخبرتها بالإشارات أنّي سأنفّذ ماأمرت به . فلمّا رأيت أنّي سأكافأ هذه المكافأة على المهمة التي سأقوم بها ورأيت من عنوان الرسالة أنني موفد اليك يامولاي ، وأنا أعرفك جيداً والحمد لله ، ولما كنت خصوصاً قد تأثّرت بدموع هذه الحسناء ، فقد قرّرت ألاّ أوكل هذه المهمة لأحد غيري فحضرت بنفسي لتوصيل الرسالة إليك ، فأخذت سبيلي منذ أن أعطتني الرسالة فقطعت المسافة في ست عشر ساعة ، إذ طولها كما تعرف ١٨ فرسخاً » .

« وبينما كان هذا الرسول الشاكر للجميل يقص عليّ هذه التفصيلات كنت كأنّي معلّق على كلماته ، وكانت فرائصي ترتعد بقوة لم أكد أحتمل معها الوقوف . وأخيراً فتحت الرسالة فوجدتها تتضمّن هذه العبارات القليلة :

« إنّ ما تعهّد به دون فرنندو من التحدّث الى أبيك ليفاتح أبي ، قد وفى به لصالحه لا لصالحك . فلتعلم ياسيّدي أنّه التمس الزواج منّي ، وأبي ، وقد أعماه ماظن لفضل دون فرنندو عليك ، قد قبل . والأمر من الجدّ بحيث ستتم الخطبة في خلال يومين ، ولكن في الخفاء بحيث لايكون ثم شهود عليها سوى السماء وبعض أهل البيت . في أي حال أنا ، هذا ماأترك لك تصوّره ، فإن كان يهمّك التعجّل فالحكم لك ، وإذا كنت أحبّك أو لاأحبّك ، فالحوادث ستشهد . وإنّي أسأل الله أن تصل رسالتي هذه الى يدك قبل أن تضطر يدي الى الإنضمام الى يد رجل لا يفي بعهده! » .

تلك كانت خلاصة كلماتها في رسالتها هذه . لم أكد أتم قراءتها حتّى رحلت من فوري دون انتظار لمال أو جواب عن مهمّتي ، إذ تبيّن لي حينئذ أن دون فرنندو لم يبعث بي الى أخيه من أجل شراء أفراس ، بل ليخلو الجو لتدبيره وأهوائه . واندفعت بقوة الحفيظة ضد هذا الصديق الغادر وبقوة الخوف من إضاعة قلب كسبته بعد سنوات من الغرام والخضوع ، فوصلت الغداة الى المدينة في الساعة المناسبة للتحدّث الى لوسنده . دخلت بيتها سرّاً ، وتركت البغلة التي ركبتها عند ذلك الرجل الفاضل الذي أتى إليّ برسالتها . وشاء الحظ

السعيد أن أجد لوسنده لدى النافذة الواطئة التي طالما كانت شاهدة على غرامنا . فتعرّفتني في التو وأنا كذلك ؛ لكن لا كما كان يجب أن تراني وأن أراها ، هل في الدنيا ، ويا حسرتاه ، رجل يقدر أن يقول أنه سبر أعماق الأفكار المضطربة والأحوال المغايرة في نفس المرأة ؟ كلاً قطعاً . فلمّا شاهدتني قالت لي :

– كردنيو! إنّي ألبس ثياب الزفاف ، وهاهو ذا دون فرنندو الغدّار وأبي الطموح ينتظراني في البهو ، مع شهود آخرين هم بالأحرى شهود موتي لا شهود زفافي . لاتضطرب يا حبيبي ، بل حاول حضور هذه التضحية . فإن لم تستطع كلماتي أن توقفها ، فهناك خنجر أخفيه هناك يستطيع أن يدفع عنّي كل قهر ويحول دون أن تخور قواي ، به ستختم حياتي وحبي لك معاً .

فأجبتها في اضطراب واندفاع وأنا أخشى ألا يكون لدي وقت لكي تفهم منّي وتسمعني :

ـ لعل أفعالك أن تبرّر كلماتك يا لوسنده ، إن معي سيفاً ليدافع عنك ، أو ليقتلني إذا عاكسنا الحظ .

ولا أحسبها قد سمعت كل كلماتي ، إذ جاءوا لدعوتها بسرعة لاقتيادها الى حيث ينتظرها خطيبها .

هنالك غربت شمس سعادتي وخيّم ليل أحزاني . أصبحت عيناي لا تبصران وطار عقلي ، فلم أهتد الى مدخل منزلها ولم أستطع التوجّه الى أيه ناحية . وأخيراً ـ وقد تبيّن لي أهمّية حضوري في مثل هذه المناسبة الحرجة الهامّة ـ استجمعت قواي ماستطعت ودخلت المنزل . وكنت أعرف منذ عهد بعيد كل مخارجه ومداخله ، فدخلت دون أن يراني أحد نظراً الى ماكان في المنزل من جلبة وحركة ، واستطعت التسلّل الى ركن تتألف منه نافذة البهو وتغطّيه ستارتان من السجّاد كان في وسعي أن أرى من خلالها كل ما يدور في البهو دون أن يراني أحد . من يقدر أن يصف مامرّ بي من مخاوف اضطرب لها قلبي طوال المدة التي أمضيتها في مخبأي هذا! أي خواطر جالت بنفسي! أي أمور عزمت عليها! لقد كانت هذه كلّها من الاضطراب بحيث يتعذّر ذكرها ويكفي أن تعلم أن الخطيب دخل البهو غير مرتدٍ إلاّ ملابسه العادية . وكان شاهد زواجه هو ابن عم لوسنده ، ولم يكن في البهو كلّه إلاّ خدم المنزل . وبعد قليل برزت لوسنده من غرفة زينتها مصحوبة بأمها وقهرمانتها ، لابسة ومتزينة على النحو الذي يقتضيه حبّها وجمالها ووفق ذوقها المرهف الكامل ، ولم يسمح لي تشتت ذهني أن ألاحظ دقائق ثيابها ، فلم أبصر منها غير ألوانها : الأحمر ، والأبيض ،

والانعكاسات التي كانت تلقيها حليها الثمينة التي زيّنت رأسها وكل ثيابها . أمّا جمال شعرها الأشقر فلم يكن له مثيل ، كان يتألّق تألقاً أروع من الأحجار الكريمة ، وأبهج من المشاعل الأربعة التي كانت تضيء البهو . أيتها الذكرى ، يا لعدوّة راحتي! ماذا يجدي الآن تذكّر مفاتن هذه العدوّة المعبودة ، لوسنده ؟ أوليس الأفضل ، أيتها الذكرى القاسية ، أن تذكريني وتصوري لي مافعلته حينئذ ، حتّى تدفعني هذه الإهانة البالغة الى البحث عن القضاء على حياتي ، إن لم يكن عن الإنتقام ؟ سادتي ، لا تملّوا من سماع الاستطرادات التي قد انساق اليها ، بيد أن قصّتي الأليمة ليست من تلك القصص التي يمكن روايتها بإيجاز وبسرعة ، وكل ظرف من ظروفها يبدو لي أنا خليقاً بالإسهاب» .

فقال له القس إنهم لم يملّوا من سماع مايقول ، بل بالأحرى هم شديدوا الشوق لسماع كل التفاصيل التي تستحق من الانتباه مثلما يستحقّه فحوى القصة نفسها .

فتابع كردينو حديثه قائلاً : بعد أن التمّ الشمل في البهو ، أدخل قسيس الناحية فأخذ بيدي الخطيببين في يده ، لإقامة المرسم المتّبع في هذه الحالة . فيما نطق بالكلمات المعهودة : «هل تقبلين يا سيدتي أن يكون السيد دون فرنندو الحاضر هنا زوجاً شرعيّاً لك ، كما تأمر بذلك الكنيسة المقدّسة ؟ » .

ـ أخرجت رأسي وعنقي من وراء الستار وأرعيت سمعي بنفس مضطربة للإصغاء الى ما ستجيب به لوسنده ، وأنا أرقب من جوابها قرار إعدامي أو التصديق على حياتي . أواه! لماذا لم أخرج حينئذ من مخدعي ؟ ولماذا لم أصح : «لوسنده ، لوسنده! انظري ماتفعلين ، انظري ما تدينين به لي ، إنك لي ولست لأحد غيري ، إنك إذا نطقت بالقبول فقد نطقت بحكم إعدامي في نفس اللحظة ، وأنت أيها الخائن دون فرنندو ، يامغتصب مالي ، وسالبني حياتي ، ماذا تريد ؟ وماذا تزعم ؟ أولا ترى أنّك لاتستطيع إمضاء رغباتك إمضاءً مشروعاً ، لأنّ لوسنده هي زوجتي وأنا زوجها ؟ » آه ما أتعسني! الآن وأنا بعيد عن الخطر أقول ما كان يجب عليّ فعله فلم أفعله ، الآن وقد تركت كنزي العزيز يسلب منّي ، هأنذا ألعن السالب عبثاً وقد كان في وسعي الإنتقام منه لو كان لي من القلب والشجاعة للإنقضاض عليه مثلما لي الآن من القلب للشكاة والأنين! على كل حال كنت جباناً أحمق ، فحقّ عليّ الآن أن أموت مسربلاً بالعار ، نادماً مجنوناً .

وظلّ القس ينتظر جواب لوسنده التي صمتت طويلاً دون جواب . ولكن حينما خيّل اليّ أنها بسبيل سلّ خنجرها وفاء بعهدها ، أو حل عقدة لسانها لإبراز الحقيقة والتحدّث عمّا بيننا ، إذ بي أسمعها تقول بصوت خفيف مضطرب : «نعم ، أقبله» . وقال دون فرنندو

نفس العبارة ووضع في إصبعها خاتم الزواج ، وهكذا ارتبطا برباط لاإنفصام له . وتقدّم الزوج لتقبيل زوجته ، ولكنها وضعت كفّها على قلبها وسقطت بين ذراعي أمها مغشياً عليها .

« بقي أن أقص عليكم وصف حالتي حينما شاهدت في هذا « القبول » منها ضياع آمالي وزيف وعودها واستحالة رد مافقدته تلك اللحظة . فقدت وعي وشعرت أنّ السماء تخلّت عنّي وأنا على الأرض موضوع كراهية ، لأن الهواء لم يعد يمدّ زفراتي بالأنفاس ، والماء لم يعد يمدّني بالدموع ، إنّما تلظّت النار ، واحترق قلبي بالحسد والغضب . وكان إغماء لوسنده قد أثار الانفعال في كل الحاضرين ، وأبعدتها أمها عن ذراعيها لتستطيع استنشاق الهواء ، فوجد على صدرها ورقة مختومة سرعان ماالتقفها دون فرنندو وأنشأ يقرأها على ضوء أحد المشاعل . فلمّا فرغ من القراءة ، ارتمى على كرسي وأسند رأسه الى يده ، في وضع من يفكّر ، دون أن يسهم في مظاهر العناية التي وفّرت لزوجته لجعلها تفيق من إغمائها . أمّا أنا ، فحينما رأيت البيت كلّه على هذا الحال من الاضطراب ، تجاسرت على الخروج دون أن أهتم بأن يكتشفوا أمري ، وفي عزمي في هذه الحالة أن أثور ثورة دامية ليعرف الناس جميعاً غضبتي العادلة التي تدفعني الى عقاب الخائن ، بل وعقاب تلك التي تغيّرت عن عهدها وإن كانت لاتزال في حالة إغماء . ولكن شاء طالعي أن يحتفظ بي لشقاء أعظم ، إن كان ثمّ أعظم من شقائي ، فأمرني بالتعقّل ، ثمّ حرمني بعد هذا الحدث من كلّ تعقّل . فبدلاً من أن أنتقم من أعدائي الألدّاء ، وهو أمر كان حينئذ سهلاً ، لأنهم لم يكونوا منتبهين لي ، تخيّلت أن أنتقم من نفسي فأعاقبها بالعقاب الذي استحقّوه هم ، وبقسوة أشد مما كان عليّ أن أفعله ضدّهم لو أنّي قتلتهم ، لأن العقاب المفاجىء ينهي العذاب سريعاً ، أمّا العقاب الذي يطول أمده في ألوان من العذاب لاتنتهي فيقتل بموت بطيء . ـ وأخيراً غادرت البيت وذهبت الى الرجل الذي تركت عنده بغلتي . وسرعان ماأسرجتها وغادرت المدينة دون أن أودّع الرجل ، ولم أجرؤ على إدارة رأسي لرؤية المدينة شأني شأن لوط . فلمّا كنت وحدي وسط الحقول التي أرخى الليل عليها سدوله ، يدعوني هدوئها الساجي الى إطلاق العنان لنواحي دون خوف من أن يسمعني أو يتعرفني أحد ، أطلقت لساني وصرخت بلعناتي ضد لوسنده وفرنندو ، كما لو أنّي بهذا أنتقم لنفسي مما لحقني منها من إهانة . واتجهت لعناتي خصوصاً اليها ، ناعتاً إيّاها بالقاسية ، الجاحدة ، الزآئفة ، الحانثة باليمين ، وبالمستغلة الشرهة ، لأن ثروة عدوّي هي التي بهرت عينيها وجعلتها تفكّر بمن حباه الحظ بمالٍ أوفر ، وفي هذه الغضبة وتلك اللعنات كنت أحاول تلمّس عذر لها فأقول : « إنّ فتاة

نشأت في عزلة بين أهلها واعتادت دائماً الإذعان لأبويها ـ لاعجب في أن تنزل عند رغبتهما إذا زوجاها من سيّد نبيل غني وسيم ، فلو أنها رفضته لاتهمت بالجنون أو بحب شخص آخر ، وكلاهما يسيء الى سمعتها أبلغ إساءة »! ثمّ أعود بعد ذلك الى أفكاري الأولى فأقول : « ولماذا لم تقل أنني زوجها ؟ لقد كانوا سيرون حينئذ أنها لم تختر اختياراً سيئاً غير جدير بها لا تستطيع تبريره ، لأنّه قبل أن يتقدّم دون فرنندو لخطبتها ، لما كانا أبواها قد طمعا في خير منّي لوأنهما قاسا رغبتهما بمقياس العقل . أفلم يكن في وسعها إذن ــ قبل أن تخطو هذه الخطوة المروعة الأخيرة ، وقبل أن تقبل ، أن تقول أنها وعدت من قبل بالزواج منّي ، ففي هذه الحالة كنت سأعمل على الاستجابة لكل ماكانت ستتظاهر هنالك به ؟ » وأخيراً أقنعت نفسي بأن قليلاً من الحب ومن العقل ، وكثيراً من الطمع والشهوة للعظمة ، قد جعلاها تنسى الوعود التي ناغتني بها وخدعتني وغزّت أمالي النزيهة الشريفة . وكنت خلال هذه المناجيات والاضطرابات أسلك طريقي الليل كلّه ، حتّى وصلت عند مطلع النهار الى مدخل من مداخل هذه الجبال . فدخلت منه ومضيت قدماً ثلاثة أيّام كاملة دون أن أسلك طريقاً بعينه ، الى أن وصلت الى مرج لاأعرف مكانه بالدقة ، وسألت الرعاة الذين كانوا يرعون دوابهم فيه عن أوحش مكان في هذه الجبال وأشدّها وعورة ، فأشاروا عليّ بهذا المكان ، فغدوت اليه توّاً وأنا موطّن العزم على أن أنهي حياتي فيه . ولمّا دخلت هذه الوحشة الموحشة كبت بغلتي وماتت من الجوع والاضطهاد ، أو بالأحرى ـ فيما يخيّل إلي ـ للتخلّص من حمل لافائدة فيه هو شخصي أنا . فوقفت على الأرض ثمّ انطرحت عليها وقد بلغ منّي الإعياء والشقاء ، دون أن أريد من أحد ـ ولم يكن ثمّ أحد ! ـ أن يهبّ لمساعدتي . وبعد أن بقيت مطروحاً على هذا النحو وقتاً لا أدري مداه ، نهضت ولم أعد أشعر بعد بالجوع ، فرأيت الى القرب منّي بعض رعاة الماعز وهم بلا شك أولئك الذين سدّوا حاجتي الملحّة العاجلة . فقد قصّوا عليّ بعد ذلك كيف عثروا عليّ ، وكيف أنّي رويت لهم من الخزعبلات والترّهات ما جعلهم يوقنون أنّي مذهوب العقل . ولقد أحسست بنفسي منذ تلك اللحظة أن عقلي لم يعد سليماً حرّاً دائماً ، بل بالعكس ، صار من الضعف والاختلال بحيث صرت أرتكب آلاف الحماقات وأمزّق ثيابي ، وأصرخ في هذه القفار ، لاعناً حظّي العاثر ، مكرّراً باستمرار اسم عدوّتي الحبيب ، دون أن يكون ثمّ غرض إلاّ أن أدع حياتي تنطلق مع صرخاتي . وحينما أعود لنفسي وأثوب لرشدي أراني على نحو من الإعياء والاستسلام بحيث لاأقوى على القيام بنفسي . وأغلب مسكني في تجويف شجرة فلّين تستر هذا البدن الناحل البائس . ورعاة الضأن والماعز اللذين يجوبون هذه الجبال بقطعانهم تأخذهم الشفقة

بي فيعطونني ماأتبلّغ به وذلك بأن يتركوا على الطرقات أو على الصخور التي يظنّون أنني سأمر بها بعض ألوان الطعام لأجدها عندما أمر بها ، ففي نوبات الجنون أيضاً تنطق الحاجة فتدفعني الغريزة الفطرية الى البحث عن الطعام وتولّد فيّ إرادة إشباع حاجتي منه . وفي أحيان أخرى ـ كما علمت منهم حينما ألقاهم وأنا في كمال عقلي ـ أكمن لهم في الطريق واستولي بالقوة على المؤونة التي يأتي بها الرعاة من القرية الى أكواخهم ، وإن كانوا هم مستعدّين لتقديم ماأشاء من الطعام طواعية وعن طيب خاطر . وهكذا أقضي بقية عمري ، الى أن يطيب للسماء أن تبلغ به نهايته ، أو تسلبني ذاكرتي ، حتّى أستطيع أن أنسى مفاتن لوسندة وخيانتها ، وإهانة دون فرنندو . فإذا أنعمت عليّ السماء بهذه النعمة دون أن تنتزع متى حياتي ، فسأقتاد أفكاري الى الطريق الصواب ، وإلاّ فليس أمامي إلاّ أن أسألها أن تعامل روحي بالشفقة والرحمة ، لأنّي لاأستشعر في نفسي الشجاعة ولا القوّة على إنقاذ بدني من ألوان التقشّف التي فرضتها على نفسي .

تلك يا سادتي هي قصة مصائبي الأليمة . فأنبئوني هل في الوسع روايتها على نحو أقل فجيعة وحزناً مما فعلت . ولا تتعبوا أنفسكم في محاولة إقناعي بما يدلي به العقل لعلاج أدوائي بإسداء النصائح لي ، فليس فيها من الفائدة أكثر مما في شراب يأمربه الطبيب مريضاً لايريد تناوله .إني لا أريد شفاءً غير لوسنده ، ومادامت قد شاءت أن تكون لغيري ، فإني أريد أن أكون للشقاء بعد أن كان من الممكن أن أكون للنعيم . لقد أرادت بعدم اكتراثها أن تؤبّد ضياعي ، إذن فإنّي أريد بإضاعتي لنفسي أن أرضي أمنيتها . وسيقول الناس من بعد إنه ينقصني وحدي مالدى جميع البائسين من وسيلة أخوية ، إذ يعزّيهم استحالة تعزيتهم[١] ، بل بالعكس هذه هي عندي سبب لأشد الأحزان وأقسى الآلام ، لأنني أحسبها ستستمر الى بعد موتي » .

وهنا ختم كردينو روايتة الطويلة لقصّته الغرامية الأليمة . ولمّا أوشك القسّ أن يوجّه إليه بعض عبارات العزاء ، منعه من ذلك صوت دويّ فجأة في آذانهم ، صوت يحكي ، بنبرات نائحة ، ماسيرويه القسم الرابع من هذه القصة ، إذ هاهنا أنهى القاص الحكيم المجتهد سيدي حامد ابن الأيّل القسم الثالث من حكايته .

---

(١) يرى pellicer أن هنا إشارة الى عبارة لفرجيل .

الفصل الثامن والعشرون

في المغامرة الجديدة البهيجة التي وقعت للقس والحلاق

ما أسعد الأزمان التي عاش فيها الفارس الشجاع دون كيخوته المنتشاوي! لقد أمضى نيته النبيلة على بعث طريقة الفروسية الجوّالة بعد أن انقضى عهدها وكادت تتلاشى، فأصبحنا بفضله نتمتّع الآن، في هذا العصر المحتاج الى التسلية والبهجة، بلطائف قصّته الحقيقية، وبما تنطوي عليه من نوادر وأحداث لاتقل لطفاً في معظمها ولا براعة صدقها عن القصة نفسها، هذه القصة التي تتابع خيطها الملتوي المعقّد فتحكي أنه في اللحظة التي تهيّأ فيها القس لمواساة كردنيو مااستطاع الى المواساة سبيلاً، منعه من ذلك صوت هزّ مسامعهم بهذه العبارات الحزينة:

«يا إلهي! هل لي أن أجد مكاناً أستطيع أن أدفن فيه هذا البدن الذي أحمل عبئه الثقيل رغماً عنّي؟ نعم، وأيم الله، اللهم إلا إذا لم أظفر بالوحدة التي أرجوها من هذه الجبال. أوّاه! كم تهيّء لي هذه السماء، صحبة أشد إمتاعاً من صحبة أي إنسان على ظهر الأرض، إذ ليس في الدنيا أحد تتوقّع منه النصيحة الصادقة في الملمّات، والسلوى في الأحزان، والدواء في الأمراض!».

هذه الكلمات الأليمة سمعها القسّ ومن كان معه، سمعاها كأنها قريبة منهم، فنهضوا في الحال ليستدلّوا على هذا الشاكي الباكي. فلم يكادوا يخطون عشرين خطوة حتّى شاهدوا عند منعطف صخرة شاباً في ملابس فلاّح يجلس عند قاعدة شجرة فرامسنوس (المُران) لم يستطيعوا أنئذ أن يتبينوا وجهه لأنّه كان يخبّئه وهو يغسل رجليه في جدول يجري في هذا المكان. وقد وصلوا في صمت تام بحيث لم يحس بهم الفتى، الذي لم يكن مشغولاً بغير غسل قدميه وكانت من الشفوف والوضاءة كأنهما قطعتان من البلّور الناصع مختلطتان بسائر أحجار الجدول. بهرهم هذا الجمال وهذه الوضاءة، إذ بدت قدماه كأنهما

لم تخلقا لتطأ الطين خلف المحراث والثيران كما دلّت على ذلك ملابسه . فلمّا رأوا أنه لم يحس بهم ، أشار القس وكان في مقدّمتهم الى زميله بأن يستترا خلف الصخور القائمة هناك . واستتر ثلاثتهم هناك ليراقبوا ما يفعله الفتى . وكان الفتى يلبس معطفاً صغيراً شدّه الى وسطه بحزام غليظ أبيض ، وجوارب طويلة من الصوف الأسمر ، وعلى رأسه قلنسوة من القماش نفسه . فلمّا فرغ من غسل قدميه ، ورفع قلنسوته ورفع رأسه ، هنالك شاهد الذين يراقبونه جمالاً منقطع النظير ، حتّى قال كردينو بصوت خفيض للقسّ : «مادام هذا ليس لوسنده ، فليس أيضاً بشراً!» وخلع الفتى قلنسوته وهزّ رأسه يمنة ويسرة فانتشر من تحتها شعر يحسده عليه شعاع الشمس نفسه . هناك أدرك الثلاثة الطلعة أن هذا الذي حسبوه فلاّحاً كان فتاة شابة رقيقة ، أجمل ماوقعت عليه أعين صديقيّ دون كيخوته بل وعينا كردنيو نفسه لو لم يعرف لوسنده لأنّه أكد بعد ذلك أن جمال لوسنده هو وحده الذي يمكن أن يقارن بهذا الجمال . وكان هذا الشعر الأشقر الطويل يغطي كتفيها ، بل يغطّيها كلها تحت غدائره الكثيفة ، حتّى لم يكن المرء يرى منها غير قدميها . والتسريحة لم يكن لها من مشط غير أناملها التي بدت في الشعر كأنّها كرات من الثلج ، كما بدا القدمان في الجدول كأنهما قطعتان من البلّور . كل هذا زاد من إعجاب المشاهدين الثلاثة ومن شوقهم لمعرفة حقيقة أمرها ، فقرّروا الخروج من مختبأهم . لكنّ حركة نهوضهم جعلت الشابة الحسناء تدير رأسها وتفصل بيديها شعرها الذي يغطّي وجهها ، ثمّ نظرت من أين جاءت الضوضاء . ولم تكد ترى هؤلاء الرجال الثلاثة حتّى نهضت بلهفة ودون أن تتمهّل للبس حذائها وضم شعرها ، ثمّ أمسكت بحزمة صغيرة من الخرق المهلهلة كانت بالقرب منها ، ثمّ هربت في ذعر واضطراب . بيد أنّها لم تكد تخطو بضع خطوات حتّى عجزت قدماها الرقيقتان عن احتمال وعورة الصخور فارتمت على الأرض . هنالك أسرع اليها الأصدقاء الثلاثة ، وبدأ القس في الكلام فقال : «قفي يا سيدّتي! أيّاً من كنت فاعلمي أننا لا نبغي إلاّ خدمتك . فلا تحاولي الفرار ، فقدماك لن تتحمّلان ، ونحن أيضاً لن نسمح لك بذلك» .

فلم تحر جواباً وغلبتها الدهشة والاضطراب . فاقتربوا منها ، وأخذ القس بيدها واستمر يقول :

«إن ماأخفته ثيابك ياسيّدتي قد نمّ عنه شعرك ، وهي دلائل واضحة على أن الدوافع التي حملتك على تمويه جمالك تحت هذا القناع غير اللائق به ودفعتك الى اللجوء الى أعماق هذه القفارالتي يسعدنا أن نلقاك فيها لا نجد دواء لإدوائك ولكن على الأقل لنبذل لك محض النصيحة ـ نقول هي دلائل واضحة على أنّ هذه الدوافع ليست هيّنة . وأيّة مصيبة لا يمكن ،

مادامت الحياة قائمة ، أن تبلغ الحد الذي عنده لايريد صاحبها أن يصغي الى النصيحة التي تُسدى اليه بإخلاص . فاخلصي ياسيّدتي ، أو ياسيّدي ، أيّاً من كنت ، من الفزع الذي أثاره مرآنا في قلبك ، وقصّي علينا ماأصابك من نحس أو سعد ، وثقي أنك ستجدين فينا ، فرادا ومجتمعين ، معيناً لك على تحمّل المصائب ومشاطرتك إيّاها » .

وبينما كان القس يتحدّث هذا الحديث ، ظلّت الحسناء المستخفية مذهولة مشدوهة ، تنظر إليهم واحداً بعد واحد ، دون أن تنبس ببنت شفة ، شأنها شأن فلاح شاب يشاهد فجأة ولأوّل مرّة أشياء نادرة لم يرها أبداً .

واستمرّ القسّ في كلماته الرقيقة ، فانطلقت منها زفرة عميقة قطعت بها صمتها ثمّ قالت :

« مادامت وحشة هذه الجبال لم تستطع أن تسترني عن العيون وشعري لما انتشر لم يدع للساني مجالاً للتمويه ، فمن العبث أن أموّه الأن وأن أقول مالايمكن تصديقه إلا مجاملة . وبعد فأقول ياسادتي إنني أشكر لكم تطوّعكم لخدمتي مما يحملني الى جميع ماسألتموه . بيد أنّي أخشى من أنّ رواية ماحلّ بي من كوارث ستحدث لكم من الضيق بقدر ما ستثير من الشفقة ، لأنكم لن تجدوا دواء لشفائي منها ، ولاعزاء لتخفيف وقعها عليّ . وحتّى لايضار شرفي لديكم بعد أن عرفتم أنني امرأة ورأيتموني شابة وحيدة وفي هذا الزي ، وكلها أمور يمكن أن تقدح في الشرف ، فقد قرّرت أن أفضي اليكم بما كنت أودّ أن يظل سرّاً مكتوماً » .

كان هذا خطاب هذه الحسناء الرقيقة للأصدقاء الثلاثة ، نطقت به دفعة واحدة بصوت بغوم سلسال ، فأحدثت لطافة روحها دهشة لاتقل عن الدهشة التي أثارها جمالها . فراحوا يردّدون استعدادهم لخدمتها ، ويلحفون عليها في الوفاء بما وعدت به . هنالك أصلحت حذاءها وصفّفت شعرها وجلست على حجر كبير وتحلّق حولها الإخوان الثلاثة ، ثمّ كتمت بضع عبرات طفرت الى عينيها ، وأنشأت تقول بصوت جهير موزون قصة حياتها .

« في اقليم الأندلس المجاور لنا مدينة صغيرة باسمها يتلقّب دوق[1] ، وبلقبه هذا صار من عداد من يسمّون عظماء اسبانيا . ولهذا الدوق ولدان : الأكبر ، وهو وارث أملاكه ، هو

(١) يرى كلمنثين أن المقصود لعلّه دوق أسونا duque de Osuna ، وإن كان لم يعثر في تاريخ القرن السادس عشر على الأصل الذي رسم على نحوه دون فرنندو . ولكنّ أبحاث فرنشكو رودريجث مرين في هذا الموضوع دلت على أنّ لهذه الأسماء كلها أصولاً تاريخية واقعية : فإن كردنيو هو Gardenas de Gordoba ودون فرنندو هو don pedro Giron الابن الثاني لدوق أسونا الاول ، ودوروتيه هي Dona Maria de Torrs التي اغتصبها دون بدرو خيرون . وهذه الغراميّات جرت في السنوات ١٥٨٢ ، ١٥٨٣ . أمّا ثربنتس فقد بدأ تجواله في مدن وقرى الأندلس في سنة ١٥٨٧ . ولم يستطع دون بدرو الزواج من ماريا دي طوريس هذه . ولمّا عيّن أبوه نائباً للملك في نابلي ذهب معه ومات أعزب في سنة ١٥٨٣م .

أيضاً وارث صفاته الجميلة فيما يبدو ، أمّا الأصغر فلا أدري هو وارث لماذا ، اللهم إلا أن يكون وارث خدع جلالون وغدر وليدو . وأهلي أتباع لهذا الدوق ، متواضعو الأصول ولكنّهم ذوو ثراء ضخم ، فلو كانت مواهبهم الطبيعية بقدر ثرواتهم الماديّة لما كانوا في حاجة الى المزيد ، ولما كنت أنا في خوف من الوقوع في المحنة التي أنا الآن فيها ، لأنّ مرجع شقائي كلّه ربما كان لأنّهم لم يولدوا من أصل نبيل . نعم هم ليسوا من انحطاط الأصل بحيث يخجلون ، ولكنّه ليس من العلو بحيث يزيل من فكري أنّ مردّ تعاستي كلّها هو تواضع أصلهم . إنهم مزارعون ولكنّهم من دم صريح لم يهجن بأي جنس دنيء ، وهم كما يقولون نصارى عريقون من أعرق الأصول المسيحية ، وقد بلغوا من العراقة ماجعل ثرواتهم ومظاهر ترفهم تدعو الى تلقيبهم بالأشراف بل بالنبلاء . ولكن أكبر ثروة وأسمى نبالة افتخروا بهما أنني ابنتهم . ولهذا ، ولمّا لم ينجبوا ورثة غيري وكانوا دائماً يعزونني ، أقول لهذا كنت أعزّ فتاة دللها أبواها . كنت المرآة التي فيها ينظران ، والعصا التي تتوكّأ عليها شيخوختهما ، والهدف الوحيد الذي تتجه اليه كل أمانيهما التي حسبوها إرادة السماء ، ولم تكن أمانيَ أيضاً تنحرف عن أمانيهما وفاقاً لإحسانهما قبلي . وكما كنت المسيطرة على قلبهما ، كنت أيضاً صاحبة الأمر في أموالهما . كنت أنا التي تعيّن الخدم والتي تطردهم ، وكل الحسابات المتعلّقة بما كانوا يبذّرون أو يحصدون كانت تمر بين يدي . فطواحين الزيت ، ومعاصر الخمور ، وقطعان الماشية كبيرها وصغيرها ، وخلايا النحل ، وبالجملة كل ما يمكن أن يملكه مزارع غني مثل أبي كانت رعايته مكفولة منّي . كنت ناظرة الضيعة وسيّدة البيت ، وكنت أؤدّي وظيفتي هاتين باهتمام بالغ ولذّة شديدة لا أقدر على وصفهما . ومابقي لي من الفراغ بعد أن أعطي أوامري للأسطوات والتملية وأنفار اليومية ، كنت أزجيه في الأعمال التي تتناسب وكوني امرأة : شغل الإبرة ودف التطريز ، والمنسج أحياناً كثيرة . فإذا تركت هذه الأشغال طلباً للترويح عن نفسي كنت استمتع بقراءة الكتب الجيدة أو بالعزف على الهارْبْ ، إذ دلّتني التجربة على أن الموسيقى تهدىء النفوس المتعبة وتريح من عناء أعمال الذهن . ـ تلك كانت الحياة التي أقضيها في بيت أهلي ، وصفتها بكل تفاصيلها لاتباهياً منّي وافتخاراً بثرائي ، بل لكي تدركوا أنّه لم يكن ذنبي أن أنحدر الى هذه الحالة التي تشاهدونني عليها بعد أن كنت في منزلة عالية . وعبثاً قضيت عمري وسط هذه المشاغل وفي عزلة قاسية تضاهي عزلة الدير لايراني أحد فيما كنت أظن اللهم إلا أهل البيت ، لأنني في الأيام التي كنت أذهب فيها لحضور مراسم القدّاس كنت أذهب مبكّراً جداً تصحبني أمّي وقهرماناتي ، وعلى وجهي نقاب وفي نفسي من الخجل والاستحياء مالم أكن أرى معه من الأرض أكثر

مماتطأه قدماي . ورغم ذلك فإنّ عيون الحب ، أو البطالة ، بتعبير أدق ، وهي أحدُ نظراً من عيون اللنُقُس ، قد أسلمتني الى مطاردات دون فرنندو ، وهذا اسم الابن الثاني للدوق الذي حدّثتكم عنه » .

ولم يكد فمها ينطق باسم دون فرنندو حتّى تغيّر وجه كردنيو وبدأ لونه يرتعد وبدنه يتغيّرالى حد ظنّ معه القس والحلاّق لمّا شاهداه أنّه قد انتابته إحدى نوبات جنونه التي سمعوا أنها كانت تنتابه بين الحين والحين . ولكن كردينيو لم يحدث منه إلا أنه كان العرق يتصبّب منه وكان يرتعد دون أن يتحرّك من مكانه ، ويثبّت نظراته في الفلاحة الحسناء وهو يتخيّل من هي . ولكنّها لم تنتبه لحركات كردنيو المتشنّجة واستمرّت في روايتها تقول :

« ولم تكد عيناه تلمحاني حتّى شعر- حسبما قال فيما بعد - باشتعال الغرام الذي كشف عنه فيما بعد . وحتّى أصل الى ختام قصة آلامي ، سأغفل الخطوات التي خطاها دون فرنندو للإفضاء إليّ بأمانيه . فرشا كل من في البيت ، وانهال على والدي بالهدايا والنعم ، وكانت الأيام أعياداً مستمرّة في الشارع الذي أقطن فيه ، وفي الليل كانت أناشيد المساء لاتدع النوم يطرق عيون أحد ، وكان يرسل مالاحصر له من البطاقات فتصل الى يدي لست أدري عن أي طريق ، وكلها مملوءة بكلمات الغرام ، وفيها من الألفاظ أقل مما فيها من الوعود والأقسام المغلظة . ورغم هذا فلا يمكن لأي شيء من هذا أن يليّن قلبي ، بل بالعكس كان يزيدني صلابة وكأنه ألد أعدائي ، حتّى كانت المجهودات التي يبذلها لإغرائي وكأنها بذلت لإثارتي وإثارة حنقي عليه . وليس ذلك لأنني كنت لا أعترف بقيمة دون فرنندو الشخصية أو لأنني كنت أريد أن أبادل عنايته بالإهانة لشخصه ، بل بالعكس كنت أشعر برضا تام حينما أجد تقدير فارس نبيل كهذا وحبّه لي ، ولم أستشعر ضيقاً من قراءة إطرائه لي في رسائله : لأنني أعتقد أننا معشر النساء ، مهما تكن دمامتنا ، نرتاح مدى الارتياح لدى سماع من ينعتنا بالجمال . لكنّ الأمر الذي حماني من الإغراء والميل هو حرصي على شرفي والنصائح المتّصلة التي كان أبواي يسديانها إليّ وقد استكشفا بسهولة نوايا دون فرندو الذي لم يبذل جهداً في الإفصاح عنها لدى جميع الناس . كان أبواي يقولان لي أنهما أودعا في فضيلتي كل شرفهما واعتبارهما ، وأن عليّ أن أقيس المسافة التي تفصل بيني وبين دون فرنندو لأدرك أن أغراضه كانت تتجه الى ملذّاته لا الى مصالحي على الرغم من أنّه كان يزعم العكس . وقالا لي إنني إذا كنت أريد أن أضع حداً لمحاولاته وأن أرغمه عن العدول عن ملاحقاته المهينة ، فإنهما على استعداد على تزويجي في الحال بمن أودّ اختياره من أهل المدينة أو من النواحي المجاورة ، فالناس جميعاً يرجون الكثير من ثرائهما ومن حسن سمعتي . هذا

الوعد ونصائحها التي شعرت بسدادها قوت عزيمتي الى حد أنني لم أشأ أن أردّ بكلمة يمكن أن يستشف منها دون فرنندو ولو من بعيد أي أمل في تحقيق أمانيه . وكل هذه الاحتياطات التي حسبها ازدراءً مني له قد ألهبت شواظ رغباته الآثمة : فهذا هو النعت الوحيد الذي أستطيع أن أصف فيه حبّه الذي أعلنه لي ، لأنّه لو كان حبه كما يجب ، لما أتيحت لي فرصة التحدّث إليكم عنه في هذه اللحظة . وأخيراً علم دون فرنندو أن أهلي يريدون تزويجي حتّى ينتزعوا منه كل أمل في الظفر بي ، أو على الأقل ليكون لي حرّاس يدافعون عنّي غيرهما . وهذا الخبر أو هذا الظن كانا كافيين ليحملاه على القيام بما سأرويه لكم الآن :

«ذات ليلة كنت وحدي في مخدعي ليس معي غير إحدى وصيفاتي ، وقد أغلقت الأبواب بكل عناية ، خوفاً من أن يسبب أقل إهمال في وضع شرفي موضع الخطر . وفجأة ودون أن أستطيع أن أتخيّل ماذا عسى أن يكون ، وسط عديد المشاغل وفي خلوة وصمت ، ظهر أمامي . فسبّب مرآه اضطراباً سلب من عيني بصرها ومن لساني نطقه ، حتّى إنّي لم أستطع أن أصرخ طلباً للنجدة ، وأعتقد أنه لم يكن ليدعني أصرخ ، لأنّه تقدّم اليّ في الحال وطوّقني بذراعيه ومنعني الاضطراب من دفعه عنّي ، وأنشأ يقول لي بعبارات لا أدري معها كيف يبرع الكذب في تزويقها حتّى تبدو كالحقائق . وشاء هذا الغادر أن يتبع كلماته بالدموع ليموّه عن صدق شعوره ، وبالزفرات يؤكّد بها سلامة نواياه . وأنا البنت المسكينة الوحيدة بين أهلي ودون خبرة في مثل هذه المواقف بدأت ـ لست أدري كيف ـ بدأت أصدّق هذه الأكاذيب ، ولكن دون أن تثير في نفسي أكثر من مجرّد الشفقة على زفراته وعبراته ، ولهذا وحينما ثبت الى رشدي بعد الوهلة الأولى قلت له بشجاعة لم أكن أصدّق أنني لاأزال أملكها : إن كانت حالي ياسيدي بين ذراعيك كحالي بين مخالب ليث غضوب وكان عليّ لتخليص نفسي بيقين أن أفعل أو أقول شيئاً ضد الفضيلة ، فلن يكون من الممكن أن أفعله أو أقوله تماماً مثلما أن ما وقع ألا يكون قد وقع . وإذن فإذا كنت تمسك بجسمي مشدوداً بين ذراعيك فأنا أيضاً أمسك بروحي محفوظة داخل عواطفي الطيبة وهي تختلف عمّا سترى من عواطفك إذ كنت تريد أن تستخدم العنف في تحقيقها . إنني من أتباعك ولكنّي لست من عبيدك : ونبالة جنسك لاتعطيك الحق في احتقار تواضع جنسي ، وتدنيس شرفه ، وإنّي لأقدّر نفسي ، أنا الفلاحة الوضيعة ، أنني مثلك أنت السيّد النبيل . وما لقوّتك من سلطان عليّ ولالثرائك نفوذ عندي ، وكلماتك لا تستطيع أن تخدعني ، ولا زفراتك ودموعك تثير الشفقة في نفسي . ولكنّي لو وجدت شيئاً مما أتيت على ذكره في شخص يختاره أبواي

زوجاً لي ، فإنّ إرادتي ستكون طوع إرادته وسأخلص له الى الأبد . فحتّى لو لم يشأ قلبي مادام شرفي سليماً فإنني أمنح عن طيب خاطر ما تريد أنت الآن أن تستولي عليه بالقوة . وأريد من هذا أن أقول إنني لن أمنح أحداً شيئاً إلا إذا كان زوجي الشرعي .

« فقال الفارس الغادر : إذا لم يكن في الأمر إلا هذا لإرضائك فها أنذا يا دوروتيه (وهذا اسم البائسة التي تتحدث إليكم الآن) أمدّ إليك يدي وأقسم أن أكون لك زوجاً وأشهد السماء على ذلك ولا يخفى عليها شيء ، كما أشهد صورة أم الإله المقدّسة القائمة أمامي الآن » .

وفي اللحظة التي سمعها كردينو تذكر دوروتيه انتابته حركة تشنّج وأيقن تمام اليقين بالرأي الأوّل الذي خطر بباله عنها . ولكنه لم يشأ أن يقطع حبل القصة التي توقّع والتي كان يعرف ختامها ، بل قال لها : « ماذا ياسيّدا! هل اسمك دوروتيه ؟ لقد سمعت أخباراً عن فتاة تسمّى بهذا الاسم ، كانت محنتها قريبة لمحنتك . ولكنّ أتمّي قصّتك وسيأتي الوقت الذي أفضي فيه إليك بأمور ستسبّب لك من الدهشة بقدر ماتثير من الشفقة » .

ولدى سماع دوروتيه لهذه الكلمات ألقت نظراتها إليه وتأمّلت ملابسه الزريّة الغريبة ، ورجته إذا كان يعرف شيئاً عنها أن يقوله في الحال ، ثمّ استمرّت تقول : « كل ماتركه لي الحظ هو الشجاعة على تحمّل المصائب التي تحلّ بي ، وأنا واثقة أنه لاتوجد مصيبة يمكن أن تزيد من شقائي » . ـ فأجابها كردنيو : « كنت أودّ ألا أضيّع دقيقة يا سيدتي لأقول لك ما أظنّه ، إذا كنت متأكداً أنني لا أخطئ التقدير ، ولكن الفرصة للإفضاء بذلك لم تحن بعد ، ولا يهمّك مطلقاً أن تعرفي ذلك بعد » . فقالت دوروتيه : « كما تشاء ، إنّي عائدة الى استئناف حديثي » .

« وأمسك دون فرنندو بصورة العذراء الموجودة في الغرفة ووضعها أمامنا لتكون شاهدة على خطبتنا وحلف لي بالأقسام المغلظة والأيمان المؤكّدة أنّه ليتعهّد أن يتزوّجني . لكن قبل أن يتم النطق مما حذّرته مما هو بسبيل فعله ولينظر فيما عسى أن يكون من غضب أبيه إذا علم أن ابنه سيتزوّج فلاحة من أتباعه ، ولايعمينّه جمالي ، لأنّ جمالي ليس عذراً كافياً عن خطيئته ، وقلت له إذا كان الحبّ يدعوك الى الاحسان اليّ ، فعليه أن يدعني أقترن بمن في مثلي منزلتي : لأنّ الزواج غير المتكافئ لا يمكن أن ينجح أبداً ، والسعادة التي يعطيها لا يمكن أن يطول أمدها . كل هذه الحجج والأسباب أوضحتها له هي وغيرها مما لا أذكره ، لكنّها لم تحد به عن خطّته ، مثله مثل من يستدين وفي نيّته ألا يدفع فلا يكترث لشروط الدين . وفي هذه اللحظة تحدّثت الى نفسي وقلت لها : « كلا ، لست أوّل فتاة يرفعها الزواج

من منزلة وضيعة الى منزلة عالية ، وليس دون فرنندو أوّل من أعماه الحب وأضلّته مفاتن الجمال فحمله على أن يتزوّج زواجاً لايتناسب مع علو أصله . ومادمت لا أريد أن أغيّر الدنيا ولاأن أخلق عادات جديدة ، فعندي الحق في اقتناص هذا الشرف الذي هيّأه لي الحظ ؛ فحتّى لو لم يدم غرامه بي الى أطول من تحقيق شهواته ، فإنني سأكون زوجة أمام الله ، كما أنّي إذا أردت إبعاده باحتقاري إياه وجفوتي عنه لصار الى حال ينسى فيها كل واجب ويستعمل القوة والعنف ، فأبقى بعد ذلك دون شرف ، بل ودون عذر مما ارتكبت من خطأ في نظر من لا يعرفون كيف قاومته . فما هي الحجج التي تستطيع أن تقنع أبويّ وغيرهما من الناس أن هذا الرجل قد دخل مخدعي دون إذني ولا برضاي ؟ » ـ كل هذه الأسئلة والأجوبة أثارها خيالي خلال لحظة ، بيد أنّ الشيء الذي بدأ يهزّني ويدفعني الى الهلاك دون أن أدري هو تلك الأقسام التي أقسم بها دون فرنندو ، والشهود الذين استشهد بهم ، والدموع التي ذرفها بغزارة ، وأخيراً مفاتن وجهه الوضيء وقد عزّزها حب صادق ، فكان هذا كلّه قادراً على أن يليّن القلب الحر الأبي العاقل مثل قلبي . دعوت وصيفتي لتكون شاهدة في الأرض الى جانب من استشهد بهم من السماء ، فعاد دون فرنندو يجدّد أقسامه الأولى ويؤكّدها ، ويحلف بقدّيسين آخرين ، ويستنزل آلاف اللعنات على رأسه إذا لم يف بعهده ، وامتلأت عيناه مرة أخرى بالدموع ، واشتعل فمه زفرات وأحكم ضمّي بين ذراعيه وكنت لم أستطع أن أخلّص من قبضتهما لحظة واحدة ، وأخيراً حينما غادرت وصيفتي الغرفة ، أتمّ تجريدي من شرفي وجريمة غدره .

«ولم يطلع صبح الليلة التي فقدت فيها شرفي بالسرعة التي كان يرجوها دون فرنندو ، كما خيّل اليّ ؛ فإنّه بعد أن أرضى شهواته الأثيمة لم يكن يودّ إلا البعد قدر المستطاع عن المكان الذي ارتكب فيه فعلته النكراء هذه . أو هذا هو ماخيّل اليّ حينما شاهدت دون فرنندو يعجّل الرحيل . وهذه الخادمة التي اقتادته الى مخدعي هي عينها التي اقتادته الى خارج المنزل قبل أن يتنفّس الصبح . ولمّا ودّعني كرّر مراراً توكيده لي بأن أطمئن الى ما وعد به حتّى اعتقدت صدق إيمانه وإخلاصه فيها ، وإن كان هذه المرة يقولها بحماسة أقل مما فعل حين مجيئه . وتوكيداً لكلامه انتزع من إصبعه خاتماً ثميناً وضعه في إصبعي . وأخيراً تركني ، وبقيت أنا على حال لست أدري أكانت حال حزن أم ابتهاج . وكل ما أستطيع أن أقوله أنني بقيت حائرة حالمة قد خرجت عن طوري تقريباً بسبب هذا الحادث ، دون أن يكون لديّ من الشجاعة ، بل من الفكر ما يجعلني أنتهر وصيفتي لخيانتها إيّاي بإخفائها دون فرنندو في غرفتي ، ذلك أنني لم أستطع أن أقرّر آنذاك

ما إذا كان قد حدث شرٌ أو خيرٌ . وقلت لدون فرنندو ساعة ارتحالةإن في وسعه اتخاذ نفس الطريق لزيارتي في الليل سراً مادمت قد أصبحت له ، الى أن يتيسّر إعلان زواجنا . ولكنه لم يعد إلا في الليلة التالية فحسب ، ولم أستطع أن أراه بعد ذلك ، لا في الطريق ولا في الكنيسة ، طوال شهر كامل أتعبت نفسي عبثاً في سبيل العثور عليه ، وإن كنت قد علمت علم اليقين أنه لم يبرح المدينة وأنّه كان يمارس الصيد في معظم الأوقات وكان بالصيد شديد الولوع . وإنّي لأعرف ، ويأسفاه كم كانت هذه الأيام طويلة عليّ وساعاتها مريرة ، وأعرف أنني بدأت أشك في إخلاص نيّته بل توقّفت عن تصديق عهده . وأعرف كذلك أنّ خادمتي قد سمعت منّي آنئذ التقريع الذي لم أوجهه إليها من قبل لجرأتها على فعلتها هذه ، وأخيراً أعلم أنني كنت أشتد على نفسي لأحبس دموعي وأستعيد رباط جأشي ، حتّى لاأحمل أبويّ على سؤالي عن سرّ حزني ولا أحمل نفسي على الكذب معهما . ولكن هذا الوضع المصطنع المغتصب لم يستمر طويلا . فسرعان ماجاء الوقت الذي فقدت فيه كل صبر ودست بأقدامي على كل اعتبار واحتشام ، فأطلقت لغضبي العنان وأعلنت سخطتي . وكان ذلك بعد مدة من الزمان لمّا أن انتشر بيننا خبر يقول إن دون فرنندو قد تزوّج من المدينة المجاورة بفتاة رائعة الجمال نبيلة المحتد . ولكنّها لم تكن من الثراء بحيث تطمع بمالها في مثل هذا القران السامي . وكان يقال إن اسمها لوسنده ، وتروى أشياء غريبة عمّا جرى أثناء مراسيم الخِطبة » .

فلمّا سمع كردينو اسم لوسنده لم يفعل إلا أن لوى كتفيه وقطّب حاجبيه وعضّ على شفتيه وأطلق على خدّيه جدولين من الدموع . بيد أنّ لوسنده لم تقطع حبل قصّتها واستمرّت تقول :

« وصل هذا النبأ الأليم الى مسامعي سريعاً ، ولكنّ قلبي بدلاً من أن يتجمّد لدى سماعه اشتعل بغيظ بلغ من شدّته أنني كنت على وشك الخروج من المنزل والسير في الطرقات العامة في المدينة وأنا أصيح بالخيانة التي كنت ضحيّة لها . ولكن هذا الغيظ هدأه خاطر سنح لي عن خطّة قمت بتنفيذها في الليلة التالية . فارتديت هذه الملابس التي أعطانيها أحد خدم أبي ، وهو من أولئك الذين يسمّون الزغل[1] Zagal عند المزارعين ، وقد أفضيت اليه بمغامرتي كلها البائسة والتمست منه أن يصحبني الى المدينة التي رجوت أن أجد فيها خصمي . فراح هذا الزغل يلومني على جرأة خطّتي وينصحني بالعدول عنها ،

(١) الكلمة الاسبانية Zagal مأخوذة من العربية هذه ، ويطلق في الاسبانية على « الفتى القوي الضحوك المملوء حيوية ، وعلى الراعي الشاب ، وعلى الصبي الذي يمسك السرج على عربات الحمل ويساعد الاسطى في مختلف الأعمال .

ولكنّه لمّا رأى تصميمي التام تطوّع لمرافقتي حتّى نهاية الدنيا ، كما قال . هنالك وضعت في حقيبة من التيل لباس امرأة ونقوداً وجواهر لاستخدامها عند الحاجة ، وفي جنح الليل ودون أن أقول شيئاً عن رحيلي لخادمتي الخائنة تركت البيت بصحبة الزغل وفي رأسي آلاف الأفكار المضطربة . فسرت في طريق المدينة على قدميّ ، ولكنّ الرغبة في الوصول جعلتني أطير حتّى أستطيع أن أسأل دون فرنندو بأي وجه تصرّف هذا التصرّف ، هذا إن لم استطع أن أمنع من حدوث مااعتقدت أنه حدث الى غير رجعة . فبلغت وجهتي في يومين ونصف يوم ودخلت المدينة وأنا أسأل عن منزل أهل لوسنده . وقد أجابني أوّل من سألته بجواب أعطاني أكثر مما كنت أريد السؤال عنه . دلّني على منزلها وقصّ عليّ كل ماجرى أثناء خطبتها ، وقد ذاع هذا الأمر في أرجاء المدينة حتّى أصبح حديث الناس المتداول على كلّ الأفواه ومادة أسمارهم . فقال لي إنه في الليلة التي احتفل فيها بزواج دون فرنندو من لوسنده بعد أن أجابت للقبول بالزواج منه قد أصابها إغماء طويل وأنّ زوجها حينما حلّ عناقه منها لتستنشق الهواء وجد بطاقة بخط لوسنده تقول فيها أنها لا يمكن أن تكون زوجة لدون فرنندو لأنها زوجة كردينو ـ وكردينو هذا فارس نبيل من نفس المدينة ، حسبما قال لي هذا الراوي ـ وإذا كانت قد وافقت على الزواج من دون فرنندو فما ذلك إلاّ لإطاعة أبويها . وفهم من هذه البطاقة فيما تضمّنته أن لوسنده قد قرّرت الانتحار عند إتمام مراسم الخطبة وأبدت حججها التي تحملها على التخلّص من الحياة . وهذه النيّة قد تأيّدت ـ فيما قيل ـ بوجود خنجر أخفته تحت ملابس زفافها . هنالك أدرك دون فرنندو أن لوسنده قد عبثت به وأهانته . فانقضّ عليها قبل أن تفيق من إغمائها ، وأراد أن يطعنها بنفس الخنجر الذي وجدوه في صدرها . وكان على وشك أن يطعنها لولا أن منعه من ذلك الأهل والحاضرون . ويضاف الى هذا أنّ دون فرنندو خرج في الحال ، وأنّ لوسنده لم تفق من إغمائها إلاّ الغداة ، ولمّا أفاقت قصّت على أبويها كيف أنّها الزوجة الحقيقية لكردنيو هذا الذي ذكرته . وعلمت بذلك ، من الشائعات الرائجة ، أنّ كردنيو اكتشف وجوده حاضراً مراسم الخطبة ، ولمّا رأى سيدته قد عقد قرانها ـ وهو أمر لم يكن يعتقد أنّه ممكن ـ غادر المدينة يائساً ، بعد أن كتب رسالة اشتكى فيها من الإهانة التي أصابته بها لوسنده ، وأعلن أنّه لن يعود . كل هذا كان حديثاً شائعاً في المدينة ، ولم يكن للناس حديث غيره . وزاد الحديث سعة لمّا علم الناس أنّ لوسنده اختفت من منزل أبيها ، ومن المدينة نفسها ، فقد بحثوا عنها عبثاً في أنحائها ، حتّى فقد أهلها صوابهم ، لما أعيتهم الذرائع للبحث عنها . فزادت كل هذه الأخبار في آمالي ، واعتقدت أنّ عدم عثوري على دون فرنندو أشدّ

إبهاجاً من العثور عليه متزوّجاً . وبدا لي في الواقع أنّ مصيبتي ليست بغير دواء ، وحاولت إقناع نفسي أنّه ربما وضعت السماء هذه العقبة غير المتوقّعة أمام هذا الزواج الثاني كيما يتذكّر عهوده بالنسبة الى الزواج الأوّل ولحمله على التفكير في أنّ مسيحي يهمّه خلاص روحه أكثر من كل الإعتبارات الانسانية . وأدرت هذه الخواطر كلّها في رأسي ، وأنا أواسي نفسي دون أن يكون ثمّ داعٍ للمواساة ، وأحلم بالآمال البعيدة لأقوى على حياةٍ صرتُ الآن أمقتها .

«وبينما كنت أتجوّل في المدينة دون أن أعرف ماذا أقرّر ، لأنّني لم أقابل دون فرنندو ، سمحت الصائح العام يعلن في الطرقات عن مكافأة سخيّة لمن يعثر عليّ أنا ، ذاكراً أوصافي : سنّي وقامتي وملابسي . وسمعتهم يقولون إن الخادم الذي صحبني قد اختطفني من منزل أهلي . وهذه ضربة جديدة نفذت الى صميم نفسي ، إذ رأيت الى أي درك من الإنحطاط هبطت سمعتي وأنا في حالة من اليأس بالغة ، فلم يكفِ أنني فقدت سمعتي بهروبي بل زاد الأمر نكراً بأن جعلوا شريكي في ذلك شخصاً وضيع المنزلة لايمكن أن يخطر ببالي أن أهرب معه . فلم أكد أسمع هذا الإعلان حتّى تركت المدينة يتبعني خادمي ، وبدأ خادمي يبدي تردّداًفي الإخلاص المطلق الذي تعهّد لي به . وفي الليلة نفسها نفذنا الى أعماق هذه الجبال خشية أن يكتشف أحد من الناس أمرنا . ولكنّ المصائب تتداعى ، كما يقولون ، ونهاية مصيبة هي في العادة بداية لمصيبة أكبر . وهذا ماحدث لي ، إذ لم يكد خادمي الطيّب الذي كان حتّى ذلك الوقت أميناً وفيّاً يخلو بي في هذه القفار حتّى أراد انتهاز الفرصة التي هيأتها له خلوتنا المطلقة ، مدفوعاً بنزالته أكثر من أن يكون مدفوعاً بمفاتني . ودون توقير لشخصي أو خشية من الله ، تجاسر على أن يوجّه اليّ عبارات قبيحة ، ولمّا رأني أرفض عباراته الوقحة بازدراء بالغ ، توقّف عن التضرعات التي بدأ محاولاته بها ، وراح يستعمل القوة معي . ولكن السماء العادلة التي تأتي بالعون لذوي النوايا الطيبة ولاتبخل عليهم بالنجدة إلا نادراً ، قد أعانتني حتّى استطعت رغم قلة قوّتي أن أدفع به في هاوية تركته فيها ، حيّاً أو ميّتاً لست أدري ـ وهذا دون كبير مشقّة . وفي الحال نفذت الى أعماق هذه الجبال بأسرع مما بدا أن التعب والخوف يسمحان به ، دون غرض آخر غير الإختفاء فيها والنجاة من أهلي أو ممن يبعثون للبحث عنّي . ويرجع هذا كلّه الى قبل عدّة أشهر . وسرعان ماالتقيت براعي قطعان حسبني راعياً واقتادني الى قرية صغيرة في قلب الجبل . وبقيت في خدمته حتّى ذلك الحين ، عاملة على البقاء في البرّية طوال النهار حتّى أخفي هذا الشعر الذي كشف لكم عن حقيقتي دون أن أعلم . لكنّ مهارتي

وحرصي ذهبا هباءً في النهاية . إذ اكتشف سيّدي أنني لست صبيّاً ، وأحسّ بنفس الشهوات الأثيمة التي دارت في نفس خادمي . ولكنّ الحظ لا يعطي وسيلة الخلاص دائماً الى جانب الخطر ، ولم أجد هاوية ألقي فيها سيّدي بعد أن القيت في مثلها خادمي ، فوجدت أنّ الأفضل أن أهرب واختفيت مرة أخرى في هذه القفار الموحشة ، بدلاً من أن امتحن معه قواي أو انتهاري له . فعدت إذن أبحث ، في هذه الصخور والغابات ، عن مكان أستطيع فيه أن أبث ـ دون خطر ـ شكاتي الى السماء وأذرف دموعي ، وأسترحمها أن تعطف عليّ في محنتي ، وأن تهبني إحدى الحسنيين : فإمّا أن تنهي حياتي ، أو تدعها طليقة في هذه الخلوات حيث تدفن ذكرى منكودة كانت ـ عن براءة ـ موضوعاً لألسن السوء تنتاش سمعتها » .

الفصل التاسع والعشرون

في الحيلة اللطيفة التي بُذلت لاستخلاص فارسنا العاشق من المجاهدات القاسية التي كان يقوم بها

« هذه ، يا سادتي ، القصة الحقيقية لمغامراتي الأليمة . فشاهدوا واحكموا الآن ماإذا كانت الزفرات التي سمعتموها تنبعث من كلماتي ، والدموع التي شاهدتموها تنحدر من عيوني كان ثمّ مايبرّر انطلاقها بغزارة . إذا نظرتم في طبيعة محنتي فسترون أنّ كل تعزية لاطائل تحتها ، لأنّ العلاج مستحيل . لهذا لست أسألكم إلاّ أمراً واحداً من السهل عليكم أن تحققوه لي ، ألا وهو : أن تدلّوني على موضع أستطيع أن أقضي فيه عمري دون أن أتعرّض لفقده في كل لحظة بسبب الخوف ودواعي الاضطراب ، لأنّي أخشى أن يعثر عليّ الذين يبحثون عنّي . نعم أنا أعلم جيّداً أن حنان والديّ عليّ حنان بالغ يجعلهما يحسنان استقبالي ، بيد أنّي أشعر بعار شديد من مجرّد تفكيري في أنّي سأبدو في حضرتهما على غير ماكان يأملان ، حتّى إنّي لأفضّل أن أبعد عنهما نهائيّاً عن أن أقرأ في سيمائهما أنهما لم يعودا يشهدان في وجهي الطهارة والبراءة اللتين كانا ينتظرانهما من ابنتهما » .

ولمّا أتمّت هذه الكلمات سكتت ، وعلتْ وجهها حمرة أظهرت بجلاء ما امتلأت به نفسها من أحزان واضطراب . أمّا الذين استمعوا الى قصّتها فقد أحسّوا في أعماقهم بالعجب والشفقة . وأراد القسُّ المبادرة الى مواساتها ونُصحها ، ولكنّ كردينو سبقه وقال :

ـ ما هذا يا سيّدتي! ألأنت دوروتيه الجميلة ، الابنة الوحيدة لكلينر دوالثري!

فدهشت دوروتيه لمّا سمعت اسم أبيها وشهدت ضآلة مظهر من نطق به ، فنحن نعلم كيف كان ملبس كردنيو آنئذ .

فقالت دوروتيه : من أنت يا أخي حتّى تعرف اسم أبي ؟ إنني لم أذكر اسمه مرة واحدة خلال حديثي كلّه ، إذا لم تخنّي الذاكرة .

فقال كردنيو : أنا ذلك البائس الذي قالت عنه لوسنده أنه زوجها ، حسبما قلت

ياسيّدتي ، أنا كردنيو البائس الذي وضعه غدر من ألقى بك في هذه الحال ـ وضعه في الحال التي ترينني عليها الآن : عارياً ممزّقاً ، محروماً من كلّ عزاءعلى الأرض ، وأفظع من هذا محروماً من العقل ، لأنني لاأملك عقلي إلاّ في اللحظات القليلة التي تشاء السماء أن تجعلني أنعم به فيها . أجل يادوروتيه ، أنا شاهد سفالات دون فرنندو وضحيّتها ، أنا الذي انتظرت حتّى نطقت لوسنده بقبولها القاتل الزواجَ من دون فرنندو ، ولكنّي لم أكن من الشجاعة لأنتظر حتّى أرى الى أي شيء سينتهي إغماؤها وأرى اكتشاف البطاقة التي أخفتها في صدرها ، وذلك لأنّ روحي لم يكن فيها من القوّة ماتستطيع معه احتمال هذه المصائب كلّها دفعة واحدة . لقد غادرت المنزل لمّا أن عيّل صبري وتركت لصاحبي كتاباً رجوته أن يسلّمه الى لوسنده يداً بيد ، وجئت الى هذه القفار على قصد أن أنهي فيها حياتي ، حياتي التي صارت منذ ذلك الحين وكأنّها ألد أعدائي . لكنّ السماء لم تشأ أن تنتزع منّي حياتي ، واقتصرت على أن انتزعت منّي عقلي ، ولعلّها احتفظت بي لألقاك اليوم . لأنّ إذا كان كل ما قلته صحيحاً ـ وهذا ما أعتقد ـ فمن الممكن أن تكون السماء قد هيأت لكلينا نهاية أفضل لمصائبنا ، أفضل مما كنّا نظن . فإن صحّ أنّ لوسنده لاتستطيع أن تتزوّج دون فرنندو ، لأنّها لي ، كما أعلنت ذلك بكل صراحة ، ولايستطيع دون فرنندو الإقتران بها لأنه لك ، ففي وسعنا أن نرجو أن تعيد لنا السماء ما هو لنا ، لأن هذه الأشياء لاتزال موجودة لم تتحطّم ولم يمتلكها الغير . والآن وقد بقيت لنا هذه السلوى غير المستندة الى خيالات جنونية وأماني وهمية فإنّي أتضرّع إليك ياسيّدتي أن تتخذي في خاطرك قراراً جديداً شبيهاً بالقرار الذي أفكّر في أن أتّخذه لنفسي ، وأن تقتصري على الأمل في مستقبل أفضل . أمّا عن نفسي فإنّي أقسم بشرفي وديني ألا أتركك قبل أن تُردّي الى دون فرنندو . فإن لم أستطع إقناعه بأن يعترف لك بحقوقك عليه ، إقناعه بالحسنى والبرهان ، فسأستعمل برهاناً آخر يمليه مركزي بوصفي رجلاً مهذّباً ، وذلك أن أدعوه لمبارزتي بسبب ماأصابك به من غير سبب ، دون أن أتذكّر إهاناته لي ، تلك الإهانات التي أترك عقابه عليها للسماء ، حتّى لاأشغل نفسي إلا بالإنتقام من إهاناته لك على الأرض » .

وزاد كلام كردنيو هذا من دهشة دوروتيه فلم تدر كيف تشكر له تطوّعه لخدمتها حتّى كادت أن تجثو عند قدميه وتقبّلهما ، بيد أنّ كردنيو منعها من ذلك . وتكلّم عنها حامل الإجازة ، فحبّذ مشروع كردنيو وأقنعهما ـ بالنصح والرجاء ـ أن يصحباه الى قريته للتزوّد بأشياء تنقصهم والاتفاق على خطة للبحث عن دون فرنندو وإعادة دوروتيه الى منزل أهلها ، أو عمل أنسب الأشياء في هذا الموقف ـ فوافق كردنيو ودوروتيه على ما اقترحه شاكرين .

والحلاّق الذي اعتصم بالصمت حتّى ذلك الوقت ألقى هو الآخر كلمة صغيرة وتطوّع عن طيب خاطر لخدمتهما قدر مايستطيع . ثمّ قصّ بإيجاز السبب الذي دعاهما الى الحضور الى هذا المكان ، وجنون دون كيخوته الغريب ، وهما كانا في انتظار حامل سلاحه الذي أرسلاه بحثاً عنه . هنالك تذكّر كردينو ـ وكأنه في حلم ـ تذكّر النزاع الذي وقع له مع دون كيخوته ، وروى هذه الحادثة دون أن يستطيع أن يبيّن سبب هذا النزاع . وفي هذه اللحظة سُمعت نداءات ، تعرّف فيها القس والحلاّق صوت سنشو پنثا الذي لم يجدهما في المكان الذي تركهما فيه فراح يناديهما بأعلى صوته . فذهبا جميعاً لملاقاته ، ولمّا سألوه باهتمام عن أنباء دون كيخوته ، روى لهم سنشو كيف وجد مولاه : عارياً عليه قميص فقط ، جاف العود ، منقوف البدن ، شاحب اللون ، يموت من الجوع ، ولكنّ يتنهّد دائماً من أجل سيدته دلثنيا . وأضاف :

ـ « ولقد قلت له إنها تأمره بمغادرة هذا المكان والذهاب الى توبوسو حيث تنتظره ، فأجابني أنه لايريد المثول أمام مفاتنها قبل القيام بمجاهدات خطيرة تجعله جديراً برضاها السامي . ولكن الواقع أنه إذا استمر مولاي في هذه المجاهدات أكثر من هذا فإنه يخشى عليه ألا يصبح إمبراطوراً كما أخذ على عاتقه أن يكون ، بل وألاّ يصبح رئيس أساقفة وهو أقل منصب يليق به . فانظروا إذن في الوسيلة التي يمكن بها انتزاعه مما فيه » .

فقال حامل الإجازة لسنشو لاعليه من هذا ، وإن من السهل انتزاع مولاه من مجاهداته تلك ، مهما يكن غيظه من ذلك . وفي الحال قصّ على كردنيو ودوروتيه الوسيلة التي اتخذاها لعلاج دون كيخوته ، أو في القليل لإعادته الى بيته . هنالك تطوّعت دوروتيه عن طيب خاطر لتمثل دور السيدة المحزونة ، فهي تقوم بهذا الدور خيراً من الحلاّق ، فمعها ملابس نساء تهيّئ لها تمثيل ذلك بصورة طبيعية ، وقالت إن في وسعهم الإعتماد عليها في مهمة تمثيل هذه الشخصية ضماناً لنجاح الخطة ، لأنها قرأت الكثير من كتب الفروسية وتعرف الأسلوب الذي به يخاطب الآنسات المحزونات الفرسان الجوّالة حينما يطلبن اليهم القيام بمهمة . فقال القس :

ـ « حسناً! ماعلينا إلا الشروع في التنفيذ فوراً ، والحق أن الحظ معنا ، إذ لم تخطرا أنتما في بالنا أبداً ، وهاهو ذا يبسم الحظّ لنا فيفتح للأمل باباً ويوجد لنا فيكما العون الذي كنّا في حاجة إليه » .

هنالك انتزعت دوروتيه من الحزمة التي تحملها غلالة من النسيج الفاخر الدقيق وشالاً من الديباج الأخضر ، كما أخرجت من مثبنتها عقداً من اللؤلؤ وجواهر أخرى . وفي لحظة

تزيّنت حتّى بدت سيدة جليلة غنية . وكل هذه الأثواب قد حملتها ـ فيما قالت ـ من منزل أهلها لاستخدامها عند الحاجة ، لكن لم تتح لها الفرصة حتّى ذلك الوقت لاستخدامها . فسحرتهم جميعاً بكامل لطافتها وروعة جمالها ، وحسبوا دون فرنندو رجلاً مأفوناً لرفضه هذه المفاتن كلّها . وأكثرهم دهشة وإعجاباً كان سنشو پنثا ، فإنه لم يشاهد أبداً طوال حياته مخلوقاً بهذا الجمال . لهذا بادر يسأل القس من هذه الحسناء وعمّاذا تبحث في هذه القفار . فقال القس :

ـ هذه الحسناء ، يا صديقي سنشو ، هي الوريثة المباشرة ، أباً عن جد ، لمملكة ميكوميكون الواسعة الأرجاء ؛ وقد جاءت للبحث عن مولاك لترجوه أن يمنحها فضل القيام برد إهانة أصابها بها مارد غدّار . وقد جاءت هذه الأميرة تسعى من شواطىء غينيا للبحث عن مولاك بعد أن طبقت شهرته الآفاق بوصفه فارساً مجيداً .

فصاح سنشو نشوان : ما أجمل السعي ، وأروع اللقية! خصوصاً إذا حالف الحظ مولاي فانتقم لهذه الإهانة ورد الإعتبار ، فقتل هذا المارد الشرّير العجيب الذي ذكرته . وأيمّ الله إنه لقادر على قتله اللهم إلا إذا كان شبحاً ، لأنّ مولاي لا يقوى على الأشباح . ولكن ياسيّدي أطلب منك خدمة . وذلك أنه منعاً من أن يخطر ببال مولاي أن يصبح رئيس أساقفة ـ لأنّ هذا هو كل ما أخشاه ـ فإنك تحسن صنعاً لو نصحته بالإقتران فوراً بهذه الأميرة ؛ وبهذه الطريقة يستحيل عليه أن يُرسم رئيس أساقفة ، ويقتنع بسهولة بالإكتفاء بمنصب امبراطور ، وهذا هو غاية ما أتمنّاه . وبصراحة أقول لك إنني فكّرت في الأمر جيّداً وحسبت لكل شيء حساباً فوجدت أنه ليس من مصلحتي أن يكون مولاي رئيس أساقفة ، ذلك لأنني لا أصلح لشيء في الكنيسة ، لأنني متزوّج ، وقيامي بالسعي والإنفاق الآن من أجل الحصول على معاش من الكنيسة ، وعندي امرأة وأولاد ، هذا أمر سيطول الى غير نهاية . وعلى هذا فزبدة المسألة يا سيدي هي أن يتزوّج مولاي في الحال بهذه السيّدة التي لا أستطيع أن أسمّيها باسمها لأنني لا أعرفه بعد ،

فقال القس : اسمها الأميرة ميكوميكونا ، لأنّ مملكتها تسمّى ميكوميكون ، فمن الواضح أنّ اسمها يجب أن يكون كذلك .

فقال سنشو : بلا شك ، وقد شاهدت ناساً يتخذون أسماء أسرهم من المكان الذي ولدوا فيه ، فيسمّون : بدرو القلعي أو خوّان الأُبذي Juan de Ubeda أو دييجو البلدوليدي ، ولابد أن يكون العرف جارياً كذلك في غينيا ، فتتخذ الملكات أسماء الملكة .

فقال القس : هذا محتمل . أمّا عن زواج مولاك ، فاعلم أنني سأبذل كل ما في وسعي من بلاغة للوصول الى تحقيقه .

ورضي سنشو بهذا الوعد تماماً كما دهش القس من سذاجته ، وأدرك كيف أنّ عدوى جنون مولاه قد انتقلت الى سنشو بحيث اعتقد هذا فعلاً أنّ مولاه سيصبح امبراطوراً ذات يوم .

وأثناء هذا الحديث ، كانت دوروتيه قد امتطت صهوة بغل القس ، ووضع الحلاّق في ذقنه لحية من ذيل البقرة . ثمّ طلبوا من سنشو اقتيادهم الى حيث يوجد دون كيخوته بعد أن حذّروا سنشو وأكّدوا عليه ألا يبدو عليه مايدل على أنة يعرف القس والحلاّق ، ففي هذا ضمان نجاح السحر الذي سيجعل مولاه امبراطوراً . أمّا القس وكردنيو فلم يرغبا في صحبتهم : كردنيو خوفاً من أن يتذكّر دون كيخوته النزاع الذي وقع له معه ، والقسّ لأنّه لم يكن ثمّ فائدة من حضوره آنذاك . لهذا تركا الآخرين يسبقونهما ، وتبعاهم على الأقدام دون إسراع . ورأى القس من الأفضل تلقين دوروتيه دورها ، ولكن هذه طمأنته من هذه الناحية وأكّدت له أنّ كل شيء سيسير تماماً وفقاً للأوصاف الواردة في كتب الفروسية .

وبعد أن سارت وصاحبيها ثلاثة أرباع فرسخ ، اكتشفوا دون كيخوته بين مجموعة صخور متكاثفة ، وقد لبس ملابسه دون سلاحه . فلم تكد دوروتيه تلمحه وتعرف من سنشو أنه دون كيخوته حتّى حثّت فرسها المطهّم يتبعها الحلاّق بلحيته . ولمّا اقتربوا منه وثب السائس من فوق بغلته وأخذ دوروتيه من بين ذراعيها فنزلت الى الأرض بخفّة ورشاقة ، وألقت بنفسها عند قدمي دون كيخوته ، وهي تتحدّث إليه بهذا الكلام :

ـ كلاّ ، لن أنهض من مكاني هذا ، أيها الفارس الشجاع المروّع ، إلا إذا شاء فضلك السابغ أن تمنحني فضلاً يزيد من شرفك وعلو صيتك ويفيد آنسة أهينت أبلغ إهانة ولن تنفع فيها السلوى ، فإن كانت قوّة ذراعك التي لا تقهر جديرة بصوت شهرتك الخالدة ، فإنّك مضطر الى أن تهب لنجدة فتاة بائسة جاءت من أقاصي الدنيا اقتفاء لصيتك الذائع لتجد لديك علاجاً لمصائبها .

فقال دون كيخوته : أيتها السيدة الحسناء النبيلة! لن أجيب بكلمة ولن أسمع شيئاً مما جرى لك قبل أن تنهضي من الأرض .

فقالت الآنسة المنكودة : وأنا لم أنهض قبل أن يتعطّف عليّ أدبك فتمنحني ماأنا طالبة .

فأجابها دون كيخوته : منحتك سؤالك ، بشرط ألا يكون في تحقيقه مايضرّ أو يسيء الى شرف ملكي ووطني وتلك التي بيدها مفتاح قلبي وحرّيتي .

فقالت الأنسة المحزونة : كلاّ ، لن يضرّ أو يسيءالى شرف أحد ممن ذكرت .

وكانت على وشك استئناف كلامها حينما اقترب سنشو من أذن سيّده وهمس له فيها قائلاً :

ـ سيّدي! إن سيادتك تستطيع أن تمنحها ما تطلبه ، فما تطلبه أمر تافه جداً ، وهو أن تقتل مارداً ثقيلاً ، والتي تطلب إليك هذه الخدمة هي الأميرة السامية القدر ميكوميكونا ، ملكة دولة ميكوميكون العظيمة في الحبشة .

فقال دون كيخوته : أيّاً من كانت فإنّي سأفعل مايمليه عليّ الواجب والضمير وفقاً لقواعد مهنتي .

ثمّ اتجه الى الأنسة بالحديث قائلاً : فلينهض جمالك الرائع ، فقد منحته كل ما يلذ له أن يطلبه .

فقالت الآنسة : إنّ ماأسألك هو أن يتفضّل شخصك العظيم فيأتي معي فوراً الى حيث أقتاده وأن يعدني بعدم الدخول في أية مغامرة وألاّ يتدخّل في أية مشاجرة قبل أن يثأر لي من خائن اغتصب مُلكي ، بغير حق من حقوق الأرض والسماء .

فقال دون كيخوته : أعود فأؤكّد أنني أمنحك سؤالك ، وفي وسعك ياسيّدتي أن تمسحي الحزن عن وجهك وتجدّدي أملك المتداعي . فبعون الله وبفضل ساعدي هذا ، ستعودين قريباً الى مملكتك وتجلسين على عرش دولة أجدادك العظيمة ، رغماً عن كل الأوغاد الذين قد يقفون في الطريق . هيّا بنا إذن الى العمل ، ففي التأخير يكمن التقصير ، كما يقول المثَل .

هنالك تظاهرت الأنسة الراجية عونه بالرغبة في تقبيل يده ، ولكن دون كيخوته ـ وكان في كل مناسبة فارساً نبيلاً مهذّباً ـ لم يوافق على هذا أبداً . بل أنهضها وعانقها باحترام ، وأمر سنشو بشدّ السرج على روثينانته وأن يحضر له سلاحه في الحال . فانتزع حامل سلاحه الأسلحة وكانت معلّقة كالغنيمة على فروع شجرة سنديان . وبعد أن رتّب السرج على الدابة ألبس مولاه سلاحه في لحظة . فلمّا اكتمل له سلاحه صاح :

ـ هيّا بنا لنجدة هذه الأميرة الجليلة ، بعون الله .

أمّا الحلاّق فكان لايزال راكعاً ، حريصاً على ألا ينطق بالضحك أو تسقط لحيته منه ، خوفاً من أن يؤدّي سقوطها الى إخفاق خطّتهما الحكيمة هذه . فلمّا رأى أن دون كيخوته تفضّل بالمنحة وكيف تهيّأ دون كيخوته للتنفيذ بكل حماسة ، نهض وأخذ سيدته من يدها ، وحملها الى كاهل البغلة بمساعدة الفارس دون كيخوته الذي امتطى صهوة روثينانته بكل رشاقة ، واستقام الحلاّق على ظهر دابته ، أمّا سنشو المسكين فقد ظلّ على قدميه مما جدّد في أحزانه وأشعره بمصابه في فقد حماره . ولكنّه صبر وتجلّد ، إذ بدا له أنّ سيده قد أوشك

أن يصبح إمبراطوراً ولم يعد لديه أدنى شك في أنّ دون كيخوته سيقترن بالأميرة ، وبهذا يصبح على الأقل ملكاً لمملكة ميكوميكون . ولكنّ هناك شيئاً واحداً أزعجه : ألا وهو أن هذه المملكة في بلاد الزنوج وأن القوم الذين سيصبحون أتباعه كلهم سود . ولكنّ خياله سرعان ماأسعفه وقال لنفسه : ماذا يهمّني إن كان كل أتباعي زنوجاً ؟ ماذا عليّ حينئذ أن أفعل ـ اللهم إلا أن أحزمهم جميعاً وأبعث بهم الى اسبانيا حيث أستطيع بيعهم بالدنانير الرنّانة ؟ وبهذا المال اشترى لقباً أو وظيفة تكفل لي العيش بقية عمري دون هموم . هذا هذا! أو تظن أن ينام المرء ملء جفنيه ولايكون لديه ذكاء ولا قريحة للإفادة من الظروف واستغلال هذه المسألة ، وبيع ثلاثين أو عشرة آلاف تابع كما يحرق الإنسان حزمة من القش ؟ آه! أيّاً من كنت ، صغيراً أو كبيراً ، فإنّ في وسعي أن أنجح بهذه المسألة ، وأن أحيلهم في جيبي الى بيض أو صفر ، حتّى لو كانوا سوداً مثل روح ابليس . تعالوا ، تعالوا ، وسترون إذا كنت أمصّ إصبعي[١] .

ومشى سنشو ملياً بهذه الأحلام مشغولاً بها راضياً رضيً أنساه تعب المشي على الأقدام .

هذا المشهد الغريب كلّه قد ظلّ كوردنيو والقس يراقبانه من خلال الأعشاب ولايدريان أيّة حيلة يتذرعان بها للإنضمام الى سائر الركب . ولكنّ القس ، وكان واسع الحيلة ، سرعان ما تنبّه الى مايمكن تدبيره للخروج من هذا المأزق . فأخذ مقصّاً كان معه وحلق لحيته كردنيو بعناية ، ودثّره بمعطف أسمر كان يلبسه وألبسه بنيقة سوداء ، ولم يحتفظ لنفسه إلا بسرواله وصدريته . فتغيّرت هيئة كردنيو بهذا الملبس تغيّراً لو شاهده في مرآة لأنكره ، ولمّا أتمّا ذلك وعلى الرغم من أنّ الركب قد سبقهما بمسافة طويلة ، فقد استطاعا الوصول الى الطريق العام قبلهم ، لأن الصخور والحشائش الغليظة كانت تعترض الطريق فلا تسمح للراكبين بالسير بسرعة الراجلين . ولمّا وصلا الى السهل توقّفا عند مخرج الجبل ، ولم يكد القس يلمح دون كيخوته مصحوباً بمن معه قادماً حتّى تفرّسه بدقة ، وأبدى حركات من يحاول تعرّفه . وبعد أن تفحّصه طويلاً ، أقبل عليه بذراعين مفتوحتين وهو يصيح بأعلى صوته :

ــ أهلاً وسهلاً بمرآة الفروسية مواطني دون كيخوته المنتشاوي ، زهرة الشهامة وزبدتها ، وعماد المحزونين ودرعهم الواقي ، وخلاصة الفرسان الجوّالة .

---

(١) كناية عن بلاهته ، أي أنه ليس أبله الى هذا الحد .

وكان وهو يقول هذا الكلام يعانق ركبة دون كيخوته اليسرى ، فبهت دون كيخوته مما فعله هذا الرجل وراح يتفرّسه باهتمام ، وأخيراً تعرّفه من هو .

ودهش دون كيخوته دهشة عجيبة من عثوره على القس في هذا المكان ، وسرعان ماحاول النزول من فرسه ، لكنّ القس لم يوافي . فقال دون كيخوته :

ـ سيّدي صاحب الإجازة! دعني أنزل ياسيّدي ، فلا يليق بي أن أظل على صهوة جوادي ، بينما فضيلتك راجل .

فقال القس : لاأقبل ذلك أبداً ، بل جلالتك يبقى على صهوة فرسه ، لأن جلالتك إنما يواجه أعظم المغامرات ويقوم بأخطر الأعمال التي عرفها عصرنا هذا وهو ممتط صهوة جواده . أمّا أنا ، القس الحقير ، فيكفيني أن أركب ردفاً على بغلة أحد هؤلاء السادة الذين يسيرون في موكب جلالتك ، إن تفضّلوا وتنازلوا ، وسأعتقد أنني أركب الفرس بيجاس(١) أو حمار الوحش الذي كان يحارب عليه المراكشي الشهير مُزرّق الذي لايزال يوجد مسحوراً في كهف سليمة بالقرب من مدينة كومبلوتو(٢) .

فقال دون كيخوته : لم أنتبه لهذا ، أي سيّدي صاحب الإجازة ، ولكنّي متأكّد أن الأميرة الجليلة ستوافق ـ إرضاء لي ـ أن تأمر سائسها أن يتنازل لسيادتك عن ظهر بغلته وأن يكتفي بالإرتداف خلفك ، مادامت الدابة تحتمل ركوب اثنين .

فقالت الأميرة : نعم ، فيما أحسب . ولكنّي أعلم أنه ليس من الضروري إعطاء أوامر للسائس ، لأنه من الأدب والتهذيب والعلم بقواعد المروءة بحيث لا يرضى أن يمشي رجل الدين على قدميه مادام يستطيع الركوب .

فقال الحلاّق : طبعاً ، لا ـ ثم نزل من البغلة ، وعرض على القس أن يركب . فوافق القس دون إطالة في المجاملات . ولكن المصيبة هي أن البغلة كانت بغلة في الأجرة ، أي أنها بغلة رديئة . فلمّا أراد الحلاّق أن يرتدف قمصت ورفست رفستين لو أصابتا بطن الاسطى نقولا أو رأسه للّعن ميلاد دون كيخوته . على أنّ هاتين الرفستين قد هزّته بعنف حتّى سقط على الأرض بشدّة ، دون أن يهتم بلحيته ولهذا سقطت منه اللحية من الجانب الآخر . فلمّا رأى أنه أضاع لحيته لم يجد خيراً من أن يخفي وجهه بكفّيه ويشكو من أنّ الدابة اللعينة قد حطّمت فكّيه . ولمّا شاهد دون كيخوته هذه الحزمة من الشعر وليس معها

(١) بيجاس Pegaso فرس أسطوري مجنّح ، صعد الى السماء وتحوّل الى مجموعة كواكب تحمل اسمه .

(٢) عند الجنوب الغربي من كومبلوتو الكبرى (قلعة هنارس ، موطن ثربنتس) توجد رابية كبيرة تسمى سفح سليمة كانت الموضع الأصلي القديم لمدينة كومبلوتو القديمة ، كما تشهد على ذلك الآثار الباقية .

لحم ولا دم وقد قذف بها بعيداً عن وجه السائس ، صاح : ـ الله أكبر ، هذه معجزة كبرى! لقد نزعت منه اللحية من الذقن كالشعرة من العجين!

هنالك بادر القسّ ـ وقد خشي على لحيته أن تفتضح ـ بجمع أشتات اللحية وحملها الى حيث يرقد الاسطى نقولا وكان هذا لايزال يصرخ صرخات مخنوقة ، وحمل رأسه الى بطنه ورتّب له اللحية بعقدة واحدة وهو يتمتم ببضع كلمات قال أنها تعويذة مفيدة جداً في استرداد اللحية . والواقع أنه لم يكد يلصق الذيل (اللحية) حتّى ابتعد ، وشوهد السائس سليماً معافى ذا لحية كما كان من قبل . فدهش دون كيخوته كل الدهشة من هذا العلاج ، والتمس من القس أن يعلّمه هذه التعويذة ، حينما يتهيّأ الوقت ، فلا بد أن يكون تأثيرها أكبر من مجرّد لصق اللحى ، إذ من الواضح أنه إذا انتزعت اللحية جرح اللحم ، فإذا كانت التعويذة قد عالجت الكل فيجب أن تكون نافعة في اللحم كما في الشعر سواء بسواء . ورافاه القس على رأيه ، ووعده بأن يعلّمه التعويذة في أوّل فرصة تسنح .

هنالك تقرّر أن يركب القس وحده على البغلة ، ومن حين الى حين يتناوب الحلاّق وكردنيو الركوب عليها مكان القس ، الى أن يصل الركب الى الفندق ، وهو على بعد فرسخين . ثلاثة إذن كانوا راكبين : دون كيخوته ، والقس ، والأميرة ، وثلاثة كانوا راجلين هم كردنيو والحلاّق وسنشو پنثا . وقال الفارس للأميرة : «اقتادينا جلالتك الآن حيث تشائين» . ولكن قبل أن تجيب تكلّم حامل الإجازة (القسّ) فقال : «الى أي مملكة تريد عظمتك اقتيادنا ؟ الى مملكة ميكوميكون ؟ هذا ما يخيّل اليّ ، وإلاّ فأنا قليل البضاعة من العلم بالممالك» . وكانت دوروتيه حاضرة البديهة ، ففهمت بماذا تجيب ، وقالت : «نعم ياسيّدي ، إنني متوجّهة الى تلك المملكة» . فقال القس : «في هذه الحالة ، لابد من المرور خلال قريتنا ، ومن هناك نسلك طريق قرطاجنة ، حيث يمكنك الإبحار باسم الله وفي حفظه ، فإن جرت الريح بما نشتهي وكان البحر هادئاً والسماء بلا عواصف ، فيمكن في مدى تسع سنوات أو أقل قليلاً أن تبصري بحيرة ميونا العظيمة ، أقصد ميوتيدس ، التي لاتبعد إلا مائة يوم عن الطريق الى مملكة عظمتك» .

فقالت : يخيّل اليّ ياسيّدي أنك أخطأت ، لأنه لم تمض بعد سنتان على مغادرتي لمملكتي ، ودون أن يكون الجو ملائماً ، ورغم ذلك فقد بلغت أربي بلقاء قبلة آمالي أعني السيد دون كيخوته المنتشاوي الذي ملأت شهرته أسماعي منذ أن وصلت الى اسبانيا . وإن الضجة التي أثارتها مغامراته هي التي حملتني على البحث عنه لألقي بأمري الى مروءته وأودع عدالة قضيّتي بين ذراعي شجاعته التي لا تقهر .

فصاح دون كيخوته : عفواً ، عفواً ، مولاتي ، كفى إطراءً لشخصي ، فأنا أكره كل أنواع الملق ، وعلى الرغم من أنّك لا تقصدين ملقي ، فإن هذه العبارات تخدش مع ذلك حياء أذني . كل ماأستطيع أن أقوله يامولاتي ، سواء أكان لديّ شجاعة أو ليس لديّ ، هو أنّ مالديّ أو ماليس لديّ منها سأضعه في خدمتك حتّى الممات . وندع هذا لأوانه ، ولكنّي أرجو السيد حامل الإجازة أن يتفضّل فيذكر لي السبب الذي دفع به الى هذا المكان ، وحده بغير خادم ، لابساً لباساً خفيفاً يخيفني .

فأجاب القسّ : « أجيبك عن هذا السؤال بإيجاز . اعلم ياسيّدي دون كيخوته أنني أنا والاسطى نقولا ، صديقنا الحلاّق ، كنّا بسبيل الذهاب الى اشبيلية لاستلام مبلغ من المال أرسله الى أحد أقاربي الذي ارتحل الى الهند الغربية ، منذ عدة سنوات ، وهو مبلغ لايستهان به ، لأن قيمته ستّون ألف قطعة فضّية . ولمّا اجتزنا هذه المنطقة النائية بالأمس فاجأنا أربعة لصوص أشرار اغتصبوا منّا كل شيء حتّى اللحية ، نعم حتّى اللحية ، الى حد أن الحلاّق اضطر الى وضع لحية مستعارة ، أمّا هذا الفتى الذي يصحبنا(وأشار الى كردنيو) فقد جرّدوه وتركوه كما ولدته أمه . وأعجب مافي الأمر هو أنّ الإشاعة تقول في هذه النواحي أن هؤلاء اللصوص الذين اغتصبوا أموالنا هم محكوم عليهم بالأشغال الشاقة أطلقوا سراحهم ، في هذا المكان نفسه تقريباً ، رجل شجاع جداً استطاع أن يخلّصهم جميعاً رغماً من المندوبين والحرّاس . وليس من شكّ في أنّ هذا الرجل فقد عقله ، أو لعلّه مجرم عات لا يقل إجراماً عن أولئك الذين خلّصهم ، رجل بلا روح ولاضمير ، لأنه أراد أن يطلق الذئب بين الضأن ، والثعلب بين الدجاج ، والزنبار فوق العسل ، لقد أراد تحطيم عمل العدالة ، والتمرّد على ملكه ومولاه فخرق أوامر العادلة ، أقول أنه أراد أن ينتزع من السفن الأذرع التي تحرّكها ، وأن يثير ثائرة الأخوة المقدّسة التي ترقد في سلام منذ سنوات طوال ، وبالجملة لقد أراد القيام بمغامرة فقد فيها روحه دون أن يكسب منها بدنه شيئاً » .

وكان سنشو قد روى للقس والحلاّق مغامرة المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة ، تلك المغامرة التي خرج منها مولاه مكلّلاً بالمجد ، ومن أجل هذا حرص القس على توكيد العبارات في هذه القصّة حتّى يرى ماسيفعله دون كيخوته أو يقوله . ولكنّ هذا الفارس كان لونه يتغيّر لدى سماعه كل كلمة من كلمات القس ولم يجرؤ على الاعتراف بأنه مرّر هذه العصبة الكريمة .

واستأنف القس قائلاً : هؤلاء هم الذين سلبونا أموالنا وجعلونا على هذه الحال . عفا الله برحمته الواسعة عمّن حال دون اقتيادهم الى العقاب الذي يستحقّونه!

الفصل الثلاثون

في كياسة دوروتيه الجميلة وأمور أخرى لطيفة شائقة جداً

ولم يكد القسّ يتم كلماته حتّى قال سنشو :

ـ سيّدي صاحب الإجازة ، أوتعرف من قام بهذه المغامرة الرائعة ؟ إنه مولاي . ورغم ذلك فلم أقصّر في تحذيره من عمله هذا ، فتلك خطيئة قاتلة أن يطلق سراحهم ، لأنهم محكوم عليهم بالأشغال بوصفهم من عتاة المجرمين .

فقال دون كيخوته : أيها المغفّل! هل من شأن الفرسان الجوّالة أن يحقّقوا فيما إذا كان المكروبون والمقيّدون والمضطهدون الذين يعثرون بهم في قارعة الطريق قد وقعوا في هذه الحال وتلك الآلام بسبب أخطائهم أو فضائلهم ؟ إنه ليس عليهم إلا أن يهرعوا لنجدتهم بوصفهم تعساء ، ولايعنيهم إلاّ إسعاف تعاستهم ، لا البحث في جرائمهم . لقد التقيت بطائفة من البائسين الفقراء ، المحزونين المتألمين ، ففعلت من أجلهم مايقتضيه يمين الطريقة التي أتبعها . وليكن مايكون . فلو كان لأحد اعتراض ـ مع احترامي لقداسة صاحب الإجازة ولشخصه الكريم ـ فسأقول إنه لايفهم شيئاً في أمور الفروسية ويكذب كذباً حنبريتاً ، وسأبرهن له على ذلك بالرمح والسيف ، راجلاً أو راكباً ، أو على أي وضع يختاره هو .

ولمّا قال هذه الكلمات الأخيرة شدّ مقعده على فرسه ووضع خوذته حتّى عينيه ، أما صحن الحلاقة ـ الذي كان يعده خوذة ممبرينو ، فقد علّقه على السرج ، انتظاراً لإصلاحه مما أصابه به المحكوم عليهم بالأشغال .

أمّا دوروتيه ـ وكانت راجحة الحصاة ذكية ، تعرف مزاج دون كيخوته الغريب ، وتعرف أنهم جميعاً يسخرون منه ـ فيما عدا سنشو پنثا ـ نقول : أمّا دوروتيه فلم تشأ أن تظلّ بمعزل عن هذه المساجلة ، فلمّا رأت الغضب في وجه دون كيخوته قالت :

ـ سيّدي الفارس! لا تنس ياصاحب السعادة ما تفضّلت فأنعمت به عليّ وتعهّدت به بشرفك وهو : ألاّ تدخل في أية مغامرة ، مهما تكن ملحّة . فليهدأ قلبك الثائر ، ولو عرف صاحب الإجازة أن إطلاق سراح المحكوم عليهم بالأشغال قد تمّ على يديك الظافرتين ، لوضع إصبعه في فمه ثلاث مرّات ، بل لعضّ لسانه ثلاث مرّات ولا أن يتفوّه بكلمة تضايق سعادتك أقل مضايقة .

فقال القس : أوه! قسماً بالله على ذلك ، بل لكنت أيضاً قد انتزعت شاربي!

فقال دون كيخوته : سأهدأ إذن ياسيّدتي . وسأطفئ غضبتي العادلة التي اشتعلت في قلبي وألتزم الهدوء والسلام ، حتّى أفي بالعهد الذي قطعته لك . ولكن في مقابل هذه النيّة الطيبة أرجوك أن تتفضّلي ـ إن لم يكن في هذا مايزعجك ـ فتذكري موضوع شكواك ، ومن هم وما عدد الأشخاص الذين يجب عليّ أن أنتقم لك منهم انتقاماً عادلاً كاملاً .

فقالت دوروتيه : عن طيب خاطر أذكر لك ماتطلب ، إذا لم يكن يسوؤك سماع أخبار المصائب والشكاوي .

فأجاب دون كيخوته : كلاّ ، أبداً .

فقالت دوروتيه : إذن فليعرني مولانا سمعه .

ولم تكد تنطق بهذه العبارة حتّى وقف الى جانبها كردنيو والحلاّق وهما متلهّفان لمعرفة كيف تصوغ دوروتيه قصّتها المصنوعة ، وكذلك فعل سنشو ، وكان مثل مولاه مخدوعاً بشأن الأميرة . ـ أمّا هي فقد اعتدلت في ركوبها وسعلت واتخذت كل احتياطات الخطيب قبل أن يبدأ خطبته ، ثمّ أنشأت تقول بلطف وسهولة :

« سادتي ، قبل كل شيء أريد أن أخبركم أنني أدعى... » وهنا توقّفت لحظة ، وهي لم تعد تذكر الاسم الذي أطلقه عليها القس ، ولكنّ هذا فهم سبب تلعثمها فهبّ لنجدتها وقال لها : « ليس بمستغرب ياسيّدتي أن تضطرب عظمتك في رواية مصائبها . فمن أثر الشقاء عادة أن ينتزع الذاكرة ممن أصابهم ، حتّى لينسوا أسماءهم كما حدث الآن لجلالتك ، إذ يبدو أنك لم تعودي تذكرين أنك الأميرة ميكوميكونا ، الوريثة الشرعية لمملكة ميكوميكون العظيمة . وبهذه الإشارة البسيطة يمكن عظمتك الآن تذكّر ماتشائين أن ترويه لنا » .

فقالت الأنسة : ماتقوله حق ، لكن يخيّل إليّ أنه لم يعد من الضرروري بعد أن تخبرني أو تلقّني أي شيء ، وسأروي قصّتي على التمام . وها هي ذي :

« كان السلطان أبي واسمه تينكريو الحكيم[1] ـ متبحّراً في علم السحر . وبفضل صنعته

---

(١) الحكيم هنا بمعنى : الساحر ، تماماً كما في عنوان كتاب المجريطي : « غاية الحكيم » .



الفصل الثلاثون : دون كيخوته ودوروتيه والحلاق

هذه اكتشف أنّ أمّي ـ وتدعى الملكة خرملّة ـ ستموت قبله ، وأنه سيموت بعدها بقليل ، فأصبح أنا يتيمة الوالدين . ورغم ذلك كان يقول إن هذا الخاطر لم يكن يزعجه بقدر ماأزعجه خاطر آخر وهو أنه كان يعلم علم اليقين أنّ مارداً عاتياً يسيطر على جزيرة كبيرة قريبة جداً من مملكتنا ، اسمه پندفلندو المظلم البصر(إذ تبيّن أنه على الرغم من أنّ عينيه في موضعهما الطبيعي ومستقيمتان ، فإنه ينظر دائماً عن عرض كأنه أحول ، وهذا مكر منه لإرهاب من ينظر اليهم) ، أقول أنّ أبي عرف أن هذا المارد حينما يعلم أنني أصبحت يتيمة ، سيأتي بجيش عرمرم للإنقضاض على مملكتي وينتزعونها منّي جزءاً جزءاً حتّى آخرها ، بحيث لن أجد قرية بعد ألجأ إليها ، لكنني أستطيع تجنب هذه الكارثة وذلك الدمار إذا أنا وافقت على الإقتران به . وكان أبي يرى أنني لايمكن أن أوافق على هذا الزواج غير المتكافىء ، وهذا حق : إذ لم يخطر ببالي قط أن أتزوّج هذا المارد ولاأي مارد آخر مهما يكن عاتياً هركولاً . وقال أبي أيضاً أنه بعد أن يموت وأرى پندفلندو يبدأ في الإغارة على مملكتي لن أفكّر أبداً في الدفاع وإلاّ كان في ذلك ضياعي ، بل سأتركه يغزو مملكتي إذا أردت أن أجنّب رعيّتي الوفية الطيبة الموت والدمار ، لأنه من المستحيل أن أقاوم قوّة هذا المارد الشيطانية . وأضاف أنه يجب عليّ حينئذ الإرتحال فوراً الى اسبانيا ، فهناك سأجد الدواء لمصائبي في شخص فارس جوّال طبقت شهرته آفاق تلك البلاد ، اسمه ـ إن لم تخنّي الذاكرة ـ دون أسوطة أو دون خجوته[1]... » .

فقاطعها سنشو پنثا قائلاً : إنه يقصد دون كيخوته ياسيّدتي ، ويلقّب أيضاً الفارس الحزين الطلعة .

فقالت دوروتيه : نعم هذا هو ، وقال أبي عنه أنه فارع القامة ، ساهم الوجه ، وفي جنبه الأيمن تحت الكتف اليسرى أو بالقرب من هناك عليه شامة سمراء اللون وحولها شعر كزغب الخنزير البرّي ،

هنالك قال دون كيخوته : اقترب منّي ياسنشو يابنيّ ، وساعدني على خلع ملابسي ، لأنّي أريد أن أعرف ماإذا كنت الفارس المقصود في نبوءة هذا الملك الحكيم .

فقالت دوروتيه : ولماذا تريد سيادتك التعرّي هكذا ؟

فأجاب دون كيخوته : لأرى ماإذا كانت عندي هذه الشامة التي ذكرها أبوك .

فقال سنشو : لاحاجة بك الى التعرّي من أجل ذلك ، فأنا أعلم جيّداً أنه عند سيادتك شامة من هذا النوع في وسط شوكة الظهر ، وهي علامة على القوة في الرجال .

---

(١) اسوطه = nzote = السوط بالعربية (والكلمة أصلها عربي) . خجوته = jigote = كفتة (لحم مفروم) .

فقالت دوروتيه : هذا يكفي ، فبين الإخوان لا محلّ للتدقيق . فأن تكون الشامة على الكتف أو على العمود الفقري ، أو في أي موضع تشاؤه ، ليس هذا مهمّاً بشرط أن يكون ثمة شامة . وعلى كل حال فهو نفس اللحم . ولاشك في أنّ أبي قد صدق النبوءة ، وأنا أيضاً قد صدقت الملاقاة بتوجهي الى السيد دون كيخوته ، الذي عنه تحدّث أبي ، لأن أوصاف وجهه تتفق مع أوصاف الشهرة التي ينعم بها هذا الفارس ليس فقط في اسبانيا ، بل وأيضاً في كل اقليم المنتشا .

« والواقع أنني لم أكد أنزل في أُشونه وسمعت الناس يتحدّثون كثيراً عن مغامراته العديدة حتّى قال لي قلبي في الحال إنه هو الذي أتيت للبحث عنه » .

فقاطعها دون كيخوته قائلاً : لكن كيف نزلت في أشونه ، وهذه المدينة ليست ميناءً بحرياً ؟

وقبل أن تجيب دوروتيه ، قال القس : إن الأميرة تريد قطعاً أن تقول أنها بعد أن نزلت في مالقة كان أوّل مكان سمعت فيه عن أنبائك كان أشونه .

فقالت دوروتيه : نعم هذا ماكنت أقصد .

فقال القس : كل شيء واضح إذن . تستطيع جلالتك أن تكملي قصتك .

فقالت دوروتيه : ليس لدي بعد ما أقوله سوى أنه من حسن طالعي أن ألقى السيد دون كيخوته ، فقد أصبحت أشعر أنني سيّدة مملكتي كلّها وسلطاناتها . لأنه بفضل أدبه الجم وكرمه الشامل أنعم عليّ بنعمة اقتياده الى حيث أشاء ، وإنّي اريد اقتياده الى مواجهة بندفلندو المظلم البصر ليقتله ويعيد اليّ ما اغتصبه ذلك الغدّار ضد كل قانون وعقل . وكان هذا سيحدث بحذافيره كما تنبّأ بذلك تنكريو الحكيم ، أبي الكريم ، الذي ترك وصيّة بحروف يونانية أو كلدانية ـ لست أدري! ـ يقول فيها أنه إذا أراد فارس هذه النبوءة أن يتزوّج بي بعد أن يقطع رأس المارد ، فعليّ دون أدنى تردّد أن أسلّم نفسي له زوجة شرعية وأن يملك في مملكتي كما ملّكته في شخصي .

فقال دون كيخوته : ماذا ترى في هذا ياصديقي سنشو ؟ ألا ترى ما يجري ؟ ألم أقل لك ذلك من قبل ؟ أو لا ترى أننا قد أصبح لنا مملكة نحكمها وملكة نتزوّجها ؟

فصاح سنشو : « أقسم بالله على هذا! وتبّاً لمن لا يتزوّج حالما يفتح حلق السيّد بندهيلادو[1]! قد تكون الملكة بشعة ، ولكن! لتكن كل براغيث سريري هكذا خلقت! » -

(١) يخطئ سنشو دائماً في النطق بهذه الأسماء الغريبة .

ولمّا قال ذلك وثب في الهواء وثبتين وهو يضرب عقب قدمه ، بنشوةٍ بالغة ، ثمّ أخذ لجام بغلة دوروتيه وأوقفها وركع أمام الأميرة وتوسّل اليها أن تتفضّل فتمد يديها كي يقبّلها ، علامة أنها ملكته وسيّدته .

من كان منهم يستطع أن يمسك عن الضحك وهو يرى جنون السيّد وسذاجة الخادم ؟ لقد قدّمت دوروتيه يدها الى سنشو ووعدته أن تجعله سيّداً جليلاً في مملكتها حالما تستعيد ملكها . فراح سنشو يشكر لها بعبارات أطلقت الضحك من جديد .

وتابعت دوروتيه قصّتها تقول : هذه قصّتي على حقيقتها ياحضرات السادة ، ولم يبق لدي ماأقوله لكم بعد سوى أن أقول أنه لم يبق من الحاشية التي صحبتني غير هذا السائس الملتحي ، أمّا الباقون فقد غرقوا جميعاً في عاصفة هبّت ونحن مقبلون على الميناء . وقد بلغنا الشاطىء ، هو وأنا ،على لوحين من خشب ،وقد وصلنا بنوع من المعجزة ، لأنّ كل شيء معجزة وسرٌّ في مجرى حياتي ، كما لعلّك لاحظت . فإن كنت قد ذكرت أموراً لاحاجة اليها ، وكنت لم أقابل دائماً من يجب مقابلتهم ، فمرد ذلك الى ماأشار اليه السيّد صاحب الإجازة في مستهل قصّتي ، ألا وهو أنّ الآلام المتّصلة غير العادية تقتلع الذاكرة ممن يعانونها .

فقال دون كيخوته : إنها لن تقتلع ذاكرتي أنا ، أيتها الأميرة النبيلة الشجاعة ، مهما تكن شديدة رهيبة تلك الآلام التي سأعانيها في سبيل خدمتك . وهكذا أؤيّد من جديد المنحة التي منحتك إيّاها ، وأقسم أن أتبعك الى نهاية العالم حتّى أجد نفسي في مواجهة عدوّك المروّع الذي سأحتزّ رأسه ، بعون الله وبفضل ساعدي هذا ، سأحتزّه بهذا السيف... ولاأقول السيف الصارم ، بفضل خنيس دي يسمونته الذي انتزع منّي سيفي .

قال دون كيخوته هذه الكلمات الأخيرة بين شفتيه ، وتابع حديثه قائلاً : وبعد أن أحتزّ له رأسه وأعيد لك مملكتك ، ستكونين حرّة في أمر نفسك تفعلين مايحلو لك ، وذلك لأنّه طالما بقيت ذاكرتي مشغولة ، وإرادتي أسيرة وعقلي مستعبداً لتلك التي... ولاأزيد ، ولاأستطيع التفكير ، مجرّد التفكير ، في الزواج ، حتّى ولا بالعنقاء .

فوقعت هذه الكلمات الأخيرة التي نطق بها دون كيخوته ورفض الزواج وقع الصاعقة على سنشو ، فغضب وصاح بصوتٍ عالٍ : مولاي دون كيخوته!أقسم بالله وبالشيطان أنّك الآن غيرسديدالرأي . وإلاكيف تتردّد بالزواج بأميرة نبيلة كهذه ؟ أوتظن أنّ حسن الطالع سيقدّم لك في كل مرة فرصة سعيدة كهذه ؟ وهل السيّدة دلثنيا أجمل ؟ كلاّ والله ، ولانصف جمال هذه ، بل أود أن أقول أنها ليست جديرة أن تحل رباط حذاء هذة الماثلة أمامك! إي

نعم! سأنعم بالضيعة التي أرقبها ، إذا ظلّ مولاي يسعى للبحث عن البطاطس في البحر[١]! تزوّج ، تزوّج بسرعة ، وخذ هذه المملكة التي وقعت في يديك حلالاً ، وحينما تصبح ملكاً اجعلني مركيزاً أوحاكماً ، وليذهب الشيطان بالباقي!

لكن دون كيخوته لم يملك نفسه لما أن سمع هذا التجديف باسم دلثنيا . فرفع منخاسه من مقبضه ودون أن يوجّه كلمة الى سنشو ودون أن ينبهه ضربه في بطنه ضربتين جندلتاه على الأرض ، ولولا أن صرخت دوروتيه بوجهه أن يكف ، لكان قد قتله . ثمّ قال له دون كيخوته :

ـ هل تظن ، أيها الوغد البائس ، أنك تستطيع أن تحشر نفسك في كل مناسبة ، وأنه ليس لدينا من شغل إلا أن تذنب أنت وأصفح أنا عن هذا الذنب ؟ لاتصدّق ذلك أيها النذل الخسيس ، وإنك لكذلك لأنك أطلقت لسانك في دلثنيا المنقطعة النظير . أوتعلم أيها السافل الحقير الدنيء أنه لولا المدد الذي تشدّ به ساعدي ، لما كانت لديّ القدرة حتّى على قتل برغوث ؟

قل لي أيها الساخر ولسانك لسان الأفعى ، من ذا الذي تظن أنه قد ظفر بهذه المملكة واحتزّ رأس المارد وجعلك مركيزاً ـ فهذا كلّه أمرُ أعده مفروغاً منه وصار في قوة الشيء المحكوم به ـ إن لم يكن قوة دلثنيا التي اتخذت من ساعدي أداةً لأعمالها الجبّارة ؟ إنها هي التي تقاتل وتنتصر في شخصي ، وأنا إنما أحيا وأتنفّس بها ، ومنها أستمد الوجود والحياة . أيها الجلف الوضيع الأصل السيّء التهذيب كم أنت جاحد! أرفعك من تراب الحقول لأجعل منك سيّداً صاحب لقب ، فتقابل هذا الجميل بالإساءة الى من يحسن اليك! .

ولكن إصابة سنشو لم تكن بحيث تحول بينه وبين سماع ما قاله مولاه . وسرعان مانهض وراح يستتر وراء فرس دوروتيه ، ومن هناك أجاب مولاه قائلاً : « قل لي مولاي : هل أنت مصمّم على عدم الزواج بهذه الأميرة العظيمة ؟ إذن لن تكون المملكة لك ، فإن لم تكن لك ، فماذا تستطيع أن تعمل لي ؟ من هذا أشكو . صدّقني وتزوّج بهذه الملكة واخلص ، فقد نزلت عليك من السماء ، وبعد هذا تستطيع أن تعود الى السيدة دلثنيا ، فقد حدث لبعض الملوك أن كانت لهم حظايا الى جانب زوجاتهم . أمّا عن الجمال ، فلا أتدخّل فيه . وإذا قلت الحق ، قلت إن كلتيهما في نظري لابأس بهما ، وإن كنت لم أر السيدة دلثنيا أبداً .

---

(١) أي يسعى للحصول على المستحيل .

فصاح دون كيخوته : كيف ؟ ألم ترها أيها الخائن الكافر! أولم تأتني منذ قليل برسالة منها ؟

فأجاب سنشو پنثا : أريد أن أقول أنني لم أستطع مشاهدتها عن قرب بحيث أتفرّس ملامحها بالتفصيل واحداً بعد واحد ، لكنّها في جملتها لابأس بها .

فعاد دون كيخوته يقول : الآن أصفح عنك ، واعذرني عمّا بدر منّي نحوك ، إن البوادر الأولى ليست في وثاق المرء .

فقال سنشو : أقر بذلك ، وأوّل بادرة عندي هي الرغبة في الكلام ، ولاأستطيع أن أمنع نفسي من أن أفضي بكل مايرد على لساني .

فقال دون كيخوته : ومع ذلك كلّه فخذ حذرك مما تقول ياسنشو ، إذ الجرّة مهما تحمل الى العين فلا بدّ في النهاية أن تنكسر... ويكفي هذا .

فأجاب سنشو : حسناً! والله في عليائه يرى خداع الخادعين ، والله يحكم بيننا : من منّا يسيء أكثر ، أنا بكوني لاأحسن الكلام ، أو مولاي بكونه لايحسن الفعل .

فقاطعت دوروتيه قائلة : كفى! اذهب ياسنشو فقبّل يد مولاك واطلب منه الصفح ، ومن الان كن أكثر احتياطاً في مديحك وفي نقدك ، وخصوصاً لاتسيء أبداً الى السيدة توبوزا التي لا أعرفها أبداً ، وإن كنت على استعداد لخدمتها ، وثق بالله الذي لن يحرمك من إقطاعية تستطيع أن تعيش فيها مثل الأمير .

فمضى سنشو كسير الجناح خفيض الرأس يسأل مولاه العفو ويطلب يده ، فمدّها مولاه اليه بوجه جاد حازم . ولمّا قبّل سنشو يد مولاه ، منحه هذا بركته وطلب منه أن يختلي به ناحية لأن لديه أسئلة يوجهها اليه ويريد أن يتحدّث معه في أمور على جانب كبير من الخطورة . فأطاع سنشو ، ولمّا تقدّما قال له دون كيخوته :

ـ منذ عودتك لم يسمح الوقت ولم تتهيّأ الفرصة لكي أسألك عن المهمّة التي كلّفتك بها وعن الجواب الذي أتيت به منها . والآن وقد أتاح لنا الحظ هذه الخلوة ، لا تتأخّر عن إرضائي بالأنباء السعيدة .

فأجاب سنشو : سل ما شئت يا مولاي! سأفضي اليك تماماً بكل ماوعته أذناي . لكن أرجوك في المستقبل ألا تكون عنيفاً هكذا .

فقال دون كيخوته : لماذا هذا الرجاء يا سنشو ؟

فقال سنشو : أقول هذا لأنّ ضربات العصا التي تلقّيتها منذ قليل ترجع بالأحرى الى النزاع الذي قام بيننا في تلك الليلة ، لا من أقوالي عن السيّدة دلثنيا ، التي أحبّها وأقدّسها كإحدى المقدّسات ، حتّى لو لم تكن جديرة بذلك ، لا لشيء إلا لأنها صاحبتك .

فقال دون كيخوته : لا تعد الى هذ ا الموضوع ياسنشو ، وحياتك إنه يؤلمني ويحزنني . لقد عفوت عنك منذ قليل ، وتذكّر جيّداً مايقال عادةً : لكل خطيئة جديدة كفّارة جديدة .

ولما بلغا هذا المبلغ من حديثهما شاهدا على طول الطريق الذي يسلكانه قادماً على حمار لمّا اقترب منهما بدا لهما من الغجر . لكن سنشو پنثا الذي لم يكن يستطيع أن يشاهد حماراً دون أن تعلق به عيناه لم يكد يلمح الرجل حتّى عرف فيه خينس دي پسمونته . ذلك أن پسمونته ـ لكي يبيع الحمار كما يشاء ـ تخفّى في زي غجري وكان يتقن لهجة الغجر كما يتقن لهجات أخرى . رآه سنشو وعرفه ، فصاح فيه بأعلى صوته :

ـ خنسيّو أيها السارق ، ردّ مالي ، اترك حياتي ، انزل عن سرير راحتي ، ردّ روحي ، رد اليّ بهجتي وكبريائي ، اهرب يا وغد ، ارحل يا لص ، ورد ما ليس لك .

وماكان في حاجة الى كل هذه الكلمات واللعنات ، لأنّ خنيس لم يكد يسمع أوّل كلمة حتّى قفز الى الأرض وسار يعدو عدو فرس الرهان وسرعان ماغاب عن الجميع . هنالك أسرع سنشو الى حماره يقبّله ويقول له :

ـ كيف حالك يا ولدي ورفيقي ، يا حماري يا عزيز عيني وأحشائي ؟

وكان وهو يقول ذلك يقبّله ويربت عليه وكأنّه إنسان عاقل ، ولكنّ الحمار صمت ، لايدري ماذا يقول ، تاركاً سنشو يقبّله ويربت عليه دون أن يرد عليه بكلمة . ووصلت الرفقة كلّها ، وكلّهم يهنّئ سنشو بعثوره على حماره ، وقال له دون كيخوته إن عثوره على حماره لن يجعله يعدل عن منحه الجحاش الثلاثة ، وكانت لفتة كريمة تلقّاها سنشو بعرفان الجميل .

وبينما كان الفارس وسائسه يتحدّثان معاً في خلوة ، كان القس قد هنّأ دوروتيه على ما أبدته من مهارة وفطنة ، سواء في اختراعها قصّتها وفي تلوينها بلون قصص الفروسية . فأجابت بأنه كان يلذ لها قراءة كتب الفروسية ولكن لأنها لم تكن تعرف أين توجد المقاطعات وموانئ البحار ، فإنّها قالت إنها نزلت في ميناء أشونه . فقال القس :

ـ لقد لاحظت ذلك ، ولهذا بادرت الى القول لإصلاح الموقف .

لكن أليس من الغريب أن نرى ذلك الرجل المسكين يصدّق بسهولة كل هذه الإختراعات والأكاذيب لا لشيء إلا لأنهّا من أسلوب ترّهات كتبه التي أولع بها ؟

وقال كردنيو : نعم إنه لجنون بلغ من الغرابة حدّاً يتساءل معه المرء ما إذا أراد اختراعه على هواه أو كان يجد عقلاً ساذجاً يمكن أن يتعلّق به وينطلي عليه أمره ؟!

وعاد القس يقول : لكن هناك ماهوأدهى من ذلك : فإنه بخلاف التهاويل التي ينزلق اليها هذا الرجل البسيط ، يكفي أن يطرق المرء موضوعاً آخرو إذ به يكشف عن رجاحة تفكير ووضوح ذهن وتعقّل في كل شيء . فلو لم يطرق المرء موضوع الفروسيّة الجوّالة ، لما شكّ أحدٌ في أنة سليم العقل مستقيم التفكير .

وبينما كان أولئك في غمرة هذا الحديث ، كان دون كيخوته وسنشو پنثا يتجاذبان أطراف الكلام : قال له دون كيخوته :

ـ صديقي پنثا ، لننسَ خلافاتنا ولنعقد السلم ولتخبرني الآن ، دون أن تحمل في نفسك حنقاً ولا غضباً ـ حدّثني : كيف ومتى وأين وجدت دلثنيا . ماذا كانت تعمل ؟ وماذا قلت لها ؟ وبماذا أجابتك ، وماذا ارتسم على تعابير وجهها لدى قراءة رسالتي ؟ ومن الذي خطّ لك الرسالة ؟ وبالجملة اذكر لي كل ما تراه خليقاً بالسؤال عنه ومعرفته في هذه المغامرة ، ولا تكذب ولا تتزيّد طمعاً في زيادة رضاي ، ولا تقلّل حتّى لاتقل لذّتي .

فقال سنشو : مولاي! إن شئت الصدق قلت لك إن أحداً لم يخطّ الرسالة ، لأنني لم أحمل رسالة ما .

فقال دون كيخوته : الأمر كما تقول لأنّي بعد يومين من رحيلك عثرت على الدفتر الذي كتبتها فيه ، مما أثار في نفسي ألماً بالغاً ، لأنّي لم أدر ماذا ستقول حينما ترى نفسك دون رسالة ، واعتقدت أنّك ستعود لأخذ الرسالة لمّا تجد نفسك بدونها .

فأجاب سنشو : هذا ماكنت فاعله لو أنني لم استظهرها حينما قرأها مولاي ، لقد حفظتها عن ظهر قلب حتّى رويتها لحارس كنيسة أثبتها على الورق كلمة فكلمة حتّى قال لي أنّه لم يقرأ في حياته رسالة رقيقة كهذه ، على الرغم من أنه قرأ الكثير من بطاقات الدفن .

فسأله دون كيخوته : وهل لاتزال تحفظها ؟

فأجاب سنشو : كلاّ يامولاي ، فمنذ أن رويتها لحارس الكنيسة رأيت أنه لاجدوى بعد من إبقائها في الذاكرة ، فعملت على نسيانها . ولو بقي منها شيء في الذاكرة فهو استهلالها : سيدتي(النيلة) أقصد النبيلة . والخاتمة : «المخلص لك حتّى الممات ، الفارس الحزين الطلعة» . وبين الاستهلال والخاتمة وضعت ثلاثمائة نفس وحياة وعيون جميلة .

الفصل الحادي والثلاثون

في الحديث الشائق الذي دار بين دون كيخوته وسنشو پنثا ومغامرات أخرى

وعاد دون كيخوته ليقول :

ـ كل هذا لا يضايقني ، استمر في حديثك . حينما اقتربت منها ، ماذا كانت تعمل ملكة الجمال هذه ؟ لقد وجدتها من غير شك تسلك الدرر في عقد ، أو تطرّز بخيط من الذهب كلمات غراميّة لأسيرها الفارس .

فأجاب سنشو : لقد وجدتها تغربل قدحين من القمح في الحوّاش .

فقال دون كيخوته : قدّر أنّ حبّات القمح لمّا مسّتها أناملها تحوّلت الى حبّات من اللؤلؤ . لكن هل لاحظت ماإذا كان من خالص القمح الأبيض ، أو من الغليظ الأسمر ؟

فأجاب سنشو : كان من الشعير الأبيض .

فقال دون كيخوته : ورغم ذلك أؤكّد لك أنّه بعد أن غربلته بيديها تحوّل الى أجود أنواع القمح . لكن دعنا من هذا . حينما سلّمتها رسالتي ، هل قبّلتها ؟ هل رفعتها فوق رأسها ؟ هل قامت بمراسم جديرة بمثل هذه الرسالة ؟ وبالجملة ، ماذا فعلت ؟

فأجاب سنشو : في اللحظة التي تهيّأت فيها لتسليمها الرسالة كانت في حميّة العمل تهزّ في الغربال مقداراً كبيراً من القمح ، وهنالك قالت لي : ياولدي ، ضع هذه الرسالة على هذه الزكيبة ، فلن أقرأها قبل أن أفرغ من غربلة هذا القمح كلّه .

فقال دون كيخوته : يالها من فتاة حريصة! ذلك أنها قصدت من ذلك أن تقرأ الرسالة على مهل لكي تستمتع بكل مافيها من عبارات . استمر في حديثك ياسنشو . بينما كانت بسبيل إنهاء عملها ، فيما تحدثتما ؟ وماذا كانت أسئلتها بشأني ؟ وبماذا أجبت ؟ انته من حديثك ، قصّ عليّ كل شيء ولا تنس حرفاً واحداً .

فأجاب سنشو : لم تسألني أي سؤال . أمّا أنا فقد ذكرت لها كيف أنّ مولاي بقي هناك

للقيام ببعض المجاهدات لخدمتها وكيف أنّك كنت عارياً من الوسط حتّى الرقبة ، معتزلاً في أعمال الجبال والصخور ، كأنّك متوحّش حقّاً ، تنام على التراب ولا تتناول خبزاً على مائدة ولاتمشّط لحيتك ، دائم البكاء والنواح تلعن حظّك العاثر .

فقال دون كيخوته : لقد أخطأت العبارة حين قلت أنّي ألعن حظّي العاثر ، لأنّي على العكس من ذلك أبارك حظّي وسأباركه طوال عمري ، إذ جعلني جديراً باستحقاق حب سيّدة كبيرة مثل دلثنيا دل توبوسو .

فقال سنشو : أمّا أنها كبيرة فهذا صحيح ، وأستطيع بكل إطمئنان أن أؤكّد أنها أطول مني بشبر .

فقال دون كيخوته : وكيف عرفت هذا يا سنشو ؟ هل قست نفسك بها ؟

فأجاب سنشو : قست نفسي بها على هذا النحو : وهو أنني اقتربت منها لأساعدها في حمل زكيبة قمح على حمار فاقترب كلانا من الآخر بحيث استطعت أن ألحظ أنّها أطول منّي .

فقال دون كيخوته : ولكن أليس من الحق أيضاً أنها تصحب كبر البنية بآلاف من رشاقة الروح ؟ هناك شيء لا تستطيع أن تنكره ياسنشو : حينما اقتربت منها ، ألم تستروح عطراً رائعاً وأريجاً لطيفاً كأريج المسك بل أعذب ، ونسمات رقاقاً ، وكأنّك كنت في دكّان عطّار رقيق ؟

فأجاب سنشو : كل ما أستطيع أن أقوله هو أنني شممت رائحة كرائحة الرجال ، ولاشك أن ذلك كان بسبب ماتصبّب منها من عرق غليظ من فرط المجهود .

فقال دون كيخوته : ليس الأمر كذلك ، بل لابدّ أنّك كنت مزكوماً أو كنت تشمّ رائحتك أنت نفسك ، لأنّي أعلم رائحة هذه الوردة بين الأشواك ، هذه الزنبقة في الحقول ، هذا العنبر المحلول .

فأجاب سنشو : هذا ممكن ، لأنّي كثيراً ما أشمّ خارجة منّي تلك الرائحة نفسها التي بدت لي خارجة من بدن صاحبة العصمة السيّدة دلثنيا . لكن لاداعي للدهشة من هذا فالشياطين أشباه .

وهناك قال دون كيخوته : ثمّ لمّا فرغتْ من غربلة القمح وأرسلته الى الطاحونة ، ماذا فعلت حينما قرأت رسالتي ؟

فقال سنشو : أمّا الرسالة فلم تقرأها لأنها قالت أنها لاتعرف الكتابة ولا القراءة ، بل بالعكس مزقتها قطعاً صغاراً وهي تقول أنها لاتريد أن يقرأها أحد حتّى لايطّلع أحد من أهل

الناحية على أسرارها وأنّه كفاها ماسمعته منّي شفاهاً مما يتعلّق بحب مولاي لها ، وما تقوم أنت به من مجاهدات شاقة بشأنها . وأخيراً قالت لي أن أقول لك أنها تقبّل يديك ، وأنّها تودّ أن تراك أكثر مما تودّ أن تكتب إليك ، ولهذا ترجوك وتأمرك في الحال أن تترك هذه الأحراش وتوقف هذه الحماقات وتمشي فوراً الى التوبوسو ، لأنّها تموت هياماً برؤياك ، اللهمّ إلا إذا أعاقك عن ذلك أمر أهم . وقد ضحكت ملء فيها حينما قصصت عليها أنّ مولاي قد تسمّى باسم «الفارس الحزين الطلعة» . وسألتها ماإذا كان قد زارها ذلك الرجل البشكوني ، فأجابت بالإيجاب وقالت إنه رجل ظريف جداً . وسألتها نفس السؤال فيما يتّصل بالمحكوم عليهم بالأشغال الشاقة ، فقالت إنه لم يزرها أحد منهم بعد .

فقال دون كيخوته : كل شيء حتّى الآن على مايرام ، لكن قل لي ، حينما ودّعتها أيّة حلية هدتك للأنباء التي حملتها اليها عن فارسها ؟ لأن العرف القديم المقدّس الجاري بين الفرسان الجوالة وصواحبهم يقضي بإهداء السائسين أو الوصيفات أو الأقزام الذين الى فرسان سيداتهم أو سيّدات فرسانهم أنباءً عنهم ـ إهدائهم حلياً نفيسة مكافأة عن الرسالة .

فأجاب سنشو : هذا ممكن ، وأرى من ناحيتي أنّ هذا عرف جميل ، ولكنّ لاشكّ أنّ هذا العرف كان جارياً في الأزمنة الخالية فقط ، أمّا اليوم فالعادة لابدّ جرت بالإكتفاءبإعطاء رغيف أوقطعة من الجبن ، لأنّ هذا هو ما أعطتنيه السيّدة دلثنيا من فوق سور الحوش حينما ودّعتها ، وهذا الجبن جبن غنم .

فقال دون كيخوته : إنها كريمة الى أقصى حدود الكرم ، وإذا كنت لم تتلقّ منها حلية ذهبية فلابدّ أن ذلك لأنّه لم يكن في متناول يديها شيء لتهديه اليك . لكنّ المؤجّل غير مضيّع ، سأراها وسأرتّب الأمر . هل تعرف مم أنا مندهش ياسنشو ؟ من أنّه يبدو لي أنّك قمت برحلتك ذهاباً وإيّاباً على متن الهواء ، لأنّك لم تقضِ إلا ثلاثة أيّام ـ ذهاباً وإياباً ـ من هذه الجبال الى التوبوسو ، بينما المسافة من هنا الى هناك تبلغ ثلاثين فرسخاً على الأقل . هذا يجعلني أحسب أنّ هذاالساحر الحكيم الذي يعنى بأموري وهو صديقي ــ فلا بدّ أن يكون لي صديق ، وإلاّ لم أكن فارساً جوّالاً حقّاً ـ أقول أن هذه الساحر لابدّ أنّه قد ساعدك على المسير دون أن تشعر بذلك . والحق أن ثمّة حكماء يأخذون الفارس الجوّال من سريره وهو مستغرق في النوم ، ودون أن يشعر يستيقظ في الغداة واجداً نفسه في مكان يبعد بآلاف الفراسخ عن المكان الذي كان نائماً في سريره فيه . ولو لم يكن الأمر كذلك لما استطاع الفرسان الجوّالة أن يساعد بعضهم بعضاً في إبان الخطر ، كما ينجد بعضهم بعضاً في كلّ مناسبة . فقد يحدث أن يكون أحدهم في معركة في جبال أرمينية ضد أفعى أو تنّين ،

أوضدّ فارس أخر ويقع في خطر الموت ، وفجأة ودون أن يشعر يأتي الفارس من أصدقائه على سحابة أو عربة من نار قادماً من انكلترا ليدافع عنه وينقذ حياته ، وحينما يأتي الليل يعود الى بيته ويتناول عشاءه على مائدته في هدوء ، ورغم ذلك فإن المسافة بين كلا الموضعين تبلغ ألفين أو ثلاثة آلاف من الفراسخ . وإنّما يتم هذا كلّه بفضل علم وحكمة هؤلاء الحكماء السحرة الذي يسهرون على رعاية أولئك الفرسان الشجعان . ولهذا لا أجد مشقّة ياصديقي سنشو في الإعتقاد في أنّك ذهبت فعلاً الى التوبوسو وعدت منها ، فلابد كما قلت لك أن أحداً من الحكماء الأصدقاء قد حملك على جناح طائر دون أن تشعر أنت بذلك .

فقال سنشو : هذا ممكن ، لأن روثينانته كانت تسير ببطء كبطء حمير الغجر في أذانها الزئبق .

فصاح دون كيخوته : ماذا تقول : الزئبق ؟! لقد كانت عصابة من العفاريت تسير وتسيّر غيرها ، دون أن تكلّ ، وحسبما يحلو لها . لكن دعنا من هذا وقل لي ماذا يجب عليّ أن أعمله فيما يتعلّق بالأمرالذي بعثت به سيّدتي ، أمرها إيّاي بزيارتها ؟ إنّي أرى إنّى ملزم بتلبية أمرها ، ولكن هذا يجعل من المستحيل عليّ أن أقوم بأداء النعمة التي وهبتها للأميرة التي ترافقنا ، وقوانين الفروسية تلزمني بإطاعة ماتعهّدت به أولى من إطاعة ملذّاتي . من ناحيتي تحفزني الرغبة لرؤية سيّدتي ، ومن ناحية أخرى يدعوني العهد الذي قطعته والمجد الذي ينتظرني من وراء هذه المغامرة . وأرى أن أعمل الآتي : سأسرع السير الى حيث يوجد هذا المارد ، وحينما أصل اليه سأحزّ رأسه ، وأعيد الأميرة الى عرشها في مملكتها ، فإذا تمّ هذا ، أرحل وأعود لرؤية هذا الكوكب الذي يضيء بنوره إحساسي . فأقدم بين يديها الأعذار فلا تغضب بل بالعكس تطرب لتأخّري حينما ترى هذا التأخّر مصدراً لمجدها وشهرتها ، لأن كل ماأناله من مجد وكل مانلته وسأناله في السلاح في هذه الحياة الدنيا إنّما أدين بالفضل فيه لما تمنحينه من عطف وما تحبوني به من نعمة حبّها .

فقال سنشو : يا للعذراء! كم أنت ضعيف العقل! لكن قل لي يا مولاي ، هل تريد أن تقطع هذه المسافة كلّها لشمّ الهواء! وهل تدع فرصة هذا الزواج السامي تفلت من بين يديك ، بينما بائنتها مملكة يحيطها أكثر من عشرين فرسخ ـ كما أخبروني ـ وفيها كل ما هو ضروري لإقامة أود الإنسان ، وبالجملة هي أكبر من البرتغال وقشتالة مجتمعتين ؟ كلا! اسكت بحق الله واخجل مما قلته واتّبع نصيحتي واغفر لي ، وأعقد قرانك في أوّل قرية نمر بها ونجد فيها قسّيساً ، وإلاّ ، فها هنا صاحب الإجازة يستطيع أداء هذه المهمّة على خير وجه ، واعلم أنّ

سنّي تسمح لي بإسداء النصائح ، وأنّ نصيحتي هذه تلائمك كل الملائمة ، لأنّ عصفوراً في اليد خير من عشرة على الشجرة ، وإذا أعطاك أحداً خاتماً فمد إصبعك للبسه .

فقال دون كيخوته : انتبه أنت أيضاً ياسنشو : إن كنت تنصحني بالزواج حتّى أصير ملكاً لمّا أن أقتل المارد ، ويكون في مقدوري حينئذ أن أمنحك المنح وأعطيك ماوعدتك به ، فإنّي أنبّهك كذلك بأنّي أستطيع أيضاً أن أحقق أمنيتك دون أن أتزوّج . فإنّي قبل أن أبدأ المعركة مع المارد سأشترط أنني إذا خرجت منها ظافراً فيجب إعطائي شطراً من المملكة سواء تزوّجت أو لم أتزوّج ، شطراً أستطيع أن أمنحه لمن أشاء . ولمن تظن أنّي سأعطيه إن لم يكن لك أنت ؟

فقال سنشو : هذا واضح ، ولكن لينتبه مولاي حتّى يختار هذا الشطر في ناحية البحر ، حتّى إذا لم يطب لي المقام استطعت أن أبحر مع رعاياي الزنوج ، لأفعل بهم ماذكرته من قبل . ولا تهتم الآن بزيارة السيدة دلثنيا ، بل اذهب فوراً لقتل المارد ، ولننتهي من هذه المسألة التي تبدو لي بحق الله ذات شرف عظيم وربح جسيم .

فقال دون كيخوته : أقول إنّك على حق يا سنشو ، وسأتّبع نصيحتك فيما يتّصل بالذهاب مع الأميرة ، لا الى دلثنيا ، لكنّي أحذّرك من عدم البوح بشيء لأحد ، حتّى ولا أولئك الذين في صحبتنا لأن دلثنيا من التواضع والحياء ، بحيث لاتريد أن يعلم أحداً عن أسرارها شيئاً ، وسيكون شيئاً خطيراً حقاً أن تفشي أسرارها عن طريقي أو عن طريق من يتّصل بي .

فقال سنشو : لكن إذا كان الأمر كذلك ، فكيف يرى مولاي أنّ على الذين يظفر بهم أن يمثلوا أمام السيّدة دلثنيا ؟ أليس هذا اعترافاً صريحاً بأنّك تحبّها وأنّك عاشقها ؟ ومادمت تلزم كل هؤلاء بالذهاب للركوع أمامها وأن يقولوا أنهم جاءوا من قبلك ليقدّموا فروض الطاعة والولاء ، فكيف تظل مع هذا أسراركما مصونة ؟

فقال دون كيخوته : أوه كم أنت ساذج مغفّل! أولا ترى أن هذا كلّه تمجيدٌ لها وتعظيم ؟ ألا فلتعلم إذن أن أسلوب الفروسية يجعل شرفاً عظيماً أن يكون في خدمة السيدة عدد جمّ من الفرسان الجوّالة ، دون أن يتجاوز فكرهم مجرّد أن يتشرّفوا بخدمتها ، لالشيء إلا لأنها هي ، ودون أن يتوّقعوا عن خدماتهم وتمنّياتهم مكافأة غير أن تسمح لهم بأن يكونوا لها فرساناً .

فقال سنشو : هذا هو الحب الذي سمعت الواعظ ينصح به في حب سيّدنا المسيح : أن يحب المرء لذاته ، دون أن يكون الدافع لذلك رغبة في الجنّة أو رغبة من النار ، وإن كنت أنا أقنع بحبّه وخدمته لسبب من الأسباب .

فصاح دون كيخوته : يالك من شيطان! إن لك لخواطر رائعة في بعض الأحيان! حتى ليقول المرء أنّك درست(اللاهوت) في شلمنقة .

فأجاب سنشو : إنني لا أعرف حتّى الكتابة!

وفي تلك اللحظة صاح الأسطى نقولا فيهما لينتظراه ، لأن رفقاءه يريدون الإرتواء من ينبوع موجود على حافة الطريق . فتوقّف دون كيخوته مما أشاع السرور في نفس سنشو إذ شعر هذا بأنّه متعب من فرط ماكذب وكان يخشى أن يكتشف مولاه كذبه ،ولكنه وإن كان يعلم أن دلثنيا كانت فلاحة في قرية التوبوسو ، فإنه لم يرها بعينه . وخلال هذه الفترة كان كردنيو قد لبس الملابس التي كانت دوروتيه ترتديها لمّا أن التقوا بها ، وهي ملابس إن لم تكن فاخرة فقد كانت أفضل بكثير من تلك التي كان يلبسها من قبل .

ونزلوا جميعاً عند الينبوع ، وتبلّغوا ببعض ماتزوّد به القس من الفندق وكانوا جياعاً كل الجوع .

وأثناء تناولهم الطعام مرّ غلام على الطريق ، وتوقّف ليتفرّس في وجوه الجالسين عند الينبوع ، ثمّ عدا نحو دون كيخوته وعانق قدميه وأنشأ يبكي بدموع غزار ويقول : مولاي! أوَلا تعرف من أنا ؟ تأمّل في وجهي جيّداً ، إنني أندريس ذلك المسكين الذي حللتم وثاقه من شجرة السنديان . هنالك تعرّفه دون كيخوته وأمسك بيده وتوجّه الى الحاضرين بهذا الكلام يقول بجد :

ـ من هذا ترون ياسادة أهمية وجود فرسان جوّالة في هذا العالم للإنتصاف من الآثام والذنوب التي يرتكبها الأشرار والأوغاد . ألا فلتعلموا أنه منذ بضعة أيّام كنت أمر بالقرب من هذه الغابة فسمعت صرخات وأنيناً كأنين البائس المتألّم . فأسرعت ، يدفعني الواجب ، الى المكان الذي انبعثت منه هذه الشكاة الأليمة ، فوجدت هذا الفتى مقيّداً في شجرة سنديان ، وهذا أمر تبهج له نفسي كل البهجة ، فهذا شاهد على صدق ماأقول . لقد كان مقيّداً في السنديانة عارياً من الرأس حتّى الوسط وكان ثمة جلف ـ عرفت من بعد أنّه سيّده ـ يمزّق جلده بضربات من سيور فرس . فلمّا شاهدت هذا المنظر سألت ذلك الفلاح عن السبب في هذه المعاملة القاسية الفظيعة . فأجابني الوغد بأنّ هذا الغلام هو خادمه ، وأنّه كان يجلده لأنّ بعض الوان الإهمال التي ارتكبها يشمّ منها رائحة اللصوصية لا الغفلة . هنالك صاح هذا الولد : « سيّدي ، إنّه يجلدني لأنني طلبت منه أجري » . فأجاب سيّده بعبارات جوفاء واعتذارات ، قبلت سماعها دون تصديقها . وأخيراً حللت وثاق الولد المسكين وحملت ذلك الوغد على أن يقسم بأنه سيعود بالغلام الى البيت ويدفع له أجره فلساً فلساً ، بل وبفائدة . أليس الأمر

كذلك يا ولدي أندريس ؟ أما شاهدت كيف كنت آمر سيّدك باستعلاء ، وكيف وعدني بكل تذلّل أن ينفّذ كل ما أمرته به ؟ أجب بلا تردّد ، وارو لهؤلاء السادة كيف جرى الأمر ، حتّى يرى الناس الفائدة من وجود الفرسان الجوّالة على الطرقات العامة ، كما سبق أن قلت .

فقال الغلام : كل ما قاله سيدي هو الحق كل الحقّ ، بيد أن نهاية المسألة قد جرت على عكس ماتتخيّل .

ـ على العكس ؟ كيف هذا ؟ هكذا قال دون كيخوته . هل لم يدفع لك ذلك الوغد ؟

فأجاب الغلام : ليس فقط لم يدفع لي! بل لم تكد ياسيّدي تخرج من الغابة ونبقى وحدنا حتّى أمسكني وقيّدني بشجرة السنديانة ، وانهال عليّ ضرباً بالسيور ، ولم يخلِّ عنّي حتّى سلخني سلخ القدّيس برتلوميو ، وكل ضربة كان يصحبها بنكتة أو سخرية ليهزأ بك ، ولولا الألم في أضلاعي لضحكت أنا أيضاً ما كان يقول . وعلى كل حال فقد تركني على حالٍ اضطررت معه الى ملازمة المستشفى للعلاج مما أصابني به هذا الشرّير ، وكل هذا سببه أنت يا سيّدي ، إذ لو كنت مضيت لسبيلك دون أن تأتي حيث لم يدعك أحد ودون أن تحشر نفسك في شؤون غيرك ، لكان سيدي اكتفى بإثنتي عشرة أو أربعة وعشرين جلدة ، ، ثمّ حلّ وثاقي ودفع لي أجري كلّه ، لكنّك ياسيّدي رحت تشتمه بغير داعٍ وتنهال عليه بالسباب حتّى ثار الغضب في أنفه ، ولمّا كان لم يستطع أن ينتقم لنفسه منك ، فقد انتقم لنفسه في شخصي وانقضّت سحابة غضبه عليّ ، حتّى أنني لن أكون رجلاً طوال حياتي .

فقال دون كيخوته : سبب المصيبة هو أنني تركتكما مبكّراً ولم أنتظر حتّى تنال أجرك . لقد كان عليّ أن أعرف من طول الخبرة ، أنّ النذل لايمكن أن يفي بعهده ، إلاّ إذا كان لا مفرّ له من ذلك . لكنك تذكّر ياأندريس أنني أقسمت أنني سأعود للبحث عنه إذا لم يدفع لك ، وسأعثر عليه حتّى لو اختفى في بطن الحوت .

فقال أندريس : نعم! ولكن هذا لم يفد شيئاً .

فصاح دون كيخوته : سترى الآن إذا كان في هذا فائدة!

وماقال ذلك حتّى نهض مسرعاً ودعا سنشو وأمره بأن يسرج روثينانته وكانت ترعى بينما كان القوم يأكلون . هناك سألت دوروتيه دون كيخوته عمّا أعزم فعله . فقال دون كيخوته إنه عازم على البحث عن هذا الوغد لعقابه جزاء وحشيّته ولإرغامه على دفع أجر أندريس الى آخر مرابطي ، رغم أنف جميع الأوغاد في العالم . لكنّها نبهته الى أنه حسب المنحة التي وعد بها لا يستطيع خوض أية مغامرة قبل تنفيذ المهمّة الخاصة بها ، ودون كيخوته يعلم ذلك تمام العلم لهذا يجب عليه أن يكظم غضبه الى حين رجوعه من مملكتها .

فأجاب دون كيخوته : لك الحق ، وعلى أندريس أن ينتظر حتّى أعود ، كما قلت يا سيّدتي ، بيد أنّي أقسم مرّة أخرى وأعد بشرفي أنني لن يهدأ لي بال حتّى يُنتقم له ويدفع .

فقال أندريس : هذه الأيمان لا تهمّني ، وأودّ خيراً من هذا أن يكون في يدي الآن مايمكّنني من الذهاب الى اشبيلية ، فهذا أفضل عندي من كل أنواع الإنتقام ، فأعطني شيئاً أتبلّغ به إذا كان معكم طعام أو ما أضعه في جيبي ، والله يحرسك أنت وجميع الفرسان الجوّالة وأتمنّى لهم حظّاً سعيداً مثل حظّي معهم .

هنالك أخرج سنشو من خرجه قطعة من الخبز والجبن وقدمهما الى الفتى قائلاً : خذ ياأخي أندريس ، وبهذا ينال كلّ منّا حظّاً من مصيبتك .

فسأله اندريس : وأي شطر ينالك أنت ؟

فأجاب سنشو : إن هذه القطعة من الخبز والجبن التي أعطيتها لك . والله يعلم حاجتي اليها ، إذ يجب أن تعلم يا صديقي أننا سائسي الفرسان الجوّالة معرّضون للجوع والبؤس ولأمور كثيرة أخرى الإحساس بها أقوى من التعبير عنها .

فأخذ أندريس الخبز والجبن . ولم ير أحداً آخر مستعداً لإعطائه شيئاً ، فحنى رأسه وأدار ظهره وأمسك الطريق بيديه كما اعتاد القوم أن يقولوا . غير أنّه قال لدون كيخوته وهو يرحل :

ـ استحلفك بالله أيها الفارس الجوّال إذا لقيتني مرة أخرى فلا تنهض لنجدتي حتّى لو رأيتني أمزّق إرباً إرباً ، بل دعني في محنتي فإنها لن تكون أسوأ مما يصيبني بسبب نجدتك إيّاي ، وإنّي لأدعو الله أن يلعنك أنت وجميع الفرسان الجوّالة في الدنيا .

فهبّ دون كيخوته لعقاب هذا الفتى الوقح ، لكن هذا جرى سريعاً فلم يخطر ببال أحد اللحاق به .

وظلّ فارسنا إذن في مكانه ، والخجل يسربله بسبب حكاية أندريس هذه ، وأمسك الأخرون أنفسهم جهدهم حتّى لا ينطلقوا في الضحك ، كيلا يثيروا حفيظة دون كيخوته .

الفصل الثاني والثلاثون

فيما جرى في الفندق لأفراد كوكبة دون كيخوته

وما انتهت المأدبة الفاخرة حتّى أسرجت الخيول ، وفي الغد وصلت الجماعة الى الفندق ، مثار خوف سنشو پنثا ، دون أن يقع ما يستحقّ الذكر . وودّ سنشو لو لم يدخل الفندق . بيد أنّه لم يكن في وسعه تجنّب ذلك . فصاحب النزل وامرأته وابنتهما وماريتورنس ، وقد شاهدوا دون كيخوته وسنشو ، خرجوا للقائهما وقابلوهما بأعظم مظاهر الحفاوة والسرور . ولكنّ فارسنا تلقّاهم بوجه عابس جادّ وطلب اليهم أن يعدّوا له فراشاً أحسن من الفراش الذي هيأوه له في المرة الأولى . فقالت صاحبة النزل إنه سيجد منامة أمير بشرط أن يدفع الثمن . فوعد دون كيخوته بالدفع ، ونصب له سرير مقبول في نفس العنبر الذي بات فيه المرّة الأولى ، وذهب على الفور لينام لأنه كان محطّم البدن موهون العقل .

ولم يكد يغلق الباب ، حتّى اقتربت صاحبة النزل من الحلاّق ووثبت على وجهه وأمسكت بلحيته بيديها وقالت :

- والله لن تستخدم ذيلي بعد اليوم لحية لك ، وعليك أن تسلّمني إيّاه فوراً . فمنذ أخذته فإنّ أقذار زوجي تزحف على الأرض وإنه لعار ، أقصد المشط الذي كنت أعلّقه على ذيلي .

وراحت صاحبة النزل تشدّ لحيته ، ولكنّه رفض أن يسلّمها اليها . وهنا قال القسّيس للحلاّق إنه يستطيع الآن رد هذا الذيل ، فما ثمّ حاجة بعد الى الاستمرار في هذه الحيلة ويمكنه أن يظهر في مظهره العادي . وقال :

ستقول لدون كيخوته أنه بعد أن سلبك المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة هربت ولجأت الى هذا الفندق وإذا سأل عمّا جرى لسائس الأميرة فسيقال له أنها أمرته بأن يسبقهم ليعلن للناس في مملكتها أنها عائدة بصحبة من سيحرّرها ويحرّرهم .

هنالك أعاد الحلاّق الذيل الى صاحبة النزل وأعيدت اليها كل الخرق وأدوات الزينة التي أعارتها إيّاهم لإنقاذ دون كيخوته .

وأخذ جمال دوروتيه وحسن طلعة الراعي كردنيو بألباب كل من في النزل . وطلب القسّيس إعداد عشاء حسبما وجد في النزل ، وقدّم لهم صاحب الفندق طعاماً بالفندق ، طعاماً لابأس به ، على أمل أن يدفع له بسخاء . بيد أنّ دون كيخوته استمرّ يغط في نومه ، واستقرّ الرأي على عدم إيقاظه ، فالسرير كان أنفع له من المائدة . وفي أثناء العشاء كان الكلّ : صاحب النزل وزوجته وابنته وماريتورنس وجميع النزلاء يستمعون الى قصّة جنون دون كيخوته المسكين والحال التي وجدوه عليها في الجبل . وروت صاحبة النزل ماحدث له مع صاحب البغال ، وروت كذلك حكاية تقليب سنشو مما أثار المرح في جميع الحاضرين ولم يكن سنشو فيهم . وبهذه المناسبة قال القسّيس إن كتب الفروسيّة التي قرأها دون كيخوته هي التي أوقعت الخبال في عقله ، فصاح صاحب النزل :

ـ لست أدري كيف وقع هذا ، أمّا عن نفسي فالحقّ أقول إنني لاأعرف قراءة ألذ من قراءة هذه الكتب . وعندي هناك إثنان أو ثلاثة كتب منها هي التي أعادت اليّ الحياة مراراً ، كما أعادت الحياة الى كثيرين غيري . ففي أيّام الحصاد يتجمّع هنا عدد كبير من الحصّادين في أيّام الأعياد ، ومن بينهم دائماً شخص يحسن القراءة ، فيتناول واحداً من هذه الكتب ونتحلق نحن أكثر من ثلاثين شخصاً حوله ، ونصغي اليه بلذّة بالغة تنتزع منّا آلاف الشعرات البيض . وعلى الأقل بالنسبة الى نفسي أقول إني حين أستمع الى رواية هذه الضربات الرهيبة العنيفة من السيوف التي يتبادلها الفرسان ، تتملّكني رغبة شديدة في أن أكيل مثلها وأودّ أن أستمع اليها طوال الأيّام والليالي .

فقالت صاحبة النزل : وأنا أيضاً ، فليس ثمّ من وقت لذيذ أقضيه في النزل إلا ذلك الوقت الذي تمضيه أنت في الإستماع ، لأنك تكون حينئذ مستغرقاً بكل نفسك بحيث لاتتذكّر أن تنتهرني .

وقالت ماريتورنس : هذا حقّ والله! إنني ألذّ جداً من سماع هذه الأشياء خصوصاً حين يحكى أنّ السيدة تقف تحت أشجار البرتقال تقبّل حبيبها كما تهوى ، بينما تتولّى حراستهما قهرمانة تموت حسداً ويملؤها الفزع . كل هذا شهي حلو كالعسل .

فقال القسّيس موجّهاً الخطاب الى بنت صاحب النزل : وما رأيك أنت يا آنستي الجميلة ؟

فأجابت : وحق نفسي يا سيّدي لا أدري . ولكن أستمع ، شأني شأن غيري ، ورغم أنّي لا أفهم فإنه يلذّ لي السماع . بيد أنّي لاأسرّ للضربات كوالديّ ، بل تطربني الشكاية والأنين

اللذان يصدران من الفرسان حينما يكونون بعيدين عن حبيباتهم ، وأحياناً أذرف الدموع عطفاً عليهم .

فقالت دوروتيه : وإذن لو كانت دموعهم من أجلك فإنك لا تدعينهم يطيلون الشكاة ؟

فأجابت الفتاة : لست أدري ماأنا فاعلة إذن ، لكنّي أعلم جيّداً أن من بين هؤلاء المحبوبات من هنّ من القسوة بحيث ينعتهم الفرسان بأنهنّ قساة كالنمرة والفهود ، ونعوت سيّئة أخرى . أي يسوع! ماهذا النوع من البشر عديمي الروح والضمير ، حتّى يدعوا الرجل الفاضل يموت أو يجن ولايمنحونه نظرة! ولاأدري لماذا كل هذا التعقيد : إن كنّ يفعلن ذلك لحكمة ، فلماذا لايتزوّجن بهم لأنّ هؤلاء لا يريدون شيئاً غير ذلك .

فقالت ربّة النزل : اخرسي يا بنيّتي . ليقال إنّك تعرفين الشيء الكثير عن هذا الموضوع ، ولا يخلق بمن في سنّك أن تعرف هذا كلّه وتثرثر كل هذه الثرثرة .

فأجابت البنت : مادام هذا السيّد يسألني فعليّ أن أجيب .

فقال القسّيس : والآن أرني هذه الكتب يا صاحب النزل فإنّي أودّ أن أراها .

فأجاب هذا قائلاً : عن طيب خاطر! ـ ثمّ ذهب الى غرفته وعاد منها بخزانة قديمة مغلقة بقفل ، ثمّ فتحها وأخرج منها ثلاث مجلّدات ضخمة ، أخذها القسّيس ووجد أوّلها هو : « دون ثيرونخيلو التراقي »[1] والثاني : « فليكسمارتي الهركاني »[2] والثالث : « قصّة القائد العظيم غنصالبه هرناندث القرطبي مع حياة دييجو غرسيه من باريدس »[3] . وبعد أن قرأ القسّيس عنوان القصّتين الأوّليين ، توجّه الى الحلاّق قائلاً :

ـ زميلي ، إنّ قهرمانة صديقنا وبنت أخيه ينقصاننا الآن!

فأجاب الحلاّق : لا! إنني أيضاً أستطيع حملها الى الفناء ، أو رميها في المدخنة ، ففيها نار متّقدة .

فصاح صاحب النزل : هل تريد فضيلتك إحراق كتبي ؟

فقال القسّيس : هذين فقط : « دون ثيرونخيلو » و « فليكسمارتي » .

فقال صاحب النزل : ماذا ؟ هل كتبي فيها هرطقة أو « سندقة » حتّى تريد إحراقها ؟

فقاطعه الحلاّق قائلاً : « زندقة » لا « سندقة » .

---

(١) تأليف برنردو دي برجاس ، أشبيلية سنة ١٥٤٥ .

(٢) ذكرناه من قبل .

(٣) طبعت في سرقسطة سنة ١٥٥٩ بدون اسم المؤلّف . وغنصالبه القرطبي بطل روائي مشهور . أمّا دييجو غرسيه من باريدس فكان مغامراً صعلوكاً تقلّب في عدّة أحوال ، فكان جنديّاً لدى البابا ، وقرصاناً ، وقائداً اسبانيّاً(في القرن السادس عشر الميلادي) .

فقال صاحب النزل : كما تريد نطقها ، ولكن إذا شئت إحراقها فلا تحرق منها إلاّ قصّة ذلك القائد دييجو غرسيه ، أمّا الآخران فإنني أفضّل أن تحرق زوجي وأولادي ولا يُحرقا .

فأجاب القسّيس : يا أخي! هذان الكتابان قصّتان كاذبتان مليئتان بالحماقات والتهاويل ، أمّا الأوّل فهو على العكس تاريخ حقيقي ، يتحدّث عن مغامرات غنصالبه القرطبي الذي استحقّ بجلائل أعماله الكثيرة أن يلقّب في الدنيا كلّها بلقب «القائد العظيم» وهو لقب لامع واضح استحقّه هو وحده . أمّا دييجو غرسيه من باريدس فكان فارساً نبيلاً ، أصله من تروجّاله Trujillo في استرمدورا ، وكان محارباً صلب العود شديدالأسر ، حتّى أنّه كان يستطيع بإصبعه أن يوقف عجلة طاحونة تدور بمنتهى الشدّة والسرعة . وحدث ذات يوم أن وقف عند مدخل جسر وفي يديه سيف ذو مقبضين فمنع مرور جيش عرمرم . وكان له من المغامرات مالو ترك غيره يصفها بحرّية بدلاً من أن يصفها هو بتواضع الفارس الذي يروي مغامراته بنفسه ، إذن لأنست هذه المغامرات مغامرات هكتور وآخيلوس ورولان .

فصاح صاحب النزل : ستعطيني إيّاه إذن! إن وقف عجلة طاحونة أمر يدعو الى أشد العجب . فمن فضلك إذن دعني أقرأ الآن ماسمعته عن فليكسمارتي الهوركاني الذي كان بضربة واحدة من ظهر كفّه يشق أبدان خمسة مردة من أوساطها ، وكأنها من لحم اللفت ، أوكصغار الرهبان الذين يصنعهم الأطفال . وذات مرّة هاجم بمفرده جيشاً عظيماً قويّاً مؤلفاً من مليون وستمائة ألف جندي كلّهم شاهر السلاح ، ورغم ذلك مزّقهم جميعاً إرباً إرباً كأنهم قطيع من الضأن . وماذا تقول عن ذلك الشجاع ثيرونخيلو التراقي : لقد كان جسوراً متهوّراً كما سترى في قصّته هذه التي تروي أنّه ذات يوم كان يركب زورقاً في نهر وإذا بتنّين من نار ينبثق فجأة من الماء ، ولم يكد يراه حتّى وثب ثيرونخيليو عليه وامتطى على أكتافه الصدفية وبجمع يديه خنقه من حلقه . فلمّا رأى التنّين أنّه كاد يُخنق عوّل على الغوص في أعماق النهر حاملاً هذا الفارس الذي أبى أن يتركه! فلمّا وصلا الى القاع وجد الفارس نفسه في قصر فخم وسط جنّات رائعة الجمال ، ثمّ تحوّل التنّين الى شيخ وقور راح يقول له أشياء جميلة . هيّا يا سيّدي ، لو شئت قراءة هذا كلّه ، لجننت من اللذّة ، وتينتين[1] لهذا القائد العظيم الذي تقول عنه ، ولد بيجو غرسيه .

ولمّا سمعت دوروتيه هذا الحديث البليغ انحنت الى كردنيو وقالت له بصوت خفيض : لم يبق إلاّ قليل ويصبح صاحب النزل قريناً لدون كيخوته .

---

(١) تعبير للتحقير مثل قولنا في اللغة الدارجة : طز في...

فأجاب كردنيو : هذا مايبدو لي! إذ يظهر من كلامه أنّه يؤمن كل الإيمان بأنّ كل ماتقوله كتبه هذه قد وقع فعلاً بحذافيره ، وأنا أتحدّى جميع الرهبان الحفاة أن يقنعوه بخلاف هذا .

وفي تلك الأثناء قال القسّيس : لكن حذار ياأخي! إنه لم يوجد في الدنيا أبداً فليكسمارتيه الهوركاني هذا ولاتشيرونخيليو التراقي ، ولافرسان من النوع الذي تصفه كتب الفروسيّة . وماهذا كلّه إلاّ كذب واختلاق ، إن هي إلاّ أساطير اخترعها قومٌ متعطّلون وكتبوها للغرض الذي ذكرته أي لإزجاء الفراغ كما يزجيه الحصّادون عندكم ، وأقسم لك أنه لم يوجد أبداً أمثال هؤلاء الفرسان وأنهم لم يقوموا بهذه المغامرات ولا تلك التهاويل .

فصاح صاحب النزل : قل هذا لغيري! وابحث عن كلب آخر ليعرق عظامك : أو لاأعلم أين يوجعني الحذاء ، أو كم عدد الأصابع في يدي ؟ لاتفكّر في أن تجعلني أبتلع هذه الشربة ، فوالله لست مغفّلاً . أوتريد منّي أن أعتقد أن كل ماورد في هذه الكتب المكتوبة بحروف مصبوبة ليس إلاّ تهويلاً وكذباً ، مع أنها طبعت برخصة وإذن من أعضاء المجلس الملكي ؟! وكأنّ هؤلاء يمكن أن يسمحوا بطبع هذه العشرات من الأكاذيب عن معارك وألوان من السحر يطير لها صواب الإنسان ؟

فردّ القسّ قائلاً : لكنّي قلت لك ياعزيزي إنّ هذا كلّه إنما كتب لتزجية أوقات الفراغ ، وكما يسمح في الدول المنظّمة بممارسة ألعاب الشطرنج وسعف النخل وكرة المنضدة (البلياردو) لشغل فراغ من لايريدون أو لا يستطيعون أو لا ينبغي لهم أن يشتغلوا ، كذلك يسمح بطبع وتداول أمثال هذه الكتب ، على افتراض أنه لا يوجد امرؤ هو من البلاهة والجهل بحيث يعتقد أنّ الحكايات الواردة بها هي حكايات صحيحة وحقائق . ولو كانت لديّ اليوم فسحة من الوقت وأمامي جمهور ملائم ، إذن لقلت عن قصص الفروسيّة وماينقصها لتكون جيّدة صالحة أشياء لعلّها أن تجعلها ليست خلواً من الفائدة بل والمتعة ، لكنّي أرجو أن تتاح لي الفرصة للتفاهم مع أولئك الذين يستطيعون أن يقوّموها . وحتّى ذلك الحين ، ياسيّدي صاحب النزل ، صدّق ماقلته لك ، استعد كتبك ، وهيّئ أمورك مع حقائقها أو أكاذيبها ، ولتعد عليك بالنفع ، والله يعصمك من أن تعرج قدم ضيفك دون كيخوته .

فأجاب صاحب النزل : أمّا هذا فكلاّ! لن يبلغ بي الجنون حدّاً يجعلني فارساً جوّالاً ، وإنّي لأدرك جيّداً أن الأمور لاتجري اليوم كما كانت تجري في الأزمان حينما كان هؤلاء الفرسان المشهورون يجولون في أنحاء الأرض ، كما يقال .

وكان سنشو حاضراً القسم الأخير من هذا الحديث ، وظلّ ساهماً يفكرّ فيما سمعه من أنّ الفرسان الجوّالة لم يعد اليوم لهم شأن ، وأنّ جميع قصص الفروسيّة أباطيل وحماقات .

لهذا رأى وقرّر في نفسه ألا ينتظر غير نهاية سيّده الحالية ، فإن لم تكن خاتمتها كما تخيّل فإنه سيرجع الى زوجه وأولاده ليستأنف معهم أعماله العادية .

وأخذ صاحب النزل كتبه وخزانته . بيد أنّ القسّ خاطبه قائلاً :

ـ انتظر قليلاً ، أود أن أشاهد ما في هذه الأوراق المكتوبة بخط جميل .

فاستخرجها صاحب النزل من الخزانة وقدّمها للقسّيس ليقرأها فوجد هذا أنّها تؤلّف كراسة من ثماني ورقات مخطوطة ، وعلى الصفحة الأولى كتب بحروف كبيرة العنوان التالي : « قصة الفضولي » . فقرأ ثلاثة أو أربعة أسطر منها بصوت هامس ، ثمّ صاح :

ـ إنّ عنوان هذه القصّة يغريني ، وأودّ قراءتها كاملةً .

فأجابه صاحب النزل : أحسنت ياصاحب الفضيلة ، إذ ينبغي أن تعلم أن بعض ضيوفي قرأوها فأعجبوا بها وألحّوا عليّ فوراً في طلبها ، ولكنّني لم أشأ أبداً إعطاءها لأحد ، لأنّي أود ردها الى من نسيها عندي . هنا هذه الخزانة ومافيها من كتب وأوراق . ومن الممكن أن يعود صاحبها ذات يوم فأردها اليه لأنني وإن كنت صاحب نزل فإنني مع ذلك مسيحي تقي ، ورغم أن الكتب هنا تعوزني .

فقال القسّ : أنت على حق يا عزيزي ، لكن إذا أعجبتني القصّة هل تسمح لي باستنساخها ؟

فأجاب صاحب الفندق : نعم طبعاً!

وخلال هذا الحديث كان كردنيو قد تناول القصّة وشرع يقرأ بعض عبارات منها ، وكان رأيه كرأي القسيس فرجاه أن يقرأ بصوتٍ عالٍ حتّى يسمعها الجميع . فقال القسّيس : « كنت لأقرأها عن طيب خاطر إن لم يكن من الأفضل صرف الوقت في النوم لا في القراءة » .

فقالت دوروتيه : إنه لمريح أن يمضي الإنسان ساعة أو ساعتين في الإستماع الى قصة . لأني لا أشعر بهدوء كافٍ كي أنام حسبما أريد .

فقال القس : إذا كان الأمر هكذا ، فإنّي أريد أن أقرأ ، ولو من باب حب الاستطلاع ، وأرجو ألا يخيب رجاؤونا فيها فيكون فيها مايبهج الخاطر . وكذلك قام الأسطى نقولا وحتّى سنشو نفسه فوجها اليه نفس الرجاء . فرأى القسّيس أن الأمر مما يبهج الجميع ولن يضيّع جهده سدى فقال : إذن أعيروني أسماعكم : هكذا تبدأ القصّة :

(تم الجزء الأول ويتلوه الجزء الثاني ويبدأ بالفصل الثالث والثلاثين)

فهرس الكتاب

أعمال
خالدة
١

ثربانتس

أعمال خالدة ١

دون كيخوته تجسُّد للمثال ، وللقيم المجردة ، إنه الجانب المثالي من الوجود ، الذي يصرعه الجانب الواقعي ، ويظل الصراع بين كلا الجانبين مشتعلاً ، لا ينفكُّ في عنفه، انتصار الواقع على المثال باستمرار ، ومن هنا كان هذا الديالكتيك الحيّ الذي يمثل طرفيه كل من الفارس دون كيخوته وحامل السلاح سنشو بنثا . ولهذا كانت قصة «دون كيخوته» هي قصة الوجود نفسه بقطبيه المتنافرين المتعارضين المتنازعين ، ومن نزاعهما يتألف ديالكتيك الوجود ، وكانت شخصية دون كيخوته من النماذج الانسانية العليا ، الى جانب بروميثيوس ، وفاوست ، وهاملت ، ودون جوان . إن دون كيخوته يمثل روح الانسان ، أما رفيقه سنشو بنثا فيمثل بدن الإنسان ، هذا الرفيق الأصيل للروح .

ISBN => 2-84305-[illegible]
EAN => [illegible]